نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

عربيات

حضارة ولغة

نقولا زيادة
عربيات
حضارة ولغة
19

عربيـات

حضارة ولغة

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

عربيات

حضارة ولغة

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

المدخل ٩

القسم الأول : سنوحي ورحلته الشامية أقدم رحلة مدونة ١٧

المقدمة ١٩

مذكرات سنوحي ٢٥

القسم الثاني: الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام ٣٣

البلاد والسكان ـ دول جنوب الجزيرة ٣٥

دول شمال الجزيرة ٤٠

الحياة الإقتصادية في جنوب الجزيرة ٤٥

الجزيرة العربية في العصور الإسلامية الأولى ٤٨

القسم الثالث: جزيرة العرب في تطورها الأول ٥٥

جزيرة العرب وبحارها ٥٧

أصوات من الماضي البعيد ٦٣

بلاد البخور ٦٩

من نيارخوس إلى هيبالوس ٧٥

الزراعة والري في جنوب الجزيرة ٨٠

بعض المدن القديمة ٨٤

من الصناعات القديمة في الجزيرة ٨٩

من مراكز العلم والأدب ٩٣

الأنباط في كتابات الغربيين ١٠٣

بلاط زنوبيا ملكة تدمر ١٠٦

القسم الرابع: في عالم الإدارة والناس ١٠٩

المراكز الإدارية والعسكرية في بلاد الشام في العصرالأموي ١١١

نقلة الدولة من الأمويين إلى العباسيين ١٢٣

الأسواق الإسلامية ١٤٧

الساحل الشرقي للجزيرة في القرن الرابع الهجري ١٥٢

القسم الخامس: في دنيا التجارة ١٦٣
تجارة شمال الجزيرة العربية مع بلاد الشام فى العصر الأموي ١٦٥
تجارة بلاد الشام الخارجية ١٣٢ ـ ٤٥١ هـ ١٨٤
النواحي الاقتصادية في الحروب الصليبية ٢٠٩
الحياة الاقتصادية في المشرق العربي في العصرالعثماني ٢١٩
عمان: تجارتها وأسواقها القديمة ـ ١ .... ٢٢٣
عُمان :تجارتها وأسواقها القديمة ـ ٢ .... ٢٢٩
البدو والمستقرون في سوريا والأردن ١٨٠٠ ـ ١٩٨٠ .... ٢٣٧
القسم السادس : اللغة العربية في قفزاتها التاريخية ٢٥٥
عالم اللغات السامية ٢٥٧
حول أدب اللغات السامية ٢٦٣
تجربة العرب الشعرية في الجاهلية ٢٦٩
العربية لغة الوحي ٢٧٤
اللغة العربية والترجمة ٢٧٨
انتشار اللغة العربية جغرافيًا ٢٨٣
النثر العلمي يتم نضجه ٢٨٧
الشعر العربي يتجمل ويتعمق ٢٩٢
النثر العربي ينتهي بالمقامات ٢٩٧
العربية في المعجم والموسوعة ٣٠٣
شجرة الاداب الإسلامية ٣٠٨
الخاتمة ٣١٧
ببليوغرفيا البحث ٣٢١
الخرائط ٣٢٣

مدخل

يطالع قارىء هذا المجلد، في صفحاته الأولى، فصل عن سنوخي وبلاد الشام مبني على ما يصح أن يسمى، من الناحية الفنية، وثيقة. والوثيقة، في عرف الذين خبروا من التاريخ خيره وشره، من الممكن أن تكون نقشًا على عمود (عمود تراجان في رومه) أو على صخر (صخر بهستون على مقربة من برسيبوليس في ايران) أو على جدار معبد (الدير البحري في الأقصر). في هذه الحالات، ومثلها كثير بحيث انه يتجاوز المئات، الى الآلاف، يتم النقش بناء على أمر من صاحب السلطان، فيشار الى المعارك التي انتصر فيها والى الانجازات التي تمت في عهده، وتنسب اليه شخصيًا، وقد يشار الى بعض الأعوان والمساعدين اشارة تفضل. لكن مثل هذه الوثائق/ النقوش لا يرد فيها ذكر انكسار في معركة أو فشل في مشروع. فولي الأمر أربأ بنفسه من أن يشير الى مثل هذه الهنات.

على أن الوثائق لم تقف عند النقوش، بل تعدتها الى كتابات يدونها أصحابها ونرثها نحن. لا ريب في أن بعض هذه الكتابات تتناول أيضًا نواحي النجاح، لعل بعضها ينفخ فيه فيكون إشارة الى العظمة. وقد تبدو بعض هذه مصطنعة فيبين زيفها. ولكن لم يكن جميع الذين خلفوا لنا وثائق مكتوبة من هذا النوع، ذلك بأن الصحة والزيف والصدق والكذب أمور مرتبطة بالباعث على تدوين هذه البرديات أو الكدغدات أو الأوراق .

والوثيقة التي اتخذت أساسًا للفصل الخاص بسنوحي وبلاد الشام وثيقة غريبة في أصلها وأمرها، على نحو ما توصل اليه الباحثون، فهي أولاً تشير الى حادثة وقعت في القرن العشرين قبل الميلاد. وصاحب الحادثة والوثيقة هو أمير مصري (سنوحي) فرّ من بلاده عقيب انقلاب سياسي، وقضى سنوات طويلة في مكان ما من أواسط بلاد الشام. ولما آن له أن يعود إلى بلده كتب قصته ــ لماذا هرب، وماذا لقي في منفاه وما الى ذلك، وكان قصده ان يقول للملكَ/ الفرعون انه لما هرب لم يفعل ذلك لأنه كان صاحب دور في الانقلاب، بل انه فعل ذلك نتيجة لخوف ملك عليه لبه، وهلع ملأ قلبه، فهام على وجهه، وفي هذه الوثيقة يتحدث سنوحي عن الخير الذي أصابه في منفاه، والمنزلة التي بلغها هناك.

يبدو من هذا كأن الوثيقة «اعتذارية الروح» وإذن فهي من المصادر التي ينظر

اليها بالشك والريبة، إلاّ ان قراءة هذه الوثيقة (مترجمة الى الانكليزية بالنسبة لي) تشعرك بأن الصدق والإخلاص ينعمان فيها بمنزلة كبيرة وقسط وافٍ. ومن هنا فإن الباحثين قبلوها قبولاً حسناً.

وعلى كل فلو فرضنا ان القسم المتعلق منها بالهرب، اعتذاري بالنسبة لسنوحي، فإن ما يتعلق بوصف اقامته في بلاد الشام وما كان يحدث هناك، إنما هو وثيقة اقتصادية اجتماعية أكثر منها سياسية!.

(٢)

آمل أن يكون القارىء قد استمتع بقصة سنوحي وتدوين اخبارها، وعندها ننتقل الى ما تبقى من الكتاب، وهو كثير.

وفصول الكتاب تدور حول محاور ثلاثة: أولها جزيرة العرب وما دفعت به الى الخارج وما انطوت عليه مما عرفته وولدته ومما دخلها، وثاني هذه المحاور هو القسم المتعلق بالناس إدارة واجتماعًا واقتصادًا، والمحور الثالث يحتضن اللغة العربية في فقراتها التاريخية.

وإذا نحن توقفنا عند القسم/ المحور الأول، الذي يتناول الجزيرة العربية من حيث تطورها الداخلي واتصالاتها الخارجية، وتأثرها وتأثيرها، وجدنا اننا عالجنا أمورًا ذات أهمية. فهناك وصف لتضاريس الجزيرة العربية، وهو مقتضب لأن المقصود منه إعداد المسرح كي يؤدي الممثلون ـ عبر التاريخ ـ أدوارهم هناك، والوصف جغرافي، ليس فيه إلاّ إشارات عابرة لما يمكن ان يسمى جيولوجية الجزيرة. وقد تجنبت هذا الأمر لا لأنني أنكر أهمية التعرف الى ما يكمن تحت السطح الجغرافي من عناصر أساسية، بل لأنني كنت أريد أن أضع بين يدي القارىء (لما كتبت هذه الفصول قبل بعض الوقت) ما ييسر له متابعة الحديث عن دول قامت في الجزيرة، في الجنوب والشمال وعن حضارات قامت في المنطقتين وفي أواسط الجزيرة ثم درست، وعن مراكز تجارية كانت منتجعات للقوافل والتجار، بيعًا وشراء ومفاخرة ومنافرة، وأدبًا وخطابة، وكانت لها مواسمها الكبيرة والصغيرة، أي الدولية والمحلية.

وكان القصد من هذه الفصول إلقاء نظرة سريعة ـ أملاً في ان تكون مفيدة ـ على أمور خارجية وداخلية كان لها في تطور البلاد ـ تجارة وزراعة ونظمًا وأدبًا ـ نصيب ذو أهمية، مهما كانت هذه الأهمية. ومن هنا وضعنا فصلاً عن هيبالوس واكتشافه لهبوب الرياح الموسمية. إن التعرف الى مواعيد هبوب هذه الرياح من مناطق جنوب الجزيرة العربية وجوارها الى الهند شتاء ثم هبوبها المعاكس في فصل آخر، كان له أثر «ثوري» في تطوير التجارة بين هاتين المنطقتين. فبعد ان كان ربان السفينة ينتقل من موانىء الخليج العربي أو جنوب الجزيرة في محاذاة للشاطئ كي

يظل في حمى البر، أصبح بعد اكتشاف مهاب الرياح الموسمية ومواعيدها، يقود سفينته من عش الغراب أو عدن أو من القرن الافريقي في خط يكاد يكون مستقيمًا عبر المحيط الى موانىء الهند الغربية.

فضلاً عن ذلك فإنه كان يعرف الوقت الذي يجب ان يصرفه في الهند قبل ان يعود مع الرياح نفسها عندما تهب في مصلحته. ومن ثم فقد اصبح بإمكان التاجر ان يتدبر أمر تجارته بشيء من التنظيم الزماني والمكاني. ولسنا نشك في أن هذه الأيام التي كان التاجر يقضيها في بلاد أخرى كان لها أثر في نقل الكثير من نواحي الحضارة والثقافة من مكان الى آخر، بقطع النظر عن نوع ما ينقله ـ أسطورة أو خرافة أو قصة أو حكاية أو نوعًا من البذور أو نمطًا من أنماط العيش أو شكلاً من أشكال اللباس.

ونحن نعرف، مثلاً، ان التجار المسلمين الذين درجوا على استعمال هذه الدروب البحرية بعد الاسلام، كان لهم أثر في نشر الإسلام بين سكان المدن التي يتاجرون معهم، وذلك بفضل المجاورة والمعاشرة وإعطاء المثل الحي لتصرف المسلم.

حاولنا جهدنا يومها ان نستنطق الآثار، متنصّتين على الأصوات الواصلة إلينا من الماضي البعيد، لعلنا نتمكن من رسم صورة لما كان هناك. وأرجو ان لا يسرع أحد فيلومني لأنني لم أشر إلى الاكتشافات الأثرية التي تمت حديثًا في تلك البلاد. فالواقع ان مثل هذه الاكتشافات لم تكن قد بدت للعيان واضحة كما هي الآن. فحفريات الفاو (التي تمت على يد عالم الآثار السعودي الطيب الانصاري) كانت بعد في أولها. وما تم من حفر في اليمن وقراءة للنصوص اليمنية القديمة لم تكن قد انتهى بها الأمر الى ان تصل الى ايدينا بشكلها المعروف اليوم.

الى هذا فهناك، على ما يقول الدكتور عبد الرحمن، بن محمد الطيب الانصاري حضارات قامت في بلاد العرب.

وحري بالذكر ان سنة ١٩٩٢ شهدت مشادة «علمية» بين مكتشفي مدينة قالوا انها «وبار» أو «عُبر» أو «أوفير» ثم جربوا ان يساووا بينها وبين أرم ذات العماد من جهة، وبين الاستاذ الدكتور الانصاري من جهة ثانية. فقد أنكر عليهم هذه المحاولة وقال:«... ان المقصود بربط الموقع المكتشف بوبار وبارم ذات العماد الذي جاء ذكرها في القرآن الكريم دغدغة عواطف العرب والمسلمين. كذلك فإن الإصرار على تسمية الموقع باسم عُبَر أو أوفير يربطه بالتوراة ويقود الى جملة تناقضات، فهناك خلاف بين مؤرخي التوراة [بخصوص أوفير] الذي يستند كل واحد منهم على تسميات مختلفة، فيعتبرونها مرة في الهند ومرة في الجزيرة العربية وأخرى في افريقيا.

ومثل هذه المشادات العلمية حول الكثير من الأماكن الأثرية في بلاد العرب كثيرة الحدود وطويلة الامد، وقلما تنتهي الى أمر أكيد، نحن نعرف هذه الأمور اليوم، لكن

الفصول الواردة في هذا المجلد كتبت من قبل.

وحَسبنا ان الحديث عن الذي تمّ في ديار العرب وجوارها لا يتم من دون التوقف عند بوابتين مهمتين للجزيرة: البتراء وتدمر، فأوليناهما بعض ما تستحقان، ولو اننا لم نتوقف عند التاريخ، بل سمحنا لأنفسنا ان تكون لنا شطحات وهبات نسيم لعلها كانت تنعش ولا تؤذي!.

ونحن لما تحدثنا عن الجزيرة في العصور الاسلامية الأولى كنا نرمى الى تذكير القراء بالأحداث التي مرت على سكان الجزيرة خلال تلك الفترة وإلى التبدل والتطور اللذين أصابا الناس في حياتهم بسبب دخولهم في الإسلام، وما أفاءه عليهم بسبب ذلك.

ولا شك في ان هذا الذي خبره القوم وعرفوه بسبب الإسلام هو الذي دفع بهم الى الخروج الى الفضاء الأوسع، وبذلك تمكنوا من إنشاء حضارة عالمية طبعت المجتمع الذي عاصرها والمجتمعات التي تلت ذلك في الشرق والغرب بطابعها الخاص.

لكن هذه ستكون مادة في مجال آخر.

(٣)

يلف المحور الثاني الناس في حياتهم وإدارتهم وأسواقهم وطرق تجارتهم. وقد كانت «عاصمة» الأمويين أثناء حكمهم موضوع دراسة انتهت بأن كانت بحثًا عن المراكز الإدارية والعسكرية في بلاد الشام في أيامهم. والذي خلصنا اليه هو ان خلفاء بني أمة مع أنهم لم ينكروا على دمشق ان تكون «قصر الخلافة»، فإنها لم تكن دومًا «مقر الحكم». ذلك بأن هؤلاء الحكام كانت لهم أمزجة خاصة ومشاريع متميزة. فعبد الملك ابن مروان، مثلاً، كان في تخطيطه، لا في نيته فحسب،ان يتخذ القدس «دار حكم» على ما يبدو مما اكتشف من آثار الأبينة التي شادها أو بدأ ببنائها في المدينة المقدسة. لكنه أدرك ان دمشق الى تفرعات الحكم والإدارة أقرب، وبالأقطار أيسر اتصالاً. وسليمان ابنه، بنى الرملة في فلسطين أثناء ولايته جند فلسطين، ومع اننا لا نملك ما يدل على انه أراد نقل «الحكم وآلته» إليها، فإنه كان يقضي فيها الكثير من أوقاته. والرملة كانت على طريق الشمال ـ مصر الرئيسي فكان لسليمان بعض العذر الرسمي، إذا اقتضى الأمر.

وكان لآخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، هوى في جزيرة ابن عمر، فاتخذ من المنطقة مكانًا يحاول ان يدير أمور الخلافة؛ منه ولعل وجوده في هذا الموضع، الذي كان أبعد عن مراكز الدعوة العباسية في خراسان من دمشق (لا أقصد البعد على الخارطة، وإنما أقصد وسائل الاتصال والمواصلات)، كان له أثر في أنه خسر الجولة مع الأعلام السوداء القادمة من الشرق!

على كل ظلت دمشق عاصمة الخلافة، فقد اختارها معاوية (ولو هو الآخر تنقل) وزينها الوليد بالجامع الذي أصبح رمز الخلافة والحكم، ولم يكن من اليسير نقل العاصمة الى مكان آخر. إنما الذي كان يمكن ان ينتقل مع صاحب السلطان آلات الحكم وأدواته.

ولم تطل مدة الأمويين فانتقلت السلطة ـ ومعها الخلافة والحكم ووسائلهما ـ الى العراق، واستقرت هناك في بغداد. وفي الفصل الذي عقدناه عن نقلة الخلافة تعرضنا الى العوامل التي أدت الى ذلك، والى جغرافية انتقال السلطة، والعناصر التي كان لها دور في ذلك. ولسنا نريد ان نلخص هنا ما فصلنا هناك، ولكننا نود ان نلفت القارىء الى هذا الفصل لما فيه من جدة ونشاط. والفصل القصير الذي يتبعه (الأسواق الإسلامية) هو تعبير عن الطمأنينة التي شعر بها الناس فتنقلوا حاملين المتاجر والسلع، عارضين لها في الخانات والأسواق، مطمئنين الى سهر الدولة على مصالحهم عبر المحتسب وأعوانه. وفي هذا الفصل صور لحياة الأسواق عامة، ولو اننا نعرض في فصل تالٍ الى أسواق عُمان، لنبين نوعًا آخر من التعامل الاقتصادي في قطر عربي ناءٍ وفي زمن لاحق.

في حديث عن شرق الجزيرة العربية في القرن الرابع الهجري نموذج عما يمكن ان نستفيد من العودة الى الجغرافيين العرب وقراءة مؤلفاتهم قراءة جدية بكثير من الصبر. والجغرافي العربي هو، في غالب الحالات، مزيج من الجغرافي العادي (الذي يعتمد وصف اقليم بكامله) والرحالة الذي يسير والعين منه مفتوحة والأذن منتصبة وأرنبة الأنف جاهزة، فهو يرى ويسمع ويشم، فيخرج من ذلك بوصف دقيق، شائق غالبًا؛ هذا الى الدقة العلمية التي انتزعها من معرفة بالجغرافية الفلكية وأخبار الأسفار والطرق التي نقلها عن الآخرين. من هنا استطعنا ان نتعرف الى خير تلك المنطقة في مجال التجارة وبعض الزراعة والغوص على ما في البحر من صدفات!.

ولأننا تعمدنا ان يكون في الكتاب تخيّر في فصوله، فقد تحدثنا عن البدو والمستقرين في سورية والأردن. وكان الحديث يتناول البدو واستقرارهم (وعلاقتهم بالمستقرين أصلاً) في الفترة الحديثة؛ والذين قرأوا الفصول المتعلقة بهؤلاء الناس في كتابنا «شاميات» على ما كانوا عليه في العصور الماضية، يمكنهم ان يلمحوا التطور الذي أصابهم خلال فترة تقرب من ١٥٠٠ سنة! وكان هذا بسبب ما أصاب المنطقة بأجملها من تطور اقتصادي واجتماعي وسياسي وثقافي. ثم للمرء ان يتساءل الى أي حد تأثرت هذه الجماعات البدوية ـ بدو السهوب وبدو الجبل ـ بهذا الذي تم حولهم!.

دنيا التجارة كانت دومًا أمرًا يثير اهتمامي ـ من حيث تطورها أولاً وتأثيرها في حياة البشر. ومن هنا كانت هذه العناية بتجارة بلاد الشام مع شمال الجزيرة العربية في العصر الأموي؛ ذلك بأن القضية اقتضت درس السلع والطرق والقوافل وتنظيمها، وموارد السلع الخارجية. وهنا كان لا بد من الحديث، ثانية عن قصور الأمويين في

بادية الشام.

أما تجارة بلاد الشام الخارجية في فترة تمتد من سنة قيام الخلافة العباسية (١٣٢ هـ) الى نهاية العصر البويهي (أو البدوي) حوالى سنة ٤٥١هـ وهذه الفترة تشمل زمن القوة في الخلافة العباسية التي بدأت بالتضعضع بعد نحو قرنين من الزمان، كما انها تشمل قرنًا وبعض القرن من أيام الضياع الأول للسلطة المركزية. في هذه الفترة كانت التجارة الخارجية لبلاد الشام نشيطة على وجه العموم، فقد اتسعت الأسواق وانتشرت القوافل يميناً وشمالاً وخلفًا وأمامًا فحملت البضائع من أقاصي الدنيا الى العاصمة وغيرها، ونقلت السلع من قلب الدولة/ الخلافة (وما تفرع عنها من دويلات) الى الخارج، وكل هذا في رعاية التاجر اليقظ الذي تصفه القصص لنا أنه كان دربًا ذَربًا حاضر البديهة يقظًا.

وعلى ما ذكرت من قبل ان التاجر في تلك العصور يعجبني لأنه كان ينقل من المتاجر نوعًا لا يتقاضى عليه ثمنًا، وإنما هو حكاية بحكاية وقصة بقصة أو كما يقول المتحدث اللبناني «خبرية بخبرية»، ولكن هذا كله كان يحتوى على عناصر ثقافية وحضارية كانت في جملة ما ينقل التاجر.

وهكذا فقد كان الحرير والكتان والقطن والصوف والخيش أقمشة ينقلها، وأزياء ينقل تفصيلها، وتطريزًا يحمله من بلد الى بلد، ومع ذلك كله نبتة صغيرة أو كبيرة، مثمرة أو معطرة، وقد تصبح شجرة تظلل وتلقي بثمرها الى الذين لا يستطيعون الوصول اليها، وما أكثر ما يحمله التاجر غير ذلك.

وقد كان للحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ناحية اقتصادية هامة أو مهمة. ولعل أهمية هذه الناحية أي الاقتصادية تضعها في مقدمة أسباب قيام هذه الحروب وتخطيط سيرها الحملة بعد الحملة. وهذه حملات عسكرية ترافقها أو تزامنها تنقلات تجارية، وفي كلتا الحالتين كانت عناصر حضارية تنقل من ديار العرب والاسلام الى أوروبا ـ كتبًا (على قلتها) وأطعمة وأغذية وثيابًا ونقوشًا وأدبًا؛ وجميعها عناصر حضارية أفاد الغرب منها إفادة كبيرة.

والقراء يعرفون ان جنوب شرق الجزيرة العربية وما يقع الى الشمال منه كانت له صلات تجارية قوية وخاصة مع الشرق الأقصى، ومن ثم فقد كانت أسواقه تجمع بين الطرائف من هنا وهناك، وهذا سبب من أسباب الإهتمام بها.

(٤)

نصل أخيرًا الى المحور الثالث الذي ينتهي الكتاب به واليه، وأود أن أؤكد للقراء انني أنا لست من علماء اللغة أصلا وقطعًا ـ فأنا لا أعرف من أسرار اللغة من حيث صرفها ونحوها وبلاغتها وعروضها وما الى ذلك، شيئاً يستحق ان يسمى معرفة.

وفقه اللغة أمر سمعت به من قبل، وقرأت عنه لكنني لست من أهله، ولست أنا أيضًا من المشتغلين بالأدب، من حيث أنه أدب، لا تاريخًا ولا نقدًا. كل ما هناك انني معني بالأدب استعذابًا وطلبًا للانتعاش الفكري والنفسي.

وما دام الأمر كذلك، فما الذي حملني على تتبع اللغة العربية في قفزاتها التاريخية؟

أمران شداني، ولا يزالان يشدانني، الى مثل هذا التصرف، أولهما: انني ابن اللغة العربية أتلذذ بقراءتها وأستعذب الشعر فيها وأستطيب النثر؛ وأحسب انني أجيدها إن لم أكن أتقنها، استعمالاً.

والأمر الثاني: انني لما سمعت الشكوى من ضعف اللغة العربية يتشدق بها الكثيرون، حملت نفسي، حمل المحب العاشق، على أن أتقصى تطور هذه اللغة من حيث قدرتها على التعبير. فخرجت من ذلك بأنها كانت قادرة على ذلك عبر العصور. ولكن لما قصّر ابناؤها قصّرت هي أيضًا عن السير بالشوط الى النهاية. لم تتقاعس لكنها تبعت ـ بطبيعة الحال ـ تقاعس بنيها.

هذا الذي توصلت اليه وضعته في هذه الصفحات التي ضممتها الى هذا المجلد، والذي سميته عربيات.

ولن ألجأ هنا الى تلخيص ما قلته هناك، فالذي يقرأه قد يقبل به وقد لا يقبل، وما أودعه الصحف والكتب هو أمر يتعلق بي أصلاً وبالقارئ ثانية وللقارىء ان يحكم له أو لي وعليه أو عليَّ، فأنا أعمل جاهدًا في سبيل نقل ما اهتدي اليه الى القراء. على انني أود أن أنقل هنا فقرة واحدة من الخاتمة وهي: «ثالثًا ـ هناك جماعة عينوا أنفسهم سدنة للغة العربية؛ الى هؤلاء أتوجه بحرارة طالبًا منهم ان يوسعوا آفاقهم وصدورهم بحيث يسمحون للغة العربية بالانطلاق بحرية في ميادين افتراس الكلمات الأجنبية (التي لا مقابل لها عندنا) وتعريبها أي اعطائها صيغة عربية، كما أعطى أجدادنا صيغة عربية لكلمة الأسطقس اليونانية الأصل واستعملوها بمعنى عنصر الجسم أو أصغر الأجزاء من جملة الجسم.

ونحن إذا تهاونا في شأن اللغة العربية وحجزناها في وعاء من الزجاج كي تبدو براقة لماعة لا حياة فيها، فإننا نقضي على العنصر الأساسي في حياتنا العاطفية والروحية والفكرية.

«العربية لغتك ولغتي يا ابني
عليك وعليَّ أن نعنى بها
عليك وعليَّ أن ننقذها من الذين يضيقون عليها من حيث لا يدرون».

بيروت ربيع ١٩٩٣

القسم الأول

سنوحي ورحلته الشامية

أقدم رحلة مدونة

المقدمة

وقعت مصر، في الفترة الممتدة نحو ثلاثة قرون بين ٢٣٠٠و٢٠٠٠ ق. م، وهي أيّام الأُسَر التاسعة والعاشرة والحادية عشر، فريسة توزّع القوى بين الأمراء ونبلاء الإقطاع وحتى زعماء القوات المحلية، فأصابها فوضى واضطراب في شؤونها الاقتصادية، وتأثر المجتمع المصري بذلك كله، فكاد أن يقع فريسة لكل ما من شأنه أن يفتته. وكان من مظاهر الاضطراب السياسي أن تزامَنَت الأسر، فحَكَمَ الأهناسيّون في الشمال في الفيّوم، كما أنّ حكام طيبة سيطروا على الجنوب في الوقت ذاته. وثمّة أسرة، هي العاشرة، كانت ضائعة الهويّة، بالنسبة للأُسر المعاصرة لها. على أن الأمر المهمّ من وجهة النظر الشعبيّة، هو أنه كانت ثمة نبوءة (تعرف بنبوءة نَفْرَرْ هُو) تعود الى زمن سابق، مؤدّاها أنّ هذه الحالة لن تدوم. إنّ منقذاً سيأتي كي يخلّص البلاد والشعب من الفوضى ويعيد إلى مصر نشاطها ووحدتها وحياتها. وخلاصة هذه البنوءة، إن جازت التسمية، هي:

«إن المخلّص /المنقذ سيأتي ليزيل هذا الشقاء الذي استمرّ فترة طويلة. سيكون هناك ملك يأتي من الجنوب يُدعى «أمـيني» وهو ابن إمـرأة من النوبة... طفلٌ من الصعيد سيتسلم التاج الأبيض (تاج الصعيد) والتاج الأحمر (تاج الدّلتا)، وسيوحّد القوّتين (الإلهتين اللتين تحميان الأرض)... ألا فليَسعد أولئك الذين سيعيشون في عهده! سيكون من نسل نبلاء وسيبقى اسمُه إلى الأبد! أما أولئك الذين يميلون إلى ارتكاب المعاصي وإتيان الشرور، ويرسمون الخطط للمؤامرات فستخمد أنفاسُهم ذُعرًا منه، وسيعيد هو الحق الى نصابه، والذين يخدمون الاله فسيفرحون[1]»

والذي يجب ألا يغيب عن البال هو أنّ هذه الفترة السابقة لسنة ٢٠٠٠ ق. م. بقرنين أو ثلاثة قرون، شهدت اضطرابًا كبيرًا في تنقّل الشعوب في منطقة الشرق الأوسط (ولنسمح لأنفسنا باستعمال هذا التعريف الحديث)، فتعرضت مصر لهجمات من الأسيويّين الذين احتلوا شرق الدلتا، ولعلهم لم يستقروا فيه. والنبوءة المذكورة تصف حالة مصر كما يلي:

«النيل جاف والناس يخوضونه سيرًا على الأقدام. الرياح الجنوبية شديدة والمقابر لا يُعنى بها أحد. الناس تأكل طعام القرابين من شدة جوعهم. البلاد في بؤس وضنك... الضحكات مبعثها اليأس، وليس من يبكي من ذكر الموت. إن الرجل لا يتحرك من مكانه حين يرى رجلاً يقتل شخصًا آخر. الابن عدو لأبيه، والأخ

لأخيه، الرجل يقتل أباه، والمرء تُغتصب أملاكه وتعطى للغريب».

أمّا الإشارة إلى الأسيويين فقد جاءت في الوصية على النحو التالي:

«أفرخ طيرٌ أجنبيٌّ في مستنقعات الدلتا، وصنع له وكرًا هناك. الناس في بؤس لأن هؤلاء البدو محتاجون إلى الطعام ... الأعداء في شرق الدلتا... الآسيويون ينزلون الى مصر... وحوش الصحراء تشرب من ماء النهر[٢]».

ولكن المنقذ سيأتي. وصاحب النبوءة، يتحدث عن هذا المجيء على النحو التالي: «ما هذا الذي أراه؟ إنّ الغمّة تنجلي، والغبار ينجاب، والشمس تشرق. وهذا ملكٌ عظيمٌ مقبلٌ من الجنوب... فانعموا يا بني عصره بهذه السعادة التي أتيحت لكم! إنّ رجلاً عظيمًا، سليل بيت كريم، قد نُقش اسمه في سجل الخلود. انظروا الى الشرّيرين كيف يتوارون عن الأنظار.. وإلى الجبّارين المعتدين كيف ذُلّت أعناقهم وخفتت أصواتهم، وإلى الأسيويين الأجلاف ، كيف يُقتلون ويمزّقون... يا له من ملك عظيم استطاع أن يكرّ على الأعداء بيمينه، ويخضع الثوار بيساره. وقد أجلى الأعداء عن أرض الوطن بسَطوه وبأسه. وجمع حوله القلوبَ النافرة بهيبته وعدله. وعلى جبينه اللامع يبدو ثعبانُ الملك. لا تكاد تبصره العيون حتى تستشعر الهيبة والتقوى. ولكنّه لا يكتفي بقهر الأعداء وتمزيقهم، بل يقيم في شرق الدلتا أسوارًا وحصونًا، كي تردّ وحوش الصحراء، إذا هم حدثتهم أنفسهم مرّة أخرى بأن ينقضوا على هذا البلد الآمن فانظر إليه كيف يفيد عصره والعصور التي بعده[٣]» .

هذه نبوءة «نَفَرَرْ هُوَ» في جوهرها. أما تحقّقها فقد تم في زمن الأسرة الثانية عشرة في عهد المملكة المتوسطة. تبدأ المملكة المتوسطة بالأسرة الحادية عشرة ويمتد عصرها من حوالى ٢١٣٣ الى ١٧٨٦ ق. م. وكانت طيبة مقرّ الأسرة الحادية عشرة، وكان حكمها يشمل مصر العليا أو الجنوبية. أما مصر الشمالية فكانت تحكمها أسرة أخرى من مدينة «إهنا سية» (على مقربة من الفيّوم الحالية). وهكذا فإن مصر ظلّت قسمين، وظل فيها أمراءٌ ونبلاءُ إقطاع وزعماءٌ ثائرون يستمتعون بشيء من السلطة. مع أن أمنِمْحات (الأول) وحّد مصر، فإنه لم يستطع القضاء على أصحاب السلطة المحلية تمامًا[٤] .

كان النوبيون قد تدفقوا على الجنوب المصري مهاجرين أولاً ثم مستقرين فيما بعد. وكان بينهم أمراء، كما كان هناك أمراء بين السوريين الذين هبطوا شرق الدلتا وبين الليبيين الذين هاجموا البلاد من الغرب. والمرجح أن أمنِمْحات هذا اغتنم فرصة خلاف بين المتنافسين على العرش، وكان أقوى رجل في الدولة وكذلك كان أميرًا بالوراثة فتولى الحكم (١٩٩١ ق.م.) وكان قد جمع حوله جماعة من الشباب المخلص القويّ بمبادئه وأخلاقه، فانضمت الجهود بحيث بدأ على يد هذا الملك الشاب عصر ذهبي جديد لمصر.

وقد عُيِّر أمنِمْحات هذا بأن أمه نوبيّة، وقصد من ذلك الطعن في شرفه، فلم يأبه لذلك. وحتى لما أراد صانع تمثاله أن يُجمِّل أنفه بحيث لا يظهره أفطس نوبيًا، رفض الملك ذلك. وكان يفخر بالدم النوبي الذي كان يجري في عروقه.

وقد ترتب على تولي هذا الملك العرش، فضلاً عن توحيد البلاد، أمران مهمّان: الأول نقلُ العاصمة من «طيبة» إلى مكان يقع في وسط البلاد في مدينة جديدة سمّاها «إيثتْ تاوي» (وتعني «التي تسيطر على الأرضَين»). ومن هذا الموقع كان يمكنه أن يتصل بأهل الشمال المصريّ وزعمائه، ويشرف على أعمالهم إشرافًا مباشرًا. والأمر الثاني هو أن الملك انتسب إلى الإله «آمون» «آمون إم حات» (أمنِمحات). ومن هذا الوقت بدأ اسم أمون ينتشر في البلاد وأصبح يُنظر إليه على أنه ملكٌ للآلهة. (أما إلى ذلك الوقت فقد كان رَعْ هو الإله الأبرز).

وأقام الملك الجديد حكمًا قويًا، وبنى «جدار الأمراء» وهو سلسلة من التحصينات أقميت لحماية شرق الدّلتا من هجمات الأمراء الآسيويين [٥].

ويبدوأن أمنِمْحات هو الذي ابتدأ العمل بإشراك وليّ العهد مع الملك في إدارة الدولة؛ وكان يرمي من ذلك إلى أمرين: الأول تدريب الملك المقبل على الشؤون الملكيّة العامة، والثاني تجنب الخلاف الذي قد يعقب وفاة الملك، فيكون الانتقال على العرش عاديًا، ولذلك، ففي السنة الحادية والعشرين من حكمه (حكم ثلاثين سنة من ١٩٩١ الى ١٩٦٠ق. م.) أشرك ابنه سَنوسرت بالحكم (ودام ذلك نحو عشر سنين). وكان ذلك، على الراجح، بُعيد نجاته من مؤامرة دُبِّرت لاغتياله خلص منها بشيء من الأعجوبة، وقد وَضَعَ بعد ذلك ما عُرِف بتعاليم الملك أمنِمْحات، وصف فيها المؤامرة ثمّ وجّه بعض النصح لابنه. وقد جاء في هذه التعاليم قول الملك موجهًا إلى ابنه:

«حدث ذلك المكروه [المؤامرة] حين لم تكن إلى جانبي.... حين لم يكن يعرف البلاط أنني تنازلت عن سلطاتي لك.. حين لم تكن قد جلست معي على العرش بعد».

وكان الملك أمنِمْحات يرى في المؤامرة نكرانًا للجميل، لذلك يوصي ابنه قائلاً:

«كن على حذرٍ من أتباعك.. لا تقترب منهم... ولكن لا تكن وحيدًا. لا تثق بأخيك ولا تعرف لك صاحبًا، ولا تقرّب إليك شخصًا... إنّ هذا لا يجدي. إن نمت فدع قلبك يحرسك فليس الأعوان لوقت الضيق. إنني أعطيت الفقير وأطعمت اليتيم وحقّقت أهداف من لا أمل له، ولكنّ ثمنَ العطف كان خيانة... إن مَنْ أكَلَ خبزي احتقرني، ومن أعنته رماني، حين اشتد ساعده... والذين كسوتهم بكتّاني الرقيق نظروا إلي كما ينظرون الى خيال، ومن دهنتهم بعطوري رشّوا عليّ الماء» [٦].

حوالى سنة ١٩٦٠ ق. م. كان سنوسِرتْ يقوم بحملة عسكرية ضد الليبيين، وكان أبوه لا يزال على قيد الحياة. وقد انتصر الجيش في حملته،وكان سَنوسِرْت في طريق عودته لما جاءته الأنباء بوفاة أمنمْحات. حدث هذا:

« في العام الثلاثين [من حكم الملك] في اليوم التاسع من الشهر الثالث من فصل الفيضان إذ دخل الإله في أُفقه وطار أمنِمّحات إلي السماء واتحد مع الشمس وامتزج جسدُ الإله مع خالقه... فسكنت العاصمة وامتلأت القلوب شجنًا وأُغلقت البوابتان الكبيرتان وجلس رجال البلاط ورؤوسهم على ركبهم، وعم الحزن الناس... وكان الإله الطيب سَنوسرْت... في طريق العودة ومعه أسرى تَحنو [ليبيا] وجميع أنواع الماشية التي لا تُحصى. وأرسل أمناء القصر الملكي إلى الحدود الغربيّة رسلاً لينبئوا ابن الملك بما حدث في القصر. وقابله الأمناء في الطريق، وقد وصلوا في المساء، فلم يتأخر لحظة. وطار الصقر سنوسرت مع تابعه ولم ينبىء الجيش».

ولسنا نعرف فيما إذا كان موت أمنِمّحات طبيعيًا أم أنه قتل في مؤامرة جديدة(٧).

تولّى الحكم سَنوسرت(٨) وظلّ في الحكم ثلاثًا وأربعين سنة (١٩٧١ ـ ١٩٢٨ق.م.). وأشرك فيها ابنه معه في آخر سنتين فقط، وقد صرف الملك الجديد همّته نحو تقوية الملكية وتركيز السلطات في يده وبناء الهياكل وتجديد المعابد، وشهدت سرابَةُ الخادم في سيناء جهودَه هناك وعمله الجاد في مناجمها. وكان نشاطه الحربي كبيرًا وموزعًا على حدود المملكة وما وراءها، خاصة في الجنوب حيث اهتم ببلاد النوبة. وأغلب الظنّ أنه كان يهتم بها كمصدر للذهب. ونحن نميل إلى أن سَنوسرت كان شديد الحرص على تأمين الطرق التجارية التي تصل مصر بالبحر الأحمر ومنطقة الواحات، وضبط التجارة البحرية في البحر المتوسط وموانئه.

وعلى كل فقد خلَّف سَنوسرت لابنه أمنِمحات (الثاني) دولة قويّة لما مات سنة ١٩٢٨ ق.م.(٩).

هنا تبدأ قصتنا مع سنوحي الذي قضت عليه الظروف أن يكون أوّل رحالة في التاريخ دوّن أخبار رحلته، ولو أن هذا التدوين جاء نتيجة لمحاولته تفسير تصرفه أكثر منه بقصد كتابة أخبار هذه الرحلة بالذات.

كان سنوحي الأب من كبار زعماء طيبة الذين جُرّدت أسرهم من ضياعها وأملاكها. وهذا ما حمل سِنوحي الكبير أن يقول لابنه الذي يحمل الاسم نفسه:

«لا تحسبنّ يا سِنوحي الصغير أن النبل والشرف خلق يورث، أو طبع يمتاز به أناس على أناس. ولا هو دم زكي يجري في عروق؛ دون عروق؛ بل إن الشرف في كل عصر وكل بلد يتألف من أرض ومن طين ومن بقر وغنم وحمير، و ما يتبع ذلك من مواد وغلات وبيوت ومنشآت(١٠).

ومن أجل أن يكون للأسرة دور ذو قيمة في الدولة الجديدة، أراد سنوحي الأب أن يتقرّب ابنُه من صاحب العهد. فهو يذكّره بأنَّ أمنمّحات (الأول) هو الرجل الوحيد ذو الباع الطويل والهمّة القعساء والجرأة؛ وان هذا الملك يمشي إلى أغراضه بأسلوب

واضح صحيح. ذلك: «لأنه قويّ ولأنه يجري على سنّة العدل. وبغيته الأولى أن يرى بلاده يسودها الرضى والرخاء.

كان الملك راضيًا عن سنوحي الأب، فأعاد إليه ضياعه وأملاكه، ورغب إليه في الانتقال معه إلى العاصمة الجديدة، لكنّ الرجل آثر أن يقضي بقية عمره في موطنه، وأراد أن يشقّ ابنُه سنوحي طريقه بنفسه في هذا المجتمع الجديد، لذلك دفع به إلى البلاط في «إيثت تاوي»، العاصمة الجديدة للدولة الجديدة. وقد كان سنوحي، على ما يروي في مذكراته، إن صحت التسمية، خادمًا في حريم الملك يقوم على خدمة نفرو زوجة سَنوسَرّت وهي أخته إبنة أمنمحات (الأول).

قبل أن ننقل قصّة الرحلة التي قام بها سنوحي في بلاد الشام، والتي دامت ربع قرن، نودّ أن نشير إلى أن هذه الحادثة التي وقعت في أواسط القرن العشرين قبل الميلاد، وصلت إلينا في عدد من المدوّنات. وهذه تعود أقدمها إلى حوالى ١٨٠٠ ق. م. وأحداثها إلى حوالى ١٠٠٠ ق. م. وهي مدونة على خمس بَرْدِيّات وما لا يقل عن سبع عشرة فخارية. ويرى الباحثون أن برديَّة برلين (التي نشرت سنة ١٩٠٩) هي الأهم. وقد حَظِيت هذه «القصة» بعناية عدد كبير من علماء «المصريّات» فنشروها وترجموها ودرسوها بين سنة ١٩٠٨ و١٩٤٨[١١].

والأمر الذي كان مدعاة للتساؤل بين الباحثين، وذلك لأنه أصلاً غير واضح في مدونّات سنوحي التي وصلتنا، هو لماذا هرب سنوحي من مصر؟ إذ إن خروجه بسرعة وهو متخفٍّ لا يعني سوى الهرب. ويمكن إجمال ما يدور حول هذه المسألة فيما يلي:

١ـ كان سِنرسَرت الأمير، حتى قبل أن يشركه والده في الحكم، ينظر إلى سنوحي (الابن) بشيء من الشك!

٢ـ وكان هذا مبنيًا، على ما يبدو على تصرف سنوحي نحو أميرة ليبيّة، كانت تقيم في القصر، باعتبارها شقيقة لزوجة الإبن الآخر لأمنمحات، الأمير آني.

٣ـ الزوجة الليبية كانت متهمة بتدبير المؤامرة ضد الملك (أمنمْحات) الذي نجا منها بأعجوبة، وكانت شقيقتها ضالعة في الأمر، فظنّ سِنوسَرّت بسنوحي شرًا.

٤ـ ولأن سِنوسَرّت كان يرى في الليبيين خصومًا أقوياء عنيفين كان من الطبيعي أن يحذر، أو على الأقل يتحاشى، من كان له بهم علاقة.

فكان من أثر ذلك أن سنوحي خشي على نفسه لما مات أمنمْحات واعتلى سِنوسَرت العرش، وتولاه رعب قوي فآثر الهرب.

كان ذلك في شهر آذار/ مارس سنة ١٩٦٠ق. م. وكان هروب سنوحي إلى بلاد الشام، حيث قضى ربع قرن، وعاد بعد أن استدعاه الملك سنوسَرّت نفسه كي يقبر في مقبرة أجداده.

وقد دوّن سنوحي أخبار هذه الرحلة الطويلة بعد عودته. ويرجِّح الباحثون أنّ

الرجل كتب هذه كله، لا بقصد قصّ أخباره ورواية رحلته، بل ليوضح أنه لم يرتكب جريمة لما هرب من البلاد، بل هو يصرّ في مذكراته على براءته وعلى أنه لا يدري لماذا امتلأ قلبه فزعًا وخوفًا. ولكن ثمة رأي يكرره بعضُ الكتّاب وهو أن سنوحي كان ضالعًا في المؤامرة التي أودت بحياة أمنمحات الأول. هذا إذا صح أن الملك قُتل في مؤامرة لعلها كانت الثانية، بعد أن نجا في الأولى[(١٢)].

الهوامش

(١) نجيب ميخائيل ابراهيم، **مصر والشرق الأدنى القديم**، الجزء الأول، ط ٣، (القاهرة ١٩٦٠) ص، ٢٦١ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٢ .

(٣) محمد عوض محمد. **سنوحي** (القاهرة تا) ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٤) ابراهيم ،المصدر نفسه، ص ٢٦٣ـ، ٢٦٤ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٢٤ ـ ٢٦٨ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦و٢٦٩ ٢٧٠، ومحمد **سنوحي** ص ١٠٨ و١١٩ ١٢٤ .

و : James B Pritchard.*(Ed.) Ancient Near Eastern Texts,* 2end ed. (Princeton, 1955), PP. 418 - 419

(٧) ابراهيم، المصدر نفسه، ص ٢٧١ - ٢٧٢ ،٢٧٤ .

(٨) كان ملوك المصريين يحملون أكثر من اسم واحد، كما أن صيغ التسمية قد تنوعت بسبب كتابتها باللغة اليونانية، فأمنمحات الأول يسمى أيضًا سحتنت إيب رَعْ وأمّينيس (الأول)، وخليفته سنوسرت (الأول) يسمى أيضًا خبر كارَعْ وسيزوستريس (الأول). وهذان هما الملكان الوحيدان اللذان نعنى بهما في هذا المقال.

(٩) إبراهيم، المصدر نفسه ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

(١٠) محمد عوض محمد، **سنوحي**، ص ١٠ .

(١١) الترجمة منقولة عن الإنكليزية من: Pritchard, *ANET, PP. 18- 23*.

(١٢) Itb., *P. 19, No. 10 - 12*.

مذكرات سِنوحي

يعرِّف الكاتب نفسه في مُفتتح مُذكراته بأنّه كان أميرًا بالوراثة وقاضيًا ومشرفًا على أملاك وليّ الأمر في بلاد الأسيويين. وأنه كان صديق الملك المحبب إليه والمرافق له. وأنه بحكم هذا المنصب كان لصيقًا بالملك كما كان خادمًا عند نساء القصر وخاصة عند الأميرة زوج الملك سِنوسرْت التي كانت إبنة الملك أمنِمْحات.

ويخبرنا سِنوحي بأنه في شهر آذار / مارس (سنة ١٩٦٠ق.م.) صَعِد الإله ـ الملك ملكُ مصر العليا والسفلى إلى أفقه وحُمل الى السماء حيث اتحد مع قرص الشمس، الذي يمثل آمون ـ رَعْ وهو أبوه وخالقه.

وكان جلالته قد بَعَثَ بجَيش ضد الليبيّين بقيادة ابنه الأكبر، وكان هذا قد انتصر على الخصوم وحمل معه من الغنائم الشيء الكثير. وكان في طريق عودته، لما وصل رسل البلاط لينبئوا الأمير بوفاة الملك. وقد وصل الرسل عند المساء، فلم يتوان الأمير لحظة واحدة، وطار بصحبة مرافقيه، دون أن يسَرِّب الخبر الى الجيش. وقد طلب من أقاربه الذين كانوا معه في الحملة أن يلحقوا به على جناح السرعة.

سمع سنوحي صوت أحدهم لما أذيع الخبر، فاعتراه فزع شديد يصفه بقوله: «سمعت صوته وهو يتكلم، ولم أكن أبعُدُ عنه كثيرًا، فاضطرب قلبي، وارتخت ذراعاي وارتعدت أطرافي من الخوف. فقفزت مسرعًا لأجد لنفسي مكانًا أختبىء فيه. وأخفيت نفسي بين شجرتين صغيرتين أملاً في أن أحول دون السائرين على الطريق من أن يروني».

واتّجه سنوحي جنوبًا، لكنه لم ينو أن يذهب إلى العاصمة، فقد حسب أنها ستشهد اضطرابًا في إدراتها، ولم يَأمل أن يعيش بعد الملك أمنِمْحات. وهذا هوالخوف المجهول السبب الذي سيطر على مشاعر الرجل.

تجنّب سنوحي في سيره الدّلتا والأراضي التي تغصّ بالسكان، وسار جنوبًا في شرق، واجتاز النيل على مقربة من العباسيّة الحالية، ثم سار شمالاً حتى وصل جدار الأمراء بالجبل الأحمر الواقع شرقي القاهرة. وقد خشي أن يراه حرّاس الجدار، فتكوّر في شجرة صغيرة على الأرض، منتظرًا هبوط الظلام. فلما أظلمت الدنيا استأنف سيره، وفي الصباح ألفى نفسه في «كَمْ وِرْ» عند البحيرات المرّة. وقد وصف سنوحي في مذكراته شعوره بقوله: «هذا هو طعم الموت!» فقد كان عطشانَ وكان فمه تكسوه من الداخل طبقة من التراب.

ثم سمع ثغاء الماشية، فاستجمع قوته، ثم رأى جماعة من الأسيويين. وقد تعرف إليه شيخهم، الذي كان قد زار مصر، فأعطاه ماء ثم طبخ له الحليب وقدمه له، وصحبه إلى جماعته وأحسن إليه.

انتقل سِنوحي كما يقول: «من بلد أجنبي إلى بلد أجنبي آخر» حتى وصل جبيل (بيبلوس). ليس لدينا ما يدل، من كلام سنوحي عن الفترة التي احتاجها للوصول الى جبيل، ولكن يبدو أنه لم يكن مسرعًا. وثمة أمر حري بتذكرنا، وهو أن العلاقات التجارية بين مصر والشاطىء اللبناني (الفينيقي) كانت قائمة يومها، ولو بشكل بسيط، الأمر الذي يسّر لسنوحي الانتقال المستمر. ومع أن سنوحي لا يقول شيئًا عن الطريق الذي اتبعه، فإننا نرجح أنه سار برًا عبر فلسطين. فالرجل كان فارًا، والانتقال بحرًا قد يعرِّضه لأن يعرفه بعض التجار، فهو شخصية بارزة في البلاط الفرعوني، وهذا ما كان يتجنبه هو بنفسه.

يقول سِنوحي:

«واتجهت نحو «قِدِم» حيث قضيت سنة ونصف السنة».

وقِدِم هذه أوقعت الباحثين في حيرة، فهي نفسها لفظة حائرة مبهمة، إذ إن معناها باللغات السامية «الشرق» ولكن إلى أي مدى؟ هل كان المكان الذي ذهب إليه منطقة في «البقاع اللبناني»؟ أم هل وصل سنوحي فيما بعد إلى نقطة أبعد من هذه شرقًا (عبر جبال لبنان الشرقية) فيكون قد بلغ مناطق سورية الداخلية؟ إن الوصف الذي نقع عليه عند سنوحي للبلاد التي أقام فيها فيما بعد هو:

«أخذني أمّي - إنشي، حاكم ريتنو العليا، إلى بلاد ياع وقال لي ستقيم معي، وهنا ستسمع الكلام المصري».

ويضيف إلى ذلك وصفه لبلاد ياع بقوله:

كانت ياع أرضًا طيبة فيها التين والكرم بكثرة، بحيث أن خمرها كان أغزر من مائها. وكان العسل فيها كثيرًا جدًا وكذلك الزيتون. كانت أشجارها تحمل جميع أصناف الفواكه. وكان الشعير والقمح من غلاتها. أما أنواع الأنعام فلا حصر لها».

ونحن إذا أخذنا هذا جميعه بعين الاعتبار وجدنا أن غاردنر كان مصيبًا إذ استنتج أنّ سنوحي أقام بين جماعة من الفلاحين والبدو الرعاة، في مكان يقع في أواسط سورية أو جنوبها أو شمال فلسطين. ويجب أن نذكر قول أمي - إنشي لسنوحي بأنه سيسمع الكلام المصري. وهذا يعني أنّ المصريين كانوا يمرون بتلك المنطقة. فهل كان هؤلاء تجارا (وهذا كان أمرًا شائعًا) أم أنّ عددًا من المصريين كان قد لجأ إلى المنطقة كما لجأ سِنوحي، وعندها يكون المكان بعيدًا بعض الشيء عن الطرق المألوفة[1].

هنا نقع على حديث تبادله سنوحي مع أمَّي ـ إنْشي، إذ سأله هذا: «لماذا جئت أنت [يا سنحوي] إلى هنا؟ هل وقع في العاصمة شيء خطير؟»

ويجيب سنوحي (وقد دوّن هذا كلَّه بعد عودته إلى مصر)، بما يصح أن يكون تفسيرًا لتصرفه، بقطع النظر عما إذا كان هذا هو الذي قاله للزعيم العموري أمي ـ إنشي. وإجابةُ سِنوحي هي: «إن ملك مصر العليا والسفلى سِحْتِب إيب رَعْ [أمنِمحات الأول] قد انتقل الى الأفق، وليس ثمة من يعرف ما قد يحدث بسبب ذلك».

ثم أضاف سِنوحي، بشيء من الإبهام: «كنت قد عدت من حملة إلى بلاد تمح [تحِنو/ ليبيا] لما بلغنا الخبر المشؤوم. دبّ الرعب في قلبي، فوجدتني أسير في طريق الهرب، مع أنه لم يقل أحد أي كلمة حول ذلك، ولم يبصق أحد في وجهي، ولم يُسمع قول يعني الاقلال من شأني، ولم يذكر اسمي أيٌّ من حملة الأبواق. لست أدري ما الذي حملني على المجيء إلى هذه البلاد. لقد بدا لي الأمر وكأن الها دفع بي إلى ذلك»،

عندها قال لي: «و،كيف ستكون حال البلاد بدونه [الملك]، هذا الإله الكريم، وهو الذي انتشر الخوفُ منه في البلاد الأجنبية؟».

فأجبته قائلاً: «إن ابنه قد دخل القصر بطبيعة الحال، وقد ورث أباه، فضلاً عن ذلك فإنه [الابنّ] إله لا مثيل له. وليس ثمة من يمكن أن يتفوق عليه. إنه سيد العارفين والماهر في التخطيط والمجيد في التشريع. وتنقُلاتُه تتفق تمامًا مع قيادته وسلطانه. إنه هو الذي أخضع البلاد الأجنبية لما كان والده في قصره وبعث بالنبأ عن نجاحه فيما أوكل إليه أو ما أسعد البلاد التي يحكمها. إنّه هو الذي سيوسع تخوفها، سيغير على الجنوب وينتصر وهو الذي سيضرب الأسيويين وسيقضي على أولئك الذين يجتازون المناطق الرملية [الذين يجتازون صحراء سيناء إلى الدلتا الشرقية]. اكتب إليه، أعلمه باسمك، ولا تقل كلمة سوء عن جلالته، إنه لن يفعل إلا الخير نحو البلد الذي يمحضه الولاء».

وكان جواب أَمِّي ـ إنشِي لي: «حقًا إن مصر سعيدة إذا إنها تعرف أنه بلغ قمة النجاح. والآن أنت هنا، وستقيم معي. إن الذي سأصنعه لك هو أمر جيد».

ويستمر سنوحي في روايته فيقول:

«لقد جعلني على رأس أولاده، وأزوجني ابنته الكبرى، وسمح لي أن أختار من بلاده [أرضه]خيرَ ما عنده على الحدود المصاقبة لبلاد أخرى. وهذه هي الأرض المسماة «ياع»، وهي الكثيرة التين والكروم والتي تفيض عسلاً وتملأها أشجار الزيتون، وكانت تنمو على أشجارها جميع أصناف الفواكه، وتنتج الشعير والقمح. وليس للأنعام فيها حصر أو عدٌ. فضلاً عن ذلك فقد تجمع لي الكثير من النعم بسبب حبّه لي. وقد ولاني رئاسة أهم قبيلة في بلاده. كان الخبز يقدم لي يوميًا مع الخمور واللحم المطبوخ

والطيور المشويّة وحيوان الصحراء البري، فضلاً عما كانت تصطاده كلابي، وقد كانت أشياء... كثيرة تعدّ لي... كما كان الحليب يطبخ أشكالاً كثيرةً مختلفة.

«قضيت هناك سنوات عديدة وقد شبَّ أبنائي وأصبح كل منهم مشرفًا على قبيلته الخاصة به. وكان رسول [المسافر] القادم من العاصمة [إيثت تاوي] شمالاً أو المتجه إليها جنوبًا يمر بي ويقيم عندي. لقد كان من عادتي أن أستضيف كل مارٍّ في منطقتي. لقد سقيت العطشان، وأرشدت الضال إلى الطريق الصحيح، وأنقذت الممعرض للسلب. ولما تطاول الآسيويون بحيث أنّهم أخذوا أنفسهم بمقاومة حكام البلاد الأجنبية الأخرى (٢)، وقفت لهم بالمرصاد. وقد ولاّني حاكم ريتنو المذكور قيادة جيشه سنوات عديدة. وقد نجحت ضدّ كلِّ بلد أجنبي حملت عليه، فأجليته عن مراعيه وآباره، لقد نهبت أنعامه وأسرت سكانه ونهبت طعامهم وقتلت الكثيرين من أبناء ذلك البلد، وكان ذلك بسبب قوة ذراعي وقوسي ودقة تحركاتي وتخطيطي الناجح، وقد لقيت نعمة في عينيه [حاكم ريتنو] فامتلأ قلبه حبورًا، وأحبني ورأى ما أحمله من الجنان القوي فأمَّرني على أولاده وذلك لما رأى التفوق الذي حققته أسلحتي».

ويروي سنوحي كيف أن مقاتلاً من ريتنو أراد أن يبارزه في عقر داره. وكان الرجل بطلاً لا يُشقُّ له غبار، وقد تغلب على جميع الذين تصدوا له في ريتنو. وقد أعلن عن رغبته في قتال سنوحي، إذ نوى أن يسلبه ثروته، وأن ينهب أنعامه. وقد أظهر المقاتل هذا كله بناء على تشجيع من قبيلته. وعندها تقدّم أمير ريتنو وتحدث إلى سنوحي في هذا الشأن فأجابه هذا بقوله:

إنني لا أعرفه ومن المؤكد أنني لست محالفًا له، بحيث أنني أتنقل في دائرته بحرية. هل فتحت يومًا له بابًا، أو هدمت له سورًا؟ [أي أن سنوحي لم يقم نحو هذا الرجل بأي خطوة عدائية]. من الواضح أنّ موقفه هو عدائي تمامًا وذلك لأنه يراني أنفِّذ أوامرك بدقّة، إنني ثورٌ ضالٌ في وسط قطيع غريب عنه، وها هو ثورٌ يخص هذا القطيع يهاجمه!...».

ويحدثنا سنوحي عن قبوله التحدّي، الذي كان سببه أنّه كان غريبًا في وسط مسرح أسيوي، ثم يصف صاحبنا استعداده خلال الليل فيقول: «شدَدْت في الليل قوسي، وأطلقت سهامي [تدريبًا] وقلبت خنجري بطنًا بظهر وصقلت أسلحتي. ولما طلع النهار كانت قبائل ريتنو قد تجمعت. فقد أثيرت القبائل لحضور هذا القتال، ولعل نصف السكان كانوا حاضرين، ولم يكن يهمهم شيء سوى هذه المعركة. ثم تقدم المقاتل مني حيث كنت أنتظره على مقربة منه. كان كل قلب يتحرّق من أجلي، قد تأوّه الرجال والنساء عطفًا علي. وتساءلوا فيما إذا كان هناك رجل آخر قوي يستطيع أن يقاتله؟ وتناول ترسه وطَبَرْزَينَه[فأس المعركة] ومرازقَه[رماحه القصيرة] وأطلق أسلحته لكنني تجنّبت سهامه التي مرت بي الواحد تلو الآخر دون أن تسبب لي أيَّ

أذى، ثم هجم عليّ، فأطلقت سهمي الذي غرز في رقبته؛ صرخ متألمًا ووقع على وجهه، فضربته ضربة قاضية مستعملاً طَبَرزينه، ثم صرخت صرخة الظفر وأنا فوق ظهره؛ فزأر كلّ أسيويٍّ كان حاضرًا، وصرخت بأعلى صوتي شكرًا وامتنانًا لمُنْتو [إله الحرب عند المصريين]، فيما كان أتباعه يندبونه، عندها احتضنني هذا الحاكم، أمي - إنشي. بعد ذلك حَمَلْتُ أنا جميع متاع المقاتل، وأخذتُ جميع أنعامه. لقد فعلت به ما كان ينوي أن يفعله بي. أخذت كلّ ما كان في خيمته، وجرّدت معسكره مما فيه. أصبحت يومها عظيمًا وازدادت ثروتي زيادة كبيرة وأصبحت أنعامي غاية في الكثرة.

«وهكذا كان فعل الإله إذ أظهر رحمته على الرجل الذي كان قد تعرّض للوم من الإله، فضُلِّلَ به إلى بلد غريب. أما اليوم فإن قلبه [قلب سنوحي] قد إمتلأ خيرًا[٣].

يحدثنا سنوحي الآن عن ملك مصر العليا والسفلى والملك العادل خَبر - كا - رَعْ [سِنوسَرْت الأول] الذي، لما بلغته أخبار سِنوحي وتفصيل الوضع الذي كان فيه، أرسل إليه، أكثر من مرة رسائل من القصر الملكي كي يعيد السرور إلى قلبه. كما وصلته رسائل من الأولاد في القصر الملكي. وكان الملك يريد من سِنوحي أن يعود إلى بلاده، ليرقد إلى جانب آبائه وأجداده.

وينقل سِنوحي في مذكراته الأمر الملكي الذي تلقاه وفيه دعوة بالعودة إلى مصر. وهذا هو الرقيم الملكي: حورس، الإله الحي؛ وتحرسه الآلهتان الإثنتان الحيتان؛ مالك مصر العليا والسفلى : خَبر - كا - رَعْ، ابن رع: سِنوسَرْت[٤] الحيّ القيّوم. هذا هو أمر ملكي الى التابع [لنا] سِنوحي. اسمع، إنّ هذا الأمر الملكي قد أرسل اليك كي تعرف ما يأتي:

«لقد طوّحت بك الأقدار إلى البلاد الأجنبية من قِدم إلى ريتنو، وقد كان كل بلد يدفع بك إلى بلد آخر، حسب رغبات قلبك. ما الذي فعلته حتى ينالك عقابٌ من أجل أنك لم تجدف، لذلك لا تستحق عقابًا على كلامك. إنك لم تسلُقْ جماعة النبلاء بلسان حادٍّ، بحيث يمكن أن تنال أذى مقابل ذلك. كل ما هناك أنّ خطة ما هي التي ملأت قلبك بالرغبة في التنقل، ولم يكن في ذلك ما تؤاخذ عليه. وسماؤك التي هي في القصر، أي الملكة، هي اليوم ثابتة ووطيدة. وها هو رأسها تغطيه شارة حكم البلاد. وها هم أبناؤها يقيمون في البلاط.

«هل في نيتك أن تخزن الكنوز التي يمنحونك إيّاها؟ هل أنت راغب في الإقامة في بلادهم؟ عد إلى مصر كي ترى البيت الذي شبَبْتَ فيه وكي تقبل الأرضَ عند البوابتين الكبيرتين وتنضم إلى الحاشية. إذ لا شك في أنك آخذ في الاتجاه نحو الشيخوخة، وقد فقدت حيوتك. تذكر، يا هذا، اليوم الذي تُنْقَلُ فيه إلى القبر، فتنتقل إلى حالة من المهابة والاحترام، عندها تُطيَّب وتُلفُّ على يد تايْت [الهة النسج] عند

المساء [أي تحنط] . وسيُنظَّم موكب جنائزي لك يوم إدخالك القبر، فيكون هناك تابوتٌ للمومياء مصنوع من الذهب، والرأسُ فيه من اللازورد، ويغطي هذا كله كساءٌ واسعٌ [كالسماء]. ستُحمل على زلاجة تجرّها الثيران، يتقدمك المغنّون، وتُرقَصُ رقصة «المو» أمام مدخل قبرك. وتتمّ عندها مراسم إعداد مائدة القربان لك، ويقدّم القربان على الأعمدة المعدّة لذلك، وهي الأعمدة المقدودة في الصخر الأبيض والقائمة وسط قبور الأبناء الملكيين. لا يجوز أبدًا أن تموت في بلاد غريبة؛ ولن يرافقك الآسيويّون [في موكب الجنازة] لا يجوز أن تُلفَّ في جدر خروف، وقد أعدَّ لك هنا حائط [مما يليق بك]. إن التجوال في الأرض أمر طويل [منهك لك بعد أيام الشباب]. فكر بمرضك، فتقتنع بالعودة.

يصف سنوحي ساعة تلقيه الأمر الملكي، الذي وصله وهو واقف يتوسط قبيلته. فلما قرىء عليه، انحنى احترمًا، وتناول حفنة من التراب ورشَّها على شعره. ثم دار في المعسكر وهو ثمل سرورًا وكان يصرخ قائلاً:

«كيف يمكن أن يتم هذا لخادم [للملك المصري] الذي أضلّه قلبه فلم ير سواء السبيل، بل اتجه إلى بلاد بربرية؟ لكن العناية التي أنقذتني من الموت كانت هي هنا رؤوفة بي. ان «كا» ستمكنني من أن أنهي حياتي في بلدي».

وبعث سنوحي بجواب على الأمر الملكي هو: «باسم السلام. أيها الإله الطيب ملك الأرضَيْن [مصر العليا والسفلى] محبوب الأله رَعْ والذي يدلله مُنْتو ربُّ طيبة. إن «كا» تعرف قصة الهرب الذي قام به خادمك وهو يَعْمَهُ في جهله.

«وها هو هذا الخادم نفسه يقدم الصلاة لسيده منقذ [مخلّص] الغرب.. ويقول إن عمله لا يمكن أن يُتَحَدَّثُ عنه».

ويضيف بعد ذلك قائلاً:

«إن هذا الهرب الذي قام به هذا الخادم لم يكن مخططًا،ولم يكن له في قلبي مكان، ولم يكن قد شغلني أمره. لست أدري تمامًا ما الذي أصابني فأقصاني عن مكاني. لقد كان نوعًا من الحلم... لم يكن قد تملّكني خوف، إذ لم يكن أحد يركض خلفي، ولم أسمع كلمة «مهينة» قط، ولم يذكر أيُّ مناد اسمي قط. ومع ذلك فكان جسمي يرتعش، وكانت قدماي ترتجفان، وكان قلبي يدفع بي [الى السير] فإنَّ الإله الذي كان قد رسم هذا الهرب هو الذي كان يقصيني عن مكاني».

بعد أن يقول سنوحي مخاطبًا الفرعون عن بعد، إن «رَعْ» قد زرع الخوف من سِنوسَرْت في قلوب الجميع، في الوطن وعند الأغراب، وإنَّ الملك هو الذي يملأ الأفق، فقرص الشمس يرتفع بناء على رغبته، وماء النهر يُشرب حسب إرادته، والهواء يُتَنَشَّقُ بأمرِه، ينتهي إلى القول بأنه سيلقي أعباء الوزارة جانبًا، ويعني بذلك المسؤولية التي

تولاها في البلاد الغربية نيابة عن الملك[٥]

وأخيرًا جاء يوم الرحيل. فقضى سنوحي يومًا كاملاً في تسليم أملاكه في «ياع» إلى أبنائه؛ فجعل الابن الأكبر مسؤولاً عن القبيلة، بما في ذلك الخدم والأقنان والأنعام والأشجار المثمرة وكل شجرة جيدة.

واتجه[٦] سِنوحي نحو مصر، فولّى وجهه نحو الجنوب، وجدَّ السير ومعه حاشية من البدو. فلم تمض أيامٌ حتى وصل مسالك حورس على حافة المصب الشرقي للنيل. وقضى هناك بضعة أيام حتى بلغ مجيئه العاصمة. وعندها جاء مندوب من قبل جلالة الملك. ومعه سفن تحمل الهدايا للحاشية التي صحبت سِنوحي إلى مصر. فتسلم كلٌّ هديته وعاد أدراجه. وأقلت السفينة الملكية سِنوحي حتى رست به على الشاطىء الممهد في عاصمة المملكة.

وضُم سِنوحي الى الحاشية الملكية.

هذا نص تاريخي وضعه سِنوحي في القرن العشرين قبل الميلاد. وقد وصل إلى أيدي الباحثين في خمسة أشكال على برديات، وهي، أو إن كانت تختلف فيما بينها، فالتشابه أكبر، والنص الذي اعتمدناه هنا هو النص الذي نشر سنة ١٩٠٩، وهو الذي جاء في بردية برلين. والترجمة الإنكليزية التي نقلنا عنها أجزاء من مذكرات سِنوحي هي التي قام بها جون أ. ولسون أستاذ المصريات في جامعة شيكاغو سابقًا.

ونود أن نختم هذا الحديث عن رحلة سنوحي بالملاحظات التالية التي يمكن إعتبارها إجابة عن سؤال مطروح بطبيعة الحال: هل يمكن اعتبار هذا النص مصدرًا تاريخيًا؟ وأحسب أن الجواب أتى من قبل على أيدي الذين درسوا رحلة سِنوحي أو مذكراته بأشكالها البردية والفخارية ، فقبلوه من حيث الأصل. ولم يخف هؤلاء الباحثون أنهم لم يستطيعوا أن يحلّوا كل لغز من ألغازه الجغرافية أو التاريخية أو اللغوية. ولكنهم أكدوا لنا سوية هذه الوثيقة للاستشهاد التاريخي.

أما الملاحظات التي عنيناها فهي:

١ـ أن سنوحي يضع بين أيدينا وصفًا لمنطقة في جنوب سورية أو شمال فلسطين من حيث اقتصادها الزراعي. ويبدو أنها منطقة تمتزج في حياة سكانها الزراعة والرعاية مع شيء من البداوة. وأشار سنوحي إلى ما حصل له وناله عند أمِّي ـ إنْشي يدل على تنظيم بدوي في أصله. فوحدة العمل والتنظيم عنده القبيلة.

٢ـ في إشارات سِنوحي المقتضبة ما يدل على بدء تململ بين الشعوب التي كانت في بلاد الشام، ولعله أن يكون مقدمة لحركات الهكسوس في الفترة اللاحقة.

٣ـ هناك ما يدل على وجود تبادل تجاري بين مصر وأواسط سورية؛ فالأخبار كانت تنتقل عن طريق القوافل.

٤ـ ولا بد من القول إن سنوحي، في هذا النص، يظهر بارعًا في وصف تصرفاته

وشعوره. فبعض مقطوعاته تكاد تنظم نفسها أبياتًا شعرية.

الهوامش

(١) Pritchard, *ANET*. p. 19 No 10 -12.

(٢) الكلمة الواردة في النص الهيروغليفي ترسم هكذا هيكو ـ خسوف. وقد ارتأى البرايت وغيره أن هذه اللفظة المركبة قد تكون أصل كلمة «هكسوس»؛ والهكسوس هم جماعة القبائل الآسيوية التي هاجمت مصر فيما بعد (في القرن التاسع عشر أو الثمن عشر ق. م.). ومعنى هذا أن هذه الشعوب التي كانت تقطن في بلاد الشام، والتي انضمت إليها شعوب طرأت على البلاد، كانت قدأخذت تتململ في القرن العشرين، وكأنها تعد نفسها للخطوة التالية راجع: Pritchard, *ANET* pp. 20, n.16 229,n; 247, n 56.

(٣) يقول مترجم مذكرات سِنوحي إلي الإنكليزية، جون أ. ولسون إن سنوحي خط هنا قطعة عاطفية شعرية عن شوقه الكبير لبلاده مصر، لكن ولسون لم ينقلها إلى الإنكليزية. Pritchard, *ANET, p. 20, n. 2*.

(٤) يرد اسمه في النص خطأ أمنمّحات، لكن ولسون يستدرك خطأ أمنِمّحات، وينصح بقراءته سِنوسَرت. *Pritchard,* ANET, *p.* 20 n. 22.

(٥) الترجمة الواردة هنا منقولة عن ولسون في: Pritchard, *ANET,* pp. 19 -22.

(٦) محمد، سنوحي، ص ١٤٤ وما بعدها.

القسم الثاني

الجزيرة العربية

حتى ظهور الإسلام

البلاد والسكان - دول جنوب الجزيرة

يحيط البحر بالجزيرة العربية من ثلاث جهات: فالخليج العربي يقع إلى شرقها وخليج عُمان والبحر العربي إلى جنوبها والبحر الأحمر إلى الغرب منها. أما من الجهة الشمالية فتتصل ببادية الشام. وكان العرب اعتبروا بادية الشام بحرًا من الرمال فأطلقوا على بلادهم «جزيرة العرب».

والجزيرة العربية تمتد في غربها سلسلة جبال تبدأ بالحجاز شمالاً وتنتهي باليمن جنوبًا. ومعدل ارتفاع الجبال في الشمال ٢,٧٠٠ متر بينما يبلغ ارتفاعها في الجنوب نحو ٣,٥٠٠ متر. وتنحدر هذه الجبال انحدارًا فجائيًا إلى الغرب نحو البحر الأحمر، الذي يفصلها عنه سهل ساحلي منخفض هو تهامة. أما نحو الشرق فإن الانخفاض نحو الخليج العربي والعراق تدريجي. وفي الجنوب الشرقي من الجزيرة في عُمان يوجد الجبل الأخضر. وبين سلسلة جبال الحجاز والخليج العربي تقع هضبة نجد التي يرواح معدل ارتفاعها بين ٧٠٠و ٨٠٠ من الأمتار؛ والجزء الشمالي من نجد هو جبل شمَّر الذي يبلغ ارتفاعه ضعف ذلك.

وما خلا هذه الجبال والأغوار والهضبة فجزيرة العرب فيها صحار وبواد واسعة، أبعدها ذكرا النفوذ والدهناء والربع الخالي. والأول شمالي جبل شمّر، والدهناء تمتد من نجد إلى حضرموت تقريبًا، والربع الخالي يقع بين عُمان والدهناء واليمن.

تقع الجزيرة العربية في منطقة شديدة الحرارة مرتفعة الضغط الجوي والبحار بعيدة عن أجزاء كبيرة منها، لذلك فإن الأمطار تسقط على غرب الحجاز وفي الجبل الأخضر وجزء من حضرموت، لكن اليمن تناله أمطار موسمية غزيرة.

وفي الجزيرة واحات كثيرة، وفي هذه الواحات وفي السهول مجال للزراعة. فالتمر يوجد في مناطق كثيرة، والقمح يزرع في اليمن وفي بعض الواحات، والشعير مثله، والذرة قليلة، ويزرع الأرز في عُمان والحسا. وينمو شجر البخور في مهرة، ونجد الصمغ العربي في عسير، كما يزرع البن في اليمن. على أن الأشجار المثمرة موجودة أيضًا مثل الكرم والرمان والتفاح والمشمش واللوز والبرتقال والليمون. وثمة الخُضر المختلفة الأنواع.

وسكان الجزيرة، وبخاصة في الفترة التي نتحدث عنها، يهمهم من الحيوانات

الفرس والجمل. وهم على نوعين من حيث طرق المعيشة وأماكن الإقامة. الأول متحضرون كانوا يعيشون على الزراعة والصناعة والتجارة، ومساكنهم اليمن ومدن الحجاز مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومراكز التجارة مثل البتراء وتدمر والحيرة. أما النوع الثاني فهم بدو كانوا يتنقلون مع إبلهم وقطعانهم سيرًا وراء الماء والكلأ، لكنهم يظلون في الحمى الواسع.

كانت معرفتنا عن الجزيرة العربية، حتى مطلع القرن الحالي، نستمدها في الغالب مما وصل إلينا من أخبارها من المصادر العربية، التاريخية والأدبية، ومما كتبه جغرافيو اليونان والرومان ومؤرخوهم مثل هيرودوتس وسترابو وبليني، ومما تسرب مع الأساطير والقصص لكن منذ بضعة عقود أخذت أعمال التنقيب عن الآثار طريقها إلى الجزيرة العربية، فاتضحت لنا نتيجة لذلك أمور كثيرة لم نكن نعرف عنها ما يكفي.

وقبل أن ننتقل إلى الحديث بتفصيل عن النواحي الحضارية لمناطق الجزيرة، نود أن نضع أمامنا جدولاً مختصرًا للدول التي قامت في شبه الجزيرة حتى ظهور الإسلام.

في الجنوب:

١- دولة معين التي قامت في منطقة الجوف وكانت عاصمتها قرْناو (وهي خربة معين اليوم). ومن مدنها يثيل (براقش الحالية) وكانت مركزًا دينيًا. ودولة معين استمرت من القرن الثامن ق. م. إلى سنة ١١٥ ق. م.

٢- دولة سبأ التي تمركزت حول سبأ أولاً ثم اتسع سلطانها بحيث شمل جنوب الجزيرة العربية بأجمعه تقريبًا. كانت العاصمة الأولى سِرْواح ثم انتقلت إلى مأرب اعتبارًا من حول سنة ٦١٠ ق. م. وقد استمرت دولة سبأ من القرن الثامن ق. م. إلى سنة ١١٥ ق. م.

٣ ـ دولة قِتْبان (أو قطبان) وكانت تقع إلى الشرق من منطقة عدن والغرب من حضروموت، وكانت عاصمتها تِمنَع (حجر كحْلان اليوم). ويبدو أن هذه الدولة قامت في زمن مقارب لقيام الدولتين السابقتين، لكنها أصبحت مملكة حول سنة ٤٠٠ ق. م. وبلغت الذروة في القرن الأول ق. م. ونعرف أنها سكت نقدًا ذهبيًا حول سنة ٥٠ ق. م. انتهى أمرها في زمن السيد المسيح.

٤- دولة حضرموت التي قامت في الوادي المعروف بهذا الاسم، ثم اتسعت نحو الساحل في مَهَرَة وضمت ظفار. كانت عاصمتها شَبْوَة. وقد عمرت هذه الدولة من منتصف القرن الخامس ق. م. حتى القرن الأول ق. م. ولعلّ دولة حضرموت هي التي قضت على دولة قتبان.

٥- دولة حِمْير (الأولى ١١٥ ق. م. والثانية ٣٠٠م) كانت عاصمتها ظفار في اليمن ولم تلبث أن ضمت إليها (بعد قيامها بقليل) سبأ ومعين، فكانت أوسع دول الجنوب نفوذًا. وقد استمر سلطانها إلى ٥٢٥م.

في الشمال:

١ـ دولة الأنباط في شمال غربي الحجاز وجنوب الأردن، وكانت عاصمتها البتراء. أما مدتها فتمتد من حول ٦٠٠ ق. م. إلى ١٠٦م، إذ قضى الرومان عليها .

٢ـ دولة تدمر وجوارها. ويبدو أنها ظهرت حول سنة ١٠٠٠ق. م. واستمرت إلى سنة ٢٧٢م لما قضى عليها الرومان. وقد كانت أيام عظمتها بين سنتي ١٣٠و ٢٧٠م.

٣ـ دولة الغساسنة كانت في الأردن والجولان، وبدؤها يعود إلى أواخر القرن الخامس للميلاد، وكانت حليفة للبزنطيين. وقد استمر وجودها على هذا الشكل إلى سنة ٦٣٤م. (أيام الفتوح العربية) وقد كانت عاصمتها في جلَّق (؟).

٤ـ دولة اللخميين أو المناذرة في الجزء الجنوبي الغربي من البادية العراقية، وعاصمتها هي الحيرة. وقد ظهرت في القرن الثالث للميلاد واستمر وجودها إلى ٦٣٤م. (أيام الفتوح العربية). وكان المناذرة حلفاء للدولة الساسانية.

في الوسط :

كانت مملكة كندة المملكة الوحيدة التي نعرف انها ظهرت في أواسط الجزيرة العربية، ولم يتفق الباحثون بعد على عاصمتها. ويبدو أنها ظهرت في القرن الرابع للميلاد واستمرت إلى سنة ٥٢٩ م.

أما في الحجاز فقد كانت السيادة لخزاعة إلى أن انتقلت إلى قريش على يد قصيّ بن كلاب في مكة المكرمة .

أشرنا من قبل إلى التنقيب عن الآثار الذي تم في بعض أصقاع الجزيرة العربية؛ ولنذكر بعض هذه الأماكن الآن. ففي الجهة الشرقية من الجزيرة تم ذلك في جزيرة فيلكه وفي مدينة الكويت وفي البحرين وفي تاروت وثاج والعقير والظهران والفاو في المملكة العربية السعودية، وفي قطر وفي أبو ظبي (في جزيرة أم النار وفي العين) وفي دبي وفي دبه عند المنقلب إلى مسقط. هذا فضلاً عن التنقيب في الجنوب في اليمن الجنوبي والشمالي وفي مداين صالح في شمال غرب المملكة العربية السعودية. على أن الاف الأجرات السومرية والبابلية والأشورية التي اكتشفت في أرض الرافدين أفادتنا كثيرًا فيما يتعلق بالخليج العربي وجزره مثل دلمون (البحرين) وفيما يرتبط بالتجارة فيه. فعندنا نقش يرجع إلى أيام أور ـ نانشه ملك لاغاش (سنة ٢٥٢٠ ق. م.) يشير إلى أن أخشابًا حملتها إلى الملك سفن من دلمون. ومما أفدناه أيضًا أن قلعة البحرين تمثل حضارة امتدت من حول ٣٠٠٠ ق. م. إلى نحو ٣٠٠ ق. م. كما أن درجات مختلفة من الحضارة القديمة استمرت إلى حول ٣٠٠ ق. م. في فيلكة وثاج. واتضح لنا أن ما كان (أو ماغان) كانت تصدر النحاس إلى سومر، ويرجح أنها هي عُمان.

وقد كانت لمصر علاقات مع بلاد العرب الجنوبية منذ القرن الخامس عشر ق. م. على أقل تقدير. والذي كان يجلب التجار المصريين وغيرهم إلى اليمن نفسها هو

اللبان (البخور الجيد) والمر. ذلك أن البخور، على اختلاف درجاته في الجودة، كان يستعمل في كل هيكل ومعبد في العالم القديم. وحضرموت هي البلاد الوحيدة في العالم القديم التي كانت تنتج أصنافه الجيدة. أما أصنافه الأخرى فكانت موجودة في جنوب الجزيرة العربية وفي منطقة الصومال. وكانت اليمن مركز هذه التجارة على العموم. فقد كان يجمع في ظُفار بحضرموت ويُنقل منها ومن قِنا على الشاطىء الجنوبي، إلى اليمن ومنها يحمل إلى مصر والعراق وسورية وآسيا الصغرى والعالم اليوناني وإيطاليا.

إلى هذا كانت. اليمن ــ بموانئها ومدنها الداخلية ــ مركزًا للتجارة الهندية والأفريقية مع البحر المتوسط، فكانت الطيوب والبهارات والأقمشة الحريرية والجواهر وريش النعام والرقيق والعاج والأصداف والذهب والفيلة يجمعها التجار العرب هناك، وقد حملوها من الهند وسيلان وبلاد الصومال وجزيرة سوقطرى وبلاد الزنج، ثم ينقلونها عبر البحر الأحمر، أو، وهو الأرجح عندما تشتد القرصنة في هذا البحر، عن الطريق البري عبر نجران ومكة المكرمة والعُلا والبتراء وغزة. والمدينتان الأخيرتان كانتا مركزي التوزيع إلى سورية الداخلية (دمشق) وموانىء البحر الأبيض المتوسط. ونحن نجد أنه لما نظّم البطالمة شؤون مصر والبحر الأحمر كانت التجارة البحرية هي الرائجة، فلما ضعف البطالمة، اقتصر نقل المتاجر على الطريق البري الحجازي. وعادت إلى البحر الأحمر تجارته أيام الرومان؛ إلا أن الاضطراب الذي أصاب الأمبرطورية في القرن الثالث للميلاد أثر في تجارة البحر الأحمر، فعادت التجارة إلى الطريق الحجازي البري، الأمر الذي استمر حتى ظهور الإسلام.

وقد احتفظ العرب باحتكارهم للطرق التجارية في المحيط الهندي حتى القرن الأول للميلاد، لما اهتدى هبالوس إلى سر الرياح الموسمية ومواعيد هبوطها، وعندئذ نفذ الغربيون إلى مياه المحيط الهندي بسفنهم الأكبر والأقوى وزاد إقبالهم على المتاجر الشرقية. ومع ذلك فقد عاد للعرب أكثر الاتجار مع الهند في العصور الرومانية المتأخرة والبزنطية.

على أن حضارة اليمن مثلاً، وكانت أكثر مناطق الجنوب تقدمًا ، لم تقتصر على التجارة، بل ان المدن اليمنية، في أيام سبأ وحمير، عرفت ازدهارًا كبيرًا في الصناعة والزراعة. وفي الصناعة كان البناء مزدهرًا في اليمن. فقصوره الكبيرة ، وفي مقدمتها قصر غمْدان ، مشهورة. وكانت صناعة النقش على الجزع واتخاذ الآنية منه مما عرفت به شبام وظفار. وقد استخرج العرب الذهب من أماكن كثيرة في اليمامة وديار ربيعة والحفير والضبيب والثينة. وكانت مناجم مهد الذهب، بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، أشهر مناجم الذهب العربية في التاريخ. فقد زودت أحيرام ملك صور وسكان القدس في القرن العاشر قبل الميلاد بحاجتهم من الذهب. (وقد ظل الذهب يستخرج

من هذه البقعة إلى أيام هرون الرشيد في أواخر القرن الثامن للميلاد /الثاني للهجرة). كما كان العرب يغطسون على اللؤلؤ في عدن وعُمان وهجر وجزيرة أوال (البحرين). وكما اشتُهرت السيوف اليمانية وسهام بَلاد والرماح الخطية، عُرفت البرود اليمانية المتقنة والأنسجة العُمانية كان أجودها يأتي من صُحار.

أما الزراعة فقد بدت آثارها في اليمن في إنشاء السدود الكبيرة التي كانت تجمع المياه وراءها وتوزعها على عدوات الأودية والسهول القريبة. وأشهر سدود اليمن هو سد مأرب الذي عرفناه أولاً من وصف ثلاثة رحالين أوروبيين (بين سنتي ١٨٤٣ و١٨٩٤) ودراسة الدكتو أحمد فخري (١٩٤٧ المنشورة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢) والحفر الأثري الذي تم سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ .

على أن الدراسات الحديثة (١٩٥٠ ـ ١٩٥٧) أظهرت منطقة أخرى كانت فيها زراعة ناجحة في جنوب الجزيرة العربية وهي دولة قتبان في وادي بَيّحان ووادي حَريب. وهذا الواديان يتجهان الى الشمال نحو الصحراء بدءًا من الكتلة الجبلية المتمركزة في جنوب الجزيرة. وآثار الري ومصانع الماء كثيرة، وأكبرها ما جمع خلفه مياه وادي بَيّحان، والقناة التي بنيت في حجر حميد والتي يبلغ طولها ١،٢٠٠ من الأمتار. وقد أقيمت عليها هواويس (أحواض) لتوزيع المياه على جانبيها. وكان المزارعون يزرعون الحبوب التي كانت تغذي أهل المنطقة وكانت تزرع في وادي بَيّحان أشجار المر.

في الفترة التي تلت قيام الأمبراطورية الرومانية انتقل بعض مراكز التجارة الرئيسة من اليمن إلى مصر، لذلك ضعفت التجارة اليمنية بعض الشيء. لكن مملكة حمير احتفظت ببعض سيطرتها التجارية . على أن إهمال السدود التي كانت العامل الرئيسي في توفير المواد الغذائية الزراعية للسكان، وذلك منذ القرن الرابع للميلاد، يدل على ضمور سياسي، ولو أن الدولة اتسعت (٣٠٠م). وجدير بالذكر أن اليمن كانت منذ القرن الرابع الميلادي يعنى بها البيزنطيون والساسانيون بسبب موقعها التجاري والإستراتيجي. وكانت المسيحية انتشرت في بعض أجزاء بلاد العرب، وهنا تعنينا نجران، واعتنق بعض سكان اليمن اليهودية، فقام ذو نواس تُبّع اليمن المتهود، بحملة ضد أهل نجران فقتلهم. وكان أن نجا أحد زعماء نجران فاستنجد بالأمبراطور البيزنطي ضد أهل اليمن المتهودين. ولم يكن باستطاعه الأمبراطور البيزنطي أن يبعث جيشًا إلى تلك الأنحاء القاصية، فكلف النجاشي، صاحب الحبشة أن يقوم بذلك . وكان النجاشي يطمع في اليمن فقام بتنفيذ رغبة الأمبراطور. ونجح الجيش بقيادة أرباط في القضاء على دولة الحميريين (سنة ٥٢٥) وأصبحت اليمن تابعة للحبشة، وظلت على ذلك إلى سنة ٥٧٥م حين استولى عليها الساسانيون فأصبحت ولاية فارسية. لكن الإسلام وصل البلاد في سنة ٨ للهجرة (٦٢٨م) فقضى على السلطان الأجنبي.

دول شمال الجزيرة

قامت في شمال الجزيرة العربية وفي مشارف الشام وتخوم العراق دول أربع كبيرة هي: الأنباط في البتراء وتدمر في البادية الشامية والغساسنة في الأردن والجولان وحوران واللخميون في غرب أرض الرافدين.

١- استوطن الأنباط العرب، وهم أصلاً من عرب جنوب الجزيرة، الجزء الجنوبي من الأردن حول سنة ٥٠٠ ق. م. وبلغت دولتهم عزها في القرن الأول ق.م، والقرن الأول بعده إلى أن قضى عليها تراجان سنة ١٠٥م. وقد قاومت السلوقيين الذين هاجموا البتراء سنة ٣١٢ ق. م. كما وقفت حتى في وجه الرومان قبل الأمبرطور تراجان، وفي فترة عزها وصل نفوذ البتراء إلى شمال غربي الحجاز (مداين صالح أو الحجر) جنوبًا ودمشق شمالاً وسيناء غربًا.

والمنطقة التي نزلها الأنباط أول ما نزلوا كانت فيها حضارة تقوم حول الكرك ومعان، وكانت فيها صناعة تتمركز في وادي العربة والعقبة، قوامها النحاس الذي كان يستخرج من الوادي. وقد تخير الأنباط هذه البقعة الصخرية ـ البتراء ـ فنقروا هياكلهم في صخورها، وأقاموا مبانيهم في واديها وجعلوها مركزًا كبيرًا للاتجار. فلم تلبث القوافل أن اتجهت نحوها فاستمتعت بحماية الأنباط ووفرة المتاجر في أسواقها، التي كانت تحمل من بلاد العرب ومصر وسورية. وقد أثرت المدينة فامتدت أبنيتها ومحفوراتها إلى الآكام المجاورة؛ وصنعت البتراء الخزف الدقيق الرقيق الذي كاد أن يكون شفافًا، وزخرفته بالنقوش الجميلة، وسكت النقود الفضية. واستعملت البتراء كتابة ألفبائية، ظلت تستعمل في المنطقة لثلاثة قرون تقريبًا بعد زوال الدولة السياسي، الذي لم ينه دور البتراء التجاري إذ استمر هذا إلى نهاية القرن الثاني للميلاد ولو أنه كان أضعف من ذي قبل.

ولما احتل تراجان البتراء أنشأ ولاية تسمى «العربية» وكانت بصرى (اسكي شام) عاصمتها، وبنى طريقًا يصل بين هذه والعقبة جنوبًا وبينها وبين ودمشق شمالاً.

ولا تزال البتراء تسحر الزائر بجمالها، فخزنة فرعون والهياكل والبيوت المنحوتة في الصخر والأبنية التي تغطي آثارها الساحة العامة حيث كانت السوق الرئيسة. وقد زاد عدد سكان البتراء، بحيث أنه من أهم الأعمال التي خلّفها الأنباط في عاصمتهم القني التي حفرت لنقل المياه من الأماكن المجاورة والخزانات التي بنيت لجمع المياه

وتوزيعها على السكان، تعتبر من الأعمال الهندسية الهامة بالنسبة إلى تلك الأزمنة،

٢ ـ كانت دولة تدمر تتمركزحول المدينة التي تحمل هذه الاسم. والمدينة قديمة العهد، إذ إن أعمال التنقيب الأثري فيها أظهرت أنها تعود إلي الألف الثاني ق. م. إلا أنها بلغت أوج عظمتها في القرنين الثاني والثالث للميلاد لما تحولت إليها طرق التجارة التي كانت تتجه نحو البتراء قبلا. وقد تأثرت تدمر بحضارة اليونان والرومان، وقد أثرت فأقيمت فيها الأبنية الفخمة وزينت شوراعها الطويلة بمئات الأعمدة المزخرفة وبنيت فيها الخانات والفنادق للمسافرين وللقوافل.

عرفت تدمر عظمتها على يد أميرها أذينة الذي حارب شابور الاول الساساني (٢٤٠ ٢٧١م) وانتصر عليه وأخرجه من سورية، بل لحق به إلى أسوار عاصمته تسيفون (المدائن) وكان ذلك سنة ٢٦٥م. وأصبح أذينة سيد سورية وأرمينية ومصر وشمال بلاد العرب. لكن الرومان خشوا بأس أذينه فأوعزوا إلى من سمّه وابنه في حمص (٢٦٧م) فقامت زوجه زنوبيا (الزبّاء) مكانه على العرش وصية على ابنها وهب اللات. فحاربت الرومان وانتصرت عليهم ودحرت جيوشهم حتى أنقره، ولكن أخيرًا تغلب عليها الأمبراطور أورليان سنة ٢٧٢م، فأسرها ودخل تدمر ودمرها بعد ذلك بقليل.

والذي يتفق عليه الباحثون هو أن تدمر كانت ذات تنظيم يوناني في طبيعته. فثمة مجلس شيوخ يتولى رئاسته «مقدم» ومجمع عام للأحرار، وموظفون يسمى واحدهم أرخون، وموظفون ماليون يختارهم مجلس الشيوخ. يضاف إلى ذلك الموظفون القضائيون والكهنة وكان في مقدمتهم «أمين» العين الحارة المقدسة. ونرى من هذا وغيره أن تدمر كانت تمثل العنصر العربي السامي الأصيل في حياتها الدينية؛ والحضارة الهلنستية التي تسربت إليها بحكم وجود السلوقيين في هذه الديار؛ والإدارة الرومانية بقدر ما كان يهم الرومان أن تكون طريق القوافل من دمشق إلى تدمر فالصالحية (دورا ـ أوروبوس) تحت نفوذهم أو على الأقل مأمونة بالنسبة لتجارتهم. أما اللغات التي استعملت فكانت العربية أصلاً وهي لغة السكان، واليونانية باعتبارها لغة الحضارة التي انتشرت في الشرق ، واللاتينية التي كانت لغة الإدارة على الأقل منذ العقود الأولى للقرن الثاني للميلاد. أما علاقة الإدارة المركزية بالقرى والقبائل التابعة لتدمر فكانت تقوم على أساس الارتباط القبلي والعشائري: من حيث تنظيم التجارة وحفظ الأمن وحماية القوافل وتحصيل الجعْل من الاتباع.

٣ـ وصل الغساسنة مشارف الشام في القرن الرابع للميلاد. ومؤسس دولتهم ، بحسب الرواية، هو جفنة. ومن ثم فإنهم يسمون «أولاد جفنة». ولما اتسعت هجرة عرب الجنوب بعد خراب السدود إلى الشمال إنضم قوم إلى الغساسنة. ومن المتعارف عليه أن عاصمتهم كانت

في جلّق [١] . أما مواطنهم فكانت الأردن والجولان وحوران. وقد بلغ الغساسنة دور العظمة في القرن السادس للميلاد أيام الحارث الثاني وابنه المنذر وإبنه النعمان. وقد كان الغساسنة حلفاء البيزنطيين على نحو ما كان المناذرة (اللخميون) حلفاء الساسانيين.

ولما هاجم كسرى أبرويز سورية وانتزعها من أيدي البيزنطيين لمدة قصيرة في أوائل القرن السابع، قضى على دولة الغساسنة. لكن الجماعة نفسها حافظت على وجودها كقوة قبليّة كانت في البلاد لما فتحها العرب وكانت عونًا لهم.

وحضارة الغساسنة كانت مزيجًا من الحضارات القديمة التي عرفتها سورية من قبل والحضارة اليونانية الرومانية والحضارة العربية التي حملها القوم من جنوب الجزيرة، موطنهم الأصلي. فالبيوت والقصور وأقواس النصر والكنائس الباقية آثارها في الأردن وحوران والجولان ، والحمامات والقنى والمسارح الموجودة في تلك الجهات، تشهد على ما كان للغساسنة، من دور في التطور الحضاري للمنطقة.

كان الغساسنة مسيحيين من اتباع الكنيسة القائلة بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح (اليعاقبة)،على نحو ما كان أكثر مسيحيي بلاد الشام وأقباط مصر. والذي عليه المؤرخون أن هذه القضية لم تكن دينية فحسب، بل كانت سياسية أيضًا. فاليعاقبة كانوا يختلفون مع الكنيسة البزنطية الرسمية، كما كانوا يختلفون مع الدولة البزنطية (راجع... تحت).

٤ـ كانت دولة اللخميين في الحيرة رابع الدول التي قامت في شمال الجزيرة. واللخميون (أو المناذرة إذا سموا باسم غالبية ملوكهم) هم تنوخيون أصلاً. وقد هبط هؤلاء تخوم العراق في القرن الثالث للميلاد. وقد انضمت إليهم بطون أخرى فيما بعد. وقضوا أيامهم الأولى في المضارب، إلى أن استقروا في الحيرة. ومنشىء دولتهم هو عمرو بن نصر بن ربيعة بن لخم. وقد ظهرت عظمة الحيرة لأول مرة في أيام المنذر الأول (٤١٨ـ ٤٦٢م) الذي بلغ من القوة حدًا أنه أرغم الفرس على تتويج بهرام جور (٤٢٠ ـ٤٥٧م)، وهو من اختياره، ملكًا عليهم. مع أنه كان قد سبق للحيرة فترة عظمة من قبل، أيام المنذر بن ماء السماء وابنه في القرن الثالث م.

كان لدولة اللخميين في الحيرة حضارة تتمثل فيما روي عن قصورها كالخورنق والسدير وكنائسها وعن تجارتها وبلاط ملوكها. على أن اللخميين لم يصلوا إلى ما وصل إليه الأنباط والتدمريون والغساسنة من إتقان فن البناء والزخرف.

كان اللخميون حلفاء الساسانيين على ما كان الغساسنة حلفاء البزنطيين . وكانت بين الجماعتين العربيتين حروب بسبب ما كان من عداء وحروب بين الدولتين الكبيرتين. وكانت أشد الحروب تلك التي قامت أيام الحارث الثاني الغساني والمنذر الثالث اللخمي. وأكبر المعارك التي اقتتل فيها الملكان هي المعروفة بيوم حليمة (في شمال سورية) سنة ٥٥٤م.

وكانت الحيرة وبصرى مدينتين تجاريتين مثل البتراء وتدمر. وقد ظلت دولة اللخميين قائمة في الحيرة حتى الفتح العربي، فأصابها ما أصاب الغساسنة. ان اللخميين والغساسنة أصبحوا جزءًا من أمبراطورية عربية عظيمة واسعة.

٥ ـ كانت في بلاد العرب ثلاثة طرق رئيسة: الأول كان يبدأ من ظُفار في حضرموت وينتهي بمأرب (أو صنعاء) وعلى هذا الطريق كانت تُحْملُ الطيوب والبخور من جنوب بلاد العرب وعبر وادي حضرموت. وكانت مأرب مرتبطة بموانىء اليمن مثل عدن ومخا (موزا). والطريق الثاني الشرقي الذي كان يبدأ من ظفار ويتجه إلى عُمان ثم إلى الحيرة (بطريق القطيف أو ما إليها). وهذا الطريق كان واسطة الاتصال بين جنوب الجزيرة وأرض الرافدين. أماالطريق الثالث، وهو الأهم، فقد كان يبدأ من مأرب ويتجه شمالاً عبر نجران والحجاز (مارًا بمكة والمدينة) حتى ينتهي بالعلا على حدود دولة الأنباط. وكانت العُلا مرتبطة بطريق تجاري مع تيماء؛ وتيماء هذه كانت نقطة تتفرع منها الطرق التجارية الشمالية. فطريق يذهب إلى العراق مارًا بواحات نجد (الرياض وحائل)؛ وآخر يتجه شمالاً بطريق البتراء وبصرى إلى دمشق وتدمر، وهذا كان يحمل تجارة سورية. والثالث كان طريقًا يتجه إلى مصر بطريق البتراء أو العقبة وغزة، والطريقان الأخيران كانا يفيدان من وادي السرحان في الأردن.

كانت للبحر الأحمر تجارة بحرية تزاحم الطرق البرية الحجازية، تنقل عبرها متاجر الهند وجنوب الجزيرة والصومال إلى مصر رأسًا. لكن بسبب انشغال البزنطيين في حروب طاحنة مع الساسانيين في أواخر القرن السادس للميلاد، فقد قلّ شأن هذا الطريق البحري. وبذلك استعادت الطرق الحجازية البرية أهميتها. ولأن الدولتين الكبيرتين في الجنوب (حِمْيَرَ) وفي الشمال (الأنباط وتدمر) قد ضعف أمرهما، فإن التجارة والمحافظة على وسائلها وقوافلها انتقلت إلى أيدي قريش، سادة مكة. وبعد أن كانت مكة مركزًا للقوافل اليمنية أصبح أهلها تجارًا وأصحاب قوافل. وقد بلغ بعض هذه القوافل درجة كبيرة من الضخامة، إذ كان في القافلة الواحدة ألفان وخمسمئة من الإبل.

ومثل هذه القافلة الكبيرة كانت بحاجة إلى استعداد كبير، فثمة الركائب اللازمة والمتاجر التي تنقل، والادلاء الذين يرشدون التجار، والرئيس الذي ينظم شؤون القافلة والجماعة التي تسير معها لحمايتها، والعيون الذين يرسلون للتأكد من خلو الطريق من الغزاة ، والرجال الذين ينظمون ما يجب أن يُدّفع للأعراب الذين تمر القافلة في ديارهم.

وكانت قريش سيدة مكة، تقطن شعابها، ويجاورها في الأرض جماعات كبيرة ممن يرتزقون في الأسواق الكبيرة من الأعراب، وبينهم يقطن الأحابيش. ولعله كان في مكة وكلاء تجاريون من سورية وبزنطية. وكانت أسواق مكة تحفل بكل ما تنتجه الهند واليمن والحبشة وسورية والعراق ومصر من طيوب وعطور وثياب وريش نعام وعاج

وذهب وسيوف وتمور.

وكانت مكة، إلى ذلك مركزًا دينيًا يقصده أهل الحجاز للعبادة.

وترجع سيادة قريش على مكة إلى قصي بن كلاب، جد الرسول (ص) الذي انتزع الأمر من خُزاعة وجعله في قومه (حول سنة ٥٠٠م) بعد أن كانت مكة قد دانت لخُزاعة نحو ثلاثة قرون. وكان انتزاع السيادة نتيجة حرب قامت بينها وبين قريش، وانتهت بتحكيم أعطي لقريش في أمر سيادة مكة وأمر البيت الحرام هناك (٥٠٧م) فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفاد والندوة واللواء.

وهكذا فلما تحولت التجارة من البحر إلى البر في القرن السادس للميلاد كانت قريش مهيأة لتولي الأمور. ولم تكن مكة المدينة الوحيدة في الحجاز. فقد كان هناك يثرب (المدينة المنورة) والطائف وحوارة (لوكي قومي) والجار على البحر الأحمر.

الهوامش

(١) جلق من أسماء دمشق. ومع أن الغساسنة مثل الأنباط قبلهم، وضعوا دمشق تحت سيطرتهم بعض الوقت، فإن دمشق لم تكن عاصمة لهم.

الحياة الاقتصادية في جنوب الجزيرة

تمثل دول جنوب الجزيرة، التي ظهرت فيها حتى مجيء الإسلام، نوعًا من الاستقرار النسبي. ويعود ذلك إلى أن المياه كانت تتوافر من الأمطار، ثم عمل أولو الأمر على بناء سدود كانت السبيل إلى خزن الماء إلى حين الحاجة، وتوزيعه على الأرض في أوقات الصيف المحرقة. لذلك كان لدى السكان موارد للمواد الغذائية الرئيسة ثابتة. يضاف إلى هذا أن التجارة كانت منتظمة بشكل عام، ومن هنا كانت المدن والموانىء أماكن لتجميع السلع وإعادة توزيعها وحملها، مع القوافل، إلى الأماكن النائية، كما أن السفن كانت تعود إلى جنوب شرق آسيا من حيث حملت العطور والتوابل ، ومعها منتوجات حوض البحر الأبيض المتوسط المختلفة، ومن ثم فقد كان من الضروري، لنجاح هذه الأعمال التجارية أن يكون ثمة نوع من التوافق والتكامل. وهذا ما كشفت عنه النقوش التي جمعها العلماء من جهات مختلفة من تلك المناطق.

التجارة

إن ما كشف عنه التنقيب الأثري في الجزيرة العربية، وما عرفناه من درس لآلاف الاجرات السومرية والبابلية التي اكتشفت في أرض الرافدين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، أوضح لنا أمورًا هامة تتعلق بتجارة الخليج العربي وخليج عمان وجنوب الجزيرة. فهناك نقش يرجع إلى أيام أور ـ نانشه ملك لاغاش (٢٥٢٠ق.م.) يشير إلى سفن دلمون (البحرين) حملت إليه أخشابًا، لعلها جاءت أصلاً من عُمان أو حتى من الهند. وحفريات قلعة البحرين أظهرت أن حضارة قامت هناك بين ٣٠٠٠ و٣٠٠ق. م. وأعمال الحفر في جزيرة فيلكة وفي ثاج كشفت عن حضارة امتدت إلى القرن الثالث ق. م. واتضح لنا أن ماكان (ماغان)، وهي عُمان، كانت تصدر النحاس إلى سومر.

وقد كانت لمصر علاقات تجارية مع بلاد العرب الجنوبية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد على أقل تقدير. والذي كان يجذب التجار المصريين (وغيرهم) إلى اليمن بالذات هو اللبان (البخور الجيد) والمر. ذلك أن البخور، على اختلاف أصنافه، كان يستعمل في كل معبد وهيكل في العالم القديم (كما استعمل فيما بعد في

الكنائس). وحضرموت هي البلاد الوحيدة (المعروفة إلى الآن) التي كانت تنتج أصنافه الجيدة (اللبان). أما أصنافه الأخرى، مثل المر، فكانت تنمو أشجارها في جنوب الجزيرة العربية وفي الصومال. وكانت اليمن مركز تجارة البخور. فقد كان المحصول يجمع في ظُفار بحضرموت وينقل منها ومن قنا على الشاطىء الجنوبي، إلى اليمن. ومن المدن هذه كان يحمل إلى مصر والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى والعالم اليوناني وإيطاليا، كما كان ينقل بعضه إلى الهند.

إلى هذا كانت اليمن ـ بموانئها ومدنها الداخلية ـ مراكز لتجميع السلع الهندية والأفريقية تمهيدًا لنقلها إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وشطآنه. فكانت الطيوب والبهارات والأقمشة الحريرية والجواهر وريش النعام والعاج والأصداف والفيلة والذهب والعنبر يجمعها التجار العرب هناك، وقد حملوها من الهند وسيلان وبلاد الزنج والصومال وجزيرة سوقطرى، ثم ينقلونها عبر البحر الأحمر إلى الشمال. وعندما كانت تقوى القرصنة في البحر الأحمر، كانت هذه المتاجر تنقل برًا عبر نجران ومكة والعُلا إلى البتراء وغزة. ومن هاتين المدينتين كانت توزع إلى سورية الداخلية (دمشق) وموانىء البحر المتوسط.

لنا نظم البطالمة شؤون مصر والبحر الأحمر، كانت طرق التجارة البحرية هي المستعملة عمومًا، لكن لما ضعف شأن البطالمة، في القرنين الثاني والأول ق. م. انتشرت القرصنة في البحر الأحمر، وأصبح الطريق البري (اليمن ـ الحجاز ـ الأردن) أكثر استعمالاً. وعادت إلى البحر الأحمر تجارته أيام الرومان إلى القرن الثالث الميلادي. لكن الاضطراب الذي ساد الامبراطورية بعد ذلك، نقل التجارة ثانية الى البر. وقد استمر هذا حتى ظهور الإسلام.

حافظ العرب على احتكارهم للطرق التجارية في المحيط الهندي حتى القرن الأول للميلاد، لما اهتدى هبالوس إلى سر الرياح ومواعيد هبوبها، وعندها نفذ الغزنيون (من اليونان والرومان) بسفنهم إلى ذلك المحيط، كما زاد إقبال سكان الأمبرطورية الرومانية على طلب السلع الشرقية. ولكن العرب عادوا إلى السيطرة على التجارة البحرية الهندية في القرون الثلاثة السابقة لظهور الإسلام.

الصناعة

على أن حضارة اليمن وغيرها وتقدمها الاقتصادي لم يعتمدا على التجارة فحسب، بل كان للصناعة شأن كبير في ازدهار المنطقة. فالبناء كان من الصناعات الهامة. فقصور اليمن، وفي مقدمتها قصر غَمدان، مشهورة. وكانت صناعة النقش والحفر على الجزع والعاج مما عرفت به شبام وظفار. وقد استخرج الذهب من أماكن متعددة في اليمامة وديار ربيعة والحفير والضبيب والثية. وكانت مناجم «مهد الذهب» في الحجاز أشهر هذه المناجم. فقد زودت أحيرام ملك صور وسكان القدس في القرن

العاشر ق. م. بحاجتهم من الذهب. (ظل مهد الذهب يستخرج منه هذا المعدن الثمين إلى أيام هرون الرشيد). وقد عثر في المباني الأثرية في اليمن على بقايا من الرصاص الذي كان يصب مصهورًا في أسس الأعمدة لتثبيتها. ومن المعادن التي استعملها العرب لصنع الحلي العقيق والزمرد. ومن المعروف أن أغلب النشاط في التعدين والصناعة كان مركزًا في اليمن في منطقة سبأ وما جاورها. وقد اشتهرت السيوف اليمانية والرماح الخطية، كما عرفت البرود اليمانية المتقنة. وكانت صُحار من مراكز صنع النسيج. يضاف إلى هذا أن العرب كانوا يغوصون على اللؤلؤ في عدن وعمان وهجر وجزيرة أوال (البحرين اليوم).

على أننا يجب أن ننوه بأن هذا الإنتاج الصناعي، باستثناء الذهب واللؤلؤ، كان محدودًا محليًا. وقد صُدِّر قدر منه إلي بعض أقسام الجزيرة، لكننا لا نجد في المصادر التي بين أيدينا ما يدل على إنتاج كبير للتصدير إلى الخارج.

الزراعة

كانت الزراعة موضع اهتمام في جنوب الجزيرة. وقد بدت آثار العناية في بناء السدود لجمع المياه لاستخدامها أيام الجفاف. وسد مأرب مشهور. وقد عرفنا أخباره من وصف رحالة أوروبيين ثلاثة (بين ١٨٤٣و١٨٩٤) ومن دراسة قام بها الدكتور أحمد فخري (١٩٧٤) نشرت (١٩٥١ ـ٢). ثم كان هناك أعمال حفر وتنقيب بعد ذلك.

على أن الدراسات الحديثة (١٩٥٠ ـ ٥٧) أظهرت منطقة أخرى كانت فيها زراعة ناجحة في جنوب الجزيرة هي وادي بيحان ووادي حَريب (في دولة قتبان). وهذان الواديان كانت تتجمع فيهما الأمطار التي تسقط على الكتلة الجبلية المتمركزة في جنوب الجزيرة. وآثار الري ومصانع الماء هناك كثيرة. وأكبرها السد الذي كانت تجمع خلفه مياه وادي بَيْحان، والقناة التي بنيت في حجر حميد والتي يبلغ طولها ١،٢٠٠ من الأمتار. وقد أقيمت عليها أحواض (هواويس) لتوزيع المياه على جانبيها. وكانت الحبوب التي تغذي أهل المنطقة تزرع هناك. يضاف إلى هذا أن أشجار المر كانت تنمو في وادي بيحان.

الجزيرة العربية في العصور الإسلامية الاولى

كان ظهور الإسلام في الحجاز فاتحة عهد جديد في حياة الجزيرة العربية. فقد أصبح أبناؤها أصحاب دين يحملونه إلى شعوب الأرض. وليس غرضنا في هذا الفصل توضيح ذلك أو تبيينه. فأمره معروف. ولسنا نريد أن نتحدث عن التغيير الذي أصاب الناس بسبب ظهور الإسلام بينهم. ولكن الذي نريد أن نشير إليه إشارة عابرة هو أنه في عصر النبي (ص) وعصر الأوائل من الخلفاء الراشدين، كانت الجزيرة العربية عامة، والحجاز بوجه خاص، نقطة الارتكاز الرئيسة سياسيًا واقتصاديًا، في المنطقة التي يطلق عليها اليوم اسم الشرق الأوسط. ومع أن البلاد نفسها لم تزدد مصادر ثروتها الأصلية شيئًا، فإن الأموال التي وصلتها بسبب الفتوح والانتشار كانت كثيرة جدًا. وكتب التاريخ العربي تزخر بأخبار ما كان يحمل إلى المدينة، عاصمة الدولة، من الفيء والضرائب والجزية، ولما وضع ديوان الجيش، وخص الناس بمبالغ معينة بنسبة سابقتهم في الإسلام، أصبح لديهم أموال أنفقوها في شراء البضائع التي كانت تحمل إلى تلك الأنحاء من جهات كثيرة، وأقاموا الدور الجميلة وما إلى ذلك.

ومع أن انتقال عاصمة الخلافة إلى دمشق في أيام الأمويين قلل مما كان يصل إلى الحجاز من الأموال، فقد ظل الخلفاء الأمويون، أو أكثرهم على الأقل، يصلون أهل الحجاز بالكثير من الهبات والعطايا، ويعنون بشق الترع والقني حيث يمكن ذلك في الجزيرة، بحيث ظل للقوم مصدر رزق يحسدون عليه. ودليل ذلك هذا الترف الذي عرفه الحجازيون في العهد الأموي والذي يبدو أثره في شعرهم ومجالسهم. ودواوين العصر شاهدة على ذلك كله.

ومع أن شيئًا من ذلك قد بقي في أيام العباسيين الأول، فإن أكثره تلاشى، لأن هذه الدولة الجديدة كانت لها مشاكلها واتجاهاتها وقضاياها الكثيرة التي دارت في آفاق غير آفاق الجزيرة العربية. ثم عصفت بالجزيرة في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة اضطرابات سياسية وخلافات أقضت مضجع الناس ونغصت عليهم حياتهم، فتعطلت تبعًا لذلك أمور كثيرة في حياة البلاد الاقتصادية، إلا في اليمن والأحساء حيث ظلت الأرض كريمة وإن كانت عناية الناس بها أقل من ذي قبل.

ومع ذلك فقد ظل للجزيرة موردان هامان من موارد الثروة هما الحج وتجارة البحر مع الشرق من جهة، ومع العراق ومصر من جهة ثانية. ولما كان الحج معروفًا أمره، فإننا نود أن نتحدث هنا عن دور التجارة في حياة الجزيرة العربية في عصور الإسلام الأولى.

جدير بالذكر أنه في الوقت الذي كان العالم الإسلامي يتمتع فيه بوحدة سياسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري على وجه التقريب، كانت الصين أيضًا تنتظمها أمبرطورية واحدة امتدت الفترة نفسها تقريبًا. وهذا يسّر الاتجار بين العالم الإسلامي والهند والصين. ومع أن الأمويين اهتموا بتجارة البحر الأبيض المتوسط اهتمامًا خاصًا، فإنهم لم يهملوا التجارة مع الأقطار الشرقية. ولكن قيام العباسيين أعاد إلى التجارة الشرقية قيمتها السابقة، بسبب أن البحر الأبيض المتوسط لم يكن بحر العباسيين

وإذا أخذنا هذه التجارة الشرقية وجدنا أن موانئها لم تكن كلها في شبه الجزيرة، إذ كانت سيراف مثلاً في أرض فارس. ولكن قطر وصحار ومسقط كانت مراكز هامة لها. ومن الأخيرة كانت السفن تبحر رأسًا إلى ساحل ملبار في غربي الهند. وفي جنوب الجزيرة كانت تقوم ريسوت والشحر وعدن. وهذه كانت مراكز الاتجار مع شرق أفريقيا والحبشة. أما موانىء الجزيرة على شواطىء البحر الأحمر فقد كانت أكبرها جدة، ميناء مكة.، الجار، ميناء المدينة. في جدة كانت بضائع الشرق الأقصى القاصدة مصر تنقل إلى سفن مصرية تحملها إلى أسواقها.

أما المتاجر التي كانت تحمل من الهند والصين فلم تخرج عما كان مألوفًا من قبل - الحريرالمنسوج وزيت الكافور والمسك والأفاويه والأخشاب. وكانت جدة والجار تستوردان الحبوب من مصر.

ومن حسن حظنا أن القرن الرابع الهجري حفل بعدد كبير من مشاهير الجغرافيين العرب الذين تنقلوا في أنحاء العالم الإسلامي وخلّفوا لنا ما عرفوه عن تلك البلاد. وها نحن أولاء نختم هذا البحث المقتضب ببعض ما دوّنه هؤلاء عن المدن الرئيسة ومن كان يجتمع فيها من التجار وما كان يتبادل فيها من السلع.

فجدة، على ما يقول الإصطخري: «فرضه أهل مكة... وهي عامرة كثيرة التجارات والأموال ليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها، وقوام تجارتها بالفرس»،

ويقول المقدسي: «جدة مدينة على البحر... محصنة عامرة آهلة أهل تجارات ويسار خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر... غير أنهم في تعب من الماء... بها قصور عجيبة وأزقتها مستقيمة ووضعها حسن... ويؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة وعلى سفط ثياب الشطوى ثلاث (كذا) دنانير ومن سفط الدبيقي ديناران، وحمل الصوف ديناران».

والجار إلى شمالي جدة، أيضًا: «مدينة محصنة بها دور شاهقة وسوق عامرة».

ويصف الإصطخري عدن بقوله:

«وعدن بلد جليل عامر آهل حصين خفيف، دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات، كثيرة القصور مبارك على من دخله مثر لمن سكنه. مساجد حسان ومعايش واسعة ونعم ظاهرة..».

ويحدثنا المقدسي عن جزيرة العرب عامة فيقول: «والتجارات في هذا الاقليم مفيدة لأن به فرضتي الدنيا وسوق منى والبحر المتصل بالصين وجدة والجار خزانتي ونصر ووادي القرى. مطرح الشام والعراق واليمن، معدن العصائب والعقيق والأدم. فإلى عمان تخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والأسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك. وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبش والخدم وجلود النمر وما لو استقصيناه طال الكتاب وبتجارات الصين تضرب الأمثال ثم قولهم جاءوك تجرًا أو ملكًا».

أما عمان فقد قال عنها الإصطخري: «وعمان مستقلة بأهلها وهي كثيرة النخيل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك. وقصبتها صحار وهي على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً. ولا تكاد تعرف على شاطىء بحر فارس (الخليج العربي) بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار. وبها مدن كثيرة وبلغني أن حدود أعمالها نحو من ثلاث مئة فرسخ».

والظاهرُ أن أحوال اليمن استقرت سياسيًا لما تولى شؤونها الأيوبيون، كما استقرت أحوال الحجاز في عهد المماليك، إذ أصبحوا يحكمون مصر وديار الشام وليبيا والحجاز. وعندنا رحالتان زارا بعض أجزاء بلاد العرب وتركا لنا وصفًا لبعض مناطقها. أما أولهما فهو ابن جبير الذي كتب في أواخر القرن السادس للهجرة. فقد حدثنا عن البحر الأحمر وتجارته والحجاز ومدنه فقال:

«تجارة البحر الأحمر ـ عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة أكثر بيوتها اخصاص، وفيها الآن بناء مستحدث بالجص.. وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائدًا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب.. لكن أهلها، بسبب الحجاج، تحت مرفق كثير ولاسيما مع الحج لأن لهم على كل حمل طعامًا يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة، ولهم أيضًا من المرافق من الحاج أكراء الجلاب منهم وهي المراكب. فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم إلى جدة وردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة...

«والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر ملفقة الإنشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة.. إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط، ويفتلون منه أمراسًا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فإن فزعوا من إنشاء الجلبة على هذه الصنعة سقوها بالسمن أو بدهن الخروج أو بدهن القرش وهو أحسنها... ومقصدهم في دهان الجلبة، ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر».

«وبعد هذا يستطرد إبن جبير فيحدثنا عن جدة وكيف كانت في زمانه فيقول: «جدة ـ هذه قرية على ساحل البحر الأحمر، أكثر بيوتها اخصاص وفيها فنادق بالحجارة والطين.. وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر. وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة. وأثر سورها المحدث بها باق إلى اليوم.

«الرطبُ وهو عندهم (أهل مكة وجوارها) بمثابة التين الأخضر في شجر يجنى ويؤكل وهو في نهاية من الطيب واللذاذة. لا يسأم التفكه به، وبأنه عندهم عظيم يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب. ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع.

«ولأهل هذه الجهات الشرقية كلها سيرة حسنة عند مستهل كل شهر من شهور العام، يتصافحون ويهنىء بعضهم بعضًا ويتنافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد هكذا دائمًا».

وهنا يحدثنا ابن جبير عن التجارة وما كانت عليه في مكة المكرمة وجوارها فيقول: «التجارة والحج ـ ويقوم بالتجارة قبائل شتى كبجيلة وسواها يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام.. فيجمعون بين النسبة في العمرة ومبرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء وما دونها .. ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجتمع ميرتهم بين الطعام والأدام والفاكهة. ويصلون في آلاف من العدد رجالاًوجمالاً موقرة، بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه. يتقوتون ويدخرون وترخص الأسعار وتعم المرافق»..

أما الرحالة العربي الآخر فهو ابن بطوطة، أكبر رحالي القرن الثامن الهجري إطلاقًا وحديثه عن مدن الجزيرة العربية ماتع حقًا فهو يقول:

«مدينة صنعاء ـ وانصرفت مسافرًا إلى مدينة صنعاء، وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى، مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء طيبة الماء، ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان.

فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة. ومدينة صنعاء مفروشة كلها، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها. وجامع صنعاء من أحسن الجوامع».

وهنا يحدثنا هذا الرحالة الشهير عن عدن فيقول:

«مدينة عدن ـ ثم سافرت منها إلى مدينة عدن، مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم. والجبال تحف بها، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد. وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر... وهي شديدة الحر. وهي مرسى أهل الهند، تأتي إليها المراكب العظيمة، وتجار الهند ساكنون بها، وتجار مصر أيضًا.

«وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه، لا يشاركه فيه غيره، لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة».

ومن ثم ينتقل ابن بطوطة فيحدثنا عن ظفار بقوله: «مدينة ظفار الحموض ـ وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي، ومنها تحمل العتاق إلى الهند. ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند، مع مساعدة الريح، في شهر كامل. قد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند إلى ظفار في ثمانية وعشرين يومًا بالريح الطيبة، لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار. وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يومًا، وبينها وبين عمان عشرون يومًا. ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها. والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء، وهي من أقذر الأسواق وأشدها نتنًا، وأكثرها ذبابًا، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك. وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين، وهو بها في النهاية من السمن. ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين، وكذلك غنمهم، ولم أر ذلك في سواها، وأكثر باعتها الخدم، وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء. وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلوًا كبيرًا ويجعلون لها حبالاً كثيرة، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر، ويصبونها في صهريج يسقون منه. والأرز يجلب من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم.

«ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها. ومن عادتهم أنه إذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا في (صنبوق) إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله، وللربان وهو الرئيس، ولكاتب المركب. وهم يفعلون ذلك استجلابًا لأصحاب المراكب. وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء. ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند. ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدًا».

ويعود أبن بطوطة يحدثنا عن رحلته في جزيرة العرب فيصف قلهات، وهي إحدى مدن عمان الساحلية، بقوله:

«ثم وصلنا إلي مدينة قلهات، فأتيناها ونحن في جهد عظيم، وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها. فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب: لا بد لك أن تذهب معي إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك، ومن أين قدمت؟ فذهبت معه إليه فرأيته فاضلاً حسن الأخلاق، وسألني عن حالي وأنزلني، وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام. ومدينة قلهات على الساحل، وهي حسنة الأسواق، ولها من أحسن المساجد، حيطانه بالقاشاني، وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر المرسى، وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم، ومعنى بيبي عندهم: الحرة. وأكلت بهذه المدينة سمكًا لم آكل مثله في إقليم من الأقاليم، وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه، وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه. والأرز يجلب إليهم من أرض الهند. وهم أهل تجارة، ومعيشتهم مما يأتي إليهم في البحر الهندي. وإذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح».

القسم الثالث

جزيرة العرب

في تطورها الأول

جزيرة العرب وبحارها

كان المتعارف عليه، ونحن نطلب العلم في شرخ الشباب، وكان ذلك قبل بضعة عقود من السنين، أن سكان الجزيرة العربية كانوا في عزلة عن العالم وأحداثه وتاريخه في الفترة السابقة للإسلام. ولا يستثنى من ذلك سوى أجزاء صغيرة في اليمن وما إليه. إلا أن هذا كله تبدل في العقود الخمسة الأخيرة، فأصبح الباحثون والمؤلفون والكتّاب يعرفون أن هذه الفئات التي كانت تقطن الجزيرة، بدوها وحضرها على السواء، كانت جزءاً حيًا فاعلاً متفاعلاً من حضارات العالم القديم، ولذلك أسباب: منها أن الباحثين أخذوا الأمر بشيء كثير من الجد فرجعوا إلى بطون التاريخ يغوصون فيه على حقائق جديدة، ويغربلون الروايات على اختلاف أنواعها ليفصلوا بين الحنطة والزؤان فيها. ومنها أن الرفش والمعول دخلا مؤخرًا حلبة السباق للكشف عن آثار الجزيرة والتعرف إلى ما بنته الجماعات المختلفة من مدنيات وما عاشته من ثقافات. ومنها أن آلة التصوير رافقت المنقبين والباحثين لتصور النقوش التي كانت تعد بالآلاف من قبل، فأصبحت تعد بعشرات الآلاف اليوم. ومنها أن الحكومات القائمة في الجزيرة العربية اليوم أنشأت إدرات للآثار تعنى بها وتدرسها، ومتاحف تحفظ فيها. ومنها أن عددًا لا يستهان به من الباحثين والدارسين هم من أبناء المنطقة نفسها الذين أتقنوا وسائل البحث وحذقوا اللغات المختلفة التي نجد أن الحجارة نقشت عليها وأن الأختام صبت بها. ولا شك أن هذا الأمر الأخير مما يثلج الصدور ويدعو إلى الكثير من الأمل بالنسبة إلى مستقبل هذه الدراسات.

والجزيرة العربية تتصل بالعراق وديار الشام، وهذا الاتصال كانت له قيمة كبيرة فيما عرفه الناس من حضارة ومدنية. إلا أن الاتصال الأكبر والأقدم والأهم فيما يبدو بين الجزيرة والعالم القديم ومدنياته في مصر والعراق وحوض السند، كان يتم عن طريق البحر. فالبحار تحيط بالجزيرة من جهات ثلاث ـ الشرق والجنوب والغرب. ولذلك يتوجب علينا أن نتعرف إلى هذه البحار تمهيدًا للحديث عن الدور الذي قامت به على أنها جسور كانت تصل بين سكان الجزيرة العربية وين الأقطار المجاورة والبعيدة. والأوصاف التي نوردها في هذا المقال عن هذه البحار مأخوذة، في الدرجة الأولى، عن الجغرافيين العرب الذين عاشوا وكتبوا بين القرن الثالث والقرن الرابع للهجرة (القرن التاسع والقرن العاشر للميلاد).

ولنبدأ بالبحر الأحمر الذي سماه جغرافيو العرب بحر القلزم. فقد قال عنه ابن

حوقل من أهل القرن الرابع/ العاشر ما يلي).

«فأما ما كان عليه من القلزم إلى أن يحاذي بطن اليمن فإنه يسمى بحر القلزم ومقداره نحو ثلاثين مرحلة طولاً، وعرضه أوسع ما يكون عبره ثلاث ليال، ثم لا يزال يضيق حتى يرى في بعض جنباته الجانب الآخر حتى ينتهي إلى القلزم ثم يدور على الجانب الاخر من بحر القلزم، وهو وإن كان بحرًا ذا أودية ففيه جبال كثيرة قد علا الماء عليها وطرق السفن بها معروفة، ولن يهتدي فيها إلا بربان يتخلل بالسفينة في في أضعاف تلك الجبال بالنهار أما بالليل فلا يسلك والماء به على غاية الصفاء فترى تلك الجبال فيه، وفي هذا البحر ما بين القلزم وآيلة مكان يعرف بالراتان وهو أخبث ما في البحر من الأماكن وذلك أنه دوارة ماء كالدردور في سفح جبل، إذا وقعت الريح على ذروته انقطعت الريح قسمين، فتنزل على شعبتين في هذا الجبل متقابلتين فتخرج الريح من كمي هاتين الشعبتين المتقابلتين، فتثير البحر وتتلبد كل سفينة فيه تقع في تلك الدوارة باختلاف الريحين وتتلف، فلا يسلم المركب بالواحدة إلا ما شاء الله. وإذا كان الجنوب أدنأ مهب فلا سبيل إلى سلوكه، ومقدار هذ الصورة الصعبة والمكان القبيح نحو ستة أميال، وبقرب تاران موضع يعرف بجيلان يهيج أيضًا وتتلاطم أمواجه باليسير من الريح، وهو موضع مخوف أيضًا فلا يسلك بالصباء مغربًا وبالدبور مشرقًا. وإذا حاذى أيلة ففيه سمك كثير كبير مختلف الألوان والأنواع.

«فإذا قابل بطن اليمن يسمى بحر عدن إلى أن يحاذي عدن، ثم يسمى بحر الزنج إلى أن يحاذي عمان عاطفًا على فارس، وهو بحر يعرض حتى يقال ان عبره إلى بلد الزنج سبعمائة فرسخ، وهو بحر مظلم أسود لايرى مما فيه شيء. وبقرب عدن معدن اللؤلؤ يخرج ما يقع منه إلى عدن».

ولم يكتف ابن حوقل بوصف البحر وساحله الشرقي بل تحدث عن ساحله الغربي فقال: «وإذا أخذت من أرض القلزم من جانب البحر الغربي على ساحله سرت في مفاوز من حدود مصر حتى تنتهي إلى جزائر تعرف ببني حدان، وكان بها مراكب لمن آثر الحج، تخطف بالحجاج إلى الجار وجدة، ثم تمتد في مفاوز للبجَة كان بها معدن الزمرد وشيء من معادن الذهب إلى مدينة على شط البحر يقال لها عيذاب، وهي محاذية للجار. ثم يتصل السيف إلى سواكن، هي ثلاث جزائر يسكنها تجار الفرس وقوم من ربيعة، ويدعى فيها لصاحب المغرب،وهي محاذية لجدة. وبين سواكن وعيذاب سنجله جزيرة بين رأس جبل داوي وجبل ابن جرشم وهي لطيفة، وبها مغاص للؤلؤ ويقصد في كل حين بالزاد والرجال، وبينها وبين جدة يوم واحد وليلة، والمتسحل منها يصل إلى جزيرة باضع وبينهما مجراوان. ثم يخطف المتسحل عنها الى دهلك أربعة بحار، ومن دهلك الى زيلع ستة مجار وباضع جزيرة ذات خير ومير وماشية وهي محاذية لحلي وجزيرة دهلك محاذية لعثر وجزيرة زيلع، فكأنها بين غلافقة وعدن وجزيرة

نجه وبربرة لأعمال عدن، ومن هذه الجزائر أكثر جلود الدباغ بعدن واليمن من البقري والملمع والأدم الثقيل».

أما البحر الواقع إلى الجنوب من الجزيرة والذي كان يصلها بشرق أفريقيا غربًا وجنوب الهند شرقًا، فقد اختلفت أسماؤه وتعددت بالنسبة إلى الجهات التي كانت مياهه تغسل شوطئها، وفي هذا يقول المسعودي، وهو معاصر لابن حوقل:

«وللبحر الحبشي خليج متصل بأرض الحبشة ويسمى الخليج البربري، طوله خمسمائة [ميل] وعرض طرفيه مائة ميل، وليس بربرا هذه يراد بها أرض البربر في المغرب من أرض أفريقيا، لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم، وأرباب المراكب من العمانيين يقطعون هذا البحر إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج وفي هذه الجزيرة مسلمون بين الكفار من الزنج.

«والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري وهم يعوفونه ببحر بربرا وبلاد جفوني، أكثر في المسافة مما ذكرناه، وموجه عظيم كالجبال الشواهق وأنه موج أعمى، يردون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد كتكسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون، وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد، فإذا توسطوا هذا البحر وحلوا بين ما ذكرنا من الأمواج يرتجزون في أعمالهم فيقولون:

بربراف وجفوني ... وموجك المجنون

جفوني وبربرا ... وموجها كما ترى

«وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو، وإلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج والأسافل من بحرهم، ويقطع هذا البحر السيرافيون، وقد ركبت هذا البحر من مدينة صحار من بلاد عمان وصحار قصبة بلاد عمان، في جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب. وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن وأصابتني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج.

«وفي البحر الحبشي السمك المعروف بالأوال، طول السمكة نحو من أربعماية ذراع إلى الخمسمائة ذراع بالذراع العمرية وهي ذراع أهل ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك أن طوله مائة ذراع وربما يهدأ البحر فيظهر طرفًا من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم ـ وهو الشراع ـ وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو. أكثر من ممر السهم والمراكب تفزع منه في الليل والنهار فتضرب له بالخشب والدبادب لينفر من ذلك، ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فمه وقد فغر فاه وذلك السمك يهوي إلى جوفه جريًا، فإذا بغت هذه السمكة، بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلصق بأصل أذنها فلا يكون لها منها خالص، فتطلب قعور البحار

وتضـرب بنفسـهـا حتـى تموت، فتطفو فـوق الماء كالجبل العظيم، وربمـا تلتـزق هـذه السمكة المعروفة باللشك بالمراكب فلا يدنو الأوال مع عظمه من المركب ويهرب إذا رأى الصغيرة إذا كانت آفة عليه وقاتلة له».

وهؤلاء الجغرافيون كانوا حريصين على ذكر الثروات الموجودة في البحار والعجائب المشاهدة هناك. وقد نستغرب بعض ما رووا، كالذي مر بنا عن سمك الأوال. ولكن استغرابنا يزول إذا تذكرنا أن الكثير من الكتّاب يستعملون كلمة السمك بمعنى عام للأحياء البحرية. فالمرجح لدى الباحثين هو أن سمك الأوال لا يخرج عن كونه الحيتان الكبيرة التي كانت تعيش في المحيط الهندي. وإن كنا لا نستطيع أن نفسر اليوم تمامًا وجود هذا الحيوان الصغير الذي يلتصق بالأوال ويؤدي إلى هلاكه.

وما دمنا في سبيل التحدث عن الأشياء الغريبة والمشاهدات العجيبة فلننقل ما جاء في كتاب أخبار الصين والهند الذي يعود إلى أواسط القرن الثالث / التاسع وهو كتاب وضعه سليمان التاجر وأضاف إليه أبو زيد السيرافي بعض المعلومات. فقد جاء في ذلك الكتاب عن بعض البحار الشرقية ما يأتي:

«وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض يظلل المراكب فيشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر. فيغلي له ماء البحر: مثل الزوبعة فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته. ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطرًا فيه قذى البحر فلا أدري أيستقي السحاب من البحر أم كيف هذا. وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيجه حتى يغلي كغليان القدور فيقذف ما فيه الى الجزائر التي فيه ويكسر المراكب ويقذف السمك الميت الكبار والعظام وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم. وأما بحر هركند [بحر الهند] فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش فيغلي لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير وكلما كان البحر أغزر وأبعد قعرًا كان العنبر أجود، وهذا البحر ـ أعني هركند ـ إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد. وفي هذا البحر سمك يدعى اللخم وهو سبع يبتلع الناس».

فإذا انعطفنا من بحر العرب يسارًا متجهين إلى الشمال وصلنا إلى الخليج العربي الذي ينتهي عند الأبلة وعبادان من أرض البصرة. ولنعد الى المسعودي لننقل عنه ما ذكره عن هذا الخليج:

«طول هذا الخليج ألف وأربعمائة ميل، وعرضه في الأصل خمسمائة ميل، وربما يصير عرض طرفيه مائة وخمسين ميلاً، وهذا الخليج مثلث الشكل، منتهى إحدى زواياه بلاد الإبلة، وعليه مما يلي الشرق ساحل فارس من بلاد دورق الفرس ومدينة ماهر وسينيز ـ واليها يضاف من الثياب السينيزي الطراز وغيره وبها تصنع ـ ومدينة جنابا وإليها تضاف الثياب الجنابيه ومدينة نجيرم من بلاد سيراف، ثم بلاد ابن عمارة، ثم ساحل كرمان وهي بلاد هرموز مقابلة لمدينة صحار من بلاد عمان، ثم يلي

ساحل كرمان ويتصل به على ساحل هذا البحر بلاد مكران وهي أرض الخوارج ـ وهم الشراة ـ وهذه كلها أرض نخل.

«ثم تيزمكران، ثم ساحل السند وفيه مصب مهران، وهو نهر السند، وهنالك مدينة الديبل، بها يتصل ساحل الهند الى بلاد بروص وإليها يضاف القنا البروصي، ثم يتصل إلى أرض الصين ساحلاً واحدًا عامرًا وغامرًا. ويقابل ما ذكرنا من مبدأ ساحل فارس ومكران والسند بلاد البحرين وجزائر قطر وشط بني جذيمة وبلاد عمان وأرض مهرة إلى أرض رأس الجمجمة من أرض الشحر والأحقاف، وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك وهي بلاد جنابا لأن خارك مضافة إلى بلاد جنابا ، وبينها وبين البر فراسخ، وفيها مغاص لؤلؤ وهو اللؤلؤ المعروف بالخاركي، وجزيرة أوال وفيها بنو معن وبنو مسمار وخلائق كثيرة من العرب، بينها وبين مدن ساحل البحرين نحو يوم بل أقل من ذلك، وفي ذلك الساحل مدينة الزارة والقطيف من ساحل هجر، ثم بعد جزيرة أوال جزائر كثيرة منها جزيرة لافت وتدعى جزيرة بني كاوان وقد كان افتتحها عمرو بن العاص وفيها مسجده إلى هذه الغاية وفيها خلق من الناس وقرى وعمائرمتصلة.

«ويقرب من هذه الجزيرة جزيرة هنجام ومنها يستقي أرباب المراكب الماء، ثم الجبال المعروفة «بكسير وعوير وثالث ليس فيه خير»، ثم الدردور المعروف بدردور مسندم وتكنيه البحريون بأبي حمير، وهذه مواضع من البحر جبال سود ذاهبة في الهواء لا نبات عليها ولا حيوان، يحيط بها مياه من البحر عظيم قعرها وأمواج متلاطمة تجزع منها النفوس إذا أشرفت عليها، وهذه المواضع بين بلاد عمان وسيراف لا بد للمراكب من الاجتياز عليها والدخول في وسطها فتخطىء وتصيب».

فرقعة المياه الواسعة التي تمتد من بلاد الحبشة والزنج غربًا إلى الصين شرقًا تشمل الأجزاء المختلفة التي عرفت ببحر الزنج والحبشة وعمان والسند والهند والصين. وقد أحاط بها من الأمم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم وعددهم. ويعدد المسعودي بعض ثروات هذا البحر فيذكر منها مغاصات الدر واللؤلؤ في البحار نفسها والحجارة الثمينة كالعقيق والياقوت والذهب والفضة والحديد في الأجزاء البرية المصاقبة وأنواع الطيب والأفاويه والعنبر والأدوية والعقاقير والأخشاب والخيزران في أماكن مختلفة.

ولكل جزء من أجزاء هذه البحار رياح يعرفها الذين يركبون هذا البحر ويعرفون أوقاتها ومهابها. ويذكرنا المسعودي بأن ذلك قد علم بالعادات وطول التجارب وأن القوم كانوا يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً وأن لهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها في إبان هيجانه وأحوال ركوده وثوراته. فالمسعودي، وهو الذي ركب هذا البحر في أجزائه المختلفة كرات كثيرة يقول ان الخليج العربي: «تكثر أمواجه ويصعب ركوبه عند لين بحر الهند واستقامة الركوب فيه وقلة أمواجه، ويلين الأول وتقل أمواجه ويسهل ركوبه

عند إرتجاج بحر الهند واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبة الركوب فيه».

ثم يتم ذلك بذكر البروج التي تحدث عندها هذه الأمور.

ولننقل على سبيل المثال، ما ذكره المقدسي عن الخليج العربي وشواطئه الغربية. فقد قال: «صحار هي قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات أسرى من زبيدة وصنعاء أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر دورهم من الأجر والساج شاهقة نفيسة والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة في آخر الأسواق ولهم آبار عذيبية وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن المصلى وسط النخيل. ومسجد صحار على نصف فرسخ قد بني أحسن بناء وهواؤه أطيب هواء من القصبة ومحراب الجامع بلولب يدور تراه مرة أصفر وكرة أخضر وحينًا أحمر ونزوة في حد الجبال كبير بنيانهم طين والجامع وسط السوق إذا غلب الوادي في الشتاء دخله شربهم من أنهار وآبار. والسر أصغر من نزوة والجامع في السوق شربهم من أنهار وآبار قد التقت بها النخيل. وضنك صغيرة في النخيل من نحو هجر الجامع في الأسواق. وسوت مدينة كبيرة على يسار نزوة. ودبار وجلفار وهما من نحو هجر قريبتان من البحر . وسمد منبر لنزوة، ولسيا وملح وبرنم والقلعة وضنكان مدن أيضًا والمسقط أول ما يستقبل المراكب اليمنية ورأيته موضعًا حسنًا كثير الفواكه. وتوام قد غلب عليها قوم من قريض فيهم بأس وشدة. وعمان كورة جليلة تكون ثمانين فرسخًا في مثلها كلها نخيل وبساتين عامة سقياهم من آبار قريبة ينزعها البقر أكثرها في الجبال وأهل المدن التي ذكرنا عرب شراة.

«الإحساء قصبة هجر وتسمى البحرين كبيرة كثيرة النخيل عامرة آهلة معدن الحر والقحط على مرحلة من البحر ولهم شبه نبع متجر وثم جزائر وبها مستقر القرامطة من آل أبي سعيد ثم نظر وعدل غير أن الجامع معطل وبالقرب خزانة المهدي وخزائن أخر لهم أيضًا فبعض الأموال بتلك وبقيته في خزائنهم. والزرقاء وسابون في خزائنهم وكذلك أوال وسائر المدن في البحر أو قريبات من البحر. واليمامة ناحية قصبتها الحجر بلد كبير جيد التمور يحيط به حصون ومدن منها الفلج».

هذه صورة جغرافية عربية لهذه البحار المحيطة بجزيرة العرب والتي كانت السبيل الرئيس لاتصال أهلها وسكانها بالعالم الواسع.

ونحن إذا قابلنا بين هذه المعلومات وبين ما نعرفه الآن عن هذه البحار، لوجدنا أن المؤلفين القدامى كانوا دقيقين جدًا عند نقل الأخبار، وإن كانو قبلوا بعض الروايات المبالغ فيها تطرفًا كما رأينا.

أصوات من الماضي البعيد

(١)

كان المؤرخون، من قبل، إذا أرادوا كتابة التاريخ القديم لأي من الأقطار التي يشملها الشرق الأوسط اليوم، عمدوا إلى آثاره الظاهرة فوصفوها. فمصر بأهرامها وأبي هولها وبالتماثيل الضخمة المنتشرة في الوادي وبالصور المحفورة على جدران المعابد - مثل الدير البحري - أو على المسلات. والعراق يذكر بما تبقى من قصور الملوك البائدين أو هياكل الآلهة القديمة. فقصر نمرود في الشمال وبوابة عشتاروت (وهي الآن في متحف برلين) في بابل مثلاً هما اللذان كانا يعطيان المؤرخ مادته الأولى. وكان بين أيدي أولئك المؤرخين نبذ ونتف كتبت باللغة اليونانية أو اللاتينية مثل الذي خلّفه ميثو الكاهن المصري عن الأسر المصرية القديمة وما وصل إليه من أخبار عنها وعن سنوات حكمها. وقد كان هناك أخبار مفصلة نوعًا ما رواها هيرودتس عن مصر وغيرها من البلاد التي زارها ودوّن ما سمعه عن أخبار البلاد والعباد، وعادات القوم وعبادتهم وآلهتهم وما إلى ذلك. وقد كان الناس لا يزالون يرددون الكثير من ذلك في القرن الخامس ق. م. وعندنا أيضًا ما دوّنه سترابون، الجغرافي الروماني، الذي عاش في القرن الأول للميلاد، عن المنطقة بأسرها.

وكان المؤرخون يعتمدون، وبخاصة بالنسبة لتأريخ فلسطين والجوار، على العهد القديم من الكتاب المقدس. وأسفار العهد القديم فيها كثير من التاريخ الذي روي قرونًا قبل أن يدوّن في أقدمها في القرن الثامن ق. م. إلا أن الكثير من هذا التاريخ قد حرّف وعدل كي يؤدي مهمة خاصة بالنسبة إلى الجماعة التي دونته في نهاية الأمر.

ومن هنا كان الذي يحصل عليه القارىء، في الحقيقة، نتفًا متقطعة وصورًا مجتزأة وأخبارًا مقتضبة. وكانت التفاصيل تكثر أو تنقص على أساس كثرة الآثار الظاهرة وقلّتها. وإذا عمد الكتاب إلى الأساطير التي كانت تروى، عن طريق اليونان وغيرهم، يستنطقها أو يستشهد بها، فقد تدخل الصورة أو الخبر عالم الخيال، فيكسوه ذلك جمالاً لكنه قلما يقربه من الواقع.

وظل الأمر على ذلك إلى أوائل القرن الماضي، إذ أخذ العلماء يحلّون رموز الكتابات القديمة. ففك شمبليون (١٨٢٢) رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية، وجاء بعد ذلك رولنصون فحلّ رموز الكتابة الأسفينية السامية (١٨٥٢) التي كانت تستعمل في بلاد الرافدين أصلاً، وفي ديار الشام فيما بعد. ثم حلت رموز الكتابة الإسفينية

السومرية. ورافق ذلك حل لرموز كتابات شرقية أخرى. وعندها قرأ الباحثون ما دوّنه المصريون القدماء على جدر الهياكل وغيرها، فصارت المادة الخام أكثر بين أيديهم، كما كشفت عشرات الآلاف من قطع الآجر المشوي بالنار الذي كان البابليون يدونون عليه مراسلاتهم فتكشفت لنا عوالم جديدة فيها تاريخ ودين وتجارة وأدب وأسطورة. وانكب العلماء على هذه كلها يدرسونها وينقلونها إلى اللغات المختلفة فيضعون بين أيدي المؤرخين النصوص الأصلية، واتسع بذلك أفق التاريخ القديم.

لكن كل هذا ظلّ مقصورًا على التاريخ المدون المكتوب. والكتابة، وأقدمها الكتابة السومرية الإسفينية، لا تتجاوز أواسط الألف الرابع ق. م. ولكن ألم يسبق ذلك تاريخ آخر؟ إذا كانت الكتابة دليلاً على أن الشعب كان متمدنًا، أفليس من حق ذلك الشعب، أي شعب، أن نتعرف إلى الخطوات الأولى التي سبقت عهد المدنية الأولى عنده.

(٢)

إن العصور السابقة للعصور المتحضرة وعصور المدنية، لا تدل عليها الكتابات المدونة، مهما بلغت هذه من التفصيل. والشيء الوحيد الذي يمكن للآثار المكتوبة أن تهدينا إليه، بالنسبة إلى ما سبق عصور المدنية، هو الأساطير، والدينية فيها خاصة، التي كان القوم قد تناقلوها ثم جاء من دوّنها.

لنضرب على ذلك قصة غلغاميش. فقد كان هذا ملكًا أسطوريًا لمدينة أرك (ورقة) السومرية. وقد أراد الحصول على سر الخلود. فسعى إلى شخص كانت الآلهة قد وهبته الخلود بهد أن نجا من الطوفان الذي أغرق الأرض. وكان أن وصل غلغاميش إلى الشخص المطلوب فأنبأه هذا بأن مبتغاه هو عشبة تنبت في أعماق البحر، وأنه إذا حصل عليها وأكلها فهو، وكل من يشركه في أكلها، يوهب الخلود. وغاص غلغاميش إلى أعماق البحر ووصل إلى قعره وعثر على العشبة المقدسة، وانتزعها من مكانها، وحملها بحرص وعناية، ليعود بها إلى أرك كي يأكلها مع أكابر المدينة. لكن السير الطويل كان قد أضناه فنام. وفي تلك الأثناء خرجت أفعى من ثقب هناك فأكلت العشبة المقدسة وخسر غلغاميش سر الخلود.

على أن مثل هذه الأسطورة ليست تاريخًا بالمعنى الذي نريده. لعلها توضح الكثير مما كان عند الناس من آمال وآلام وهموم، ولعلها كانت تبين ما عرفوه من أمور دينية وآلهة وعبادة وطقوس، وقد تضع بين أيدينا شيئًا عن علاقاتهم بشعوب وبلاد مجاورة، لكن هذه الصور جميعها تظل صورًا لا خطوط واضحة لها ولا معالم بينة.

وإذن فقد كان الباحثون بحاجة إلى شيء آخر يضع بين أيديهم المادة الخام التي يمكن أن يستجلوا منها الحياة كما كانت والعمل كما عرف والتحصين كما أنشيء. وهنا جاء دور الرفش المعول .

منذ مئة ويزيد من السنين أخذ المنقبون يقومون بحفريات أثرية في هذه المنطقة التي نسميها اليوم الشرق الأوسط. لقد كان بعض أولئك المنقبين مغامرين، وكان بعضهم متحمسين وكان البعض الآخر يسعى وراء الكنوز، وكانت قلة منهم في أول الأمر مدربة ومهيأة للقيام بالعمل على الوجه الصحيح. وقد شملت الحفريات الأثرية مصر وفلسطين ولبنان وسورية وتركيا وإيران وحوض نهر السند، بالإضافة إلى مناطق أخرى خارج بلادنا. ولسنا ننوي أن نتحدث عن أعمال الحفر الأثري الذي تم في هذه الفترة؛ ولكننا نود أن نلفت إلى أن مصر، بسبب ما كان فيها من آثار ضخمة ظاهرة، وبسبب ما كان لها من أثر واضح في حضارات البلدان المجاورة نالت عناية كبيرة في أوقات مختلفة. كما أن فلسطين، بسبب ارتباطها بتاريخ الكتاب المقدس، حظيت بقسط كبير من العناية. إلا أن تزايد عدد الأفراد والبعثات والهيآت المعنية بالتنقيب الأثري أدى إلى اتساع نطاق العمل في جهات مختلفة، ولو أن العمل بحد ذاته لم يكن متوازيًا بالزمن. ففيما نجد أن أول تنقيب أثري بدأ في العراق سنة ١٨٤٢، فإن منطقة السند لم يقم فيها مجهود للتنقيب الأثري إلا في العقد الثالث من القرن العشرين. والمهم أن نذكر أن هذا العمل الأثري لا يزال مستمرًا وسيظل كذلك مدة طويلة. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أعمال التنقيب الأثري التي تمت في بلاد الرافدين وحوض السند لاستطعنا أن نخلص إلى الحقائق التالية المتعلقة بذلك:

١ـ حول سنة ٥٠٠٠ ق. م. استقر الشعب السومري في جنوب العراق، وهو شعب مجهول الأصل إلى الآن. وقد أنشأ هذا الشعب لنفسه حضارة قوامها الزراعة واستيطان الناس في قرى متعددة.

٢ ـ بين ٣٥٠٠و٢٠٠٠ ق. م. كانت قد تمت للسومريين النقلة إلى المدنية ـ أي سكنى المدن واختراع الكتابة ونشوء حياة دينية طقسية معروفة واضحة.

٣ ـ إن آلاف الإجراءات التي كشف عنها الرفش والمعول في جنوب العراق، دلتنا على أن السومريين وخلفاءهم الأكديين والبابليين فيما بعد، كانوا أصحاب صناعات متعددة وتجارة واسعة. وعندنا إجراءات التاجر الكبير أيا ـ ناصر (١٨١٣ ـ ١٧٩٠ق. م) الذي كانت متاجره، المصدرة والمستوردة، تصل إلى مناطق واسعة في الخليج العربي.

٤ ـ إن الحفريات التي تمت في حوض السند، وبخاصة في موهنجودارو وهربا، تدلنا على قيام مدنية في رقعة تمتد ما يزيد على ١٥٠٠ك. م. من الشمال إلى الجنوب، وان المدينتين المذكورتين كانت الشوارع فيهما متقاطعة، وانهما أول مدن لها هذه الصفة عثر عليها الباحثون في العالم القديم.

٥ ـ هذه المدنية «السندية» التي قامت بعد ٢٦٠٠ق. م. دمرت بشكل يكاد يكون نهائيًا حول سنة ١٥٠٠ ق. م.

٦ ـ هذه المدنية مثل مدنية مصر، كان أساسها الزراعة. ومن غلاتها: القمح

والشعير والبطيخ والسمسم والتمر والقطن، وهو أقدم قطن زرع في العالم على ما نعرف.

٧ ـ وكما كان للسومريين وخلفائهم علاقات تجارية واسعة، فقد كان لأصحاب المدنية السندية مثل ذلك . فكان تجارهم يستوردون من، ويصدرون إلى بلاد الأفغان وإيران وبلاد الرافدين وجنوب الهند.

(٣)

نحن نتحدث هنا عن جزيرة العرب وبحارها. فما لنا نطيل الكلام على بلاد الرافدين وحوض السند؟

هاتان المنطقتان، بما كان فيهما من مدنية متقدمة ناجحة وحياة زراعية متقدمة وتجارة واسعة نشيطة، كان لا بد لهما من طريق أو أكثر تصل بينهما. والطريق الرئيسة كانت طريق الخليج العربي وبحر عمان والمحيط الهندي. ومن هنا كان الاهتمام بالمنطقتين أولاً.

كان أهل البلاد والرحالون عندما يتنقلون في أنحاء الخليج العربي ويزورون جزره، يشاهدون الكثير من التلال الصناعية في تلك الأماكن. وقد عدت هذه التلال بالآلاف . وكان الرأي السائد هو أن هذه هي «تلال مدافن». وقد قام اثنان من الأجانب، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحفر سطحي لبعض هذه التلال في البحرين فثبت لهما أنها كانت مدافن. لكن أين كان يسكن القوم الذين دفنوا موتاهم في هذه التلال؟

ليس في الروايات العربية ما يشير إلى شيء من ذلك، لأن أولئك «السكان» كان قد ران عليهم صمت لمدة لا تقل عن ألفي سنة. والصمت لا يفسر الأحداث ولا يزود التاريخ بقصة؛ ولكن متى أخرجت الأرض كنوزها يعود الصوت، أو على الأقل الصدى إلى المكان وعندها يمكن للتاريخ أن يتكلم، والتاريخ هنا كان لا بد أن يعتمد على ما يقوم به الرفش والمعول وعلى حل رموز الكتابات.

وهذا ما حدث بالضبط. إذ إنه لما خرجت الإجراءات. بالآلاف من أرض الرافدين وحلت رموز الكتابة الإسفينية، ظهرت أساطير دينية مثل قصة غلغاميش التي لخصناها من قبل، ثم ظهرت إجراءات عليها فواتير ومراسلات تجارية تذكر اسم «دلمون» و «ما كان» (أو ماغان) وتعين المواد التجارية التي كانت تنقل من بعيد، من الجنوب ـ إلى بلاد الرافدين. ففي سنة ١٨٨٠ كتب رولنصون يقول بأنه يجب أن نفهم جيدًا بأنه في جميع الألواح الآشورية، من أقدم العصور إلى آخر عهد الدولة الأشورية، ثمة إشارات تظهر باستمرار الى جزرة تقع إلى جنوب أرض الرافدين وتسمى «نيدوكي» باللغة الأكدية و«تلمون» باللغة الآشورية، وبنوع من الحس الباطني أضاف رولنصون إلى أن تلمون هذه قد تكون البحرين، ولما عرفت قصة غلغاميش للعالم ظن البعض أن المكان الذي قصده

البطل للحصول على العشبة المانحة الخلود هو البحرين أو ما حولها.

وعلى كل، فقد عثر المنقبون على نقش يرجع إلى سنة ٢٥٢٠ ق. م. من أيام «أور نانشي» ملك لاغاش مسجل فيه أن سفن دلمون حملت إلى الملك خشبًا من بلاد نائية. وهذه أقدم وثيقة عثر عليها إلى الآن التي يظهر فيها اسم دلمون.

على أن الذي ظل ناقصًا هو الحفر والتنقيب في الخليج العربي، شطآنه وجزره، لعل الرفش والمعول يخرجان معلومات جديدة، وهذا ما حدث منذ شتاء ١٩٥٣ إلى ١٩٦٥ . القسم الأكبر من أعمال الحفر التي تمت إلى الآن قامت بها البعثة الدنيمركية الأثرية، لكن إدارات الآثار في بعض الدول العربية هناك أخذت تشارك بعض المشاركة في العمل.

والأماكن التي تم فيها التنقيب أو المسح الأثري إلى الآن في الخليج العربي هي، من الشمال إلى الجنوب، جزيرة فيلكة والكويت نفسها، وفي البحرين في قلعة البحرين وقرية بربر، وفي سواحل المملكة العربية السعودية في تاروت وثج والعقير والظهران وأماكن أخرى متعددة، وفي قطر وفي أبو ظبي في جزيرة أم النار ومدينة العين وفي دبه في شبه الجزيرة عند المنقلب إلى مسقط وعمان. وقد كان التنقيب والحفر في البحرين في قلعة البحرين وقرية بربر - أوسع نطاقا وأعمق. ولذلك فالصورة التي عندنا الآن عن حضارة البحرين ومدنيتها أوفى من الصور المجتزأة الأخرى.

وقد اتضح من أعمال الحفر الأثرية في الخليج أمور كثيرة، لعله من الخير أن نضعها هنا ملخصة:

١ - ثبت للباحثين أن قلعة البحرين تمثل حضارة ومدنية امتدت من حول سنة ٣٠٠٠ ق. م. إلى نحو ٣٠٠ ق. م. وقد حفرت البعثة الدنيمركية خمس مدن كانت تبنى الواحدة منها على أنقاض الأخرى وفي مكانها على العموم.

٢ - إن حضارات مختلفة في درجاتها ومن حيث مصادر التأثير بها نشأت في فيلكه وتاروت (السعودية) وأم النار (أبو ظبي) في الوقت نفسه، وإن لم تظهر أعمال الحفر الأولى بعد فيما إذا كانت جميعها قد استمرت إلى نحو ٣٠٠ ق. م. لكن فيلكه وثج كان في كل منهما مدينة في القرن الثالث ق . م.

٣ - إن قيام الحضارة والمدنية في المناطق المشار إليها كانت تعاصر المدنية المتقدمة في سومر (جنوب العراق) وحوض السند.

٤ - إن بلاد «ما كان» (أو ماغان) التي كانت تصدر النحاس إلى أرض الرافدين، هي عُمان وما إليها.

٥ - إن مملكة دلمون التي كانت ملء السمع التجاري لمدة تزيد على ألفي سنة (٢٥٠٠- ٥٠٠م.) كانت منطقة واسعة، ولعل البحرين كانت تقوم فيها المدينة دلمون التي عزيت الرقعة أو المملكة بكاملها إليها.

٦ ـ كانت السفن، على ما يبدو، تحمل من بلاد السند الأخشاب والقطن والعاج والعقيق الأحمر واللازورد، كما كانت سفن «ما كان» أو (ماغان) تحمل النحاس. وكل ذلك يمر بالبحرين وفيلكه في طريقه إلى بلاد الرافدين. ولعل كثيرًا من هذه السفن كان في الواقع ملك أهل الخليج ومصنوعًا فيه.

٧ ـ يبدو من الدراسات المختلفة والمقارنة أن هذه التجارة العالمية (بين جنوب العراق والسند) أخذت بالتأخر بدءًا من حول سنة ٢٠٠٠ ق. م. لكنها أصيبت بضربة قوية لما قضي على المدنية السندية (حول سنة ١٦٠٠ق. م.) وانتهى أمرها بعد ذلك بنحو قرن. ومن هنا تعطلت السوق الموردة إلى العراق، وتناقصت تجارة الترانزيت عبر الخليج العربي ، وضعف مركز دلمون (البحرين؟) التجاري. ومع أن المنطقة عاد إليها نشاط فيما بعد، إلا أن السند لم تكن طرفًا فيه. بل كان الأمر مرتبطًا بالجزء الشمالي من الخليج العربي. وعلى كل فلم يكن النشاط التجاري على نحو ما كان عليه في العصور التي سبقت ذلك.

وفي إبان ازدهار دلمون ونشاطها كان لتجارها وكالات تجارية (حول سنة ٢٠٠٠ ق.م.) في مدن جنوب العراق مثل لاغاش وأور.

وهكذا فقد نفض الغبار عن بعض المواقع في الخليج العربي، فكان أن ظهرت حضارات الأقوام التي استوطنت أجزاءه من العصور الحجرية إلى قيام مدن ومدنية متقدمة نشيطة فعّالة.

وبذلك انتهى الوقت الذي كان الناس يظنون فيه أن أقطار الخليج العربي تاريخها ابن الأمس القريب، إن أصوات الماضي تسمع الآن واضحة، وصور الحياة أخذت تبين.

ومتى نشط الرفش والمعول والبحث ـ على أيدي أبناء البلاد أنفسهم في المستقبل القريب ـ ستتضح الصورة أكثر فأكثر، وتزداد الأصوات الآتية من الماضي البعيد قوة وعندها يمكن أن يكتب التاريخ الصحيح.

إن الخطوة الأولى قد خطاها التاريخ، وما تبقى فالوقت كفيل بإنجاحه.

بلاد البخور

(١)

يؤكد الباحثون أن هياكل مصر كان البخور يحرق فيها منذ حول ٣٠٠٠ ق. م. ولسنا نحسب إلا أن هياكل بابل وفينيقية وفلسطين كانت هي أيضًا تستعمل البخور منذ الفترة ذاتها. وعن طريق مصر وفينيقية انتشر استعمال البخور في الهياكل في بلاد اليونان وفي الأمبراطورية الرومانية بأجمعها. فمن الثابت أنه لم يكن ثمة هيكل في العالم القديم لم يستعمل فيه البخور في الطقوس الدينية. وقد أخرج تارن أن الهيكل في القدس كانت فيه غرف مخصصة لخزن البخور اللازم. ونعرف أن هيكل آمون (في سيوه) تلقى في سنة واحدة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ألفين ومئتي جرة وثلاثمئة مكيال من البخور. وكان كهنة بابل يحرقون ألف وزنة من البخور في العام بدل العشور المترتبة عليهم في متاجرهم المختلفة. ويروى أن الإسكندر الكبير أرسل خمسمئة وزنة من البخور من غزة وحدها لما احتلها هدية إلى معلميه. وبهذه المناسبة فإن استعمال البخور. لم يقتصر على أماكن العبادة، بل كان يحرق في البيوت والحفلات العامة والخاصة.

ويبدو، على ما ارتأى رتينز، أن الأصل في استعمال البخور هو للتبرك وطلب الشفاء من جهة، ولطرد الأرواح الشريرة من جهة أخرى. ومن هنا كانت شجرة البخور تعتبر شجرة مقدسة، وقد كان استخراج عصيرها ترافقه طقوس دينية خاصة. إذ إن القوم كانوا يعتبرون جرح الشجرة لإخراج عصيرها هو في واقع الأمر انتزاع دم الحياة من شجرة لها طبيعة إلهية. ولم يكن يسمح لأي كان بالقيام باستخراج العصير، إذا كان هذا وقفًا على جماعات معينة أو أسر خاصة، تتوارثه جيلاً بعد جيل. وقد روى الجغرافيون اليونان والرومان نقلاً عن ألسن التجار، أن المناطق التي تنمو فيها أشجار البخور هي مناطق فيها الكثير من الحيوانات السامة القاتلة كالأفاعي والحيوانات المفترسة، ويبدو أن أولئك الذين كانوا يجمعون عصارة هذه الأشجار أرادوا أن يحيطوا المنطقة بالأخطار حتى لا يقربها غيرهم، كما أن ذلك يسمح لهم بطلب أسعار مرتفعة لمتاجرهم.

والذي هو معروف أنه كان ثمة نوعان من البخور، الأول هو اللُّبان (المستعمل منه يسمى اللبان الذكر) وهو الأجود. وهذا كان ينمو في منطقة محدودة تقع في شرق حضرموت وفي ظُفار. والنوع الثاني ويسمى المرّ، وقد كان معروفًا في منطقة في

شرق أفريقيا تجاور جنوب البحر الأحمر وتمتد إلى رأس غودفروا جنوبًا. ويبدو أن شجر المر كان ينمو في جنوب شرق الجزيرة العربية نفسها.

واللبان ينمو شجره على ارتفاع يرواح بين ٦٥٠و٨٠٠ من الأمتار، ولا يزال ينمو في منطقة ظفار إلى اليوم على ما رواه الرحالة المحدثون. وقد جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي الذي عاش في القرن السابع (الثالث عشر) ما يلي:

فأما ظفار المشهورة اليوم فليست إلا مدينة على ساحل بحر الهند... وهي من أعمال الشحر وقريبة صحار... وظُفَار لا مرسى بها. وقد حدث رجل من أهل مرباط أن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظُفار، وهو غلة لسلطانها. وانه شجر ينبت في تلك المواضع مسيرة ثلاثة أيام في مثلها. وعنده بادية كبيرة نازلة. ويجتنبه أهل تلك البادية. وذلك أنهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين، فيسيل اللبان منه على الأرض. ويجمعونه ويحملونه إلى ظُفار، فيأخذ السلطان قسطه ويعطيهم قسطهم، ولا يقدرون أن يحملوه إلى غير ظفار أبدًا. وإن بلغه عن أحد منهم أنه يحمله إلى غير بلده أهلكه».

وهذا الذي ذكره ياقوت يتفق مع ما رواه بليني الأب في كتابه التاريخ الطبيعي الذي وضعه في القرن الأول للميلاد حتى في التفاصيل. والذي يستخلص من هذا كله أن اللبان لم يكن له ، بالنسبة الى المحتاجين سوى مصدر هو واحد منطقة ظُفار ـ حضرموت. أما المر فقد كان يأتي من جزيرة سوقطرى ومن الهند أيضًا في أوقات مختلفة.

(٢)

السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف كان ينقل البخور ـ اللبان والمر ـ الى البلاد التي استعملته في الأزمنة القديمة؟

المعروف أن الطرق الأولى القديمة التي استعملت كانت الطرق البرية. ذلك أن البحر الأحمر لم يكن باستطاعة القوارب الصغيرة، التي تسير محاذية للشواطىء أن تفيد منه طريقًا تجارية، إذ إن شواطئه الصخرية والمرجانية كانت مصدر خطر كبير على تلك السفن. ومن هنا نجد أن المحاولة الأولى الناجحة للسفن المصرية في الوصول إلى بلاد بونت، وهو الإسم الذي يرجح أن المصريين كانوا يطلقونه على المنطقة المحيطة بمدخل البحرالأحمر إلى المحيط الهندي، تعود إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد. ولم تكن طريق بحر عمان والخليج العربي أيسر استعمالاً في العصور الخالية.

وفي سبيل التعرف إلى الطرق البرية التي كانت القوافل تسلكها من الجنوب إلى الشمال، يتحتم علينا أن نفتش عن أمكنة تجميع اللبان أولاً، ثم ضم المر والمتاجر الأخرى التي أخذت تصل تباعًا إلى الموانىء الجنوبية لجزيرة العرب من الهند وما إليها. وبعد ذلك نتبع الطرق التي كانت القوافل تتخذها، مذكرين أنفسنا بأمرين

هامين: الأول هو أن الأحوال المناخية المعروفة في الجزيرة الآن كانت سائدة منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل، والأمر الثاني هو أن حيوان النقل الأساسي إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد أو أواخره ، كان الحمار. فالجمل، على ما يبدو، لم يصبح سفينة الصحراء إلا في أواخر الألف الثاني بل الميلاد. وهذه الملحوظة الثانية توضح لنا السبب في أن بعض الطرق كانت تتبع سبيلاً طويلاً. فالحمار لا يتحمل العطش مثل الجمل.

إن ما نعرفه من الدراسات الحديثة للنقوش التي عثر عليها في جنوب جزيرة العرب والحفريات الأثرية (على قلتها) وما رواه الجغرافيون اليونان والرومان وما حملته الأساطير ـ كل ذلك ينتهي بنا إلى حقيقة أساسية وهي أن الساحل الجنوبي للجزيرة كان فيه ميناءان هامان عبر تاريخه القديم هما عدن وقنا (بير علي) على مقربة من حصن الغراب. وفي عدن كانت تتجمع المتاجر الهندية من الطيوب والأفاويه والمجوهرات (لما بدأ الناس نقل هذه البضائع) والمر الأفريقي، إذ تأتيه بحرًا، وتنقل منها برًا عبر بيهان إلى مأرب ثم تحمل إلى الشمال. فلما سيطرت سبأ على جنوب غرب الجزيرة نقل ملك سبأ عاصمته إلى ظفار (اليمنية) ونقل ميناءه إلى مخا، ضعف شأن عدن، وضعفت معها طريق بيهان، وأصبحت القوافل تتجه من ظفار إلى الجوف ونجران رأسًا.

ولنعد الآن إلى قنا (بير علي). يبدو من جماع ما توصل إليه الباحثون ، أنه في الألف الثالث قبل الميلاد كان من المألوف أن ينقل اللبان (والمر ان وجد) من ظفار ومهرة وشرق حضرموت إلى قنا على قوارب صغيرة. ومن قنا كانت القوافل تنقل البخور إلى الشمال. والطريق كانت تمر بهبّان ونِصاب وتِمنا وحريب إلى مأرب، وهذه كانت، كما ذكرنا طريق اللبان أصلاً؛ إلا أنه كان ثمة طريقان أخريان توصلان جنوب الجزيرة بمأرب: أولاهما كانت تبدأ من سيْهوت إلى تَريم فِشبام فمأرب؛ والأخرى كانت تبدأ من ظُفار وتتبع وادي حضرموت إلى شَبْوه مارة بتريم وشبام فمأرب. وكان ثمة مركز تلتقي فيه القوافل هو شبوه.

(٣)

هذه هي أقدم طرق البخور المعروفة. ومن مأرب تتجه الطريق شمالاً إلى الجوف فنجران فطَبالة فطُرَبة فالطايف. وحري بالذكر أن كلاً من هذه المحطات هي واحة أو مجتمع مياه. وإلا لما كانت تصلح مراكز للتجارة، كائنة ما كانت المتاجر المحمولة. فإذا انتقلت القوافل إلى مكة كان عليها أن تريح زمنًا وأن تبدل الحيونات والرجال. ذلك أن المنطقة الواقعة إلى الشمال من مكة كان يصعب اجتيازها على أهل الجنوب. وبعد ذلك كانت القوافل تنتقل من مكة إلى يثرب أو المدينة، مغربة نحو المنطقة الساحلية كي تتجنب المنطقة الجافة الصعبة بين المدينتين. ومن يثرب أو المدينة كانت القوافل تتجه إلى العلا وهي ديدان القديمة، ثم إلى البتراء. ومن هذه المدينة الواحة المتجر كانت

الطريق تتفرع. ففرع يتجه إلى غزة ومنها إلى مصر، وآخر يذهب إلى دمشق أو الساحل الفينيقي ومن هناك عبر تدمر ودورا (الصالحية) إلى بلاد ما بين النهرين.

هذه هي الطريق التي كان البخور ينقل عبرها حتى يصل إلى بابل القديمة، وهي، كما نرى، طريق طويلة جدًا. ولكن كان هذا ضروريًا، إذ إن حيوان النقل الذي كان يستعمل في الأزمنة الأولى كان الحمار، وهذا لا يستطيع اجتياز المناطق الصحراوية الجافة، فلما دخل الجمل إلى بلاد العرب، وكان ذلك في أواسط أو أواخر الألف الثانية قبل الميلاد؛ تبدلت الطرق بعض الشيء. ذلك بأن الجمل هو حيوان الصحراء الممتاز. فهو الذي يستطيع تحمل العطش والجوع.

والتبديل الرئيسي الذي طرأ على تجارة البخور هو أن القوافل أخذت تتجه من نجران شمالاً في شرق عبر وادي الدواسر وواحات الأفلاج والخرج واليمامة إلى بلاد البحرين على الخليج العربي، ومن الأحساء (الحسا)، أو من جزر البحرين كانت تسير الطريق شمالاً إلى العراق. وبذلك قصرت المسافة التي كان يقطعها تجار البخور في نقله من حضرموت إلى أرض الرافدين. وكان ثمة تغيير آخر وهو أن القوافل أصبحت تنتقل من مكة إلى يثرب رأسًا، أيضًا لأن الجمل كان يتحمل الأحوال المناخية الصعبة.

جرّب المصريون الحصول على البخور من أصقاع اليمن رأسًا عن طريق البحر الأحمر حتى في الألف الثالث قبل الميلاد، لكنهم لم يوفقوا بسبب صعوبة الشواطىء هناك. وقد جربت الملكة حتشبسوت ذلك ثانية في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، وتم لها التوفيق في ذلك. إلا أن اضطراب شؤون مصر فيما بعد أوقف هذه الحملات البحرية إلى بلاد بونت (كما كان المصريون القدامى يسمون المنطقة المحيطة بجنوب البحر الأحمر ومخارجه إلى المحيط الهندي).

على أنه لما استقر الأمر للبطالمة في مصر ونظموا شؤونها أنشأوا أسطولاً في البحر الأحمر. وبذلك نشطت التجارة كثيرًا، وقامت المنشآت التجارية هناك. وصارت بضائع الصومال وجزيرة سوقطرى وجنوب شبه الجزيرة تنقل بحرًا إلى برنيسي على البحر الأحمر وغيرها. لكن ضعف البطالمة أضعف التجارة، وكثر القرصان في البحر الأحمر وعاد إلى الطريق البرية ازدهارها.

وأخيرًا احتل الرومان مصر وأعاد أوغسطوس قيصر السلم إلى العالم الروماني، وأدرك قيمة البحر الأحمر التجارية، فأرسل حملة إلى بلاد العرب بقصد احتلال اليمن للسيطرة على المركز الرئيسي للتجارة هناك. فقد أصدر أمره إلى غالوس، القائد العام للوحدات الرومانية في مصر، أن يسير بعشرة آلاف جندي، وطلب من الأنباط أن يمدوه ببعض الجنود وأن يقوموا بمهمة التموين والإرشاد، ويبدو أن الحملة نفسها كانت بتشجيع من الأنباط لرغبتهم في أن يكون لهم بعض السيطرة على الطريق.

قامت الحملة من أرزينوى التي كانت على مقربة من مدينة السويس الحديثة.

ونقل الجنود عبر البحر الأحمر إلى لوكي كومي الواقعة على مقربة من ينبع. ومن هنا بدأت الحملة البرية إلى مأرب قاطعة مسافة تقرب من ألفين وخمسمئة كيلومتر. بدأت الحملة في ربيع سنة ٢٤ قبل الميلاد، ووصلت بعد صعوبات كثيرة إلى نجران، فحاصرتها واحتلتها، والتقت جيشًا عربيًا إلى جنوب من هذه المدينة وانتصرت عليه. ومع أن الرومان انتصروا في معارك صغيرة أخرى، فإنهم اضطروا أخيرًا إلى الانسحاب، فارتدوا على أعقابهم دون أن يصلوا إلى مأرب. دامت الحملة ستة شهور، وانتهت بالفشل.

إلا أن التجارة في البحر الأحمر في أيام أغسطوس كانت مزدهرة. فقد ذكر سترابو أن مئة وعشرين سفينة سافرت في سنة واحدة إلى الهند من ميوس هرمرس على البحر الأحمر. على أنه يجب أن نذكر أن التجارة خارج البحر الأحمر ظلت، لقرون طويلة تلت، حكرًا على العرب. وظلت تجارة البخور في أيديهم. وكل ما يمكن أن يضاف هنا أن الاهتداء إلى مواعيد هبوب الرياح الموسمية سهل على العرب التجارة مع الهند، وزاد الكميات المنقولة من تلك البلاد من المتاجر المختلفة، وظل البخور مع التوابل في مقدمة ما يحمل من هناك.

(٤)

طريق أو طرق، ينقل عليها البخور من جنوب الجزيرة إلى شمالها، وينقل مع البخور متاجر أخرى جاءت من الخارج، فضلاً عن مادة هامة كانت أيضًا تحمل على الطريق الحضرمية وهي الملح، الذي كان يقتلع من جهات شبوه. قوافل كثيرة ورجال يدبرون أمرها وينظمون سيرها ويدفعون الأتاوة عنها إبعادًا للأذى والشر، والجماعة تتنقل من مكان إلى آخرو وتحتك بقوم هنا وقوم هناك ـ في الطريق الطويلة، في المراكز والأسواق، في بلاد الرافدين وديار الشام ووادي النيل. فماذا يحدث من ذلك كله؟ هل تقتصر القضية على بيع متاجر وتبادلها مقايضة أو مقابضة؟

ليس مثل هذا من طبيعة الأمور، إذ لم يعرف في تاريخ البشرية، حتى قبل حصولنا على تاريخها المدون، أن فئات من الناس احتكت ببعضها البعض من دون أن تتبادل المنافع أو المضار التي عرفتها المجتمعات، متباعدة أولاً.

والملاحظ، نتيجة للدراسات المختلفة التي تمت إلى الآن، هو أن المراكز الواقعة على طريق البخور الرئيسة، وبخاصة الجوف ومأرب اللتان نعرف عنهما أكثر مما نعرف عن المراكز الأخرى، تظهر فيها، حتى في الألف الثاني قبل الميلاد، آثار تنظيمات سياسية اجتماعية اقتصادية على أساس «المدن ـ الملكية» أو «المدن ـ الدولة » على نحو ما نجد في أرض الرافدين بالنسبة للنوع الأول، وفي فينيقية وفلسطين، بالنسبة إلى النوع الثاني. والواقع أنه ليس غريبًا أن تقوم مثل هذه

التنظيمات في مدن جنوب الجزيرة مستقلة، ولكن وجود مثل هذه التنظيمات في الشمال يدعونا إلى التفكير في حدوث التأثر والتأثير.

وثمة أمر آخر حري باهتمامنا وهو وجود الآلهة الثلاثية في جنوب الجزيرة ـ وهي القمر والشمس والزهرة. وفي هذا النظام كان القمر يعتبر الأب، والشمس الأم والزهرة الطفل. هذه عرفت هناك في الألف الثالث قبل الميلاد، ولعلها كانت معروفة حتى قبل؛ ومثل هذه الثلاثيات معروفة في الحضارات القديمة في مصر وبابل وحوض السند. وبالطبع فليس ما يمنع أن تكون هذه الثلاثية قد ظهرت في جنوب الجزيرة مستقلة أيضًا، وبخاصة إذا أخذنا بما يقوله بعض الباحثين على أن مثل هذه الثلاثية ظهرت أيام كانت أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية غزيرة المطر صالحة أرضها للزراعة (أي قبل ٥٠٠٠ ق . م. مثلاً؟) ولكن التشابه بين أمور تفصيلية يوضح لنا أن اتصالاً واحتكاكًا وتأثرًا كانت قائمة. لنذكر على سبيل المثال أن اسم القمر في هذه الثلاثية القديمة هو «سن»، وهو الاسم البابلي للقمر! .

وقد عثر في الجوف على تماثيل صغيرة من الآجر هي تماثيل آلهة محلية صغرى (وقد عثر على عدد منها في أماكن أخرى في جنوب الجزيرة أيضًا). وهذه التماثيل تشبه التماثيل التي عثر عليها في أرض الرافدين إلى درجة كبيرة، ولكن الاختلاف بين المجموعتين واضح أيَضًا. لأن صانع التماثيل ـ في كل من المنطقتين ـ كان يضع فيها شخصية جماعته. ولكن أطرف ما يجب أن يذكر عن بعض هذه التماثيل أن الصنعة فيها، وخاصة فيما يتعلق بشيات الثياب، يبدو فيها أثر هندي قوي. وليس ثمة مجال للاستغراب. فالجوف، عن طريق عدن وقنا وغيرهما كانت تتأثر بالهند.

نرى من هذه الإشارات المقتضبة أن هذه المراكز التي تبدو لنا نائية في أعماق الصحارى العربية، كانت على اتصال بالحضارات القديمة ـ المصرية والبابلية والفينيقية والسندية ـ وأنها كانت تتفاعل معها أخذًا وعطاء. والمرجح أن تلك الحضارات أخذت استعمال البخور في طقوسها الدينية عن أهل الجنوب العربي.

من نيارخوس إلى هيبالوس

(١)

بعد أن استتب للإسكندر الكبير أمر بلاده، تطلع إلى المشرق، فاجتاز البحر إلى آسيا الصغرى. وكان الحظ إلى جانبه فاحتل تلك البلاد ثم سورية ولبنان وفلسطين ومصر وعاد إلى ديار الشام ثم اتجه نحو فارس فانتصر على جيوشها وقضى على أمبراطوريتها. وتوغل بعد ذلك إلى حوض السند عبر أفغانستان. وفي عام ٣٢٦ ق. م. وقد اعتبر أنه اكتفى بفتوحه، بدأ يعد العدة للرجوع إلى بلاده، خاصة وأن غيبته طالت، وقد بلغه أن البعض من قواده قد تجاوز الحدود في تصرفه.

ومن حسن حظنا أن أخبار الإسكندر دوّنها أريان، من مؤرخي القرن الثاني قبل الميلاد، نقلاً عن المظان الأصلية، وفي مقدمتها جريدة أخبار دونت فيها التفاصيل الخاصة بحملات الإسكندر ومغامراته.

أعد الإسكندر أسطولاً ضخمًا جمع له نحو ١٨٠٠ قارب ومركب وسفينة، وقد تلف بعض من هذه السفن وهي لا تزال على نهر السند في مجاريه العليا. لكن في النهاية وصلت إلى المحيط الهندي، وكان الإسكندر يسير على شاطىء النهر محاذيًا لأسطوله. وهنا ترك الإسكندر قيادة الأسطول لأمير البحر نيارخوس، وقاد هو جيشه إلى فارس، بعد أن اقتنع، من الأخبار التي نقلها إليه عيونه ومخبروه، بأنه لا يستطيع أن يعود إلى سواحل المحيط الهندي القاحلة غالبًا، المليئة بالصعاب ،والكثيرة المخاطر والمهالك.

وكانت التعلميات التي أعطيت إلى نيارخوس تطلب منه أن يصل بحرًا إلى بلاد بابل وأن يكتشف الطريق البحري من جديد ويعين الأماكن التي يمكن للسفن أن تريح فيها وتتمون أو حتى تتاجر. وحري بالذكر هنا أنه في أيام الأمبراطورية الفارسية، بخاصة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، أهمل الطريق البحري الذي كان يربط بين الهند والخليج العربي، ونشط الطريق التجاري البحري المسمى طريق الحرير، وذلك لأن سلطة الفرس كانت تمتد من حدود باكستان الآن (تقريبًا) إلى البحر الأبيض المتوسط. فكانت الطرق البرية كلها آمنة مطمئنة، ومن هنا كان اهتمام الإسكندر في أن يكتشف نيارخوس هذا الطريق البحري مجددًا، لأن اليونان كانوا يعرفون أن التجارة كانت تحمل بحرًا من قبل.

بدأت حملة نيارخوس في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ٣٢٦ من ميناء الإسكندر،

على مقربة من كراتشي الحالية، وسار الاسطول محاذيًا للشاطىء قريبًا منه بحيث يمكنه الحصول على المؤن والماء، وبعيدًا عنه بحيث لا يتعرض للأخطار. وكانت هذه الأخطار تكمن في الشواطىء الصخرية الضحلة، والجزر الكثيرة هناك، كما كانت تشمل السكان الذين كانوا على استعداد للإنقضاض على هؤلاء الأغراب فيما لو واتتهم الفرص. وقد زادت هموم نيارخوس إذ بلغ الجوع والعطش والمرض والتعب والحرمان من جماعته مبلغًا كبيرًا، فخشي إذا اقترب من الشاطىء أن يفروا من الخدمة.

ظل الحال يتراوح بين انعدام المؤن، حتى إن رجاله اضطروا إلى الاكتفاء بأكل جذوع شجر النخيل الرخصة، وبين شيء من الغذاء والشراب، حتى وصلوا شواطىء كرمانيا، فخفت حدة الحاجة. وهنا أصبحوا في خليج عمان فداروا بجسك، ثم غيّروا اتجاههم إلى الشمال بدل السير غربًا باستمرار، ومرورًا برأس مسندم، واجتازوا مضيق هرمز ثم ألقوا بالمراسي عند مصب نهر أناميس (ميناب اليوم) في منطقة، قال عنها أريان، خصبة غنية بكل أنواع الغلات باستثناء الزيتون.

وهذه المنطقة التي هبطوها تقوم على جانبي النهر المذكور، وهناك استراحوا وطعموا وشربوا، بحيث نسوا ما كان قد مر بهم من متاعب. ولما عرف نيارخوس أن الإسكندر كان في الداخل على بعد خمسة أيام من مكان هبوطهم، ترك جماعته هناك وسار للقائه ولتقديم تقرير عن الحالة عامة. وقد اغتنم البحارة الفرصة فتعهدوا السفن بالإصلاح والتشحيم والدهن وتغيير الشراع. فلما عاد نيارخوس كان القوم على أهبة الرحيل، فمروا بمدينة أورغانا (هرمز) وجزيرة أوركتا (قشم) ثم جزيرة سموها كاتيا (لعلها قيس). وأخيرًا وصل الأسطول إلى منطقة بو شير، ونزلوا الى البر عند نهر رودهله ثم عند مصب نهر هنديانى. وهنا كانت السفن تتحاشى الاقتراب من الشواطىء بسبب الماء الضحل وكثرة الصخور الخبيثة تحت الماء. وبعد تنقل قليل ألقى الأسطول مراسيه على مقربة من الأهواز الحالية. وكان ذلك في ٢٤ شباط /فبراير سنة ٣٢٥ ق. م. وقد قضى الأسطول ١٤٦ يومًا في الطريق، منها ثمانون يومًا بين ميناء الإسكندر (قرب كراتشي) والأهواز.

وانضم البحارة إلى جيوش الإسكندر البرية واحتفلوا بذلك.

كانت رحلة نيارخوس، على ما كابده أفرادها من الصعاب وما نالهم من خسائر في الرجال والسفن، رحلة ناجحة من حيث اكتشاف الأماكن الصالحة للموانىء أو المدن على شاطىء الخليجين - خليج عمان والخليج العربي. إلا أن هذه المعرفة وهذا الاكتشاف اقتصرا على الجانب الشرقي أي الفارسي. لذلك فكر الإكسندر بالتعرف إلى الجانب الغربي أي العربي. فأعد ثلاث حملات صغيرة ولكن بسفن كبيرة للتعرف إلى الجهات المختلفة. وقد أخرج المؤرخون أن الاسكندر بعث إلى صيدا خمسمئة

وزنة لتصك نقودًا حتى يمكنه أن يستأجر بحارة للقيام بهذا العمل. أما السفن فقد بنيت في المدن الفينيقية وحملت أقسامًا وأجزاء إلى تبسكوس على الفرات ثم حملها النهر إلى رأس الخليج.

وصلت واحدة من هذه الحملات إلى جزيرة البحرين، والثانية تجاوزت البحرين بعض الشيء؛ أما الثالثة فبلغت رأس مسندم. وكانت التقارير مشجعة. لذلك أخذ الإسكندر بإعداد أسطول صغير قوي ليوضع تحت قيادة نيارخوس. وكانت تعليماته أن يدور ببلاد العرب إلى السويس. وكان الإسكندر قد أمر أسطولاً آخر بالإبحار من السويس عبر البحر الأحمر جنوبًا لاكتشاف المنطقة. ويبدو أن هذا الأسطول قد وصل اليمن.

ومات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق. م. وتوقف كل شيء.

ليس المهم أن نيارخوس والآخرين اكتشفوا الطريق البحري القديم فحسب، ولكن المهم أنهم خلفوا لنا مادة دسمة عن شواطىء الجزيرة العربية ،وأثاروا رغبة الكثيرين من جغرافيي اليونان والرومان في أن يدونوا ما سمعوه وما عرفوه.

(٢)

بعد ضعف شأن الأمبرطورية المصرية ظهر الفينيقيون (في القرن العاشر قبل الميلاد) في البحر الأحمر كتجار كبار. فقد أظهرت البحوث الحديثة أن أحيرام ملك صور كان له أسطول تجاري هناك، وقد كانت السفن تبنى في المكان المعروف بتل الخليفة، وهو أيلة التي يذكرها الجغرافيون العرب. ويبدو أن السفن الفينيقية كانت توغل في الأسفار وتحمل معها من بلاد «أوفير» الذهب والفضة والحجارة الكريمة وخشب الصندل والعاج والقرود والطواويس. ويرى فريق من الدارسين أن أوفير هذه لم تكن سوى الهند بالذات.

وكان قيام الامبراطورية الفارسية وفتوح الاسكندر بعد ذلك وتقسيم إمبراطوريتة ثم قيام الامبراطورية الرومانية ـ كل هذه كانت لها آثار بعيدة المدى في تطور التجارة مع البحار الشرقية عبر البحر الأحمر والخليج العربي. ومن حسن حظ مؤرخي التجارة في تلك البحار أن الفترة الممتدة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثاني للميلاد، قد زودتنا بمصادر مكنتنا من الحصول على صورة واضحة تقريبًا لما كانت عليه التجارة البحرية والبرية في ذلك الزمن. وهذه المصادر هي: أولاً، مؤلف وضعه عالم اسكندري اسمه أغاثرخيدس، ومع أن المؤلف نفسه فقد، فإن القسم الأكبر منه حفظ في كتابات متأخرة. والمهم أن المعلومات التي يزودنا بها مستقاة من شاهدي عيان ومقارن بعضها بالبعض الآخر. المصدر الثاني هو كتاب الجغرافية الذي وضعه سترابون. وثالث مصادرنا دليل البحر الهندي الذي ألفه تاجر يوناني كان يعيش في

مصر في أواسط القرن الأول للميلاد ، أما المصدر الرابع فهو كتاب التاريخ الطبيعي من تأليف بلينيوس في أواخر القرن ذاته، وثمة تاريخ الاسكندر لأريان الذي زودنا بالمعلومات عن نيارخوس.

والذي يمكن أن نعرفه من هذه المصادر ومن نقوش أظهرتها الجزيرة العربية، هو أن التجار العرب في اليمن وحضرموت وعمان، وغيرهم من تجار الأقوام المجاورة، كانوا يركبون سفنهم من بلادهم إلى الهند ويسيرون بها في محاذاة الشواطىء. فسواء كان ابتداء الرحلة من اليمن أو من عمان، فإن السفن كانت تحاذي الشواطىء فإذا وصلت إلى الأخيرة قطعت بحر عمان في أضيق أماكنه، ثم عادت إلى محاذاة الشاطىء حتى تصل الهند. وكان الذي يحمل هؤلاء التجار، العرب منهم وغير العرب على السواء، على سلوك هذا الطريق، هو أن سفنهم كانت صغيرة، وكانت الألواح فيها مربوطة ببعضها بحبال من ليف جوز الهند، ولم تكن المسامير الحديدية تستعمل في بناء السفن قط؛ ولذلك فلم تكن السفن تقوى على مصارعة الأمواج العاتية التي يعرفها ملاحو المحيط الهندي بين أفريقيا والهند.

ولكن هذا تغير كله في القرن الأول قبل المسيح على ما يخبرنا مؤلف دليل البحر. ففي ذلك القرن اهتدى هيبالوس إلى الرياح الموسمية وإمكان الإفادة منها في تسيير السفن إلى الهند. وقد كان لهذا الاكتشاف أثر في تطوير الملاحة في تلك المنطقة. فما الذي اكتشفه هيبالوس وماذا كان أثره؟

جاء في دليل البحر الهندي أن السفر البحري كان يتم في سفن صغيرة تظل قريبة من الشاطىء حتى جاء هيبالوس الذي تنبه إلى مواقع الموانىء وأحوال البحر، ومن ذلك اهتدى إلى خير الطرق التي يمكن أن توصل السفن عبر البحر إلى الهند رأساً. ومن ذلك الحين صارت السفن تخرج من جهات عدن أو قنا (بير علي) أو حتى من رأس التوابل في افريقيا وتتجه رأسًا إلى موانىء السند أو موانىء أخرى في غرب الهند.

ولكن ما هو الاكتشاف الذي تم على يد هيبالوس؟ لاحظ هذا الملاح أن الرياح الموسمية الصيفية تهب من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وهي رياح قوية يمكنها أن تدفع بالسفن قدمًا فتصل في مدة أقصر، وقد كان هذا ممكنًا في حالة واحدة وهي بناء سفن أقوى وأكبر واستعمال الشراع المربع الذي يفيد من قوة الريح. وهذا الذي حدث.

وعندها أصبح التوقيت الزمني للسفن التي تغادر مصر إلى الهند على الوجه التالي: تغادر السفينة مصر في شهر تموز (يوليو)، فتصل جنوب البحر الأحمر وتخرج منه إلى المحيط فتدفع بها الرياح الموسمية الصيفية في شهر آب /أغسطس إلى شواطىء مالابار في غرب الهند، وكانت الرحلة هذه تحتاج إلى قرابة أربعين يومًا، فتصل

السفينة في أوائل أيلول /سبتمبر. وظل طريق هيبالوس متبعًا نحو قرنين من الزمان.

أما ما كان يتبادل من السلع بين مصر وديار الشام والعالم الروماني من جهة وبلاد الهند وما وراءها من جهة ثانية، فيشمل الخمر والبرونز والذهب والأشياء المصنوعة التي كانت تجمع في الاسكندرية ثم تنقل بالنيل إلى قفط وبرًا إلى ميوس هرموس أو برنيتشي على البحر الأحمر. فإذا كانت السفن تقصد حنوب غربي بلاد العرب فإنها كانت تلقي مراسيها في موزا (وهي مخا الحديثة) فتسلم ما معها هناك وتعود بالبخور والطيوب. أما السفن التي كانت تقصد الهند فكانت تتزود بحاجتها من الماء والمؤن في قنا، إلى الشرق من عدن الحالية، وعندها تتجه السفن إلى ميسور وغيرها على شاطىء مالابار رأسًا عبر المحيط. أما إذا كانت السند أو ما إليها هي المقصودة، فإن السفن تحاذي الشاطىء إلى أواسط الساحل الجنوبي لحضرموت ثم تتجه إلى الهند رأسًا. ويبدو أن بعض السفن كانت تخرج من باب المندب إلى ميسور رأسًا أيضًا.

وبالإضافة إلى ما ذكرنا من الموانىء، فقد كانت عدن وجزيرة سوقطرى وجزيرة سيلان من مراكز التجارة المهمة.

الزراعة والري في جنوب الجزيرة

(١)

في القصص القرآني وفي التاريخ وفي الأساطير العربية الجاهلية وفي طيات الأخبار المتعلقة بالأنساب وفي الشعر الجاهلي، إشارة إلى سد مأرب. كل هذه جعلت هذا السد شيئًا معروفًا بالنسبة إلى سكان الجزيرة، كما أنه ذاع خبره وانتشر تاريخيًا في أخبار الأولين وأسطوريًا في كل مكان.

فقد جاء في محكم الكتاب الكريم ذكر قصة مأرب وفيها: وأرسلنا عليهم سيل العرم. وقد نقل ياقوت في معجم البلدان أن العرم هو المسنّاة التي كانت قد أحكمت لتكون حاجزًا بين ضياع القوم وحدائقهم وبين السيل. ففجرت العرم فأرة، ليكون أظهر في الأعجوبة.

وفي شعر الأعشى:

ففي ذاك للمؤتسي إسوة	ومأرب عفّى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير	إذا ما نأى ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع وأغنامها	على سعة ماؤهم إن قسم
وطار القيول وقيلاتها	بيهماء فيها سراب يطم
فكانوا بذلكم حقبة	فمال بهم جارف منهزم
فصاروا أيادي ما يقدرون	منه على شرب ماء فطم

وشعر الأعشى ليس الوحيد الذي يشير إلى مأرب وسدها وسيل العرم، ولكننا نكتفي بهذا القدر للتمثيل فقط.

وقد ظل العالم الخارجي الحديث لا يعرف عن مأرب وسدها شيئًا دقيقًا حتى القرن التاسع عشر. فقد تمكن ثلاثة زوار أوروبيين من الوصول إلى مأرب بين سنتي ١٨٤٣ و١٨٩٤ . وفي سنة ١٩٤٧ قام الدكتور أحمد فخري بدراسة وافية للمنطقة ونشر نتيجة أبحاثه في القاهرة سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ . إلا أن الحفر والتنقيب الأثري المعتمد فيهما على الرفش والمعول وآلة المسح والمعرفة الفنية لم تعرفها منطقة سد مأرب لأول مرة إلا في أواخر سنة ١٩٥١ وأوائل سنة ١٩٥٢ .

على أن أعمال الحفر في هذه الفترة القصيرة لم تقتصر على سد مأرب وما إليه، بل شملت وادي بيحان وهو جزء من المنطقة التي قامت فيها مملكة قتبان التي كانت عاصمتها تمناء وهي المعروفة اليوم باسم حجر كحلان. وفي هذا البحث نود أن

نتحدث عن الري والزراعة في وادي بيحان، لا عن منطقة مأرب؛ فهذه كثر الحديث عنها ولكن تلك بعد حديثة عهد الكتابة عنها.

على أننا قبل الانتقال إلى الحديث نفسه، نود أن نضع بين يدي القارىء خلاصة تاريخية للدول التي قامت في جنوب الجزيرة العربية في العصور السابقة للإسلام.

والمتعارف عليه أن خمس دول قامت في تلك الرقعة من الجزيرة التي يمكن وضعها على الشكل التالي.

١ـ دولة معين التي قامت في منطقة الجوف، وكانت عاصمتها قرناو (وهي خربة معين اليوم). ومن مدنها المشهورة يثيل (براقش اليوم) وكانت لها شهرة دينية. ودولة معين دامت من حول القرن الثامن ق. م. الى حول سنة ١١٥ ق. م.

٢ـ دولة سبأ التي تمركزت حول سبأ أولاً ثم اتسع سلطانها بحيث شمل جنوب الجزيرة بأجمعه تقريبًا. وكانت عاصمة الدولة سرواح أولاً، لكن مأرب صار إليها الأمر والنهي منذ حول سنة ٦١٠ ق. م. وقد استمرت هذه الدولة من القرن الثامن ق. م. إلى حول سنة ١١٥ ق. م.

٣ـ دولة قتبان وكانت تقع إلى الشرق من منطقة عدن والعرب من حضرموت وكانت العاصمة تمنع (حجركحلان اليوم). ويبدو أن دولة قتبان قامت معاصرة للدولتين السابقتين، إلا أنها اصبحت مملكة حول سنة ٤٠٠ ق. م. وقد بلغت ذروة المجد في القرن الأول ق. م. ونعرف أنها سكتّ نقدًا ذهبيًا حول سنة ٥٠ ق. م. وقد انتهى أمر هذه الدولة في أيام المسيح.

٤ـ دولة حضرموت التي قامت في الوادي المعروف بهذا الاسم ثم اتسعت نحو الساحل في مهرا وضمت ظفار. كانت العاصمة شبوة، وعمرت هذه الدولة من منتصف القرن الخامس ق. م. إلي القرن الأول ق. م. ولعلّ دولة حضرموت هي التي قضت على قتبان.

٥ـ دولة حمير (الأولى ١١٥ ق. م. والثانية ٣٠٠ ق. م.) كانت عاصمتها ظفار في اليمن ولم تلبث أن ضمت سبأ ومعين، فكانت أوسع دول الجنوب نفوذًا. ولما تهدم سد مأرب، في أواسط القرن السادس للميلاد كان ذلك إيذانًا بانتهاء السطة الحميرية.

(٢)

مع أن دولة قتبان كانت واسعة، فقد كانت المراكز الرئيسة للحياة في وادي بيحان ووادي حريب؛ وهذان الواديان يتجهان إلى الشمال نحو الصحراء بدءًا من الكتلة الجبلية المتمركزة في جنوب الجزيرة. ويبدو من كثرة آثار الري ومصانع الماء في تلك المناطق أن قتبان كانت من المناطق الزراعية المتقدمة في جنوب الجزيرة.

ان السفوح الشمالية للجبال الممتدة جنوب جزيرة العرب تواجه الصحراء الواسعة الواقعة إلى الشمال، ومناخها هو مناخ شبه صحرواي. إلا أن الرياح الموسمية

التي تهب على الساحل الجنوبي للجزيرة ستة شهور في السنة، في اتجاه واحد، ثم تغير إتجاهها للشهور الستة التالية من السنة ــ هذه الرياح تحمل معها أمطارًا إلى الأودية في أوقات تبدل اتجاهها أي في فترة نيسان ـ أيار (إبريل ـ مايو) وفترة تشرين ـ الأول كانون الأول (أكتوبر ـ ديسمبر). وقد لا تسقط الأمطار سنوات متعددة متتالية، ولكنها متى جاءت إلى وادي بيجان مثلاً، فإنها تكون فيضانًا خاطفًا، بحيث انها تملأ وادي بيحان الذي يبلغ طوله نحو ٦٥ كيلو مترًا، كما أنها تملأ عدوات الأودية المتصلة به. ومثل هذا النوع من المطر والفيضان هو المعروف «بالسيل». ومن هنا كان الري الذي اعتمد عليه في تلك الجهات هو ري السيل، وهذا يختلف بطبيعة الحال عن الري الفيضاني النهري الذي عرفته مصر في تاريخها الطويل. وهذا البحث الذي نسوقه اليوم إلى القراء مبني، مبدئيًا، على التقارير والشروح التي وضعتها البعثة الأميركية التي حفرت هناك سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥١ والتي ظهرت تقاريرها تباعًا اعتبارًا من سنة ١٩٥٧ .

وهذه السيول التي كانت تنحدر من المرتفعات إلى المناطق المنخفضة من الأودية، كانت تحمل معها الطمي أو الغرين الذي كان يستقر في المنخفضات ويرفع من مستوى تلك الأماكن، ولكن كان يتبع ذلك أن الأودية الجانبية كان يصل اليها الماء إلى نقاط أعلى بسبب ارتفاع المجرى العام للسيل. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن أعمال الري والزراعة في وادي بيحان توقفت نحو ١٥٠٠ سنة، فيمكن أن يتصور المرء ما قامت به عوامل النحت والتعرية في ذلك الطمي من حيث حفر مجار خاصة بالمياه المتحدرة دون ضابط قط.

والطمي كان القوم يفيدون منه لإقامة سد تتجمع المياه خلفه. ولم يقم القوم أبنية حجرية إلا حيث وجدوا أن عوامل النحت والتعرية كانت تأكل جوانب الأودية وعدواتها.

ومما كشفت عنه البعثة الأثرية في وادي بيحان القناة التي بنيت في حجر بن حميد، والتي يبلغ طولها ١٢٠٠ من الأمتار. وقد أقيمت عليها هواويس (أحواض) لتوزيع المياه على جانبيها، أي على الأراضي المنخفضة عنها. وقد استعمل في بناء هذه القناة وغيرها جدر من الحجارة الضخمة في أول الأمر، فلما أتقن القوم الصناعة أصبحت الحجارة أصغر حجمًا لأن فن البناء عندهم تحسن.

وقد أظهر التصوير الجوي أن الحقول التي كانت تستفيد من الري في وادي بيحان مثلاً، كانت منتظمة في أشكالها ويغلب عليها الشكل المستطيل، وكانت محاورها الطويلة تتعامد على اتجاه القناة أو المصدر الرئيسي للمياه ،بحيث تتمكن الحقول أن تحصل على حاجتها من مياه الري بدون ضياع.

وقد اتضح نتيجة للدراسات المختلفة أنه كان ثمة عدد كبير من مناطق الطمي. فقد عددت البعثة المذكورة في تقاريرها المختلفة أحد عشر موضعًا في وادي بيحان فقط.

(٣)

في الحقول كان المزارعون يزرعرن الحبوب التي كانت تغذي القوم، ولعل أحد الأسباب التي من أجلها ظلت دولة سبأ مدة أطول، وظلت العناية بسد مأرب بعد زوال وسائل الري الأخرى، هو أن الحبوب التي كانت تنمو في منطقة مأرب كانت تسد حاجة كبيرة للسكان بعد أن أهمل الآخرون الري والزراعة .

ويبدو أن وادي بيحان كانت تزرع فيه أشجار المر التي كانت عصارتها تنقل إلى الشمال مع البخور والطيوب عبر الجزيرة إلى غزة والبتراء ومصر ودمشق.

وقد مر بنا أن دولة قتبان انتهى أمرها دولة مستقلة حول أيام المسيح. ومع أن مدينة تمنع قد احترق جزء كبير منها نتيجة لهجوم عليها ، ومع أن المهاجمين كانوا من حضرموت، فإن قتبان ظلت لها زراعتها وريها وهي تابعة للدولة الجديدة.

لكن الملاحظ أن الزراعة والري في وادي بيحان أخذا بالتأخر تدريجيًا منذ القرن الأول الميلادي. والباحثون يرجحون أن السبب كان خارجيًا. فقد مر بنا في بحث سابق أن مناطق جنوب الجزيرة كانت تعتمد على التجارة - البخور والمر والطيوب وغير ذلك - في ثروتها وقوتها. وكانت التجارة هذه حكرًا على الأقوام المقيمة هناك.

لكن منذ القرن الأول الميلادي أخذت التجارة هذه تنتقل عن طريق البحر الأحمر، تاركة قتبان وجيرانها، وكان التجار الآن اليونان والرومان. فلما فقدت تلك الأماكن مصادر الثروة الرئيسة أخذت بالتأخر شيئًا فشيئا حتى انتهى أمرها وأصبحت خبرًا للتاريخ وزادًا للأسطورة وعبرة للبشر.

والسؤال الذي يسأل الآن: هل كان اهتداء القوم إلى وسائل الري - سدودًا وقنيًا وهواويس (أحواضًا) صغيرة - شيئًا نشأ هناك أم أنه نقل من الخارج؟

المناطق التي عرفت الري والتي كان لأجزاء مختلفة من الجزيرة العربية اتصال بها هي: وادي النيل وبلاد ما بين النهرين وحوض السند. ولكن الري في هذه ري نهري يعتمد على ماء مستمر أو منتظم الوصول، له مواسم معروفة معينة. أما الري الذي تحدثنا عنه فري السيول ، وهو موسمي بمعنى ارتباطه بموعد في السنة، وقد لا يهطل المطر.

من هنا، والذي يقول به المشتغلون بهذا الموضوع هو أن أنظمة الري المعروفة في جنوب جزيرة العرب محلية في أصلها وتطورها،ولعلها بدأت بملاحظة الإرتباط بين ازدياد المنتوج وبين الطمي المتراكم في الأودية. فاهتم القوم بهذا الطمي بأن أقاموا منه سدًا بسيطًا. أما السير نحو إتقان السد وإقامة البناء الحجري لذلك، على نحو ما هو قائم في سد مأرب،فأمر كان مرتبطاً بالتقدم الصناعي والفني في المنطقة. والواقع أن فن البناء كان متقدمًا هناك، فكأن القضية كانت نقل المهارة من نوع من البناء إلى نوع آخر.

بعض المدن القديمة

(١)

يقول الدكتور جواد علي في مفتتح الجزء الثامن من كتابه الكبير «تاريخ العرب قبل الإسلام» عن المجتمع العربي الجاهلي ما يلي:

«المجتمع العربي: بدو وحضر. أهل وبر وأهل مدر، يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى.

«وحياة الحضر على الأرض يزرعونها ويعيشون منها، أو على التجارة أو على الحرف الأخرى كالحرف اليدوية، ومن طبيعة هذه الحرف الاستقرار والاستيطان في أرض تكون وطنًا ثابتاً للإنسان... أما أهل الوبر، فهم رحل، يتنقلون طلبًا للماء والكلأ والامتيار، ولذلك فموطنهم متنقل قلق غير مستقر.

ولما كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على جزيرة العرب، كان لهذه الطبيعة أثرها في حياة الناس. فغلبت البداوة على الاستقرار، وأثرت في النظم والآراء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية وفي سائر نواحي الحياة الأخرى، لقد حالت دون قيام المجتمعات الكبرى القائمة على الاستقرار والاستيطان واستغلال الأرض، وجعلت من الصعب قيام الدول الكبيرة في هذه البلاد، وتكوين حكومات تقوم على احترام جميع أبناء الحكومة من دون نظر إلى البيوتات والعشائر والرئاسات.

«وفي الأماكن التي توفرت فيها المياه، المياه النابعة من الأرض أو الهاطلة من السماء نشأت مجتمعات مستقرة، وظهرت حكومات وهيآت مدنية حاكمة منسقة لشؤون المواطنين، استعانت بالكتابة لضبط شؤونها وللتعبير عما يجول في خواطرها. بقي بعضها، ومنها استخرجنا معارفنا بهم، وتأريخنا لأولئك الماضين.

«ومن هنا قامت الحكومات في العربية الجنوبية الغربية بوجه خاص. وهي حكومات كبيرة إذا قيست إلى الحكومات التي قامت في الإنحاء الأخرى من جزيرة العرب وكان لها عمر طويل بالقياس إلى أعمار الحكومات الأخرى التي لم تعمر طويلاً.

«ومعارفنا بحال هذه الممالك العربية الجنوبية حسنة بعض الحسن بالقياس إلى معارفنا بالإمارات العربية التي تكونت في أماكن أخرى من جزيرة العرب، وذلك بفضل النصوص والكتابات الجاهلية التي وصلت منها إلينا، على حين أن الإمارات والمشيخات التي كونت في مواضع أخرى كانت شحيحة علينا غاية في الشح، فلم تعطنا نصوصًا تمكننا الاستفادة منها في تكوين رأي واضح في تلك الإمارات

والمشيخات، فاقتصر حديثنا عنها على ما ورد في الأخبار والروايات، وكلها بالنقل والرواية، لا بالكتابة والوثائق المدونة المكتوبة بخطوط أبناء تلك الأجيال.

«ولما كان مناخ العربية الجنوبية أكثر ملاءمة وصلاحًا للزراعة، ازدهرت منذ الألف الثاني قبل الميلاد حضارة راقية فيها، قامت على أساس الزراعة والتجارة، وآثار السدود التي استخدمها الإنسان قبل الميلاد وبعده إلى إيام الإسلام، والمدن المحصنة، والمعابد المشيدة وآثار القنوات والمزارع القديمة: كل أولئك شاهد على وجود مجتمع متحضر، نظم حياته تنظيمًا يلائم المحيط الذي عاش فيه. وقد أنشأ حضارة زاهية في تلك الأرضين».

هناك بضعة أمور تلفت النظر في هذا النص المقتبس وهي. أولاً: إن المجتمعات الكبيرة المنظمة ظهرت في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة لأن الأرض كانت خصبة معطاء، والسماء وهابة. فأنشئت هناك مدن كبيرة، وشيدت فيها القصور الضخمة والهياكل الكبيرة، وازدهرت صناعات وفنون.

ثانيًا: ثمة مناطق في الجزيرة، ولو أنها كانت على درجة كبيرة من الجفاف، قامت فيها مدن حول الواحات الغزيرة المياه لأن الأرض هناك كانت تفيد من تلك المياه. والمدينة المنورة مثل على ذلك.

ثالثًا: قد تكون أماكن شحيحة المياه لكن وقوعها على طريق تجاري هام أدى إلى قيام مدن هامة هناك أصبحت أسواقًا كبيرة. ومثلنا على ذلك مكة المكرمة.

رابعًا: إن الأماكن التي قامت فيها مجتمعات مستقرة كانت لها كتابة استخدمتها في النقوش. وهذه النقوش كانت، لما اهتدى الباحثون إليها، مصدرًا رئيسًا للمادة التاريخية (اللغوية) التي وضعها هؤلاء الباحثون بين أيدينا.

خامسًا: إن المناطق الأخرى كانت شحيحة في النصوص والنقوش. فضلاً عن أن أعمال التنقيب الأثري حديثة العهد فيها ـ مثل شرق الجزيرة.

سادسًا: يلفت المؤلف نظرنا إلى اعتماد الباحثين على ما «ورد في الأخبار والروايات» في تفسير تاريخ تلك المناطق. ونود هنا أن نقول إن هذه الأخبار والروايات كانت، في أحيان كثيرة، مزيجًا من الأساطير بحيث أن فصل الصحيح من الغث ليس أمرًا سهلاً، إن لم يكن أمرًا مستحيلاً.

على أننا، مع ذلك، نجد أن الجزيرة العربية عرفت، في العصور القديمة عددًا كبيرًا من المدن، بعضها استمر حتى بعد ظهور الإسلام، والبعض الآخر منها لا يزال موجودًا إلى الآن. ولسنا نقصد أن نتحدث عن هذه المدن بأجمعها في هذا البحث، ولكننا نود أن نتحدث عن هذه المدن بوجه عام، آملين أن نعود الى تفصيل أخبار البعض من هذه المدن في المستقبل.

(٢)

ونحن إذا أخذنا المنطقة الغربية والوسطى من الجزيرة، وجدناعددًا من المدن يعود تاريخ إنشائها إلى عصور ما قبل التاريخ، ولكنها كانت ذات قيمة تجارية، خاصة في الفترة الواقعة بين القرن العاشر قبل الميلاد والعصور الإسلامية الأولى. ويعود ذلك أصلاً إلى أنها كانت على الطريق التجاري الرئيس الذي كان يصل بين الشام (حيث كان يتفرغ عند البتراء إلى مصر) وبين اليمن عن طريق الحجاز.

وقد أصبح من المتعارف عليه عند الباحثين أن أهم هذه المدن هي:

١- أرام أو أرم التي ورد ذكرها في الكتابات القديمة والتي نستدل منها على أن العرب كانوا يقطنون فيها في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد كانت أهميتها أصلاً أنها على طريق البخور بين البتراء شمالاً ومدن الجنوب. وبعد الإسلام أصبحت مركزًا على طريق الحج.

٢- القرية التي تقع على نحو سبعين كيلو مترًا شمال غربي تبوك. وقد بلغت عصرها الذهبي أيام ازدهار دولة الأنباط.

٣. تيماء وهي، فيما نعلم، أقدم مدينة في تلك الرقعة من الجزيرة، وقد ورد ذكرها في نقوش أشورية ترجع إلى سنة ٧٣٢ ق. م. وقد كانت تيماء على طريق البخور الموصل إلى الخليج العربي (وذلك بعد أن دخل الجمل إلى تلك الجهات فغير اتجاه الطرق لأنه يستطيع الصبر على العطش أكثر من الحيوان الذي سبقه وهو الحمار). وقد كان لتيماء سور عرضه حول لمترين وارتفاعه نحو ثلاثة أمتار، ويبدو أن أبنيتها تأثرت بالفن الآرامي في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان فقال عنها:

«تيماء بالفتح والمد: بليد في أطراف الشام ودمشق، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء مشرف عليها. وقال ابن الأزهري: المتيم المضلل، ومنه قيل للفلاة تيماء لأنها يضل فيها، قال ابن الاعرابي: أرض واسعة، وقال الأصمعي: التيماء الأرض التي لا ماء فيها ولا نحو ذلك. ولما بلغ أهل تيماء في سنة تسع وطء النبي صلى الله عليه وسلم وادي القرى أرسلوا إليه وصالحوه على الجزية وأقاموا ببلادهم وأرضهم بأيديهم».

٤- الحجر (أو مداين صالح) الواقعة إلى الجنوب الغربي من تيماء التي كانت بالإضافة الى البتراء أهم مدينة في دول الأنباط. أما بناؤها فيعود، على ما يرجحه الباحثون، الى المعينيين أيام كانت تجارتهم تمتد طرقها وأسواقها الى تلك المناطق.

٥- وثمة العلا التي كانت أيضًا على الطريق التجاري الهام. ومما حمل التجار، والحجاج فيما بعد، على اتخاذها نقطة استراحة وتجمع غزارة لماء في الواحة المحيطة بها.

٦- حري بنا أن نذكر أن شواطىء البحر الأحمر كانت فيها موانىء هامة يتخذها

التجار مراكز لمتاجرهم ينقلونها من بعض المراكز المذكورة آنفا إليها تمهيدًا لحملها عبر البحر إلى مصر. فهناك أيلة على رأس خليج العقبة، وهناك ميناء لويكة كومي التي كانت تقع جنوبي أيلة. وقد ظلت هذه ميناء مستعملاً إلى حول القرن الثالث للميلاد، ثم إنتزعت أيلة منها تجارتها ومكانتها. أما في العصور الإسلامية فقد قامت ينبع على مقربة منها، وحصلت على شيء من مكانتها.

(٢)

فإذا انتقلنا إلى المنطقة الشرقية من الجزيرة، وجدنا أنفسنا أمام عدد أقل من المدن. ولكن السؤال الحري بأن يطرح هو: هل كانت تلك المناطق أقل مدنًا في الواقع، أم أننا لا نزال نجهل الكثير عن تلك المناطق؟ ولنأخذ على سبيل المثال كندة. فقد عرف التاريخ الأدبي ملوكًا لكندة لعل آخرهم الشاعر المشهور إمرؤ القيس، ولكننا لم نقف بعد على آثار مدن هناك، أو على الأقل لم نتأكد من ذلك بعد. وإذن فالقضية الأساسية هي أن معرفتنا قليلة ومع ذلك فقد عرف التاريخ مدنًا شهيرة كان لها أدوار هامة في التجارة وما إلى ذلك.

ولنذكر على سبيل المثال:

١ـ الابله، الواقعة على شمال الخليج العربي، التي وصفها مؤلف كتاب دليل البحر الأحمر على أنها تسوق من الأسواق التجارية الهامة. وكانت تصدر إلى اليمن اللؤلؤ والتمر والبلح والذهب، وقد سماها أبولوغوس. أما الأبله فهو الاسم العربي الإسلامي للمكان (جواد). وقد وصفها الطبري المؤرخ بأنها كانت فرح الهند.

٢ـ جرها الواقعة على ساحل الأحساء،وقد كان أهلها: من «أنشط الناس في التجارة، يتاجرون في البحر، ويتاجرون مع الهند وسواحل ايران الجنوبية كما كانوا يتاجرون مع العربية والجنوبية وأرض العراق. وكانوا قومًا أصحاب تجارة مسالمين لا يرغبرن في الحروب» (جواد). ومن المرجح أن جرها (أو الجرعاء؟) كانت تقوم مكان العقير اليوم، ذلك هو الرأي القائم الآن. ولكن استمراره أو تبديله متوقف على ما يظهره الرفش والمعول والعالم الأثري في المستقبل.

٣ـ وهناك جبلة وهجر والقطيف ومسقط وعمان والبحرين (الجزيرة). وهجر هي الأحساء (الحسا) اليوم. وقد ورد ذكرها في النقوش الآجرية التي وجدت في بلاد بين النهرين، أما عُمان فكانت مركز تصدير الفضة والنحاس؛ وكانت التاج تقع على الطريق التجاري بين مكة والحيرة.

والكثير من هذه المدن ورد ذكرها عند الجغرافيين العرب. فقد جاء في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي عن بعض المدن الشرقية قوله:

«أمج صغيرة بها خمسة حصون اثنان حجر وثلاثة مدر والجامع على متن

الطريق، وخليص متصلة بها وبها بركة وقناة وتمور وخضر ومزارع. السوارقية كثيرة الحصون بها بساتين ومزارع كثيرة ومواش. الفرع والسيرة حصنان بكل واحد جامع. جبله كبيرة بها متاجر عليها حصن منيع يقال له المهد الجامع خارجه. مهايع نظير جبلة على أودية سابة. حاذة مدينة مليحة للبكريين بها عدة من الحصون وجامع كبير».

وقال ياقوت الحموي (في معجم البلدان) عن القطيف ما يلي:

القطيف: بفتح أوله، وكسر ثانيه، فعيل من القطف وهي مدينة بالبحرين هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها وكان قديمًا اسمًا لكورة هناك عليها الآن اسم هذه المدينة، وقال الحفصي: القطيف قرية لجذيمة عبد القيس، وقال عمرو بن أوس العبدي:

وتركن عنتر لا يقاتل أهل القطيف قتال خيل تنقع»

الحديث عن المدن الواقعة في المناطق الجنوبية من الجزيرة حديث طويل ، وقد عرضنا لبعض هذه المدن في أبحاث سابقة لمناسبة الحديث عن بلاد البخور والزراعة والري. والذي نود أن نفعله الآن هو أن نجمل بعض خصائص المدن الجنوبية، آملين أن نفصل الحديث عن بعضها على الأقل في المستقبل.

أولاً: يغلب على المدن التي بنيت في الجنوب أن تكون مربعة أو مستطيلة شكلاً، وزواياها شبه قائمة إن لم تكن قائمة تمامًا. هذا هو الذي وجده الرحالة والبحاثة في مأرب وغربون (حضرموت) وشبوه وحريب ويليط (خريبة سعود) وقرناو (معين).

ثانيًا: ثمة مدن بيضوية الشكل أشهرها حازر وبيحان.

ثالثًا: يغلب على المدن أن تكون في أودية ما نعرف عن الجوف ومأرب وثمناء. كحلان.

رابعًا: تقوم مدينة شبام على هضبة. وهناك بعض المدن بنيت على تلال صناعية لتجنب خطر الفيضان مثل يطل (يراقش) وقرناو (معين).

وحري بالذكر أن اليمن بشكل خاص بلاد غنية بالحجارة الصالحة للبناء. ففيها الحجر الناري والرملي والغرانيت والمرمر (الآلبستر). ومن هنا، فقد كانت الأبنية الدينية وغيرها، يمكن زخرفتها كما أن بقاياها لا تزال قائمة إلى الآن.

من الصناعات القديمة في الجزيرة

إن جزيرة العرب التي تحيط بها البحار من جهات ثلاث، والتي تقع هي والبحار المحيطة بها في مركز هام للاتصال بين المحيط الهندي من جهة والبحر المتوسط من جهة أخرى، كانت لها، منذ أقدم الأزمنة، تجارات واسعة. وقد ألممنا بهذا فيما كتبناه من قبل ومناطق الجزيرة الخصبة وواحاتها الكثيرة الكبيرة منها والصغيرة، كانت لها عناية بالزراعة معروف شأنها، وقد تحدثنا فيما سبق عن الزراعة والري في بعض مناطق الجنوب.

ونود الآن أن نعرض إلى بعض الصناعات التي عرفتها مناطق الجزيرة في الأيام الخوالي، أيام كان الناس يعتمدون على اليد والذراع والأدوات البسيطة في صنع الأشياء. ونحن عندما نحاول ذلك يتوجب علينا أن نلم إلمامة عامة بالمواد الخام التي كانت توجد في الجزيرة والتي أدت إلى قيام صناعات مختلفة بلغت الجودة في إنتاجها.

وأول ما يجب أن نذكره هو أن اليمن بلد غني بالحجارة وفيه بالاضافة إلى ذلك رخام الألبستر الشفاف ، الذي يعرف باسم «القمرية» فليس غريبًا، والحالة هذه أن يتقن اليمني، طوال تاريخه العريق، صناعة البناء، فتكثر في ربوع بلاده القصور التي اشتهرت في التاريخ والأدب. ولعل أشهرها قصر غمدان الذي كان يقوم، فيما يرجح، على مقربة من صنعاء . وقد كان هذا البناء فيما نقله الرواة، يتكون من عشرين طابقًا وقد ذكر الهمداني أن صاحب القصر كان يجلس في الطبقة العليا من القصر، المغطى سقفها بالرخام الألبستر، فإذا مر الطائر من فوقه عرف نوعه. وهذا الرخام كان يستعمل في اليمن حتى إلى قبل فترة قصيرة في النوافذ فيسمح للنور بالدخول دون الرؤية من الخارج. وقد قيل في قصر غمدان.

يسمو إلى كبد السماء مصعدًا	عشرين سقفًا سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة	ومن الغمام منطق ومؤزر
متلاحكًا بالقطر منه صخرة	والجزع بين صروحه والمرمر

وما دامت هذه الأبيات أشارات إلى الجزع فلنذكر أن الجزع كان معروفًا في شبام وصنعاء وظفار. والمعرق منه كان يتخذ منه الأواني لكبره وعظمه. والملون المخطط من الجزع اليماني كان محبوبًا وكان يصنع منه الألواح والصفائح وقوائم السيوف ونصب السكاكين والمداهن. ومما كانت تعمل منه قوائم السيوف

ونصب السكاكين والمداهن. ومما كانت تعمل منه قوائم السيوف الشزب. وقد ذكر الهمداني أنه كان معروفًا في اليمن وأنه لا مثيل له إلا في الهند.

وعرفت بعض الجهات في بلاد العرب الذهب. فقد روى الهمداني في صفة جزيرة العرب وغيره أن اليمامة وديار ربيعة والحفير والضبيب والثية وخولان (حويلة القديمة) وأحسن، كان فيها معادن ذهب تختلف في الجودة. كما كان يوجد ذلك بين ينبع والمروة.

ولعل مناجم مهد الذهب ، التي تقع قريبًا في منتصف الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة أشهر مناجم الذهب العربية في التاريخ. فنحن نعرف أن الفينيقيين في عصر أحيرام وأهل القدس المعاصرين له (في أوائل القرن العاشر ق. م.) كانوا يحصلون على الكثير من الذهب عن طريق البحر الأحمر، وقد ثبت أن القسم الأكبر من هذا الذهب كان ينقل من مهد الذهب في الحجاز. وقد ظل هذا المكان يستخرج منه الذهب حتى أيام الخليفة هرون الرشيد في أواخر القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد).

وقد نقل الهمداني أن الرضراض وخربة سلوق فيهما الفضة. ونعرف منه ومن ياقوت الحموي، صاحب معجم البلدان، أن الحديد كان في خربة سلوق ورغامة ونقم وغمدان.

فإذا نحن تذكرنا هذا لم نستغرب أن يكون لبعض بلاد العرب شهرة خاصة في الصناعات المعدنية، واليمن كانت في مقدمة البلاد إتقانًا لهذه الصناعات، حتى ان اليمني كان يستورد ما يحتاجه منها، بالإضافة إلى ما عنده من الهند والحبشة. والسيوف اليمانية الصقيلة أشهر من أن تعرف. ولا تزال صناعة السيوف والجنابيات إلى الآن صناعة مشهورة في اليمن.

وما كان يصنع في بلاد العرب الدروع في خربة سلوق (مثلاً) وإليها كانت العرب تنسب الدروع السلوقية. والرماح الخطية كانت تصنع في الخط من بلاد البحرين (منطقة الأحساء اليوم). وسهام بلاد كانت أجود السهام في الجاهلية.

وكانت عُمان، في الأزمنة التاريخية القديمة، المصدر الرئيس للنحاس في شرق الجزيرة، ومنها ينقل إلى أرض الرافدين.

وقد كان مستوى المعيشة في كثير من المناطق الغنية عاليًا. فقد نقل أغاثر سيدس عن السبأيين أنه كان لهم: «في منازلهم ما يفوق التصديق من الآنية والأوعية على اختلاف أشكالها من الفضة والذهب، وعندهم الأسرة والموائد من الفضة، والرياض من أفخر الأنسجة وأغلاها. وصورهم قائمة على الأساطين المحلاة بالذهب أو المزينة بالفضة، يعقلون على أفاريز منازلهم وأبوابه صحائف الذهب مرصعة بالجوهر، ويبذلون في تزيين قصورهم أموالاً طائلة لكثرة ما يدخلونه في زينتها من

الذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة وغيرها من المواد الثمينة».

وقد يكون في هذا الذي رواه الكاتب اليوناني بعض المبالغة لأن الذين نقل عنهم أخبار السبأيين كانوا أنفسهم مبالغين، ولكن حتى لو قبلنا ذلك لظل للقوم الكثير من خفض العيش ورخائه.

وعرفت عمان وهجر وجزيرة أوال (البحرين) وعدن اللؤلؤ، إذ كان يغاص عليه فيها وكان اللؤلؤ بين الأحجار النفيسة أكثرها طلبًا وذلك للزينة .

وإذا كانت السيوف اليمانية تحتل مكانًا رفيعًا في التجارة والأدب فمثلها البرود اليمانية. وقد اشتهرت اليمن بالأنسجة بحيث يكاد يصح القول بأن النسيج كان أبرز الحرف عند أهلها، وكانت محط أنظار المهتمين بالزي الأنيق، كما أنها كانت تناسب كل جيب وكل فئة من الناس، لا في اليمن نفسها فحسب بل في الجزيرة كلها والعراق والشام. وإذا نحن رجعنا إلى ما رواه المؤرخون ورجال الحديث والأدب والجغرافيون، وجدنا أخبارًا طوالاً ليس هنا موضعها، ولكن لا بد من الاشارة إلى بعضها لتوضح مكانة الأنسجة والبرود اليمانية في الجهات المختلفة والمنازل المتباعدة. فقد نقل ابن الفقيه أن النبي (ص) كسا الكعبة الثياب اليمانية. وقد أشير إلى مناديل اليمن كأنها نور الربيع، ولعل ذلك يعود إلى ما كان يدخلها من الألوان الجميلة. ويبدو من الروايات المختلفة التي بين أيدينا على أنه كانت في اليمن مراكز كثيرة للنسيج في العصور الإسلامية المبكرة. وكانت بعض هذه البرود تباع بمئة درهم وقد يصل ثمن بعضها إلى مئتي دينار. وقد روى أن يزيد الثالث الأموي كان يلبس بردتين يمانيتين قد حيكتا له وقوم ثمنهما بنحو ألف دينار، والتفاوت في أثمان هذه البرود كان يعود إلى غلظتها أو نعومتها والى المواد المحاكة منها، حريرًا كانت أم صوفًا أم قطنًا، وإلى الخيوط وحياكتها والى النسج نفسه وطريقته وإلى ألوان صباغتها. فالبرد الأتحمي فيه خطوط خضر وحمر. والمذاهب هي البرود الموشاة بالذهب. والحبرة ضرب من البرود منمر، فيما يعتبر الحبير هو الموشى المخطط. والعصب برد يماني كان غالي الثمن. وقد روي عن معاذ أن النساء: «إذا تحلين ولبسن ربط الشام [أي الملاءة ذات القطعة الواحدة] وعصب اليمن، أتعبن الغني وكلفن الفقير ما لا يجد». والعصب اليماني كان يصبغ بالدكنة والحمرة والخضرة والصفرة، كما قد يكون أبيض اللون وغليظًا، ومن أشهر الأماكن في إنتاج العصب الجند. وثمة البرود النجرانية. وقد أخرج الدكتور صالح أحمد العلي أن النبي (ص) كان يرتدي بردًا نجرانيًا غليظ الحاشية. وقد صالح الرسول (ص) أهل نجران على ألفي حلة.

وعند ابن منظور تفصيل للخيوط والنسيج. فقد أورد القول نقلاً عن الجوهري:

«السحيل الخيط غير مفتول، والسحيل من الثياب ما كان غزله طاقًا واحدًا؛ والمبرم المفتول الغزل طاقين؛ والمتام ما كان سداه ولحمته طاقين ليس بمبرم ولا مسحل».

وثمة إشارة الى البرود الحضرمية.

لم يقتصر صنع الأنسجة على اليمن وحضرموت، بل إن قطر والبحرين (الإحساء وما إليها قديمًا) وعمان كانت تنتج أنواعًا من الأنسجة والبرود مشهورة معروفة. ومراكز الصناعة هذه كانت، على ما نعرف من المصادر المتوعة، هجر وقطر. وقد خلص الدكتور صالح أحمد العلي بعد أن درس الكثير من النصوص المتعلقة بالقرنين الأول والثاني للهجرة (السابع والثامن للميلاد) أن الثياب القطرية كان غزلها يصبغ قبل النسج، وأنها كانت ثيابًا غليظة فيها بعض الخشونة وكانت رخيصة وأنها كانت، في غالبها على الأقل، حمراء

والأنسجة العُمانية منها ما كان يصنع في صحار.

وقد استمرت صناعات كثيرة في الجزيرة قرونًا طويلة، وفي بعض الحالات لا تزال إلى الآن ، فقد روى ناصري خسرو، الذي زار الأحساء في القرن الخامس (الحادي عشر) أن أهلها كانوا ينسجون فوطًا جميلة ويصدرونها للبصرة وغيرها. وقال أيضًا: «وكل غريب ينزل هذه المدينة وله صناعة، يعطى ما يكفيه من المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد وآلات».

ويقول ابن بطوطة عن مدينة ظفار الحموض (في اليمن): «ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدًا».

ولا شك أن المناطق الغنية بالمراعي كانت تعنى بصناعة الجلود من سروج الخيول والحمير والجمال، وهذه كانت تحتاج إلى دباغة، كما كانت الأقمشة تلزمها الصباغة. ومن أماكن الدباغة المشهورة في بلاد العرب جرش وصعدة والطائف، كما أن أهل المدينة، مثل كثير من مدن اليمن، كانوا معروفين،. قبل الإسلام وبعده، بالصباغة وبصناعة الفضة.

والذي يجب أن يذكر دائمًا هو أن صناعة السفن كانت رائجة في موانىء الجزيرة، إذ لا يمكن تصور قيام تجارة واسعة منتشرة شرقًا وغربًا وجنوبًا من دون سفن يصنعها أهل البلاد للاتجار بها.

هذا قليل من كثير مما عرفته الجزيرة من الصناعات في أيامها الغابرة، وبعضها لا يزال قائمًا.

من مراكز العلم والأدب في الجزيرة

جزيرة العرب ـ هذه الرقعة من الأرض المتنوعة مناخًا المتباينة مسافة – كان لأهلها ـ وهم من هم دقة إحساس وتوقد ذكاء ورقة عاطفة وشد رحال ورغبة في التعليم ـ مشاركات في العلوم والفنون امتدت عبر تاريخها الطويل. ولسنا نطمع ـ أن نلم في هذا البحث، بهذه المشاركات المختلفة، ولكننا نكتفي بذكر نبذ عنها في العصور الإسلامية المتعاقبة، آملين أن يحفز هذا القراء على الاستزادة في الموضوع لإشباع رغباتهم. ونحن لا ننسى أن رقاعًا مختلفة من الجزيرة العربية كان لها في الأيام السابقة للإسلام آثار أدبية تعد من أجمل ما أنتج العرب في الشعر والأدب، كما أن الحيرة كانت مركزًا كبيرًا من مراكز العلم والأدب في أيام المناذرة.

وأول ما يجب أن يذكر، بهذه المناسبة، هذه الحركة العلمية الإسلامية التي زخرت بها مدن الحجاز في القرنين الأولين من ظهور الإسلام من عناية بالقرآن الكريم وتفسيره والحديث الشريف وجمعه، بحيث كان لهؤلاء أياد بيض في تيسير المادة الأصلية لتطور الشريعة فيما بعد. كما أننا يجب أن نذكر هذا الشعر الغزلي الذي عرفه أهل مكة والمدينة في الفترة نفسها. ونكتفي بالإشارة إلى هذين الأمرين لأن شأنهما معروف لدى القراء.

ولعل اليمن كان، بالإضافة إلى الحجاز، الصقع الذي استمرت فيه التقاليد العلمية عبر العصور. وقد كانت مدارس اليمن كثيرة، وفي مقدمتها مدينة زبيد التي يمكن اعتبارها النموذج الخاص للمدينة «الجامعية» العلمية. فقد ظهر منها وفيها عدد كبير من أهل العلم بحيث يصعب حتى ذكر أسمائهم جميعًا. فعندنا، على سبيل المثال من أهل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني صاحب «الأكليل» و«صفة جزيرة العرب». والهمداني مولود في صنعاء وقد «نشأ المؤلف مدفوعًا بذكائه ومواهبه إلى المشاركة في جميع معارف عصره: من تاريخ وأنساب وجغرافية ومساحة وفلك ودراسة لحركات الكواكب وبحث عن سنن الطبيعة وآراء الملل والنحل في المبدأ والمعاد». وجدير بالذكر أن الهمداني تلقى هذه العلوم كلها في اليمن من دون أن يخرج من بلاده. وكتابه الأكليل يقع في عشرة أجزاء تناول فيها المؤلف ماضي اليمن من جميع النواحي والوجوه.

وقد حدثنا عمارة اليمني عن نفسه أنه تعلم في زبيد قال:

«وفي سنة إحدى وثلاثين دفعت لي والدتي مصوغًا لها بألف دينار ودفع لي أبي أربع مائة دينار وقالا لي تمضي مع الوزير مسلم بن سخت إلى زبيد وتنفق هذا المال عليك ولا ترجع إلينا حتى تفلح فقد احتبسناك عند الله وصبرنا عنك وكان بيننا وبين زبيد في مهب الجنوب تسعة أيام فأنزلني الوزير في داره مع أولاده ولازمت الطلب فأقمت أربع سنين لا أخرج من المدرسة إلا لصلاة يوم الجمعة ثم زرت الوالدين في السنة الخامسة ورددت ذلك المصوغ إلى الوالدة ولم أحتج إليه.

وأقمت في زبيد ثلاث سنين وجماعة من الطلبة يقرؤون عندي مذهب الشافعي والفرائض في المواريث ولي في الفرائض مصنف يقرأ في اليمن .

ولما كان في سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من أخوتي إلى زبيد وأنشدته شيئًا من شعري فاستحسنه ثم قال تعلم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس واستحلفني أن لا أهجو مسلمًا قط ببيت شعر فحلفت له على ذلك».

وقد ذكر ابن بطوطة زبيد فقال:

«لقيت بزبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني، والفقيه المحقق أبا العباس الأبياني، والفقيه المحدث أبا علي الزبيدي، ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني، ودخلت حدائقهم. واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن ، أحد فضلاء اليمن، ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني وكان من كبار الرجال».

ومن علماء زبيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس وهو محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي أبو الفيض الملقب بمرتضى (١١٤٥-١٢٠٥للهجرة/ ١٧٣٢-١٧٩٠ للميلاد) وهو لغوي نحوي، محدث أصولي، أديب، ناظم، ناثر، مؤرخ نسابة، مشارك في عدة علوم. أصله من واسط في العراق، ومولده في بلجرام في الشمال الغربي من الهند، ومنشأه في زبيد باليمن. رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، فاشتهر فضله، وكاتبه ملوك الحجاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب الأقصى والترك والسودان والجزائر، وتوفي بالطاعون في مصر في شعبان، من تصانيفه الكثيرة: «تاج العروس في شرح القاموس» في عشرة مجلدات و«إتحاف السادة المتقين في شرح «احياء العلوم» للغزالي في عشرة مجلدات ايضًا و «بلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب» و «عقد الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة».

فإذا انتقلنا من اليمن إلى حضرموت وجدنا أن هذا القطر، الذي قد يبدو بعيدًا عن مركز العلم في بغداد العباسيين، قد تأثر بما كان في تلك المدينة أيام المأمون من نهضة علمية. وقد كان هم الحضرميين على ما يقول صلاح البكري اليافعي:

«مقصورًا على تعلم اللغة العربية والدين. وقد بدأت الحركة العلمية في تريم ومنها تسربت إلى شبام فإلى الهجرين ثم إلى الشحر. وكانت تلك الحركة في بدايتها

تخطو خطوات بطيئة قصيرة وكان العلماء ينشرون علومهم في صورة محاضرات ومواعظ يلقونها في المساجد والجوامع. وفي أواخر القرن الثالث ازدادت الحركة العلمية واتسع نطاقها وأقبل الأهلون على مختلف طبقاتهم يطلبون العلم بشغف وولع، الأمر الذي جعل هؤلاء العلماء ينشئون مكاتب خاصة للتعليم في تريم وسيون والغرفة وشبام وهينن والهجرين ودوعن والشحر... وقد تصدى كثير من العلماء للفتوى فكانت المسائل والمشاكل الدينية ترد إليهم من كل أرجاء البلاد ومن عدن ومن اليمن. وكان طلبة العلم يؤمون مدينة تريم من كل أنحاء حضرموت ومن عدن وصنعاء وزبيد».

عرض محمد سعيد المسلم للحياة الأدبية في منطقة البحرين والتي كانت تشمل قديمًا الإحساء والقطيف وجزيرة أوال (جزيرة البحرين حاليًا) ،وذكّرنا بأن الناس هناك، بعد انتشار الإسلام، انصرفوا عن الشعر، الذي جودوه في الجاهلية، واتجهوا إلى اللغة والدين. ومع ذلك فقد ظهر فيهم شعراء منهم الصلتان العبدي وزياد الأعجم والأعور الشني وكعب عودين الهجري. وفي زمن عودة الشعر إلى منزلته ظهر في تلك الجهات قطرى بن الفجاءة وعيسى بن عاتك الخطي وكعب بن جابر العبدي والأعصم.

وقطرى بن الفجاءة له مقطوعة مشهورة هي:

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال ويحك لم تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبرًا في مجال الموت صبرًا ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي ... فداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى إنقطاع
وما للموت خير في حياة ... إذ ما عد من سقط المتاع

ولعل أبرز شعراء المنطقة في مختتم القرن السادس ومطلع السابع هـ (الثاني عشر والثالث عشرم) هو علي بن المقرب العيوني المتوفى سنة ٦٢٩ (١٢٣١). وقد كان من أفراد الأسرة الحاكمة ويبدو انه طمع في الحكم فحيل دونه ودون ذلك وسجن، فلما خرج من السجن طوح في الآفاق فانتقل إلى بغداد والقطيف والموصل ثم عاد إلى مسقط رأسه خائب الأمل. ويشبهه محمد سعيد المسلم بالمتنبي من حيث طموحه ومحاولة الإفادة من شعره وتقليد الشاعر القديم. والأبيات التالية من إحدى قصائده تظهر أثر المتنبي فيه.

بيني فما أنت من جدي ولا لعبي ... مالي بشيء سوى العلياء من أرب
لا تكثري من مقالات تزيد ضنى ... ما الخط أمي ولا دار الحسا بأبي
في كل أرض إذا يممتها وطن ... ما بين حر وبين الدار من نسب

يا ساكني الخط والجرعاء من هجر ... هل إنتظاركم شيئًا سوى العطب
بححت مما أناديكم وأندبكم ... لخير منقلب عن شر منقلب
فسكتوتي بقول لا تفون به ... قد صرت أرضى بوعد منكم كذب
لي عن ديار الأذى والهون متسع ... ما كل دار مناخ الويل والحرب
لا تنسبوني إلى منشاي بينكم ... الترب ترب وفيه منبت الذهب
لا تحسبوا بغضي الأوطان عن ملل ... لا بد للود والبغضاء من سبب
إذا الديار تغشاك الهوان بها ... فخلها لضعيف العزم واغترب
لأطلبن العلى جهدي طلاب فتى ... يدوس بالعزم هام السبعة الشهب
فإن أنل فبسعيي ما أتيت به ... بدعًا وإلا فقد أعذرت في الطلب

ونجد في الدراسة القيمة التي وضعها بكري شيخ أمين عن الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، أمورًا تتعلق بالتعليم في الحجاز في الفترة التي تلت الفتح العثماني للبلاد ويمكن تلخيصها فيما يلي:

١ـ كان هناك مدرستان قديمتان، الأولى مدرسة السلطان قايتباي المملوكي، والثانية مدرسة أنشأها سلطان البنغال غياث الدين وخصصها لتدريس المذاهب الأربعة وكان بجانبها رباط يقيم فيه الفقراء من طلبتها.

٢ـ ظهرت أربع مدارس عثمانية في مكة سنة ٩٧٢ (١٥٦٤).

٣ـ شاد آل المنفوي المكيون مدرسة خاصة.

٤ـ أن التعليم العالي في هذه الفترة في الحجاز كان يقوم في الحرمين الشريفين حيث يقرأ الطلاب على شيوخهم العلوم الشرعية والنحو والصرف والمنطق والفلك.

و منذ أواسط القرن التاسع عشر أصاب الجزيرة، في مختلف بقاعها، يقظة أدت إلى تبدل كبير في حياتها الفكرية والعلمية والأدبية. فإن الدعوة الإصلاحية الكبرى التي دعا إليها المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب نقلت الناس في نجد إلى عهد جديد. ولنأخذ على ذلك مثلاً الرياض، التي يقول عنها حمد الجاسر:

«كانت مدينة الرياض موئل القاصدين من مختلف البلدان لتلقي العقيدة السلفية على علمائها، ورثة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله منذ أن أصبحت قاعدة للحكم، من عهد الإمام فيصل إلى عهدنا الحاضر، وكان ملوكها يغدقون على طلبة العلم كثيرًا من الفضل، فيقررون لهم من المرتبات الشهرية ما يقوم بحاجتهم، فكان طلاب العلم يأتون من جميع أنحاء المملكة للدراسة والتحصيل، ثم يعودون إلى بلادهم بعد الارتواء من مناهل العلم الديني على يد علمائها حتى قل أن تجد في بلاد نجد عالمًا أو قاضيًا لم يتلق علومه في الرياض على آل الشيخ وغيرهم من العلماء.

«وكان في المدينة عدد من الكتاتيب لتعليم مبادىء القراءة، وتهتم بتحفيظ القرآن

قبل كل شيء ولا تعنى بغيره.

«أما المكتبات فإن العادة التي سار عليها حكام نجد أن العالِم إذا توفي أحضرت كتبه إلى الرياض، ليطلع عليها العلماء، لأن طلبة العلم الذين يدركون قيمة الكتب أكثرهم في هذه المدينة. ولهذا اجتمع لدى العلماء عدد كبير من الكتب، فأصبح لدى الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف آل الشيخ. مكتبة غنية بنوادر المخطوطات، ومثلها مكتبة الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ إلا أنها أضخم منها وأكثر عددًا، ومكتبة الشيخ حمد بن فارس، ومكتبة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وغيرهم من العلماء».

كانت الكتاتيب هي التي تمكّن للناس من تعلم القراءة والكتابة في القطيف والكويت، وكان ثمة في القطيف شخصيات علمية فذة، سهروا على رعاية الحركة الثقافية وأدوا دورًا كبيرًا في مجال التثقيف والتعليم، نذكر في طليعتهم:

«العلامة الأكبر علي أبا الحسن الخنيزي صاحب التآليف الشهيرة، والشيخ علي حسن علي الخنيزي الزعيم الديني المعروف، والسيد ماجد العوامي، والشيخ عبدالله المعتوق، والشيخ محمد الصفواني، والشيخ فرج العمران، والشيخ محمد علي الجشي، والشيخ محمد علي الخنيزي، والشيخ محمد صالح البريكي، والشيخ منصور آل سيف والشيخ ميرزا حسين البريكي، والشيخ منصور البيات وغيرهم من شيوخ العلم ورجال الدين.

لقد كان هؤلاء وغيرهم من وجوه العلم والثقافة.. هم الذين رعوا البذرة الأولى للحركة الثقافية المعاصرة في مدينة القطيف، فتخرج على أيديهم الرعيل الأول من شعرائها وأدبائها المجددين».

ولم يكن في الكويت، على ما يقول خالد سعود الزيد:

«شيء يطلق عليه اسم أدب أو أدباء حينما نزح الناس إلى الكويت وتجمعوا فيها، وأسسو لهم حكومة يرأسها صباح الأول ثم من بعده ابنه عبدالله.

«أوى هؤلاء الناس إلى ركن ناء منعزل، ليكونوا بعيدين عن الصراع الذي يلف الأمة العربية جمعاء، خاصة في عراقها وشامها وجزيرتها، يبحثون عن لقمة العيش، ويطمحون إلى بناء مجتمع جديد، تسوده الدعة، ويشمله الأمن والاستقرار. فلم يكونوا قد هيأوا أنفسهم بعد، لطموح فكري، إلا بقدر ما تفرضه عليهم ظروفهم كتجار، فأنشئت بعض الكتاتيب لتخرج شبيبة تجيد القراءة وتتولى أمور الحسابات، وتدقيق المعاملات التجارية البسيطة التي كانت لا تعدو كونها عمليات حساب بسيطة، ورسائل هي إلى العامية في أسلوبها أقرب منها إلى لغة عربية فصحى.

«أما أمور الدين المعقدة كالقضاء مثلاً، فإنهم يجلبون القضاة من البلدان المجاورة. فيتولى هؤلاء القضاة ممارسة أعمالهم القضائية، فضلاً عن مجالس الوعظ

والإرشاد التي تعتبر جزءًا من طبيعة مهامهم كرجال دين.

«ولقد ظل الأمر على هذا المنوال حتى عام ١٨٤٣م، حيث هبط الكويت الشاعر الأديب عبد الجليل الطباطبائي بعد أن طوحت به طوائح الزمن وأقض الدهر مضجعه بالنوى والاسفار، فوجد في الكويت مأمنه الذي طالما سعى إليه.

«لم تكن الكويت قبل أن يحل فيها، قد تعرفت على أي لون من ألوان الأدب أو مارسته، فقصارى جهد مثقفيها كان هو حفظ بعض آيات القرآن وإجادة شيء من علوم الحساب البسيط. لذلك كان مجيء عبد الجليل فاتحة خير للمواهب الأدبية التي لم تتفتح أو التي هي في سبيلها إلى أن تتفتح وتنطلق لتحقق وجودًا أدبيًا كان من قبل عدمًا أو ما يشبه العدم.

«فبرزت وجوه أدبية في فترة وجوده وبعدها بقليل، كان لها فضل السبق في وضع بذرة الأدب والفكر في هذا الجزء الصغير من الوطن العربي الكبير».

كانت قصائد الشعراء وكتابات العلماء تنطوي، في الغالب، على معان دينية تعبدية محلية الصفة واللون في أنحاء كثيرة من الجزيرة. لكن القرن الحالي شهد تطورًا كبيرًا. قد توطدت العلاقات بين أنحاء جزيرة العرب ومراكز الحياة الأدبية العربية في مصر ولبنان وسورية والعراق. وكان من نتيجة هذه الاتصالات وهذا الاحتكاك أن نظر الأدباء إلى القضايا الفكرية والأدبية نظرة أشمل وأوسع.

ولا يتسع المجال هنا لمتابعة التطور الأدبي الحديث في الجزيرة، فذلك أمر يحتاج إلى كتاب على الأقل. ولكننا لا نرى بدًا من الإشارة إلى بعض أهل القلم الذين كانت لهم في النهضة الحديثة جهود وآثار كبيرة (وسنقتصر على أولئك الذين انتقلوا إلى جوار ربهم).

١- عبد الجليل الطباطبائي (١١٩٠ -١٢٧٠ / ١٧٧٦ -١٨٥٣) بصري المولد وفيها تلقى علومه . وغادرها إلى الزبارة (في قطر) حيث درس على ابن فيروز الإحسائي هناك، وسنة ١٢٢٥ (١٨١٠) رحل إلى المحرق في البحرين وأقام عند آل خليفة وكتب لهم. إلا أنه غادرها إلى الكويت سنة ١٢٥٩ (١٨٤٣) وأقام فيها إلى حين وفاته .

وللطباطبائي قصيدة نظمها وهو في زيارة للبصرة وكان أهله في الزبارة وهذه قد حاصرها سلطان بن سعيد إمام عمان، فقلق الشاعر على أهله وتحرق شوقًا اليهم. وفيها يقول:

لك الله من فراق الحبائب ... لفي لاعج بين الأضالع لاهب
أكابد أشواقًا يكاد لفرطها ... توقد في جنبي نار الحباحب
يبلبل بالي قادح البعد والهوى ... فصرت أخا قلب من الوجد ذائب
أبيت على شوك القتاد صبابة ... أكلف جفني الغمض وهو محاربي
فما حال مسلوب القرار مسهد ... عديم اصطبار نازح الحب عازب
أخي وله مضنى الفؤاد متيم ... مشوق معنى ذي غرام مجاذب

غـريب ولكن بين أهلي وجـيـرتي ومستوحش ما بين خلي وصاحبي
وما ذاك من بغض ولكن أخو الهوى شجيّ فلم يؤنسه غير الحبائب
أروح وأغـدو عـادم اللب لا أعي مقال جليسي أو كلام المخاطب

٢ـ عبد العزيز الرشيد (١٣٠١ـ ١٣٥٨ / ١٨٨٣ ـ ١٩٣٩) ولد في الكويت وفيها تلقى علومه الابتدائية ثم انتقل إلى الإحساء ثم إلى المدينة المنورة ثم عاد إلى الإحساء ثم إلى إستانبول ثم إلى مصر وأندونيسية، وهو في ذلك كله طالب العلم الذي لا يشبع ورفيق أهل الفكر الكبار مثل الشيخ محمد والسيد رشيد رضا وعبد العزيز الثعالبي وغيرهم، ثم عاد إلى الكويت، واستقر فيها إلى أن توفاه الله. وفي سنة ١٣٤٦ (١٩٢٧) أنشأ مجلة «الكويت» وهي أول صحيفة ظهرت في الخليج العربي على الإطلاق

٣ـ خالد الفرج (١٣١٦ ـ ١٣٧٤ / ١٨٩٨ ـ ١٩٥٤) ويعرف بشاعر الخليج لأن أكثر من مكان واحد يدعيه. فقد ولد في الكويت وتعلم فيها وعين له مدرسون خصوصيون. وذهب إلى مدينة بومباي في الهند حيث عمل كاتبًا عند أحد التجار وهناك تعلم الإنكليزية وبعض لغات الهند. زار البحرين ١٣٤١ (١٩٢٢) لبعض المهام فأعجبته واستقر بها، وأسهم في حركتها الأدبية. يقول عنه خالد سعود الزيد: «لخالد الفرج أسلوب خاص في عرض المشاكل الاجتماعية وطريقة فريدة في تصوير الواقع تصويرًا ساخرًا يأسر السمع ويستحوذ على الأفئدة ويمتع الألباب بالمشاهد الحية الصادقة التي قل أن يوفق الى تصويرها فنان، لما في شعره من لمسات إنسانية صادقة، وحركات إجتماعية موفقة، وعاطفة تفيض بالحنان أحيانًا وتزمجر كالبركان أحيانًا أخرى.

«ولقد ولع في تصيد الحوادث وتسجيلها شعرًا فكان يصوغها كما قال الأستاذ خالد العدساني (في أجمل حلة وأحلى بيان). وعبر في أدبه عن مجتمع الكويت فيما قبل النفط تعبيرًا شفافًا، وصوّره تصويرًا دقيقًا موفقًا».

وقصيدته التي يصف فيها الجموع المحتشدة على الساحل، المتصارعة من أجل الوصول إلى الماء يوم كانت تنقله السفن الشراعية من شط العرب، تشرح لنا أسلوبه وطريقته في تصوير الحوادث، هذا التصوير الساخر الساحر، فلنسمعه فيها لنتعرف اليه:

تصـور فـدفـدًا لا شيء فـيـه سـوى رمل به وطأ السـبـاع
ولا مـاء لدى الرمـضـاء إلاّ عليـه الرمل ناف بألف باع
ولا شـجـر لدى الصـحـراء إلا هشيم جاء من أقصى البقاع
فـذاك هو الكويت وسـاكنوه إذ دهموا (بيوم) غير ساع

ولا تتـــصــــورن البـــوم) طيـــرا فـــمـــا هـو غـــيـــر فلك ذي شـــراع
يجـــوب الـمـــاء ســـاعـــات طوالاً يقل المـــاء للبلد المـــضـــاع

ولنقف مع الشاعر قليلاً بخشوع، ولنعره الأسماع والقلوب ليحدثنا حديث الصادق الخبير بهذه الترانيم الحية الشجية، النابعة من صميم وجدانه وواقعه عن هذا الصراع الأليم في سبيل الماء:

أعـــرني ســـمـــعك الواعي فـــإنــي لمـــحـــتـــاج لســـمـع منك واع
أقص عليك مـــا أضنى فـــؤادي وكلٌّ عن القـــيـــام به يراعي
هنـاك ترى الجـــمـــوع على (بويم) بـــه وشـــل أقـــل مـــن الـــذراع
فكم من حـــرة غـــرقت وحـــر رمـــاه لمـــائه صـــاع بصـــاع
وقـد ظمىء الضعيف وكاد يقضي وصـــار المـــاء للبطل الشـــجـــاع

٤ ـ أبو بكر بن شهاب (١٢٦٢ ـ ١٣٤١ / ١٨٤٦ ـ ١٩٢٣) ولد في حصن فلوقة من ضواحي تريم ودرس العلوم الدينية واللغة العربية على عشرات الأساتذة بتريم وغيرها، وقد كان حاد الذكاء حاضر الذهن سريع الفهم قوي الذاكرة. وكان أسلوبه سهلاً وموسيقاه عذبة وأفكاره واضحة ومعانيه غزيرة سامية. وقد أثر شعره في الأدب الحضرمي تأثيرًا حسنًا وبعث في الأدباء نشاطًا ويقظة، ونفخ فيهم روحًا جديدة، فهبوا من قديمهم البالي يقلدون ابن شهاب في نظمه ويحاكونه في أسلوبه.

وقد رحل أبو بكر سنة ١٣٠٢ / ١٨٨٥ إلى عدن والحجاز ومصر والقدس والشام واستانبول ثم إلى الهند، واستقر في حيدر أباد، هناك تولى التدريس بالمدرسة النظامية. وقد توفي في تلك المدينة (عن صلاح البكري اليافعي).

وهذه المقطوعة تشوق فيها الى بلده وهو في حيدر أباد:

أهكذا ليت شـعـري كل ذي كـرم يصيبه تذكاره المأوى ويقلقه
يأيهـا الراكب الغـادي الى بلد جرعاؤه خصبة المرعى وأبرقه
ناشـدتك الله والود القـديم إذا ما بان من بان ذاك الصفح مورقه
وشـاهدت عنك [الغناء] غـادرها مخضلة باكيًا الوسمي مغدقة
أن تستهل صريخًا بالتحية عن باك من البعد كاد الدمع يغرقه
يثير أشجانه فوج الصبا سحرًا وساجع الورق بالذكرى يؤرقه
له فـــؤاد نزوع لا يفـــارقـــه حر الغرام وجفن ليس يطبقه
بالهند ناء أخي وجد يحن الى أوطانه وسهام البين ترشقه
الى العـرانين من أقـرانه والى حديثهم عبرات الشوق تخنقه

٥ـ من شعراء اليمن الشريفة زينب بنت محمد الشهارية (ت ١١١٤ / ١٧٠). ومن قصائدها القصيدة التالية.

شجى القلب من ذات الجناح سجوعها ... ولم تصطل حر الغرام ضلوعها
وأشجت وأبكت وهي غير شجية ... وقد لذ في جنح الظلام هجوعها
ولو أن فيها بعض ما بي لما شدت ... ولو تشتكي وجدي لسالت دموعها
وبات يحن الرعد من حر لوعتي ... وظلت عهاد المزن تبدو خشوعها
ويبتسم البرق اليماني تعجباً ... وأضحى بسوط البين ظلمًا يروعه
فيا ويح نفس لم تذل لعزة ... وليس يراعى ذلها وخضوعها
تلوذ بصبر كي تصون كمينها ... فآونه يعصى، وطورًا يطيعها
أفي الحكم أن النفس تبذل ودها ... وليس يكافي في الغرام صنيعها
إليه بطول الاشتياق تشفعت ... فلم يتلق بالقبول شفيعها
وما سلكت يومًا سوى منهج الوفا ... وهيهات عن تلك الطريق رجوعها
حفظت له سرًا الغرام ولم أكن ... لأسرارها في الحب يوماً أذيعها
وكلفني الواشي عنه تسليًا ... وأين لقلبي سلوة يستطيعها
غرست له في روضة القلب صبوة ... وقد ثبتت أصلاً وطالت فروعها

٦ـ والقاضي علي بن محمد العنسي (ت ١١٣٩ / ١٧٢٦) له شعر جميل، منه الأبيات التالية المأخوذة من قصيدة نظمها وهو في العدين يتشوق إلى صنعاء. ولنذكر أنفسنا أن اسم صنعاء القديم هو، أزال»، وهو الذي يرد في القصيدة:

يا ربة الصوت المثير شجوني ... ايه: فذا الصوت الذي يضنيني
طوقت عنقك والبنان خضبتها ... وزعمت أنك في الجوى تحكيني
بالله كفي عن محالك واقصري ... ودعي الجوى لفؤادي المحزون
لم تألفي ألفاً، ولم تتشوقي ... أرضاً، ولم تبكي لفقد ظعين!
أما أنا، فإذا احننت تشوقاً ... فالى «أزال» تشوقي وحنيني
يا ساكني مغنى «أزال» وعيشكم ... ما البعد عنكم ساعة يرضيني
لكن غلبت وخانني المقدور إذ ... قوي النوى بالنصر والتمكين
ما سل برقكم صوارم لمعه ... ألا وأغمدهن بين جفوني
يا برق ما السر الذي تأتي به ... جنح الدجى لفوآدي المفتون
إني أراك تشير من بعد الى ... قلبي فيفهم غامض التبيين
هل حملوك إليه سرًا؛ قله لي ... فلقد تركت السر عند أمين؟
والقلب مني بضعة؛ لا ينبغي ... أن يطوي الأسرار قلبي دوني

يا عمرو حتى القلب خان، فلا تطل عجباً لأحبابي إذا خانوني!
يا من يظن بأنني أنساهم لم إذ جهلت عملت بالمظنون؟
أنسى هواهم، وهو ديني في الهوى فالدمع دمعي والعيون عيوني

إذا كنا لم نورد في هذا المقال نماذج للأدب الحديث في المملكة العربية السعودية، فذلك لأن زميلاً لنا قد وضع دراسة مفصلة عن الحركة الأدبية، في المملكة، والكتاب على وشك الظهور. لذلك آثرنا الانتظار للإفادة من هذا الجهد الكبير.

الأنباط في كتابات الغربيين

البتراء حسناء خفرة تقيم في مزارها، وهو على قربه، دون أهوال: صحراء إلى كل جهة منه، تذيقك حر الصيف وقر الشتاء، وجبال مرتفعة وعرة تحمي هذا المزار. فإذا تخطيت الصحراء والجبال، ومررت بالسيق، الممر الضيق، وجدت نفسك، بعد نحو الميل، أمام خزنة فرعون ـ وهي واجهة متسعة حفرتها يد صناع في سفح الجبل المتعدد الألوان. إن جمالها يشدهك وفنها يدهشك. وتقف برهة تملأ عينيك من هذا الشيء الممتع الذي كان من قبل هيكلاً على الراجح. ثم إنك تغمض عينيك خشية أن يفر المنظر الجميل منهما.

فإذا أتممت السير في السيق وصلت إلى ساحة متسعة تحيط بها الجبال، الذي يقتعد كلاً منهما معبد أو هيكل لواحد من الآلهة المتعددة التي عبدها الأنباط، وأبعدها صيتًا الإله ذو شرى والآلهة واللات (أو العزى). وفي المساحة المنبسطة أمامك تقوم آثار المدينة ـ البتراء ـ المسرح والشارع المعمد والهيكل الكبير والقوس الموصل إليه والقصر الملكي والأسواق. هنا كان الأنباط والتجار الأجانب من اليونان والرومان والسوريين واليهود يجدون لبان حضرموت ومر القرن الأفريقي وطيوب الهند وعطورها، وحديد دمشق ونحاسها، وأقمشة فينيقية الأرجوانية، وخمور الأندرين. وفي حوانيت البتراء كان يقوم، إلى جانب التجار، كتّاب العدل ورجال القانون لتدوين الصفقات العقارية وفصل الخصومات التجارية خاصة بين الأجانب.

وصل الأنباط العرب البدو تلك المنطقة في القرن الخامس قبل الميلاد، وتغلبوا على الأدوميين، وسيطروا على الجوار، وأدركوا أنه أفضل لهم أن يحرسوا طرق التجارة ويحموا التجار من أن ينهبوهم، على نحو ما كانت العادة قد جرت من قبل. وكان لهم ذلك. وانتقلوا تدريجيًا من بداوة عادية إلى حضارة متقدمة وكانت لهم مدينة بلغ عدد سكانها نحو ثلاثين ألفًا.

وصلنا وصف للأنباط عن طريق المؤرخ ديودورس الصقلي Diodorus من أهل القرن الأول قبل الميلاد، كان قد نقله عن مصادر هلينستية قديمة، جاء فيه قوله:

«يعيش الأنباط في أرض غير ذات زرع، فالأرض جافة قاحلة، والماء قليل. ومن عاداتهم أن لا يزرعوا الحبوب ولا أن يغرسوا الشجر ولا أن يبنوا بيوتًا. وإذا خالف أحدهم هذا العرف كان عقابه الموت. يقوم بعضهم بتربية الابل وآخرون يعنون بالأغنام. ومع أن عددهم لا يتجاوز العشرة الآف نسمة. ذلك بأن جماعة منهم ينقلون البخور وأنواعًا أخرى من التوابل

والأفاويه من الذين يأتون بهذه السلع من الأقطار البعيدة، ثم يبيعونها في الموانىء البحرية». يقصد بذلك صور وغزة والعريش والاسكندرية.

ويروي ديودورس أنه في سنة ٣١٢ ق. م. أرسل انتيغونوس Antigonus حاكم سورية، حملة للاستيلاء على مراكز الأنباط. وفاجأت الحملة المكان وقد خلا من الرجال الذين ذهبوا إلي سوق مجاورة للاتجار. فنهب الجند كميات من اللبان والمر وخمسمئة وزنة. من الفضة. لكن الرجال لما عادو وعرفوا بما حدث، لحقوا بالجند وأخذوهم على حين غرة، فاسترجعوا المال المنهوب وقتلوا من المهاجمين عددًا كبيرًا.

والرواية التالية التي وصلتنا جاءت من استرابون Strabon الجغرافي اليوناني الذي كتب الوصف في مطلع القرن الأول للميلاد، وقد جاءته الأخبار من أرثودوروس Arthenodorus صديقه وعشيره الذي كان قد قضى بعض الوقت في البتراء. يقول استرابون:

«إن أول شعب يعيش في المنطقة الواقعة جنوبي ولاية سورية هم الأنباط. وقد جاء عليهم وقت كانوا فيه سادة دمشق وما إليها من سورية. ومدينتهم الكبرى هي البتراء (ومعناهاالصخرة)، ذلك بأنها تقع في منبسط من الأرض، ولكنها محاطة من جميع الجهات بالصخور الوعرة التي تنحدر إلى الخارج انحدارًا شديدًا. أما الجزء المنبسط ففيه عيون وينابيع كثيرة، كما أن أهلها جاؤوا بالماء من ينابيع مجاورة... والبتراء يحكمها ملك هو أحد أفراد الأسرة المالكة.. ويعين الملك «مدبر» هو أحد أصدقائه ويسميه «الأخ». والبتراء محكمة في نظمها وإدارتها، وعلى كل فإن الفيلسوف أرثودوروس، صديقي وخلي والذي أقام في مدينة الأنباط مدة كان معجبًا بحكومة البتراء. وقد قال إن الكثيرين من التجار الرومان وغيرهم من الأجانب يقيمون في البتراء، وكان هؤلاء الأجانب يتقاضون أمام المحاكم لخلافات تقوم فيما بينهم وبين الأجانب، ولكنه لم يسمع بأن أيًا من المواطنين رفع قضية ضد مواطن آخر».

بين رواية ديودورس المنقولة ورواية استرابون المعاصرة، نحو أربعة قرون من الزمان. خلال هذه المدة كان الأنباط قد انتقلوا من البدواة إلى الحضارة، وكانت مدينتهم قد زينت بالمباني الجميلة وكانت سفوح التلال المحيطة بالمدينة قد حفرت فيها الهياكل والقبور، ولعل بعض هذه كانت منازل. وفي سنة ١٦٩ ق. م. قام أول ملك في البتراء الحارث الأول الذي لقب بسلطان الأعراب وملك نباطو.

وكانت البتراء قد فرضت على كل تاجر ذي قيمة أن يتخذ منها سوقًا يودعها سلعة للبيع ويحمل منها حاجته. وقد انتشر الأنباط التجار في موانىء المتوسط، وكانت لهم جالية حتى في رؤما.

والوقت الذي كتب فيه استرابون هو الوقت الذي كان فيه ملك الأنباط الحارث الرابع (ملك من ٨ ق. م. إلى ٤٠م) المعاصر للسيد المسيح ولأغسطوس قيصر

الروماني. وكانت البتراء في أوج مجدها فلا غرابة أن يستمر استرابون في روايته فيقول:

«والأنباط جماعة عاقلون معتدلون. وكانوا حريصين على أن يمتلكوا العقار والأرض، وكان الذي يتخلى عن ملكه يعرض نفسه للعقاب العلني، كما كان الذي يزيد أملاكه يكرم. لم يكن في البتراء إلا القليل من الرقيق، لذلك فإن خدمة المنزل يقوم بها أهله، وعندما يكون ثمة ضيوف فان القوم يقومون بخدمة أنفسهم. وقد يفعل الملك ذلك فيقوم بخدمة زواره. والملك لا يأنف من ذلك لأنه ديمقراطي في تصرفه. ومن المألوف أن يقدم الملك حسابًا أمام مجلس المدينة، حتى عن تصرفه الخاص. وقد نجح الأنباط في استغلال الأرض القليلة فزرعوا أكثر ما يحتاجون من الحبوب والفواكه. لكن الزيتون لا ينمو هناك، لذلك فإنهم يستعملون السيرج «زيت السمسم». ويعثر في أسواق البتراء على الذهب والفضة والبخور والعطور والقماش الأرجواني والمصنوعات الحديدية والنحاسية والصور والرسوم والتماثيل وجميع ما يشتهيه المرء».

ويصنع أهل البتراء الفخار الممتاز رقة ودقة وزخرفاً.

انتهى أمر البتراء منذ أواخر القرن الثالث للميلاد، ونسيها الناس، وكان آخر أوروبي زارها تتمار Tetmar سنة ١٢١٧ . ونامت بعده ونام الناس عنها إلى أن اكتشفها للعالم الحديث الرحالة بركهارت Berkhardt في ٢٢ آب / أغسطس سنة ١٨١٢ . فكانت تلك السنة بدء الحياة الجديدة للمدينة القديمة.

بلاط زنوبيا ملكة تدمر

هبطت تدمر لأول مرة ليلاً، ولكنني كنت مع الفجر أجوب الآثار. ولما أشرقت الشمس وألقت أشعتها على الشارع المعمد، أدركت أمرين: الأول لماذا عبد القوم هناك الشمس، والثاني معنى اسم تدمر عند العرب عروس الصحراء.

وعروس الصحراء هذه تتوسط المسافة بين الفرات عند الصالحية أو دورا - أوروبوس Dura - Europos شرقًا ودمشق غربًا، ويبدو أن البدو اهتدوا إلى مائها فكانوا، حتى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد يؤمونها متاجرين، كما تعرفوا إلى الملح الذي يستخرج من نبعها فحملوه إلى من يحتاجه من أهل الجوار.

وزاد الاهتمام بتدمر مركزًا للتجارة مع الوقت، فلم يكد الناس يحتفلون بالقرن الأول قبل الميلاد حتى كانت تدمر قد أصبحت مركزًا للقوافل المتجهة من الشرق إلى الغرب وبالعكس. ولما احتل الرومان بلاد الشام، في القرن المذكور واشتدت الخصومة بينهم وبين الفرثيين ورثة الأمبرطورية الفارسية القديمة، أفادت تدمر من ذلك. إذ ان الحروب بين الدولتين كانت تدور رحاها في الشمال حول الجزيرة الفراتية فتتعطل طرق التجارة هناك ويلجأ التجار إلى تدمر. ومن ثم فقد ازدهرت وأصبحت عروس الصحراء سوقاً لتبادل السلع، بدل أن تكون معبرًا للقوافل فحسب. وهذا الازدهار بلغ الذروة في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد. وعني التدمريون بتنظيم شؤون التجارة عناية فائقة فبنوا الخانات الكبيرة وهيأوا فرق الهجانة لحراسة الطرق ونظموا شؤون الجمارك. وقد عثر المنقبون على حجر منقوش عليه ما يتوجب على كل تاجر دفعه عن البضاعة التي يحملها إلى المدينة ويخرجها منها. والسلع المذكورة، على هذا الحجر الضخم. والنقش هو باللغتين التدمرية واليونانية، تشمل الرقيق والأقمشة والصوف الخام والثياب المصبوغة بالأرجوان والطيوب المتنوعة وزيت الزيتون وأنواع الدهن. ولعل مما يلفت أن السمك المجفف من بحيرة طبرية كان يحمل إلى تدمر.

وكان التدمريون ينعمون بالثروة وما جلبته. فبيوت الأثرياء منهم، والتي كانت تقوم في الجزء الشمالي الغربي من تدمر، كانت لها عرصة معمدة هي المدخل الرئيس للمنزل، كما كانت أرض الغرف مزخرفة بالفسيفساء. وكانت الهيئات السياسية في

تدمر، وهي مزيج من التنظيم الهلينستي والروماني، تنفق الضرائب التي تجمع على تجميل المدينة: هياكل وندوة وقنوات مياه وشوارع معمدة وأسواقًا وخانات ومسرحًا. ومن هنا كانت هذه الآثار الضخمة الجميلة التي تشغل عددًا من الكيلومترات المربعة. كما كانت تدمر تكرم الناجحين من أبنائها فتقيم لهم تماثيل في حياتهم تزين بها الأماكن العامة.

وأكرم الأباطرة الرومان تدمر فجعلوها في مصاف المدن الرومانية الكبرى. وفي السنة ٢٦٠ للميلاد انتصر أذينة صاحب تدمر على الساسانيين خلفاء الفرثيين، وكان ذلك نصرة للرومان، فمنح لقب أمير مع الاعتراف باستقلال تدمر واقعيًا، وتلقب أذينة بالملك، ولقب زوجه ـ زنوبيا أو الزباء ـ ملكة. وقد جعل في قصره بلاطًا فخمًا بناء وزوارا وأتباعا وأبهة.

في السنة ٢٦٧ قتل أذينه، فتولت زنوبيا أمور الدولة وصية على ابنها وهب اللات. وكانت الأمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت تعاني متاعب عسكرية وسياسية وتشكو أزمة اقتصادية مالية كادت أن تطيح بها. فاغتنمت زنوبيا الفرصة لتشبع طموحها واستولت على ولاية سورية حتى انطاكية وهاجمت مصر وأضافتها إلى ملكها. كان ذلك سنة ٢٧١ للميلاد.

وكان أن تولى عرش روما عندها أورليانوس، الذي قبض على أزمة الأمور بيد الجندي المدرب، فتوجه بنفسه إلى تدمر واحتلها في صيف سنة ٢٧٢ وأسر زنوبيا التي يقول بعض المؤرخين الرومان انها نقلت إلى روما لتكون في موكب النصر، لكن هذه القصة مشكوك في أمرها.

لم تتأذ تدمر من حملة أورليانوس. فقد ترك فيها حامية ليطمئن على أمورها. لكن المدينة ثارت على الحامية الرومانية بعيد أورليانوس وأبادتها. فعاد أورليانوس في السنة التالية فاحتل المدينة وأباح لجنده القتل والسرقة والتدمير والحرق، وهكذا انتهى هذا المجد الذي اسمه تدمر أو بلميرا، كما سماها اليونان أو الرومان بسبب أشجار النخيل فيها.

وإذا كانت تدمر تشغلنا بآثارها اليوم، فإن المؤرخين من الرومان مثل القادة الذين عاصروا زنوبيا شغلوا بها. وقد كتب عنها المؤرخ الرماني بوليو Pollio انها كانت سمراء سوداء العينين بارعة الجمال، تنتقل من مكان إلى مكان ـ في العربة أو على الجواد أو على الأقدام ـ وكأنها النار نشاطًا. وكانت تقاطيع وجهها شديدة التعبير عما يدور في نفسها من طموح وحب للعظمة وقدرة على تحقيق ذلك. كانت قادرة على أن تظهر بمظهر الطاغية الجبار ولكنها كانت إلى ذلك، مثالاً للحلم والعدل. كانت تسير في طليعة مشاة جيشها مسافات طويلة. وكانت تجالس القادة في المناسبات الضرورية وكانت تبدو بأجمل هيئتها، ثوبها تزينه ماسة كبيرة، ويعلو جبينها تاج مرصع. وكانت

ذراعها تبدو عارية.

ويذهب بوليو في الإشادة بزنوبيا فيقول إنها كانت تتقن اليونانية وتعرف اللاتينية بالإضافة إلى لغتها الوطنية.

ويضيف مؤرخ آخر هو كورنيليوس Cornelius قوله: أن زنوبيا كان جمالها ساحرًا أخاذًا،، وكانت تعرف الآداب اليونانية ، التي يبدو أنها تعلمتها من لونغينوس Longinus الأديب الفيلسوف اليوناني الحمصي المولد، والذي كان قد تلقى الفلسفة والأدب في أثينا وروما والإسكندرية على أيدي كبار أهل المعرفة.

وبلاط زنوبيا، في قصرها الذي كان يقوم في الجزء الشمالي الغربي من المدينة حسب رأي شلومبرجيه Schlumberger كان على أفخم ما يتصور من حيث السعة والبذخ والفن والفخامة، إلا أن هذا هو الوصف الذي تحدر إلينا من المعاصرين، لكن المنقبين الآثاريين لم يعثروا عليه بعد.

القسم الرابع

في عالم الإدارة والناس

المراكز الإدارية والعسكرية في بلاد الشام في العصر الأموي

(١)

كانت بلاد الشام في أيام جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) مقسمة إلى الوحدات الإدارية التالية (مرتبة من الشمال إلى الجنوب):

١ـ سورية الأولى Syria I : كانت تضم الجزء الشمالي من بلاد الشام الممتد من ساحل البحر المتوسط إلى الولاية الفراتية Euphratensis . وكانت ولاية كيليكية الشمالية Cilicia II تجاورها شمالاً، وكانت هي تجاور سورية الثانية جنوبًا. وكانت مدنها الرئيسة: أنطاكية وسلوقية البحرية (السويدية الحالية) واللاذقية وبيروية (حلب) وخلقيس (قنسرين). ظلت إنطاكيه عاصمة بلاد الشام، وكانت مقر الحاكم العام Consularis Syrae، لكن المركز الإداري لسورية الأولى أصبح مدينة قنسرين، فهذه المدينة تقع في مكان يمكن أن تراقب منه الهجمات الآتية من الخارج، كما أنها كانت تتوسط منطقة غنية بغلاتها الزراعية وبأنعامها، فكانت تقوم بأود الجنود الكثر الذين اتخذت لهم فيها معسكرات.

٢ـ سورية الثانية Syria II وهذه كانت تقع عبر بلاد الشام من ساحل البحر المتوسط (حول مدينة اللاذقية) إلى البادية السورية (بادية الشام). وكانت حدودها شمالاً حدود سورية الأولى، وجنوبًا كانت تصاقب فينيقية الداخلية. والمدن الرئيسة في هذه الوحدة الإدارية هي اللاذقية وأفامية ولاريسا (شيزر) وابفانية (حماة) وارتوزا (الرستن). ومن المرجح أن تكون مدينة سيرجيوبولس Sergiopolis (الرصافة) داخله فيها. والمراكز الإداري لها كان أفامية على العاصي. وهذه المدينة كانت واحدة من المدن الأربع التي بناها سلوقس نيكاتور السلوقي (حكم من سنة ٣١٢ ـ ٢٨٠ق. م) وهي انطاكية وسلوقية البحرية واللاذقية وأفامية، وقد كانت هذه الأخيرة لفترة طويلة تتوسط المنطقة التي كانت تربى فيها الفيلة والخيول اللازمة للجيوش السلوقية والرومانية.

٣ـ فينيقية البحرية أو الساحلية Phoenicea Paralia: وقد امتدت هذه على الساحل الشامي من بلانية Balaneae (بانياس الساحلية) شمالاً حتى جنوبي جبل

الكرمل وكانت تشمل في الداخل سلسلة جبال لبنان وسورية الغربية. كانت صور مركزها الإداري. أما مدنها الأخرى المهمة فهي طرابلس وبيروت وصيدا وبطليماوس (عكا) على الساحل، وقيسارية بانياس (بانياس /جبل الشيخ) في الداخل.

٤ـ فينيقية اللبنانية أو الداخلية Phoenicia Libanensis: وكانت رقعتها تمتد من البقاع غربًا حتى بادية الشام شرقًا، ومن سورية الثانية إلى شمال شرق الأردن شمالاً وجنوبًا. وكانت دمشق عاصمتها، ومدنها الأخرى الكبرى هي: أميزا (حمص) وبعلبك وبلميرا (تدمر).

٥ـ فلسطين الأول palaestina Prima : وقد شملت السهل الساحلي من جنوبي الكرمل حتى نقطة تقع جنوبي رافيا Raphia رفح. وكانت تمتد إلى الداخل بحيث كانت تضم جبال نابلس والخليل والجزء الجنوبي من غورالأردن. كانت قيسارية البحرية مركز الإدارة، أما المدن الرئيسة الأخرى فكانت: نيابولس (نابلس) والقدس والخليل وحلحول واللد وسبسطية وأريحا في الداخل، أما على الشاطىء فكانت مدن يافا وعسقلان وغزة هي البارزة.

٦ـ فلسطين الثانية Palaestina secunda: وهذه كانت تشمل مرتفعات الجليل ومنابع نهر الأردن (الفلسطينية) وشمال غور الأردن وغولينيتس (الجولان). كانت سكيثوبوليس (بيسان) المركز الإداري، وكانت بعض المدن العشر تابعة لها مثل بلاد (فحل) وجدة وكابيتولياس (بيت راس) وهبوس (قلعة الحصن) وابلا (أربد؟)، كما كانت صفورياس (صفورية) وطبرية واللجون (تل المتسلم) من مدنها المعروفة.

٧ـ فلسطين الثالثة Palaestina tertia: لما احتل تراجان البتراء وقضى على دولة الأنباط (سنة ١٠٦م) أنشأ «الولاية العربية Provincia Arabica من المنطقة الشامية التي كانت تحت نفوذهم. لكن هذا الوضع تبدل في القرن الرابع، إن لم يكن حتى قبيل ذلك، فسلخ القسم الجنوبي من «الولاية العربية» وضم إلى القسم الجنوبي من فلسطين وسمي القسمان معًا «فلسطين الثالثة» كانت أيلة (العقبة) مقر الحاكم وكانت المدن المهمة فيها: البتراء والوسا (الخلصة) وبيروسيبا (بئر السبع) وهاتان كانتا في النقب.

٨ ـ الولاية العربية وهذه كانت تشمل المنطقة الواقعة جنوبي منطقة دمشق وشرقي فلسطين الأولى والثانية وشمالي نهر الموجب. وكانت بصرى (إسكي شام) عاصمتها الإدارية.

٩ـ في السنوات الأخيرة من حكم جستنيان انتزعت الأجزاء الساحلية من سورية الثانية وجعلت مع الجهات الجبلية المصاقبة لها وحدة إدارية سميت ثيودورياس *(Theodorias)*. ومن المرجح أن اللاذقية كانت عاصمتها[١] .

إلى جانب هذه المراكز الإدارية كانت ثمة مراكز عسكرية تتجمع فيها فئات من الجنود النظاميين، أي الذين كانوا يتبعون الإدارة العسكرية المركزية في أيام الرومان، وأصبحوا كذلك في العهد البزنطي، وكانت تقيم في بعضها وفي جهات أخرى أقل

أهمية منها، فئات من الجند الرديف المحلي.

وعندنا مثل واحد على وجود المركز العسكري في المركز الإداري نفسه وهو خلقيس (قنسرين) في سورية الأولى. أما في الأقسام الإدارية الأخرى، والتي كان من المناسب أن تكون فيها حامية كبيرة، فإن هذه الحاميات كانت إقامتها في مناطق تستطيع أن تزود الجنود بحاجاتهم من المؤن ودواب النقل. ومن هنا نجد أن سورية الثانية توزعت القوات العسكرية فيها بين لاريسا (شيزر) وأبيفانية (حماة) وأفامية العاصمة. وفي فينيقية الداخلية كانت أميزا (حمص) المقر الرئيسي للحامية. فإن سهولها وبساتينها على ضفاف العاصي كانت تمد الحامية بالزاد والمؤن ودواب النقل والحمل. أما في فلسطين فقد كان ثمة مركز مهم في اللجون (تل المتسلم) في مرج ابن عامر، أغنى مناطق فلسطين زراعة. وكان «تل المتسلم» من أكثر بقاع المرج ماء بسبب الينابيع الكثيرة هناك. هذا في فلسطين الأولى. وفي فلسطين الثانية كان ثمة تجمع كبير للجنود في اللد وذلك منذ القرن الرابع للميلاد، وقد استمر ذلك في العهد البزنطي. وكانت بئر السبع والوسا (الخلصة) المركزين الرئيسين لمثل هذا التجمع في النقب، ولم تكن الأعداد فيهما كبيرة، لكن وضعهما الإستراتيجي كان الدافع الأصلي لاتخاذ بئر السبع المركز الأصلي، التي كانت أهم من الوسا.

وكان المعسكر الرئيس في المنطقة الوسطى من شرق الأردن، أي «الولاية العربية» في اللجون (التي تقع إلى الشرق من الكرك).

وهنا يطالعنا سؤال مهم: من كان صاحب الدور الأول في الإدارة ـ الحاكم المدني أم القائد العسكري؟ والذي يمكن قوله إنه منذ القرن السادس، لما أخذت الدولة الساسانية تزيد اعتداءها على بلاد الشام التابعة للبزنطيين، أصبحت الإدارة في تلك المنطقة يغلب عليها الطابع العسكري. فإذا لم يجمع الحاكم أصلاً بين السلطتين العسكرية والمدنية، فإن القائد العسكري Dux كان أكبر نفوذاً وسلطة من الحاكم المدني[٢].

وكان ثمة تقسيم آخر لبلاد الشام هو تقسيم البلاد إلى أبرشيات وبطريركيات مسيحية. ومع أن هذا التقسيم لم يؤثر فيما بعد في صدر الإسلام والعصر الأموي، فإن ذكره هنا قد تكون له فائدة جزئية. فقد قامت في القسم الشرقي من الأمبراطورية الرومانية في أواخر عهدها، وهو الذي أصبح يسمى الأمبراطورية البزنطية منذ مطلع القرن الخامس، أربع بطريركيات هي: القسطنطينية وكانت تتبعها ثلاث أبرشيات في كل منها أسقف (مطرن) أو رئيس أساقفة (متروبوليت)؛ الإسكندرية وكانت مصر تعتبر أبرشية واحدة؛ وكان في بلاد الشام (وهي المنطقة التي تعنينا في هذا البحث) بطريركية أنطاكية وكانت تشمل القسم الأكبر من بلاد الشام. وكانت أهم أبرشياتها فينيقية ومركزها صور والرصافة. وكانت بطريركية القدس وقد تم إنشاؤها

سنة ٤٥١) تشمل أبرشيات فلسطين وشرق الأردن، أي على وجه التقريب، الفلسطينيات الثلاث والولاية العربية، ولم تكن حدود الأبرشيات والبطريركيات تتفق تمامًا مع الحدود الإدارية للولايات أو المناطق، فأبرشية فلسطين الساحلية (ومركزها قيسارية) لم تكن تتفق في حدودها مع فلسطين الثانية على وجه التمام(٣).

(٢)

لا يفوتنا القول بأن بلاد الشام (وأرض الرافدين في الجهة المقابلة) كانت مرتبطة بالجزيرة العربية سكانًا وتجارة وحربًا، ولو أن شمال الجزيرة العربية عرف دولة واحدة لكان باستطاعتها أن ترتب أمورها مع البزنطيين (ومع الساسانيين). ولكن الحكومة المركزية لم تقم هناك، وظلت هذه التجمعات البدوية تخضع لمجموعات القبائل التي يمكنها السيطرة على المنطقة في وقت من الأوقات. ومراكز السلطة والنفوذ هذه كانت تتبدل بين زمن وآخر. وكانت الدولتان الكبيرتان القائمتان إلى الشمال من القبائل العربية تحاولان إخضاع هذه لنفوذهما (وكذلك فإن الدولة التي كانت تقوم في جنوب الجزيرة العربية كانت تحاول السيطرة على قبائل أواسط الجزيرة). ومع أن البزنطيين والساسانيين كانوا أغنى موارد من القبائل (بسبب التجارة العالمية التي تجتاز البلاد والأراضي الزراعية الغنية المستغلة استغلالاً جيدًا)، كما كانوا أكثر تنظيمًا من هذه القبائل، فإن هذه كان لها ما يوازي هذين الأمرين ، بل قد يتفوق عليهما؛ فالقبائل كانت على التنقل المستمر والحركة الدائمة أقدر، وكانت لها خبرة بشؤون القتال المناسب للصحراء. فصلاً عن ذلك فإن القبائل كان باستطاعتها أن تدخل الفيافي عند شعورها باحتمال الخسارة أو حتى بعد خسارتها، فتأمن غائلة اللحاق المنظم، (هذه الحالة ظلت هي التي تغلب على التعامل العسكري بين القبائل والدول القائمة في أرض الرافدين وبلاد الشام حتى أوائل القرن الحالي).

ومعنى هذا كله أن السلطة التي كانت تقوم في المناطق المذكورة كان عليها أن تعالج علاقتها بالقبائل - البدوية المتنقلة منها أو شبه المستقرة - على أسس غير أسس القهر والغلبة، والأسلوب الذي اتبع هو أسلوب «التعاهد» بين البزنطين (مثلاً) والقبائل المجاورة لهم (حتى البعيدة إذا وصلت إليهم). ويبدو انه حتى مطلع القرن السادس كان بنو صالح في شمال الحجاز هم الجماعة المرتبطة بالبزنطين، فلما انتهى أمرهم، وسيطر الغساسنة على المنطقة الواسعة الممتدة من مدائن صالح حتى شمال حوران والجولان، وانتشر نفوذهم بحيث شمل جميع القبائل العربية التي كانت في ولايات فلسطين الأولى وفلسطين الثالثة وفينيقية الداخلية والولاية العربية، رأى البزنطيون الفائدة التي تعود عليهم من إقامة صلات «التعاهد» بينهم وبين أمراء بني غسان(٤).

وقد خلص نولدكه إلى القول بأن البزنطيين كانوا يدفعون لزعماء الغساسنة مساعدات مالية، كما عينوا كبيرهم فولارك Phylarch أي القائد المقرب، ثم رفعوا رتبته إلى بطريق (وهي تعريب لكلمة Patrician). هذه الترتيبات التي عرفها الرومان في القرنين الثالث والرابع على يدي ديوقليتيان وقسطنطين، هي التي أتقنها البزنطيون فقد أصبحت القبائل أكثر أهمية لهم منها قبلا[٥].

كان الغساسنة أكثر تنقلاً وارتحالاً من نظرائهم في الجهة المقابلة أي المناذرة، ولكن كانت لهم «محلة» مفضلة وهي الجابية في الجولان. وبسبب غنى منطقة الجولان وحوران الزراعي وثروتها الحيوانية، كان الغساسنة يقصدون الجابية صيفًا بشكل خاص. وبذلك اكتسبت الجابية قيمة عسكرية تساوي قيمة اللجون الفلسطينية (في مرج ابن عامر) واللجون الاردنية (شرقي الكرك).

والمراكز العسكرية الممتدة في شرق بلاد الشام ازدادت أهميتها نسبياً في القرن السادس، إذ إن التحصينات الحدودية، التي بدأت بتراجان في مطلع القرن الثاني الميلادي، وقويت ونشرت شمالاً في أيام ديوقليتيان، أهملت بسبب تعاظم الإنفاق عليها. ذلك بأن جستنيان بذّر الكثير من موارد الأمبراطورية على حروبه لاسترجاع شمال أفريقيا وإيطاليا ووضعهما تحت سلطته. فضلاً عن ذلك فإن الترتيبات الجديدة التي تمت بين البزنطيين والأمراء العرب المعاهدين أدت إلى إهمال التحصينات؛ فالعربي البدوي كان أنفع للدفاع عن إمبرطورية القسطنطينية من الحصون عندما يكون المهاجم عربيًا بدويًا مثله.

وهذه الحدود كان يحرسها في القرن الثالث والرابع للميلاد ثلاثون ألف جندي بين فارس وراجل، كانوا يقيمون في المعسكرات المذكورة في بلاد الشام وفي أوزرونة والولية الفراتية[٦] إلا أنّ هذا العدد ارتفع في القرن الخامس إلى نحو ٨٠,٠٠٠ على ما ورد في الوثيقة العسكرية المعروفة باسم نوتيتيا دغنيتاتوم التي تعود الى القرن المذكور[٧]. لكن مما لا شك فيه أن هذه الأعداد تقلصت بين ذلك الوقت وبين بدء الفتوح العربية.

وثمة أمر آخر حري بالذكر، وهو أن الإدارة البزنطية في المناطق الشرقية من بلاد الشام بشكل خاص كانت قد تهرأت، بحيث أن السلطة عادت إلى القبائل والعشائر التي كانت تخضع للغساسنة، وذلك بقدر ما يمكن لهؤلاء أن يفرضوا سلطانهم عليها. وحتى القبائل العربية الموجودة في شمال الجزيرة كانت لها تحالفاتها الداخلية التي قد تحاول أحيانًا التملص من السلطة الأعلى إما نفرة من التسلط أو احتجاجًا على نقص في العطاء من قبل المعاهدين، أو طمعًا في الحصول على عطاء أكبر من جهة أخرى.

ومن الملاحظ، فضلاً عن هذا كله، انه في أوائل القرن السابع الميلادي، لما

اشتدت الحملات الساسانية ضد البيزنطيين وكانت ناجحة، أخذ العرب (البدو) يهاجمون المناطق التي تصدعت التحصينات المختلفة المحيطة بها. وكان أكثر المهاجمين يأتون من داخل الجزيرة العربية أو من أطرافها. فهناك مثلاً الهجوم الذي قام به الإعراب فوصلوا إلى أسوار القدس [٨]. وقد كان مثل هذه الهجمات عادياً إذ إن هؤلاء الأعراب مجرد أن يحسوا بأن السلطة «المعاهدة» ضعفت أو تزعزعت مكانتها، ينزعون إلى التحلل من ارتباطاتهم. وفي حالة فشلهم في تحلّلهم فإنهم ينسحبون إلى الصحراء - ملاذهم وحماهم - التي لا تستطيع الجيوش النظامية الدخول إليها.

(٣)

مجيء الإسلام غير أمورًا كثيرة بين العرب أولاً، ثم في المنطقة التي فتحوها (ونحن سنقتصر في حديثنا على بلاد الشام).

إن تأسيس الحكومة الإسلامية في المدينة على عهد الرسول (ص) واستمرار عملها كدولة في أيام الخلفاء الراشدين (على الأقل إلى منتصف عهد عثمان) أدى إلى سيطرة عربية (مهاجرة - أنصارية) على شمال الجزيرة، وإقامة سلطة موحدة (من الداخل) توجه أعمال القبائل المتعددة. والأثر الأول لهذا، خاصة بعد حروب الردة، كان زوال التنافس والتحاسد والتخاصم، ومن ثم الحروب بين القبائل. (ذكرنا هنا سيطرة الدولة على القبائل الشمالية لأننا نتناول في بحثنا بلاد الشام، ولكن الواقع هو أن الدولة سيطرت على جميع القبائل العربية).

ومع تمام هذه السيطرة أخذت الدولة - مع التوسع في الفتوح - تنظم انتقال العشائر وسيرها. كما أنها ، في شخص أبي بكر وعمر خاصة، حددت سبل الإقامة والسكنى. ولنترك أرض الرافدين ومدينتيهما الكبيرتين - البصرة والكوفة - جانبًا ولنركز على الاستيطان في بلاد الشام. يبدو واضحًا أن العرب الفاتحين لم يؤسسوا في هذه الديار مدنًا جديدة على غرار البصرة والكوفة، فهل ثمة سبب لذلك؟

لا يغرين عن البال أن كبار التجار في مكة كانت لهم مع أسواق بلاد الشام وتجارها علاقات قوية مفيدة، ومن المؤكد أنهم كانوا يحرصون على استمرارها. ومن هنا، في رأينا، كانوا يريدون أن تظل قنوات الاتصال مفتوحة عن طريق البعثات التي كانت تغذي جيوش الفتح أولاً، وعن طريق الإقامة والاستيطان فيما بعد. فإن إقامة بعض القادة والصحابة والزعماء والجنود (مع تنظيم أمور هؤلاء) في المدن التي كانت من قبل أسواقًا هامة، يحافظ على هذه العلاقات التجارية، أما إقامة مدن - معسكرات جديدة (على غرار البصرة والكوفة) فقد تؤدي إلى تجمعات عربية قبلية آتية من الجزيرة، وهي فئات بحاجة إلى سلع استهلاكية، لكن هذه (أي المدن - المعسكرات) لن تحل محل المدن المعروفة مثل دمشق وحمص وحلب وإنطاكية وبقية المدن الساحلية

المنتشرة من سلوقية (في الشمال) إلى غزة (في الجنوب).

وقد يسر أمر الاستيطان في المدن والبلدان القائمة في بلاد الشام هجرة عدد كبير من الروم الذين كانوا يقيمون في المدن في بلاد الشام إلى الشمال ـ شمال الحدود السورية ـ مع الجيوش البزنطية المنسحبة. ودمشق وحمص وحلب كانت نماذج جيدة لهذا النوع من السكن في بيوت تركها أصحابها فنزل فيها القادمون الجدد [٩]، بقطع النظر عما إذا كان أصلهم جنودًا مقاتلين قد توقفوا عن القتال، أم أنهم كانوا طارئين مباشرة من الجزيرة.

وقد نص في بعض المعاهدات التي عقدت مع رؤساء المدن على المشاركة في الإقامة [١٠].

المهم أن عدد الجنود الذين طرأوا على بلاد الشام كان، على ما يبدو،أقل من الذين اتجهوا نحو أرض الرافدين. وحتى الذين جاءوا فيما بعد كانوا يتخذون من بلاد الشام طريقًا إلى مصر وشمال أفريقيا لا دار إقامة.

والدولة العربية الإسلامية التي سيطرت على القبائل ونظمت أمر تنقلها وطريقة انضمامها إلى الجيوش المقاتلة، وما إلى ذلك، قامت، بالنسبة إلى العهد الجديد، بأمرين مهمين: الأول أنها أخضعت الجميع لضرائب حكومية تستوفى من الجميع ـ الطارئين وسكان البلاد الأصليين على أسس مختلفة، لست أحسب أن الدخول بها يفيدنا في بحثنا هذا. والأمر الثاني هو تنظيم العطاء للمقاتلين، وهو الأمر الذي بدأه عمر بن الخطاب منظمًا، واستمر بعض الوقت.

ولنعد الآن إلى بلاد الشام لنرى ما الذي تم بشأنها من حيث التنظيم الإداري.

لا بد لنا هنا من إبداء ملحوظتين: أولاهما أن قادة الجيوش العربية الإسلامية، وهم أصلاً زعماء قريش وكبار تجارها ومسافريها، كانوا يعرفون عن المناطق الجنوبية من بلاد الشام (أي إلى خط يمتد من دمشق إلى الساحل على وجه التقريب) الشيء الكثير من حيث الطرق والمحطات وأماكن المياه والمدن والأسواق. كما كانوا يعرفون مدى ما وصل إليه انحلال الإدارة البزنطية نتيجة تهرؤها مع الزمن. ومن ثم فلم يكد يتم للعرب فتح هذه الأجزاء من بلاد الشام حتى قسّمت مناطق إدارية بحيث تكاد الأسس القائمة عليها تكون مزيجًا من الجغرافية والاقتصاد (الطرق بشكل خاص). وهذه المناطق الإدارية هي:

جند الأردن: شمل الأردن الحالية إلى جهات بصرى، وبذلك أمن الاتصال التجاري المألوف مع منطقة دمشق إلى الشمال. وأضيف إلى جند الأردن ممر من شمال الغور إلى الساحل (عكا وصور) عبر مرج ابن عامر. ونقلت عاصمة هذه «الوحدة» الإدارية من بيسان إلى طبرية.

جند فلسطين: وشمل هذا ما كان من قبل فلسطين الأولى وما بقي من فلسطين

الثانية بعد إنشاء جند الأردن، واختيرت «اللد» عاصمة لهذه «الوحدة» الجديدة.

جند الشام: وكانت منطقته تمتد شرقًا إلى تدمر، كما كانت تشمل حوران جنوبًا وتمتد إلى بصرى، وكان «الجند» يشمل الجولان. وقد اتخذت دمشق عاصمته.

ولما تقدمت الجيوش العربية الإسلامية نحو الشمال، وكانت الفتوح متشعبة بسبب اتساع الرقعة وتشعبها، أخذ الأمراء يضمون ما يفتح من جديد إلى ما سبق فتحه، فكانت النتيجة أن هذا الجزء من بلاد الشام، والذي كانت فيه أربع وحدات «إدارية» في أيام البزنطيين، أصبح تابعًا لإدارة واحدة (وحتى لما فتحت أجزاء من الجزيرة الفراتية ضمت إليه) فكان وحدة إدارية عسكرية واحدة ـ كبيرة متسعة معقدة وظل الأمر على ذلك إلى خلافة يزيد بن معاوية.[11]

ويمكن إجمال ما تم بين أيام يزيد (٦٠ ـ ٦٤ / ٦٨٠ ـ ٦٨٣) وأيام هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩)، من حيث تنظيم هذه الأجزاء من بلاد الشام بما يلي:

١ـ فصل حمص عن قنسرين وجعلها جندًا مستقلاً (يزيد).

٢ـ إفراد عبد الله بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ / ٦٨٥ ـ٧٠٥) الجزيرة فأصبحت جندًا وصار، جندها يأخذون «أطماعهم»، من خراجها ومركزها حران.

٣ـ وفي أيام هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩) جعلت قنسرين وكورها جندًا وفصلت عنها مدن منبج ودلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين، وهذه جمعها الرشيد فيما سمي بالعواصم[12].

انتهى الأمر ببلاد الشام أن تكونت من ستة أقسام إدارية، يسمى كل منها «جندًا»: وهي: قنسرين وحمص والشام (دمشق) والأردن وفلسطين والعواصم (وجعلت الجزيرة الفراتية ولاية مستقلة بإدراتها). وكان «الجند» في كل من هذه الأجناد يتناولون أطماعهم من مال المنطقة المستقرة بها.

وإذا تركنا «العواصم» جانبًا وجدنا أن المدن التالية أصبحت المراكز الإدارية الرئيسة في مطلع العصر الأموي، وهي: قنسرين ودمشق وطبرية واللد.

فأين كانت المراكز العسكرية في هذه الفترة؟

يجب أن نذكر أن طبيعة المراكز العسكرية وأمكنتها تبدلت الآن عما كانت عليه في العصر البزنطي. ففي العصر البزنطي كانت الغاية من التجمعات العسكرية الدفاع عن بلاد الشام. لذلك كانت المعسكرات تقع على الحدود وعلى مقربة من التحصينات، كما كانت بعض المعسكرات تستخدم للمحافظة على النظام في الداخل مثل اللجون (تل المتسلم) في شمال فلسطين.

أما أثناء الفتوح وبعدها في أيام الراشدين والامويين، فقد أصبحت بلاد الشام جزءًا من امبراطورية واسعة عربية اسلامية، وصارت المعسكرات تخدم واحدة من غايتين: إما أن تكون مراكز لإعداد الجنود ثم إرسالهم للالتحاق بالجيوش الفاتحة، أو

للمحافظة على الأمن احتياطًا. وقد كان أمراء الحرب العرب قد قلدوا الغساسنة باتخاذهم الجابية (في الجولان) معسكرًا أيام الفتوح ثم استمر ذلك في الأزمنة التي تلت[١٣]. وقد تأثرت الجابية بطاعون عمواس الذي أصاب فلسطين في سنة ١٨ / ٦٣٩. فقد نقل انه كان فيها أربعة وعشرون ألف جندي قبل الطاعون، فأصبح العدد أربعة الآف بعده، لكن ليس هناك ما يدل على أن الرقم الأول يعود إلى زمن سابق للطاعون مباشرة[١٤]. وكانت عمواس بالذات مركزًا من مراكز القيادة العسكرية ولكن لمدة قصيرة.

وكان المركز العسكري الثاني يقوم في منطقة اللد، ولعله كان في المدينة نفسها، وهنا نجد أيضًا استمرارًا لوجود مركز من هذا النوع في العصر البزنطي (بل لعله كان من العصر الروماني أيضًا). واختيار المنطقة يعود إلى أنها خصبة، فهي تصلح للحصول على الخضر والفواكه والحبوب اللازمة للجند، كما أنها تصلح لرعي الماشية والدواب اللازمة للجيش. وقد اجتمعت في اللد الإدارة المدنية والقيادة العسكرية، وهي في العقود الأولى للحكم العربي كانت تجتمع في بلد واحد في الغالب، وحتى عندما كانتا تفصلان كان الحاكم المدني والآمر العسكري يعودان إلى أمير بلاد الشام (أو إلى الخليفة الأموي فيما بعد) عندما تقوم بينهما خلافات.

ولكن لما ولي سليمان بن عبد الملك ولاية جند فلسطين، بنى مدينة الرملة واتخذها عاصمة للجند. فلما تولى الخلافة (٩٦ ـ ٩٩ / ٧١٥ ـ ٧١٧) أتم بناء المدينة وحسّنها، وكان كثيرًا ما يقضي أوقاته فيها[١٥].

كانت قيسارية عاصمة فلسطين الثانية، وكانت مدينة كبيرة وميناء مهمًا، لكن العرب لم يحتلوا قيسارية إلَا في زمن متأخر نسبيًا (سنة ٦٤١م)، وكانت اللد قد أخذت مكان العاصمة. إلا أن الأهم من ذلك في رأينا أن العرب كانوا حريصين على اتخاذ قواعد إدارتهم داخل البلاد لا على الشواطىء، لأن البزنطي كان لا يزال نشيطًا. ولم يقدم العرب على الإفادة من الموانىء والمدن البحرية إلا بعد أن اتخذ معاوية (٤١ ـ ٦٠ / ٦٦١ ـ ٦٨٠) من صور وعكا دورًا للصناعة وقواعد البحر.

على أن الموانىء الشامية جميعها (باستثناء صور وبعض موانىء فلسطين) لم تضم إلى الأجناد المصاقبة لها، بل ظلت كأنها أجزاء ملصقة بالحاكم لا بالمنطقة[١٦]. وفي أيام الأمويين وبعد ذلك بقليل، كان ثمة موانىء خاصة بافتداء الأسرى، مثل بيروت وقيسارية.

وظلت قنسرين تحتفظ بعدد من الجنود، لكن لما فصلت عنها مدن العواصم أصبحت هذه المدن مراكز عسكرية، من دون أن تفقد قنسرين أهميتها[١٧]. ولم نقع على إحصاءات عن عدد الجند في أي من المراكز العسكرية الكبرى في أي من أزمانها التي هي موضع البحث. ونغلب على الظن أن عدد الجنود كان يتوقف على الأحوال

العسكرية القائمة على الحدود، والحاجة إلى إرسال المدد للمقاتلين هناك.

وحري بالذكر أن العصبية القبلية قد ذر قرنها ثانية في العصر الأموي، ودارت رحى حروب قبلية قد تكون قيسية ـ يمنية، لكن المحرك لها تحت الرماد كانت الخصومة والمنافسة اللتين قامتا بين الفرع السفياني والفرع المرواني من الأمويين. عند احتدام الخلاف كانت تقوم معسكرات موقتة في بلاد الشام. ومعركة مرج راهط (٦٥ / ٦٨٤) بين السفيانيين والمروانيين لم تقم بين ليلة وضحاها. فقد أعد لها وجمعت الجنود القبلية وسلحت قبل أن تتقاتل.

وعندنا أن الجزيرة الفراتية كان فيها مركز عسكري هام في حران، فموقع هذه المدينة يفرض نفسه نقطة استراتيجية بين شمال بلاد الشام وشرق العراق وأرمينيا في الشمال.

هذه التي ذكرناها كانت المراكز الإدارية للأجناد، ومعسكرات للجنود. ولكن السؤال الذي يواجه المؤرخ دومًا هو: اين كانت عاصمة الخلافة الأموية؟

المألوف عند المؤرخين هو أن الأمويين اتخذوا دمشق عاصمة لهم. لكن هل كانت دمشق دومًا المقر الرسمي للخليفة ؟ أم هل كان بعض الخلفاء يقيمون مدة تطول أو تقصر حسب رغباتهم في مدن أخرى من بلاد الشام؟

نحن لا نقصد الأماكن التي كان الخلفاء يزورونها للاصطياف أو الإشتاء. فقدكان من الطبيعي أن يبدل الخليفة مقر عمله للراحة والاستجمام بين حين وآخر. فمن المعروف أن معاوية وعبد الملك بن مروان كانا يصطافان في بعلبك أحيانًا ،وقد كان معاوية والوليد بن يزيد وعبد الملك يشتون في الصنّبرة، وهي بلدة تقع في مقابل عقبة أفيق في منطقة بحيرة طبرية، وقد بنى هشام بن عبد الملك قصرًا في المفجر (شمال أريحا) ليشتو فيه. وقد روي أن الوليد بالذات أطال الإقامة في الصنّبرة وكان يدير شؤون الدولة منها[١٨].

لكن الذي نقصده هو أن يقضي خليفة مدة طويلة في مكان واحد، ومن هناك يصرف أعمال الدولة، فيصدر الأوامر ويتلقى الشكاوى ويستقبل الوفود ويقضي بين المتخاصمين. ويبدو من مراجعة ما قام به الخلفاء هو أن معاوية اتخذ دمشق عاصمة له وتبعه في ذلك يزيد ابنه والوليد بن يزيد (بشكل عام). ولما تولى عبد الملك الخلافة، احتفظ بدمشق عاصمة لكنه اهتم بالقدس اهتمامًا كبيرًا فبنى المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهذا أمر معترف به لعبد الملك. ولكن عبد الملك كان عنده مخطط لاعمار القدس بحيث يبني فيها قصرًا لإقامته وآخر لإدارة الأمبراطورية وثالث للأسرة المروانية[١٩]. فكأن عبد الملك كان ينظر إلى ما بلغ مسامعه مما فعله هيرودوس الكبير في تلك المدينة وأراد أن يقوم بشيء شبيه بذلك. هل معنى هذا أن عبد الملك كان يريد أن يتخذ من القدس عاصمة للدولة؟ هذا سؤال نحتفظ به معلقًا

إلى أن يتاح لنا، أو لغيرنا، الإجابة عنه.

اهتم الوليد بدمشق عاصمة، واعتزم أن يجعل منها عاصمة تليق بمكانة الأمويين ودولتهم الواسعة القوية. فكان أن بنى فيها الجامع الكبير (الجامع الأموي) ليكون ـ مع قصر الخضراء وغيره من المباني ـ مقابلاً لعاصمة البزنطيين، مع أن هذا الخليفة كان مشغولاً بالفتوح التي تمت في أيامه في الشرق (وادي السند) والغرب (الأندلس).

أما بعد الوليد بن عبد الملك فقد تقلص دور دمشق كعاصمة للدولة الأموية[٢٠]. فقد اتخذ سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ / ٧١٥ ـ ٧١٧) من الرملة مركزًا أساسيًا لإدارة شؤون الدولة. وكان يزور دمشق لمامًا[٢١].

وهشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ / ٧٢٤ ـ ٧٤٣) بنى (أو عمر ووسع) الرصافة واتخذ منها العاصمة الفعلية لإدارته. وحتى قبل أن يبني الرصافة كان يقضي الكثير من وقته في الزيتونة على مقربة من موقع الرصافة[٢٢].

ومروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢ / ٧٤٤ ـ٧٥٠) قضى القسم الأكبر من خلافته في العاصمة التي كانت مركز إدارة الجيزرة لما كان حاكمها ـ في حران. إذ إن هذه كانت في الواقع هي عاصمته[٢٣].

لكن الأمر الذي كان كل خليفة يحرص عليه هو أن يبايع في دمشق، وفي الجامع الكبير على التخصيص. وظلت دمشق العاصمة الرسمية ولو لم تكن العاصمة الفعلية دومًا.

الهوامش

(١) راجع نقولا زيادة «التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطية والعرب»، **بلاد الشام في العهد البيزنطي ـ الندوة الأولى من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام**، تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد عصفور (عمان، ١٩٨٦) ص ٩٥ـ١٣٧.

Nicola A. Ziadeh, the Administration of Bilad Ash- Sham from the Byzantine to the Early Arabs, in: *Melanges de L'Université Saint Joseph,* Tome L (1984), pp. 801ff,and G.W. Bowersock, *Roman Arabia* (Cambridge: Harvard University Press, Mass, 1933) II, and III Passim.

(٢) A.H. M. Jones *The Later Roman Empire,* 4 vols (Oxford, 1964), III pp. 380, 388 - 390, and S. *Runciman, Byzatine Civilization (elveland New York (reprint), 1970), p. 73.*

(٣) Jones, *Later,* II pp. 878 - 883 .

(٤) ثيودور نولدكه، **أمراء بني غسان**، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، (١٩٣٥) في مجمله.

F. M. Donner, *The Early Islamic Conquests (princeton, 1981) pp. 41 - 44.*

لمقارنة العلاقة التي قامت بين الساسانيين والمناذرة راجع الكتاب نفسه).

(٥) Irfan Shahid, *Rome And the Arabs (*Dumbarton Oaks, 1984), pp. 34 - 40, *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century (*Dumbarton Oaks, 1984), pp. 62 ff, 476ff, and 514 - 19).

(٦) F.M. Abel, *Histoire de la Palestine,* vol. II (Paris, 1951), pp. 246 - 249 ; Jones, *Later* III, p. 380; and H. M. D. Parker, *A History of the Roman World, A D. 138 -337,* revised by B.H. Warmington, (London, 1958),p. 275.

(٧) Jones, *Later* , III, p. 380, and cf. Runciman, *Byzantine, p. 117.*

(٨) F. F.M. Donner, *Early Islamic Conquests,* p. 48 citing Theophanes *Chronographia,* P. 300 under A.M *6104.*

(٩) Donner, *Early Islamic* , p. 247, and notes 117, 118, 119, 120, 121, 122 (c, III)

(١٠) *Ibid.*, notes 123 - 126 (c. III)

(١١) Ziadeh, *Melanges,* pp. 804 -- 809

(١٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ج ٣، تحقيق صلاح الدين المنجد، (القاهرة، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩؟) المجلد الأول ، ص ١٥٦ ، ١٧٥، راجع أيضًا: Zidaheh, *Melanges, pp. 808 - 810.*

(١٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، أول ص ١٣٣و ١٤٧و ١٦٤و ، ١٦٥ راجع أيضًا : ياقوت، **معجم البلدان**، مادة «الجابية» ويسميها ياقوت جابيه الجولان.

(١٤) Donner, *Early Islamic Conquests, pp. 245 - 247.*

(١٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، أول ص ، ١٧٠

(١٦) Ziadeh, *Melanges,* p. 810

(١٧) راجع الهامش رقم (١٢).

(١٨) فواز طوقان، **الحائر: بحث في القصور الأموية في البادية**، (عمان، ١٩٧٩) ص ، ١١٨ راجع أيضًا ياقوت، **معجم البلدان**، مادة الصنبرة.

(١٩) البلاذري، **فتوح البلدان**، أول، ص ١٦٤ ـ ١٦٦، راجع أيضًا طوقان، الحائر، ص ، ١٠٤

(٢٠) P.K. Hitt*i, History of the Arabs*, 6th ed (London, 1956) p. 220 .

(٢١) البلاذري **فتوح البلدان**، أول، ص ٢١

(٢٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، أول، ص ٢١٣ و٢٢٢ ،وطوقان، **الحائر**، ص ١١٩ .

(٢٣) ياقوت، **معجم البلدان**. مادة حران، وطوقان، **الحائر**، ص ١٠٢، Hitti, *History, p.220.* يرى طوقان (الحائر، ص ١١٩) أن مروان بن محمد كان يقضي الوقت في قصر الحير الغربي، قبل أن يلزم نفسه بالإقامة بحران.

نقلة الدولة من الأمويين إلى العباسيين

(١)

لم يكن قيام الدولة العباسية مجرد تبديل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة أخرى. ذلك بأن الذين قاموا بأمر الدعوة العباسية ـ زعماء وقادة ومنظمين ومنظرين ـ قالوا إن الأمويين كانوا فئة باغية طاغية. فقد اغتصبت حقًا لم يكن لها فيه شروى نقير؛ وتسلطت على رقاب الرعيّة ـ خلفاء وولاة وحُكامًا ـ ظلمًا وعدوانًا، فكان لأوليائها الغنمُ وعلى الرعيّة الغُرم. ولما قام الحسين بن علي في وجه الظالمين مدافعًا عن حقه، لم يتورع يزيد (٦٠ـ ٦٤ / ٦٨٠ ـ ٦٨٣) عن أن يوجّه إليه، وهو في فئة قليلة، جيشًا عرمرمًا حصره وحشره بحيث استشهد مع من كان معه (١٠ المحرم ٦١ / ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ٦٨٠)، في كربلاء، ولم ينج إلا الطفل علي بن الحسين (زين العابدين). وقال العبّاسيون ودعاتهم إن هذه الفئة الظالمة لم تسوِّ بين المسلمين ـ فكان منهم الموالي ، وهم المسلمون من غير العرب، الذين حُرموا من أمور كثيرة، كما أعطيت امتيازات لمن كان يمت إلى الإسلام بقرابة العروبة. وقد تنكب الأمويون عن سبل الإسلام الصحيحة ، وجعلوا الحكم ملكًا عضوضًا، بقطع النظر عمآ إذا كان وليُّ العهد صالحًا للحكم.

وقد أعدَّ العملُ للقضاء على الدولة الأموية إعدادًا دقيقًا. ولما كان القائمون على ذلك يريدون أن يعيدوا الحق إلى نصابه، والحكم إلى أصحابه، فقد دعوا إلى الرضا من آل البيت (أو آل محمد)، من دون تحديد أي فرع من فروع آل البيت كانوا يقصدون.

ولما آن لهم أن يضربوا كان عملهم ـ على ما اصطلح عليه محدثو المؤرخين ـ «الثورة العباسية». وقد كانت كذلك بالنسبة للأمويين. فقد اقتُلع هؤلاء من الحكم وقُتلوا وقُتِّلوا ؛ ونجا منهم أمير لم يلبث أن وصل الأندلس، واقتطعها لنفسه، فلم تعرف للعباسيين سلطة.

تم في هذا في السنة ١٣٢ / ٧٥٠؛ وبدأ العهد العباسي. ونحن لا ننوي أن نؤرخ لهذه الخلافة لا كلا ولا جزءًا. وكل ما ننوي أن نفعله، بالنسبة للفترة التي تشمل القرون الثلاثة الأولى، من الفترة العباسية الطويلة، هو أن نضع صُوًى تعيننا على رسم الاطار الذي تمت داخله تبدلاتٌ وتطورات وتغيّرات شملت المجتمع الذي قامت الدولة العباسية على تنظيمه وإدارته، ومن ثم تفتيته فيما بعد. تلك التبدلات والتطورات والتغيرات التي شملت نواحي الحياة في مجملها. وقد نتوقف عند البعض منها لما كان

له من الأثر الخاص في مسيرة الفكر وسير الحياة الإقتصادية ونمو المجتمع أو جموده.

على أننا، قبل أن نتناول الإطار العباسي بالذات لا بد لنا من كلمة ـ ولو مقتضبة ـ عن الدولة الأموية والدور الذي قامت به بناءً للدولة أو تقويضًا لها.

الدولة الأموية هي التي أوصلت حدود الدولة العربية الإسلامية أطرافها الواسعة، فخلقت الوعاء الضخم الذي نما فيها المجتمع الجديد. ففي أيام الأمويين وصلت حدود العرب إلى أواسط آسيا وحوض السند شرقًا وشمال شبه جزيرة إيبيريا غربًا. والأمويون دافعوا عن بيضة هذه الدولة الواسعة التي وسعوا آفاقها، وهم الذين وطدوا للعرب والاسلام السلطة فيها. وقد كان للدولة، وهي لم تعمر إلا دون المئة سنة (٤١ـ ١٣٢ / ٦٦١ ـ ٧٥٠)، فترتان كان فيها للخلافة سلطة وقوة وللإدارة المركزية نفوذٌ وسطوة: وهما خلافة معاوية وابنه يزيد (٤١ ـ ٦٤ / ٦٦١ ـ٦٨٣) وخلافة عبد الملك بن مروان والذين تلوه (٦٥ ـ ١٢٥ / ٦٨٥ ـ ٧٤٣).

والأمويون، أيام عبد الملك وبنيه، هم الذين ضربوا بسهم وافر في سبيل خلق الدولة العربية الإسلامية. ففي أيام هؤلاء عُربت الدواوين والإدارة، بعد أن كانت قد ظلّت روميّة وفارسية وقبطيّة فترة من الزمن. وفي أيام هؤلاء صُكَّ الدينار والدرهم العربيان الإسلاميان اللذان كانا يختلفان عما سبقهما من نقد لا من حيث الشكل والنقش فحسب، ولكن من حيث الوزن، بحيث أصبح للدولة العربية الإسلامية نقدها الخاص، ونظامها الاقتصادي الخاص بها.

وكان هذا العمل، إلى جانب الفتوح الواسعة، مهمًا لأنه أعطى الدولة الجديدة الصفة الأولى التي أصبحت، مع الزمن، ميزتها الأساسية، بعد الإسلام أي العربية.

لكن الدولة الأموية ظهرت في عهدها شروخ في الجسم الكبير الواسع، وأول شرخ كان الخلاف بين القيسيين واليمنيين. كان بين العرب منافسة ومفاخرة قديمتان. فاليمنيون كانوا يرون أنفسهم أهل حضارة قديمة لها في بقاع اليمن آثار وبقايا، فكان موقفهم من القيسيين موقف المتحضر المتفاخر بذلك، من البدوي المتنقل. لكن اليمنيين كانوا طرّاء في الشمال أي في مناطق القيسيين أي إنهم كانوا لاجئين . ومن ثم فقد كان أصحاب البلاد يفخرون بوطنهم ويتفاخرون بإيواء الآخرين.

ولو أن الأمر انتهى عند هذا لهان، لكن إصهار أفراد البيت الأموي لفريق دون الفريق الآخر، واستعانة أولئك بهؤلاء، جعلا من هذه المفاخرة جروحًا دامية في جسم الإدارة والجيش. وكان النفع يصيب الفريق الواحد عندما يكون صاحب الأمر إلي جانبه، فإذا تبدل وليّ الأمر، أصيب الفريق بالضرّ، وانتقل الخير إلى جماعة أخرى، وكان الانتقام والتشريد والمصادرة والقتل والتعذيب وسائل يلجأ إليها كل فريق متى كان في دور المتسلِّط.

كان الخلاف القيسي اليمنيُّ أصلاً في بلاد الشام أقوى، لكن مع انتشار القبائل

العربية في الرقاع النائية، انتقل هذا الخلاف إلى أجزاء الدولة الواسعة. وكان من أثره أن شغل الناس من أهل الحلّ والعقد بمراقبة بعضهم البعض، والانتقام بعضهم من البعض الآخر، وكان ذلك على حساب المجتمع بكامله.

ولنضع أمام القارئ مثلاً واحدًا يوضح ما ذهبنا إليه من عمق هذا الشرخ. كان محمد بن مروان، وهو أخو الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥) واليًا على الجزيرة (الفراتية)، وكان سليمان، ابن الخليفة، واليًا على فلسطين. وكان المنتظر أن يتعاون الرجلان في سبيل الأسرة والدولة. لكن محمد بن مروان انحاز إلى القيسيين المقيمين في شمال الجزيرة وفي منطقة الحدود البزنطية، فيما مال سليمان، وكان يقيم في الرملة، إلى اليمنيين. وقد أدى هذا، في وقت لاحق، إلى انقسام كبير في البيت الحاكم، ثم في جسم الدولة. إذ إنه لما تولى الوليد (الثاني) بن يزيد الخلافة (١٢٥ / ٧٤٣) بعد وفاة هشام، مكّن للقيسيين، بقيادة يوسف بن عمر، من خصومهم فانتقموا منهم. فأثار هذا اليمنيين، بقيادة منصور بن جمهور الكلبي، فانتقم من خصومه ومن الوليد نفسه إذ نجح في قتله.

ولما تولى مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، الأمر (١٢٧ ـ ١٣٢ / ٧٤٤ ـ ٧٥٠) اعتمد على القيسيين في أنحاء مختلفة، فكان هذا الانقسام مما أضاع ملكه. وقد انتشر الخلاف القيسي اليمني في خراسان؛ ولم تكن مقاومة نصر بن سيار سوى أثر من آثار هذا الانقسام.

وكان ثمة شرخ آخر هو ذلك الذي حدث بين أشراف قريش بعامتهم، وبني أميّة بخاصتهم. فقد استأثر بنو أمية دون من تبقى من قريش، وهم كثر وذوو نفوذ، بالمناصب والمنافع والأرضين. وكان أن نَقِم هؤلاء على بني أمية هذا الاستئثار.، وأدى ذلك إلى تنابذ وتنافر وخصومات وتحزبات.

إلى هذه التحزبات القبلية والمصلحية قام خلاف بين العرب المسلمين وغير العرب من المسلمين، وهم الذين أطلق عليهم اسم الموالي. فقد وقف بنو أمية من هذه الفئة موقفاً يكاد يكون «عنصريًا». صحيح أنهم استعملوا الموالي في كثير من شؤون الإدارة والحكم، لكنهم كانوا يشعرونهم بأنهم يعطونهم مثل هذا بشيء من المنة لا الحق. وقد أدى هذا الشعور عند الموالي إلى الانحياز إلى خصوم الدولة الأموية.

وكان بنو أمية يظهرون دومًا أن حكمهم هو حكم أهل الشام، ومع أن محاولات قامت لتوزيع السلطة ومنح العراقيين، وهم أكثر من تأذى من هذا الوضع، شيئًا من المكانة في الحكم، فإن الغالب على الأمويين أنهم كانوا مع أهل الشام، وأنهم كانوا يرون أن أهل الشام هم حماتُهم وموئلهم.

وليس من شك في أن أقوى الشروخ التي كانت تعمل في جسم الدولة في عهد الأمويين هو قضية الخلافة بالذات، فقد كان عليّ بن أبي طالب يرى نفسه الأحق

بخلافة رسول الله (ص)؛ فهو ابنُ عمه وزوج ابنته فاطمة. ثم هو إلى ذلك عالم في شؤون الإسلام لا يشق له غبار؛ فضلاً عن كونه رجل صدق لا تشوب حياته شائبة. وكان لعلي مؤيدون مؤمنون بحقه في الخلافة. ومن هنا فقد رأى علي وصحبه في إختيار أبي بكر «مؤامرة» ضده، وفي العهد إلى عمر بالخلافة تجنيًا عليه، وفي انتخاب عثمان تخطيًا له . ولما تولى الخلافة بعد مقتل عثمان (٣٥ ـ ٤٠ / ٦٥٦ ـ ٦٦١) ألب عليه معاوية جماعته واتهمه بدم عثمان.

قتل علي بن أبي طالب (٤٠ / ٦٦١)، لكن ذلك لم يقض على شيعته، ولم يتوقفوا عن العمل في سبيل وضع الحق في نصابه. فلما خرج الحسين من الحجاز إلى العراق مطالبًا بحقٍّ له وفي نظره ونظر شيعته ما يدعمه، لقي مصرعه في كربلاء في ١٠ محرم ٦١ / ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ٦٨٠ فكان أن ازداد تعلق الأتباع بالحق المهضوم والدم المهدور. وفي أيام الدولة الأموية كان المطالبون بحق علي وأهله زين العابدين (علي بن الحسين) المتوفى ٩٤ / ٧١٢، ثم محمد الباقر (توفي، على الرواية المقبولة ١١٧ / ٧٣٥) ثم جعفر الصادق (توفي ١٤٩ / ٧٦٥). وقد جاءت الدولة العباسية وهو الإمام. والذي نود أن نقوله الآن هو أن الأمويين لم يكن لهم سند ديني في قيامهم بشؤون الملك والخلافة. وإذا كانت الدولة يجب أن تقوم على القرآن الكريم والسنة المشرفة، فلا يمكن أن يتم مثل هذا الأمر إلا على يد رجل من آل البيت. وكان هؤلاء موجودين، وكل ما يقتضيه الأمر أن يُجمع الناس على واحد منهم إجماعًا كبيرًا، إن لم يكن تامًا.

جاء دعاة العباسيين يقولون بأنهم يطالبون بالخلافة للرضا من آل البيت وإنهم ينتزعونها من الأمويين إحقاقًا للحق، وتم للعباسيين الفوز بالخلافة (١٣٢ / ٧٥٠) فما الذي حدث؟

أمسك العباسيون بزمام الأمر، فإذا هم «آل البيت» وأنكروا على أسرة عليّ حقها في الخلافة. ثم إنهم عمدوا إلى مضايقة أفراد هذه الأسرة. فإذا طالب أي منهم بالحق وثار في سبيل ذلك، أخمدت حركته بكثير من العنف والبطش. وكما عامل الأمويون زيد بن علي زين العابدين لما قام بثورته (١٢٢ / ٧٤٠) عامل العباسيوون في أيام المنصور محمد بن عبد الله النفس الزكيّة وأخاه إبرهيم، إذ قضوا على ثورتيهما قضاء مبرمًا (سنتي ١٤٥ / ٧٦٢ و ١٤٦ / ٧٦٣ على التوالي).

والدولة العباسية، أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥)، توصلت إلى معادلة في الحكم أساسها أن آل العباس هم ورثة النبي لا آل علي، لأن العرب تورثُ عن طريق الذكور والآباء لا عن طريق الأمهات. وبذلك أنكر العباسيون على العلويين حقهم في الخلافة. ثم ان الخلافة هذه هي إسلامية، فأمير المسلمين هو أمير المؤمنين. ومنذ أيام المأمون أضيف لقب الإمام إليها (وكان قبلاً يستعمله زعماء

الشيعة من آل علي بن أبي طالب). وقد نجح المنصور إلى درجة كبيرة في كسب فئة مهمة من أهل الجماعة لنصرته، وهم أهل الحديث.

أما من الناحية الإدارية العامة فقد قيض لأبي جعفر المنصور أن يقيم إدارة مركزّية السلطة، وأن يشرف هو بنفسه على الكبير والصغير من الأمور. ولم يكن هذا بالأمر السهل، لكن مقدرة الرجل وحنكته وبعد نظره وقدرته على التخطيط مكّنته من القيام بهذا كله. وقد دام هذا بعض الوقت، إلى أن مزّقت الدولة العباسية الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون أولا، ثم تمكين العناصر المختلفة من بسط سيطرتها على رقاب العباد ومصالح البلاد.

والدولة تُحمد لها أمور كثيرة كانت الأسس التي يسّرت للحضارة العربية الإسلامية أن تنضج وتبلغ ما بلغته من الشأو البعيد. فقد قامت بغداد أولاً باستقطاب الناس - جندًا وإداريين وحاشية وتجارًا وعلماء وأدباء - فكانت لهم ثمة سبلٌ للتحاك وتبادل الرأي والخبرات. وقام الخلفاء بتشجيع هذا تشجيعًا كبيرًا - هبات وإنشاء مؤسسات وبذل عون وتخطيطًا للعمل العلمي - فكان من ذلك أن انتقلت العلوم من لُغى الأقوام إلى اللغة العربية، ووضعت المصنفات في علوم الأولين والآخرين. وهذا هو الذي انتهى إلى تخمّر الفكر ونضج المدنيّة وإيناع الثقافة. ومع تضعضع السلطة المركزية، فيما بعد، قامت دول هنا وهناك وأنشئت لهذه الدول عواصم وكان لكل صاحب سلطة بلاط يقلد فيه بلاط بغداد. وهو وإن لم يبلغ شأنه، فقد كانت فيه أشياء كثيرة مما عرفها بلاط العاصمة الأم. ومن ثم فإن الفكر ومآتيه والحضارة وإنجازاتها لم تظل محصورة في بقعة واحدة. وحتى المدن التي لم تكن عواصم دويلات، كانت فيها للعلم دورٌ وللفكر ندوات وللمؤلفين معونات وللأدباء مكافآت.

وهكذا لما قامت الخلافة العباسية وأنشئت بغداد واتخذت عاصمة لها، بدا وكأن أسباب التفرقة قد انتهت، وكأن المنصور وخلفاءه استطاعوا أن يجعلوا من الفئات المختلفة التي كانت الدولة تتكون منها، جماعة واحدة كبيرة، يتعارن فيها الجميع في سبيل خير الدولة والسكان.

لكن هذا لم يكن سوى أمر موقت، كما أنه لم يشمل سوى ناحية واحدة، ولمدة قصيرة؛ فمركزية الدولة كانت الصفة الأولى لها، بحيث أن جزءًا كبيرًا من الواردات الرسمية في الولايات كان ينقل إلى مركز الخلافة. وكانت بغداد، من حيث أنها عاصمة الدولة، تعتمد في تمتين الحياة الاقتصادية على ثروة السواد، الغني بالمحاصيل الزراعية، وعلى الطرق العديدة التي كانت تربط بغداد بالمدن المختلفة في الجزء الشرقي من الدولة خاصة. ولنذكر على سبيل المثال الطرق الأربعة الرئيسة التي كانت تتفرع من العاصمة، وهي طريق خراسان من بغداد شمالاً في شرق، وكبرى محطاته حُلوان وكرمنشاه وبيسيتون وهَمذان والري ونيسابور وطوس ومرو وبُخارى وسمرقند

وكان ينتهي بما وراء النهر؛ وطريق بغداد ـ واسط ـ البصرة ـ الأهواز ـ شيراز (في فارس) ـ كرْمان ـ هراة ـ بلخ؛ وطريق بغداد ـ الموصل ـ آمد (ديار بكر) الثغور؛ وطريق بغداد ـ الأنبار ـ الرقة ـ دمشق (وغيرها من المدن الشامية).

ولنذكر أن كلا من هذه الطرق الرئيسة كانت تتفرع منها طرق جانبية تصل المحطات الأصلية المهمة عليها بالمدن والبلدان المنتشرة في المناطق المختلفة.

هذه الطرق لم تكن من إنشاء العباسيين، ولا من بناء الأمويين. كانت في أكثرها طرقًا عرفتها قوافل التجار والرحالة والجيوش قرونًا طويلة قبل أن يعنى بها العباسيون. إلا أن المهم هو أن العباسيين تنبهوا إلى أهمية الطرق لا من الناحية الاقتصادية فحسب، بل من حيث دورها الإداري والعسكري. وهذا الأمر أعان العباسيين الأوائل في الإشراف على الولايات، إذ أقاموا على هذه الطرق خانات وحصونًا وحفروا آبارًا وبنوا صهاريج للمياه فكانت تستعمل بكثير من الراحة. والعباسيون اتقنوا البريد ووسائله، فكانت تصلهم الأخبار في شيء كثير من السرعة.

أما الأهمية التجارية لهذه الطرق فسنعرض لها لاحقًا.

وكان أن عصفت الحرب الأهلية التي قامت بين الأمين والمأمون (١٩٣ ـ ٢٠٤ / ٨٠٩ ـ ٨١٩) بكثير من الأسس التي قامت عليها الدولة العباسية قبل أن يُتاح لها أن تستقر ولو بعض الشيء. فعاد الخلاف السني الشيعي لا إلى الواجهة فحسب، بل تجذّر وتعمق. وكان حصار بغداد ذا أثر عنيف على المدينة التي لم تكن قد بلغت الخمسين من عمرها، فخرب منها الكثير، وتهدم من أبنيتها العامة وأسوارها الأكثر. وأشد إيذاء من ذلك هو أن السواد أخذت غلاته تتناقصُ، وذلك بسبب الضُر الذي أصاب ري الأرض وتنظيمها.

إلا أن هذا لم يقض على بغداد. وتبدو عناصر قوة الحياة في المدينة الكبيرة في الدور الحضاري ـ الفكري والعلمي والأدبي ـ الذي قامت به في أيام المأمون (ت ٢١٨ / ٨٣٣)؛ فقد كان هذا تتمة لما بُدىء أيام المنصور والهادي والرشيد (١٣٦ -١٧٠ / ٧٥٤ ـ ٧٨٦). كما أن هذا الدور المأموني بالذات استمر، ولو على درجة أقل نسبيًا أيام المعتصم والواثق (٢١٨ ـ ٢٣٢ / ٨٣٣ ـ ٨٤٧). ولو أننا كنا نؤرخ هنا للحياة العلمية التي عرفتها بغداد ـ ولم تكن بغداد وحيدة في ذلك ـ لاقتضانا الأمر صفحات. ولكن هذه الصفحات الأولى لا تعدو كونها مقدمة للموضوع الأصلي المتعلق بالتجارة الخارجية وطرقها.

انتقل المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢) من بغداد إلى سامراء، التي اتخذها عاصمة له ولجنده، وظلت هذه هي العاصمة (مع جارتها التي بنيت إلى الشمال منها) إلى سنة (٢٧٩ / ٨٩٢).

أراد المأمون أن يضع معادلة خاصة تتعلق بدور صاحب السلطة. فأخذ برأي

المعتزلة في القول بخلق القرآن، واعتبر أن ذلك يجعل للإمام، وقد اتخذ المأمون لقب الإمام، منزلةً خاصة في زعامة العالم الإسلامي وقيادته وإدارته. وقد فرض المأمون على كبار رجال الدولة القبول بذلك، ومن رفض عوقب. ومن هنا أصبحت القضية «محنة»، وكان ممن امتحن وعوقب لرفضه ذلك الإمام أحمد بن حنبل.

والأمر الآخر الذي خطط له المأمون هو أن يجعل من الجيش جيشًا للدولة فلا يظل الجنود مرتبطين بمناطق نشوئهم، فيتعصبون لجماعتهم ولبلدهم، بدل أن يكونوا ذراع الدولة القوي. لكن المأمون توفي (٢١٨ / ٨٣٣) قبل أن يحقق هذا الأمر.

وجاء المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢) خليفة، وكان على مذهب المعتزلة بالقول بخلق القرآن الكريم فسار على خطة أخيه المأمون في امتحان أهل الحلّ والعقد. واتجه نحو تنفيذ فكرة توحيد الجيش ووحدته، بحيث يكون جيش الدولة وجيش المعتصم في الوقت نفسه. ومن هنا اتجه إلى المناطق التركية والمناطق المجاورة فشجع الجماعات على الانضمام إلى «جيشه». وقد كانت المقولة المقبولة هي أن هذا الجيش كان «تركيّاً» وكان «رقيقًا». لكن محمد عبد الحي شعبان الذي فحص المصادر وتعرف إلى الشعوب التي كانت تقطن في المنطقة الممتدة من أراضي الخزر إلى ما وراء النهر وما جاورها، خرج برأي له ما يبرره، وهو أن هؤلاء الجنود الذين استقطبهم المعتصم لم يكونوا أتراكًا في كليتهم، وإن كان بينهم كثير من الأتراك. فقد كان الجند جماعات منها التركي ومنها الأرمني ومنها البربري وغير ذلك. فضلاً عن ذلك، فإن شعبان لم يقبل الجزء الثاني من المقولة وهي أن هؤلاء الجنود كانوا رقيقًا اشتروا في أسواق الرقيق. كان بعضهم رقيقًا، لكن أكثريتهم كانت من الجماعات التي تدخل في خدمة الخليفة تحت زعامة رئيس لها، وتصبح جزءًا من الجيش الكبير.

والأمر الأساسي الذي تم نتيجة لذلك، هو أن الجيش أصبح «طبقة عسكرية» منعزلة عن المجتمع. وقد أعان على ذلك أن المعتصم نقل العاصمة من بغداد إلى سامُراء. كانت بغداد قد تهدّم كثيرٌ من مبانيها وأحيائها وأسوارها، بحيث كان إعمارها يتطلب الكثير من المال والجهد والتنظيم. فضلاً عن ذلك، فان الرقعة التي كانت تشغلها العاصمة، ولو أنها حديثة العهد نسبيًا، كانت قد وُزِّعت على الذين كانوا قد استوطنوها أصلاً: قطائع ومنازل وأراضي للزرع. لذلك حزم المعتصم أمره، وبنى مدينة جديدة هي سرَّ من رأى (سامراء)، التي كانت على نحو مئة كيلومتر إلى الشمال من بغداد، وعلى شاطىء دجلة . ومع أن المدينة الجديدة اتسعت خططها وانتشرت مبانيها وقطِنت دورها وكثرت أسواقها. فإن المعتصم لم يُوفق في اختيار البقعة، فكانت دون بغداد موقعًا ومركزًا تجاريًا ونقطة اتصال.

(٢)

على أن المعتصم لم ينقل العاصمة من بغداد بسبب صعوبة الإعمار، ولا لتوسيع الديار، بل إن الرجل أراد أن تكون له عاصمة ينفذ منها إلى الدولة بوسائله الجديدة. (بهذه المناسبة لقد اتخذ الرشيد الرقة على الفرات عاصمة له بعض الوقت لأنه لم يحب ما احتوته بغداد من الناس والخلاف والتجاوزات والاستئثارات).

فالمعتصم كان له جيشه، وكان له طبقة من الأعوان هم من اختياره، وجماعة من الموظفين هم من المحيطين به. وقد كان للمعتصم سبيل جديدة في إدارة المال. ذلك أنه رفع العطاء عن العرب المقيمين في مصر وغيرها، وهم نسل الجماعة الفاتحين الذين فرض لهم عمر، ولأبنائهم من بعدهم، العطاء. وأصبح الجنود العاملون وحدهم هم الذين يقبضون مرتبات، والإدارة المركزّية التي قويت أيام المعتصم تلقت مبالغ طائلة من موارد الدولة من الولايات. وهو أمر كان جديدًا نسبيًا.

فأيديولوجية الدولة المعتزلية والجيش الجديد والإدارة المركزية وعناصر تطبيقها جميعها، كانت تتفق تمامًا مع اتخاذ عاصمة جديدة للدولة.

ظلت سامراء عاصمة الخلافة نيفًا وستين عامًا (٢٢١ ـ ٢٧٩ / ٨٣٦ ـ ٨٩٢) كانت منها تسع سنوات (٢٤٧ ـ ٢٥٦ / ٨٦١ ـ ٨٧٠) هي فترة حالكة، فتحكمت الفوضى وساد التناحر بين زعماء الأتراك، فأضر ذلك بالناس. لكنّ شيئًا من الانتعاش والقوة عاد إلى الخلافة بعد ذلك في عهد المعتمد والمعتضد والمكتفي (٢٥٦ ـ ٢٩٥ / ٨٧٠ ـ ٩٠٨). وفي سنة ٢٧٩ / ٨٩٢ أخليت سامراء (والمدينة التي بنيت إلى الشمال منها) وعادت بغداد عاصمة للخلافة؛ وظلت على ذلك إلى سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨، لما احتلها المغول ودمّروها.

القضية الأساسية في إدارة الدولة العباسية هي أن الدولة لم تكن فيها مؤسسات ونظم هي عادة العمود الفقري لإدارة أي دولة. الدولة العباسية، مثل الدولة الأموية، كانت تحت إمرة رجل واحد هو الخليفة. صحيح أن الخليفة كان مقيدًا بالكتاب والسنة، لكن هذا الأمر كان نظريًا؛ أي إن الخليفة أو الحاكم لم يتقيد دومًا بهذه الأحكام الأساسية. وقد كانت البُنى الفوقية للإدارة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالخليفة ـ إما قبولاً لرأيه وتصرفه أو خروجًا على ما يراه، أو وتقلّبًا بين بين. والعناصر التي كانت أساس البنى الفوقية هي طبقة الوزراء أو الكتاب في المجال المدني أو طبقة أمراء الجند في المجال العسكري؛ إلى جانب هؤلاء كان يقوم الولاة. وقد كانت مصلحة أي من هؤلاء، أفرادًا أو فئات، هي التي تعيّن مواقفهم من الخلافة في غالب الحالات. ومن ثم فلم يكن أمر العباد والبلاد، من حيث أنهما كيان المجتمع وقوام الدولة، موضع اهتمام إلا فيما ندر. ومن هنا فإن الولاء للخليفة (أي للدولة، أي للكيان، أي للجماعة) أوعصيانه لم يقوما على أساس المصلحة العامة في غالب الحالات.

والبُنى التحتية، ومنها القاضي والمحتسب وصاحب الشرطة، كانت أكثر تقيدًا بالأحكام، وأشد اهتمامًا بالصالح العام. وأصحاب هذه المناصب، عندما كانوا يُسندون ويؤازرون، كانوا يقومون بالواجب خير قيام.

لكن المشكلة هي مشكلة البنى الوسطية ـ تلك التي تدعم النظم والمؤسسات، والتي تقوم بالنظم والمؤسسات، والتي يترتّب عليها انتظام شؤون الدولة. فالمسؤول عن بيت المال أو موازنة الدولة، والمنظم لضرائبها وجمع الضرائب، والمشرف على إنفاقها في الوجه الصحيح، والمشرف على البريد من حيث انه ذراع الدولة اليقظ الذي يدرك واجباته نحو المؤسسة الكبرى أي الدولة؛ ومدبّر قضايا الري من حيث العناية بالترع وتوزيع المياه كي تفيد منها الأرض، وفي مصلحة الجميع. هؤلاء وغيرهم كثر هم ليسوا موظفين عاديين: هم أعضاء في مؤسسات لا تتأثر بتغير الأفراد وتبدل المسؤولين، وهذا هو الأمر الذي لم تستطع الدولة العباسية (ولا الأموية قبلها ولا غيرها بعدها) أن تنشئه، فظلت الأمور تعتمد على شخصية الخليفة ومدى ولاء أمراء الجند أو الوزراء والكتّاب له شخصيًا، أو استعدادهم للتخلي عنه.

ونحن هنا لا نبحث هذه القضية على أنها أمر تفصيلي لموضوعنا، وإنما نشير إليها على أساس ارتباطها العضوي بالضعف الذي أحاق بالدولة العباسية. ومحاولات الخلفاء في إنشاء جيوش محلية (بدءًا من جيش خراسان الذي قاده أبومسلم لدعم قيام الدولة العباسية)؛ أو محاولة توحيد هذه الجيوش لجعلها جيشًا للدولة يتكون من فئات أو فرق من خراسان ومن العراق ومن الشام (محاولة المأمون التي لم يتح لها النجاح لأن الرجل توفي مبكرًا)؛ أو محاولة المعتصم في إنشاء جيش أجنبي عنصريًا ـ جميع هذه المحاولات ارتطمت على صخرة النظرة القصيرة للقائمين على الأمر، ورغبة أولي الأمر في الحصول على المنفعة المباشرة الخاصة.

وثمة فترات متعددة في تاريخ الدولة العباسية التي تظهر هذا الأمر على خير ما فيه وشرّه؛ ولكن ما دمنا قررنا أن نسير قدمًا في وضع الإطار التاريخي للتطور التجاري فإننا نكتفي (الآن على الأقل) بالإشارة الى فترتين متعاقبتين توالتا في العقود الأخيرة من القرن الثالث / التاسع، والعقود الأولى من القرن / الرابع / العاشر. في الفترة الأولى (٢٥٦ ـ ٢٥٩ / ٨٧٠ ـ ٩٠٨) عاد إلى الدولة العباسية نشاطها وشيء كثير حتى من عنفوانها. أما الفترة الثانية (٢٩٥ ـ ٣٣٤ / ٩٠٨ ـ ٩٤٦) فقد كانت أيام شؤم على الدولة. في هذه الفترة تقع خلافة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢) التي تعتبر من شر ما أصاب دولة العباسيين إجمالاً.

خلال الفترة الأولى تمت عودة الدولة إلى بغداد (٢٧٩ / ٨٩٢) وذلك بعد المنافسة القوية التي قامت بين الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢) وأخيه الموفق، الذي لم يتول الحكم لكنه كان الرجل القوي في ذلك الوقت، فقد كان والي

العراق والجزيرة العربية والمشرق، فضلاً عن كونه نجح في أن يشرف على الإدارة المدنية، إلى أن اتفق الأخوان عى أن يلي اساعيل بن بلبل (٢٧٢ / ٨٨٥) الوزارة للأخوين. وكان من رجال العهد سليمان بن وهب الذي عُني بشؤون الدولة المالية، وأهمها توفير رواتب الجند، ومن ثم فقد كان ، في الواقع، سيد الجيش.

وممن ولي الوزارة في هذه الفترة أفراد من أسرتي الفرات والجرّاح. وقد كانت الخصومة بين الفريقين شديدة، والمنافسة عنيفة ولم تعد بالخير على الدولة أو الشعب.

وقد كان الطولونيون (٢٥٤ ـ ٢٩٢ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥) أصحاب الحل والعقد في مصر، كما أنهم احتلوا، أيام أول ولاتهم أحمد بن طولون، شمال سورية حيث أعد جيشًا لمهاجمة البزنطيين. ومع أن الطولونيين اعترفوا بالخلفاء العباسيين، ولعلهم كانوا حتى يبعثون ببعض ما يجمع من ضرائب البلاد إلى الخزينة العامة، فإن احتلال ابن طولون الجزيرة الفراتية، حتى الرقة (على الفرات)، أزعج العاصمة العباسية، واعتبر الموفق هذا الأمر عملاً عدائيًا. وقد حاول الموفق انتزاع مصر من خلفاء ابن طولون بعد وفاته، إلا أن المحاولة انتهت إلى الفشل من الناحية العسكرية، لكن خمارويه (بن أحمد بن طولون) تعهد بأن يدفع ما قيمته ٣٠٠،٠٠٠ دينار سنويًا لقاء الاعتراف به.

وقد انتهى الأمر بأن استعاد العباسيون السيادة على مصر نهائيًا ٢٩٢ / ٩٠٥ .

لكن المشكلة الرئيسة في هذه الفترة كانت ثورة الزنج التي بدأت سنة ٢٥٥ / ٨٦٩، واستمرت حتى سنة ٢٧٠ / ٨٨٣, وقد كلفت الدولة العباسية الكثير من القتال والنصب للقضاء عليها. لكن أثرها السيىء لم يكن في الذي تكلفته الدولة للقضاء عليها، ولكن في الدمار والتخريب اللذين أحدثتهما في أرض السواد، وفي تحويل الطرق التجارية عن البصرة.

وكان القرامطة، وغزواتهم المتكررة على العراق والشام سببًا في تعطيل الإدارة عامة. والمهم أن نذكر، في هذه المناسبة، أن العباسيين انتصروا عليهم قرب حماة أواخر سنة ٢٩١ / ٩٠٤، وبذلك دفعوا أذاهم عن بلاد الشام، ولو أنهم استمروا على مهاجمة العراق وما جاوره شرقًا من منطقة عُمان والبحرين فيما بعد.

وهكذا فإنه لما توفي الخليفة المكتفي (٢٩٥ / ٩٠٨) كانت الدولة العباسية قد بلغت الغاية في عودتها إلى الكثير من سلطانها وأمجادها. كانت مصر وسورية قد أعيدتا إلى الدولة، وكانت الخزينة فيها وفر قيمته خمسة عشر مليونًا من الدنانير؛ والجيش كان تابعًا للسلطة المركزية.

لكن هذا كله لم يلبث أن انقلب رأسًا على عقب. فقد تولى الخلافة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢) وتلاه في السلطة القاهر والراضي والمتقي والمستكفي (٣٢٠ ـ

٣٣٤ / ٩٠٨ ـ ٩٤٦).

كان المقتدر حدثًا لما تولى السلطة، وظل على ذلك من حيث التصرف. فقد كان يدار على ما يريد الوزير أوالكاتب أو قائد الجيش. فالأمر متوقف على أي من هؤلاء يكون صاحب النفوذ، وعندها يسيطر على الموقف، عبر الخليفة. وكانت الخصومة الوزارية، بين بني الجراح وبني الفرات. وإذا اتفق الوزير ـ الكاتب مع قائد الجيش كانت المصيبة على العباد والبلاد ـ أعظم، كما حدث لما اتفق عليّ زعيم بني الجراح مع مؤنس القائد (وقد لقب المظفر).

وقد مرت بأيام المقتدر أزمة مالية خانقة. فالسواد الذي كان يزود الخزينة بمئة مليون درهم، قلما أنتج أكثر من ثلث هذا المبلغ في أيام المقتدر. ذلك بأن حروب القرنين الثالث والرابع / التاسع والعاشر أدت إلى إتلاف الترع فضعف اقتصاد المنطقة الزراعي. والمحاولات التي قامت في القرن الرابع / والعاشر لإحياء الزراعة كانت ضئيلة ولم تكن متواصلة.

فضلاً عن ذلك، فقد كانت أموال كثيرة تُدفع معاشات للجند فيما كان الذين يقبضونها جنودًا مزيفين. فلما قضى ابن رائف على الجيش (٣٢٥ / ٩٣٦) وجد بين أفراده تجارًا ونساء وغير ذلك ـ الذين كانو يقبضون مرتبات من دون أن يقوموا بأي واجبات عسكرية أوحتى لم يكونوا جنودًا قط.

كانت المشكلة الرئيسة بالنسبة للخلافة تأمين المال اللازم لخزينة الدولة. وقد كانت ثمة سبل ثلاثة للحصول على المال، ولم يكن أي منها سليمًا بمعنى أنه يضمن الحصول على المال من دون أن يقع ظلم على الرعية. والسبيل الأول هو جمع الخراج جمعًا مباشرًا من المكلفين. لكن هذا الأمر كانت دونه صعوبات: أولاها قلة الموظفين من أصحاب الكفايات، وثانيتها أن المحصول قد يتأثر بعوامل الأمن المفقود (وكانت كثيرة وأهمها الغزوات القرمطية الكثيرة من عمان والبحرين)؛ أو إضطراب المناخ والطقس؛ أو تسرب جزء من الخراج المجموع في طرق غير مأمونة بالنسبة للإدارة المركزية. والسبيل الثاني كان تلزيم الضرائب، وهذا كان فيه غاية الظلم للرعية لأن الملتزم كان يجمع، وأحيانًا بالقسوة والشدة أضعاف ما كان يلتزم بدفعه للدولة، ومن ثم فقد كان ثمة لجوء إلى الإقطاع. ولم يكن هذاسبيلاً صحيحًا من الناحية المالية، لأنه أدى في نهاية المطاف، إلى تفتيت الأرضين، وتقليص الأجزاء المستغلة منها.

وإذا نحن نظرنا إلى الدولة العباسية حول أواسط القرن الرابع/ العاشر، لوجودنا أنها كانت تشكو من الأمور التالية:

أولاً: الحاجة الماسة والمستمرة إلى المال ـ إرضاء للجند وتقربًا من أصحاب النفوذ، وللإنفاق على القصر والحاشية.

ثانيًا: الخصومات الداخلية «المدنية» بين أصحاب المناصب ـ الوزراء والكتاب،

وهم أصحاب المنافع المتناقضة والضارة بالمصلحة العامة.

ثالثًا: هجمات القرامطة الكثيرة التي انتهت، مع ما سبقها من الحروب والثورات إلى إفقار الريف.

رابعًا: كانت الأهواز وفارس والموصل على حالة لا بأس بها من الصحة الاقتصادية والإنتاجية. لكن هذه كانت خارج نفوذ الإدارة المركزية المضطربة!.

خامسًا: الخلاف بين أصحاب النفوذ العسكري أضعف زراعة الأرضين في السواد. ولنذكر على ذلك مثلاً واحدًا: في السنة ٣٢٦ / ٩٣٧ أراد ابن رائق أن يحد من نشاط جيوش منافسه بجكم، فهدم قناة النهروان التي كانت تروي مساحة واسعة من أرض السواد؛ ومع أن ذلك لم يؤد إلى ما رمى إليه ابن رائق فإن الضرر استمر. وبعد أقل من أربع سنوات كان كل من ابن رائق وبَجّكَم قد توفي، وقد نسي الناس أسباب اقتتالهما، لكن عمل الأجيال الطويلة كان قد تهدم. ولم يفكر أحد بإعادة إعماره، وقد كان تهديم قناة النهروان واحدًا من العوامل الرئيسه، في تقسيم الدولة العباسية. فالمنطقة الفقيرة حول بغداد - من أرض السواد لم يكن باستطاعاتها أن تنهض بالعبء الحضاري الذي نهضت به لما كانت أرضُ السواد الخصبة تعطي عطاءَها الكامل أيام الرشيد وخلفائه (حتى ولو بعد الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون). فتخريب سنة ٣٢٦ / ٩٣٧ كان أمرَّ وأدهى حتى من تلك الحروب الأهلية.

إن الدولة العربية الإسلامية، على ما تبدو على الخارطة حوالى السنة ١٣٨ / ٧٥٦، أي بعيد قيام الدولة العباسية ببضع سنوات، كانت تشغل رقعة واسعة جدًا، امتدادها من الشرق إلى الغرب يكاد يبلغ ثمانية آلاف كيلومتر، أما امتداداتها شمالاً وجنوبًا فقد اختلفت باختلاف الأحوال الطبيعية للرقعة الأصلية وما يحيط بها. وهذه أمور قد لا يكون الدخول في تفاصيلها هنا مما يفيد كثيرًا. وإذا تذكرنا أن هذه الدولة الواسعة الكبيرة قامت في زمن كاد الاتصال فيه يتم عن طريق دواب النقل والحمل - من الجمل إلى الحصان إلى الحمار - أدركنا معنى المسافة التي كانت تفصل العاصمة (دمشق أو بغداد) عن مناطق الأندلس، في الجهة الواحدة، وعن مناطق حوض السند وما وراء النهر في الجهة المقابلة. فضلاً عن ذلك فإنه لم يكن في مستطاع الإدارة المركزية، عملياً، أن يكون لها جيش تديره من العاصمة. لذلك فقد كان من الطبيعي أن تكون الجيوش «المحلية» تحت إمرة قادة محليين تتأثر علاقتهم بالعاصمة - أي بالخليفة - بأمور مختلفة: جغرافية وعنصرية ودينية. ومن ثم فإن ائتمارهم بما يصدر من العاصمة من أوامر وتعلميات يتوقف على موقفهم أصلاً.

هذا من الناحية العامّة، فإذا وصلنا إلى الأشياء الفردية أو الخاصة التي يمكن أن تؤثر في هذه العلاقات، وجدنا طموح الولاة، خاصة عندما يكونون من زعماء المنطقة أصلاً، يتصدّر العوامل التي تؤدي الى تفكيك هذه العلاقات إو إضعافها

أصلاً. فابرهيم بنُ الأغلب يشعر أنه حريٌّ بأن يكون له في تونس دورٌ أكبر من دور الوالي. ويدرك هرون الرشيد ذلك، فيقبل بالواقع، ويرضى الاثنان، وتنعم تونس بعصر شبه ذهبي (دولة الأغالبة ١٨٤ـ ٢٩٦ / ٧٧٧ ـ ٩٠٧).

ويصل عبدُ الرحمن الداخل إلى الأندلس، وقد نجا من القتل الذي استحرّ بالأمويين عقيب خسارتهم الخلافة فيرى أن يقيم ملكًا في تلك الديار. ومن قال إن عبد الرحمن يمكن أن يتبع الخلافة العباسية، بل من قال إن الخليفة العباسي كان يأمل أن يدين له عبد الرحمن وخلفاؤه بالطاعة؟ (دولة الأندلس ١٣٨ ـ ٤٢٢ / ٧٥٦ ـ ١٠٣١).

وينفر الخوارج إلى شمال أفريقيا بحثًا عن مكان يعصمهم من الذين يخالفونهم في الرأي والعقيدة، ويقيمون دولتين هما دولة بني مدرار في سجلماسَة (١٤٠ ـ ٢٩٧ / ٧٥٧ ـ ٩٠٩) والدولة الرستمية (١٦٠ ـ ٢٩٦ / ٧٧٧ ـ ٩٠٩) في غرب الجزائر، ولم يكن من الممكن أن تنظر الخلافة العباسية بعين الود لهاتين الدولتين الأباضيتين، كما أن أحدًا لم يتصور أن تقبل هاتان الدولتان بسلطة بغداد. ومثل ذلك يقال عن دولة الأدارسة المغربية (١٧٢ـ ٣١٤ / ٧٨٩ ـ ٩٢٦).

كان مثل هذا الاستقلال الداخلي الإداري، كالذي تم مع الأغالبة في تونس، يحدث في المشرق البعيد عن مراكز الخلافة، وقد تدخل في هذه الحالات عوامل أخرى لعل من أهمها الفروق العنصرية التي كان سكان المناطق الإيرانية والهطلية والتركية يشعرون بوجودها بالنسبة لدولة، مهما قيل فيها، فإنها من أصل عربي. وقد تكون بقايا من الأديان القديمة ترسبت بين تلك الجموع، فأصبحت نظرتها للإسلام، على الأقل في العصور الأولى، يعوزها الوضوح. وإذن فارتباطها بالخلافة، على الأساس الديني فحسب، لم يكن له ما يبرره بعد.

على أن الأصل في جميع الانفصالات، وأكثرها كان داخليًا ذاتيًا مع الاعتراف بدولة الخلافة، وحتى مع إرسال بعض المال أحيانًا، هو الرغبة في الاستيلاء على الخيرات، مهما كان نوعها، والاستفادة منها. فالطاهريون (٢٠٥ ـ ٢٥٩ / ٨٢١ ـ ٨٧٣) والسّامانيون في بخارى (٢٠٤ ـ ٣٩٥ / ٨١٩ ـ ١٠٢٩) والصفّاريون في المشرق (٢٥٣ ـ ٤٢٠ / ٨٦٧ ـ ١٠٢٩)."ودولة خوارزم شاه (٣٨٥ ـ ٤٣٢ / ٩٩٥ ـ ١٠٤١)؛ جميع هذه الدول هي نماذج على الخروج عن طاعة الدولة العباسية، مع الاعتراف لها بالوجود، للأسباب التي ذكرت، مجتمعة أو منفردة، أو حتى لأسباب لعلنا لم نوردها هنا.

أما قلب هذه الدولة الذي يشمل العراق وبلاد الشام ومصر بشكل عام، فقد عرف الكثير من هذا. فدولة بني طولون، التي كانت أول دولة أظهرت مثل هذا الأمر، فقد استأثرت بمصر (٢٥٤ ـ ٢٩٢ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥). وقام بعد ذلك الإخشيديون (٣٢٣ ـ ٣٥٨ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩).

ونودّ أن نشير هنا إلى أمر مهم جدًا، وهو أن هذه الانقسامات السياسية لم تؤثر

إلا قليلاً في نفس المواطن الذي كان يقطن أيًا من أجزاء هذا العالم الواسع.

وقد كان يحدث أن ينفصل جزءٌ من هذه الرقعة الواسعة عن عاصمة الدولة ثم يجد من يعيده إليها، كما حدث لمصر في أيام بني طولون التي استعادتها الدولة العباسية إلى سلطتها. وكان يحدث أن تثور جماعة في بقعة من بقاع الدولة، كما حدث في ثورة الزنج، لكنَّ الدولة قضت عليها أخيرًا. ومثل ذلك يُقال بالنسبة للقرامطة، فيما يتعلق بأواسط البلاد أو قلبها.

لكن الذي حدث، بالنسبة للدولة العباسية، اعتبارًا من العقود الأولى من القرن الرابع/ العاشر، هو أن عملية التفتُّت والتقسيم سارت بطريقة لم تكن فيها رجعة على يد أهل الخلافة أنفسهم. وإذا أخذنا قيام بني بويه (٣٢٢ ـ ٤٤٧ / ٩٣٤ ـ ١٠٥٥) في أرض الدولة وفي عاصمتها مثلاً، فإن القضاء عليهم لم يقم به الخلفاء وإنما تمّ على يد جماعة غريبة أصلاً دخلت «حمى» الدولة العباسية المباح، فقضى السلاجقة الأتراك على البويهيين الديلم، وأنقذوا الخلافة من براثنهم. وهكذا دواليك.

وقد بدا وكأن كل جزء من أجزاء الخلافة في مناطقها الوسطى قد أصيب بحمى الإستقلال وإقامة دولة خاصة، سواء في ذلك الديلم الذين جاءوا وأنشأوا سلطنات البهويهيين، والعرب البدو الذين أقاموا لهم دويلات مثل المزياديين والعقيليين والمرداسيين، والجماعات الكردية التي تجمعت في دويلات المروانيين والروّاديين. ولم يكن ذلك في مصلحة الدولة أو المواطنين ولكن أصحاب المطامع وطلاب المنافع لا يرون المصلحة إلا ما يحقق مطامعهم ويؤدي إلى منفعتهم.

ولا شك في أن دولة بني بويه كانت الأوسع نفوذًا والأكبر أثرًا بين هذه الدويلات التي عرفتها الفترة التي نتحدث عنها. البويهيون أصلهم من منطقة الديلم، على سواحل بحر قزوين؛ وقد أخذ افرادٌ وجماعاتٌ من هذا الشعب ينتقلون جنوبًا بحيث استطاعوا أن يقيموا إمارة خرج منها فيما بعد الأخوة البويهيون الثلاثة الذين حكموا فارس وأحوازها وكرمان والجبال والعراق، على تفاوت في الزمن. وفي سنة ٣٣٤ / ٩٤٥ دخل أحمد، الذي كان يحكم كرمان وخوزستان، بغداد، وفي السنة التالية خلع الخليفة المستكفي وأقام مكانه المطيع. وكان ذلك بدء عهد امتد قرنًا وعقدًا من السنين كان بنو بويه فيه سادة المنطقة العراقية الفارسية من جهة الموصل شمالاً إلى كرمان جنوبًا. وقد تم لعَضد الدولة (٣٣٨ ـ ٣٧٢ / ٩٤٩ ـ ٩٨٣) أن يكون، في الفترة الأخيرة من حكمه، السيد المطاع في جميع المناطق التي كانت تحت حكم آل بويه.

كان بنو بويه يعتمدون على الجند المشاة من الديلميين، لكنهم أدخلوا الأتراك الفرسان في جيوشهم، الأمر الذي أدى إلى خصومة وقتال بين الفريقين في آخر الأمر. لكن الذي كان يضمن للأمراء السيطرة ـ ولو إلى حين ـ هو العصبية القبلية القويّة. ومع ذلك فإن أمراء بني بويه كانوا يختلفون فيما بينهم، وقد يقتتلون. فهناك

الرغبة العارمة عند بعضهم في أن تكون لهم الزعامة التامة كما كانت لعضد الدولة وهو مثال نادر منهم. وكان مما يطمع فيه كل منهم هو أن تكون بغداد مركز إقامته وتحت إمرته. فبغداد هي عاصمة الخلافة والسيطرة على شؤونها أمرٌ يحبه كل صاحب سلطة.

يمثل عضد الدولة الأمير البنّاء بين البويهيين. فقد كان لديه مخطط واسع لإعادة بناء بغداد ولإنعاش الزراعة عن طريق إحياء القني والترع التي كانت قد تهدمت بسبب الحروب المختلفة التي نشبت بين الفئات المتحاربة. ومما تم على يديه بناء المستشفى العضدي الكبير في العاصمة.

ثمة أمور يجب أن نذكرها جاءت نتيجة لحكم آل بويه، فقد كانت ثمة مشكلة المدينة كمدينة، إذ ان تنقل الشعوب وانعدام نظم المدينة الإدارية والاقتتال المستمر كان يؤدي إلى تعطل التجارة وتأخر الصناعة. وفيما كان أصحاب الحل والعقد يودون الحصول على الضرائب اللازمة، كانت المدينة التي ضعفت تجارتها، تعجز عن ذلك. ومما بمكن قوله هو أن الأغنياء من سكان المدن في تلك الفترة لم يكونوا من طبقة التجار، حسب المألوف، بل كانوا من موظفي الدولة وكبارهم بشكل خاص. وهذه جماعة تحب الحصول على المال، وقد تنجح في ذلك، لكنها لا تعمل في سبيله.

على أن الأمر الذي اتخذ منحى خاصًا في أيام بني بويه هو تبلور الكثير من الآراء الشيعية والسنية. كان البويهيون من الشيعة، لكنهم لم يحاولوا القضاء على الخلافة العباسية السنية. لقد حاولوا الحصول على مكانة متميزة داخل النظام القائم. لكن الخلاف بين الفئتين كان يبرز كثيرًا، وكان الخلاف أحيانًا مسلحًا. لكن أهم من الخلاف والخلاف المسلح هو أن المذهب الجعفري (الاثني عشري) اتضحت معالمه الدينية والاجتماعية في العهد البويهي.

ولما كان الخلفاء العباسيّون يخضعون للنفوذ والسلطة البويهيَّين فقد كان الموقف الشيعي هو المتميز والظاهر. لكن أيام الخليفة القادر (٣٨١ ـ ٤٢٢ / ٩٩١ ـ ١٠١٢) تبدلت الامور بشكل واضح، فقد تحرر الخليفة من نفوذ الأمير البويهي لما انتقل هذا (بهاء الدولة ٣٧٩ ـ ٤٠٣ / ٩٨٩ـ ١٠١٢) إلى شيراز، فشعر الخليفة بأنه أصبح حرًا إلى درجة كبيرة. فكان أن ندد بدور المعتزلة وبآرائهم. ثم اتخذ خطوات مهمّة هي التي شملتها الرسالة القادرية (٤٢٠ / ١٠٢٩): إذ ان القول بخلق القرآن رفض نهائيًا، وتقرر تكريم الخلفاء الراشدين الأربعة، ورُسمَت حدود المذهب السني بشكل واضح." عندها إعتبر الخليفة هو المعبّر عن السنّة بكل ما تحويه من حدود وتفسير.

وكان مما شجع الخليفة القادر على السير قدمًا في عمله هو موقف محمود الغزنوي، صاحب غزنة، الواقعة في الجزء الشرقي من الخلافة. فقد كان سنيًا، وكان خصمًا للشيعة ، وكان قويًا. وقد احتل جزءًا من أملاك البويهيين الذي كانت الري

عاصمته (٤٢٠ / ١٠٢٩) وضمه إلى ملكه.

ويمكن القول، من دون الدخول في التفاصيل، إن الشيعة الاثني عشرية (الجعفرية) اعتقدوا باختفاء الإمام الرضا سنة ٢٥٩ / ٨٧٣ . وقد كان هؤلاء قد قبلوا مذهب الإمام جعفر الصادق بأن الإمامة ضرورة للمجتمع الإسلامي، لأن الإمام هو الذي يرشد المؤمنين، ويمكنه أن يقوم بذلك من دون أن يتولى السلطة، أي من دون أن يكون خليفة. وبذلك فُصلت الإمامة عن الخلافة؛ إلا لمن طالب بهذه.

أما المذهب السنّي، كما وضع في أيام القادر، فقد كان يرى أنه لا بد من أن تكون إمرة المؤمنين، أي الخلافة والإمامة لشخص واحد هو رأس الدولة الإسلامية. إذ لا يجوز الفصل بين الخلافة (إمرة المؤمنين) والإمامة أبدًا.

انتهت الدويلات البويهية في أوقات مختلفة. فقد قضي على دويلة الري (٤٢٠ / ١٠٢٩) وانتهى أمر دويلة فارس (٤٥٤ / ١٠٦٢)، وقضي على كرمان (٤٤٠ / ١٠٤٨).

أما الفرع العراقي من الدولة البويهية، وهو الأهم ولو أنه لم يكن الأغنى أو الأقوى، فقد بقي إلى أن احتل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥ . فكان ذلك إيذانًا بعصر جديد ونظام جديد وفلسفة جديدة. وكانت جميعها تقوم على وحدة الهدف ووحدة الصف ووحدة الإدارة. فالسلاجقة كانوا سنيين، وكانوا يرون أن الدولة يجب أن تحكم على هذا الأساس.

فيما كان البويهيون يشغلون الفترة الممتدة من ٣٢٢ إلى ٤٤٧ (٩٣٤ ـ ١٠٥٥) ويقيمون لهم دولاً في المنطقة الواقعة بين كرمان والري والجبال والعراق (الجنوبي)، ويختصمون فيما بينهم ويتفقون أمام العدو الخارجي، كانت المناطق الواقعة إلى الشمال والغرب من مسرح العمل البويهي تمر بتجارب مشابهة. فقد قامت فيها دول ودويلات وإمارات وعقدت تحالفات ونشأت خصومات متنوعة، بحيث أن الغوص في شؤونها لا تحمد عقباه. وعلى كل فليس ثمة رغبة أو حاجة لمثل هذه المغامرة في هذه المقدمة، وكل ما نريد أن نفعله هو أن نضع أسماء هذه الدويلات، أو الكبرى منها على الأقل، على الخارطة السياسية إذ ان ذلك سيعيننا على تتبع الطرق التجارية في الأزقة الكبرى و«الزواريب» الصغرى، والدور الذي قامت به هذه الدويلات معاونةً للتجارة والتجار أو إعاقة للأمرين.

بعد نحو ثلاثين سنة من القضاء على دولة بني طولون في مصر وإعادة البلد إلى سلطة بغداد، قامت فيها أسرة جديدة، هي أسرة الأخشيديين (٣٢٣ ـ ٣٥٨ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩). وبقطع النظر عن التفاصيل فقد كانت هذه الدولة صورة عن الدولة السابقة. وكانت هذه مثل تلك، تحاول الاستيلاء على أكبر جزء من بلاد الشام رغبة في السيطرة على أرض خصبة وملتقى طرق مهم. ولكن لما قضي على دولة الأخشيديين لم تَعد مصر إلى سلطة بغداد، وإنما وقعت مصر بأكملها، وبعض بلاد الشام أيضًا، تحت

سلطة الفاطميين، الذين احتلوا مصر سنة ٣٥٨ / ٩٦٩، بعد أن كانت دولتهم قد قامت في شمال أفريقيا (٢٩٧ ـ ٥٦٧ / ٩٠٩ ــ ١١٧١). وسنعود إلى الفاطميين فيما بعد، عندما نبحث في التجارة الشامية مع الشمال الأفريقي.

كانت ثمة قبائل كردية تشغل المنطقة الممتدة من جنوب فارس عبر جبال زغروس إلى أذربيجان شمالاً، كما أنه كان للأكراد نفوذ قوي في جنوب شرق الأناضول وحتى في بعض مرتفعات سورية الشمالية، وقد كان هؤلاء رعاة يربون الأغنام ويتنقلون مع قطعانهم إلى مرتفعات زغروس صيفًا، كما أنهم كانوا يقودونها إلى سهل العراق الشرقية شتاء. ومع أن عددًا من الأكراد استقر في مدن مثل شهرزُور والبعض الآخر استوطن القرى، فإن الأكثرية من الشعب الكردي ظلت تعيش بدويًا وكانوا متوزعين قبائل وكان الزعماء يبنون قلاعًا محصّنة في المناطق الجبلية، بحيث تعصمهم من الأخطار.

وقد ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع / العاشر دويلات كردية مثل تلك التي أنشأها حسنويه (بن الحسين) والعنَّزية في أواسط جبال زغروس، ومنها الروّاديون والشدّادون في أذربيجان والمروانيون في جنوب شرق الأناضول. وكانت هذه الدويلات تشرف من مواقعها على الطرق التجارية.

لم تعمر هذه الدويلات طويلاً، فهي مثل جميع الدول البدوية النشأة، تعتمد على رجل قوي ينشىء الدويلة؛ فإذا كان حظ هذه قويًا جاء جيل ثانٍ يقوم بالأمر، ثم تنتهي الدويلة؛ فحسنُويه (بن الحسين) بدأ تنظيم أموره سنة ٣٥٠ / ٩٦١ بالتحالف مع بني بويه (في الري) ثم استعمل قوته ورجاله في وضع يده على المناطق الزراعية المجاورة لهمدان وفرض جعالات على السكان لقاء حمايته، وقد ظل حتى سنة وفاته ٣٦٠ / ٩٧٠ صاحب اليد العليا في المنطقة. لكن أولاده اختلفوا فيما بينهم، وكان أن دالت دولتهم ولو أنها استمرت حتى ٣٩٢ / ١٠٠٢ .

وكان الذين زاحموا بني حسنويه هم العنّزيون الذين اتخذوا من حلوان مركزًا لهم، وحالفوا بهاء الدولة البويهي في بغداد (حكم منها بدءًا من ٣٧٩ / ٩٨٩ وحتى ٤٠٣ / ١٠١٢).

وقد قامت للأكراد دولة في ديار بكر (جنوب شرق الأناضول)، أنشأها زعيم كرديٌّ يدعى باذ، إذ استولى على عدد من القلاع الواقعة على الحدود الأرمنية ـ الكردية. وقد كان أكبر رجالهم ابن مروان الملقب نصر الدولة (٤٠١ ـ ٤٥٣ / ١٠١١ ـ ١٠٦١) الذي جعل من هذه الدويلة شيئا قويًا وغنيًا، وكان سياسيًا بارعًا محنكًا فاستطاع أن يربح الأصدقاء ويتجنب الخصوم، مثل بين عُقيل، ولو عن طريق دفع الأتاوة لهم. وقد تقدمت مدن آمد ومَيَافارقين وحصن كينا عمرانًا وثقافة. وبوفاته دب الضعف والخلاف، وجاء السلاجقة فقضوا على هذه الإمارة كما قضوا على غيرها،

مثل الدولة الرَّاوادِيّة (٩٠٤٣٤٠-٤٦٣ / ٩٥١٩ - ١٠٧١) في أذربيجان والدولة الشّدادية (٩٠٤٣٤٠ - ٥٧١ / ٩٥١٩ - ١١٧٤) التي قامت في أرَّان وأرمينية الشرقية.

(٣)

كان للقبائل العربية دويلات وإمارات . وتأتي في طليعة هذه الدويلات الدولة الحمدانية (٢٩٣ - ٣٩٤ / ٩٠٥ - ١٠٠٤) التي كان لها رأسان: الواحد في الموصل (٢٩٣ - ٣٨٩ / ٩٠٥ - ٩٩١) والثاني كان في حلب (٣٣٣ - ٣٩٤ / ٩٤٥ - ١٠٠٤). وقد كان على البيتين أن يقارعا البزنطيين الذين كانوا قد استعادوا نشاطهم العسكري وقاموا بحملات عنيفة في سبيل استرداد ما كانوا قد خسروا أمام العرب.

كان الحمدانيون عربًا من القبائل البدوية التي استقرت في الجزيرة الفراتية من قبل، وقد اعتمد حكامهم وخاصة الحلبيين منهم، على جيوش من الغلمان، على نحو ما فعل البويهيون (والفاطميون فيما بعد). لكن الغلمان كانوا يحتاجون الى نفقات كبيرة، وهذا لم يتيسر إلا في أيام سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ / ٩٤٥ - ٩٦٧). لذلك فقد تخلى خليفته عن هذه الفئات المقاتلة وعاد الى الاعتماد على المقاتلين البدو العرب.

ومع أن الدولة الحمدانية كانت تقوم في منطقة خصبة غنية، والتي تمر بها طرق تجارية، فإنها لم تستطع أن تفيد من ذلك بما فيه الكفاية. على أن بلاط سيف الدولة كان موئل أهل العلم والأدب والشعر. وقد حفظ المتنبي وأبو فراس للأمراء الحمدانيين صورًا للبطولة والشجاعة أكسبتهم مكانة خاصة في الأدب والتاريخ.

ومن القبائل العربية القديمة العهد في المنطقة بنو أسد الذين كانوا يقيمون في المنطقة الواقعة غربي الكوفة، وبنو كلب الذين استوطنوا نواحي دمشق؛ وقد انضم إلى هؤلاء، في مطلع العصر العباسي، العقيليون والمراسيون والنميريون (في جهات حرجان) وطي (الذين أقاموا في فلسطين). وقد قامت لعدد من هذه القبائل إمارات، كانت تظهر وتقوى عندما يُشغَل الأقوياء بمنازعاتهم، فإذا فرغوا منها وظلت عندهم قوة ونشاط انقضّوا على هذه الإمارات وابتلعوها. إلا أن بعض هذه الإمارات استمر حتى الفتح السلجوقي للبلاد. وأهم هذه الإمارات بنو عقيل (٣٨٠ - ٤٨٩ / ٩٩٠ - ١٠٩٦). وكانت ديار هذه الدويلة تشمل، على تفاوت بسيط في السنين، الجزيرة والعراق وشمال بلاد الشام. وهناك المرداسيون (٤١٤ - ٤٧٤ / ١٠٢٣ - ١٠٧٩) الذين اتخذوا حلب عاصمة لهم، وأقاموا حكمًا منتظمًا في شمال بلاد الشام.

وقد أنشأ علي بن مزيد دولة في ربوع الحلة (العراق) سنة ٣٥٠(؟) ٩٦١ دامت حتى احتلها السلاجقة ٥٤٥ / ١١٥٠ . هذه الدولة استطاع حكامها أن ينظموا شؤونهم وأن يلجأوا إلى الدبلوماسية كي يتحاشوا الضغوط البويهية وغيرها. وقد كان بلاط دُبيس (الثاني) بن صدقة الملقب نور الدولة،محط رحال الشعراء العرب.

كانت ثمّة إمارات أو مشيخات لم يقم أصحابها دويلة بالمعنى العادي. وأبرز هذه الإمارات هي إمارة بين نمير التي كانت تقوم بين بني عُقيل شرقًا وبني كلاب غربًا، واستمر لأمرائها نفوذ في حرّان والرُّها (إدسا) إلى أن احتل البيزنطيون المنطقة ٤٢٢ / ١٠٣١ . أما بنو كلاب فإنهم لم يقيموا لهم سلطة أو نفوذًا في مناطق الشام حيث كانوا ينتشرون بأعداد كبيرة. لكن بني الجراح، أمراء طي، تمكنوا من احتلال الرملة عدة مرات لكنهم لم يكن لهم وجود رسمي بمعنى حكومة وعاصمة مستقرة. إلا أنهم استطاعوا أن يحالفوا الأقوياء الأقرباء ويخالفوا الأمراء الأبعدين، فكان لهم ثمة نفوذ متقلقل، مثل جميع البدو.

كانت القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة وفي المناطق الداخلية من بلاد الشام المادّة الأساسية للجيوش في أيام الفتوح وعصر الأمويين. ولكن قيام الدولة العباسية، التي اعتمدت الخراسانية، سُكانًا وعنصرًا، أضعف دور القبائل الأخرى. ومع ذلك فقد ظل لهؤلاء العرب بعض الأعمال العسكرية يقومون بها إلى أن انكسر الأمين (١٩٨ / ٨١٣)، فحرموا حتى من هذه البقية. ولما جاء المعتصم وأقام حوله جيشه الخاص وإدارته البيروقراطية ومنع الأرزاق (العطاء) عن أولئك العرب (وهم أحفاد رجال الفتوح)، ضاقت بهم سبل الرزق. عندها أخذ هؤلاء الأعراب يحاولون الحصول على حاجاتهم المالية (لتأمين العيش) بالضغط على السكان المستقرين في المدن والريف، لا في بلاد الشام والعراق فحسب، ولكن في الحجاز أيضًا. والجيش الذي أرسله الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ / ٨٤٢ ـ ٨٤٧) إلى الحجاز نجح في تهدئة الوضع موقتًا، لكن أسباب التذمر من العوز لم تزل. وعلى سبيل المثال فإن بني عُقيل قطعوا سنة ٢٥١ / ٨٦٥ الطريق بين مكة المكرمة. وجدة وفي سنة ٢٨٥ / ٨٩٨ نهب ينو طي قافلة الحجاج لما اجتازت مناطق نفوذهم.

في هذه الأثناء،والعرب البدو في شمال شبه الجزيرة والبادية السورية والصحاري العراقية في غليان بسبب الحاجة إلى موارد رزق، جاءتهم الدعوة القرمطية. ذلك بأن حمدان قرمط أخذ يدعو الشعب في سواد الكوفة حتى قبيل ٢٦٠ / ٨٧٣) إلى اعتناق الإسماعيلية. يبدو أن الدعوة في الأصل كان المقصود منها نشر التعاليم الإسماعيليه؛ لكن هذه معناه أن الذين يقبلون الدعوة يجب أن يدفعوا النفقات اللازمة لسير العمل؛ ثم يتطور الأمر بحيث يصبح هؤلاء الأتباع، إذا كانوا يخالفون وجهة النظر الرسمية للدولة ـ وقد كانوا كذلك ـ بحاجة إلى حماية. وعندها يقيم الداعي ـ وفي هذه الحالة كان حمدان قرمط ـ جيشًا أو على الأقل قوة عسكرية للدفاع عن الأتباع، وهذا ينتهي إلى أمرين: الأول، زيادة ما يجب أن يجمع من الأتباع أو البحث عن مصدر آخر للحصول على المال ، والثاني، أن هذه القوة العسكرية لا بدَّ من استعمالها. وحدث أن هذه الدعوة ونجاحها في السواد جاء في أيام الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ / ٨٩٢ ـ

٩٠٢) المعروف بشدته وقسوته عند الحاجة، فلم يُتح لها نجاح عسكري كما توقع دعاتها. لكن خلافًا دبَّ بين الزعماء أنفسهم أدى إلى تضعضع مواقع الحركة بالذات، فاختفى حمدان من الميدان ولم يعد للقرامطة في السواد نفوذٌ.

إلا أن الحركة أتجهت إلى مناطق أخرى؛ فكان الهدف الأول العرب المقيمين إلى الغرب من الكوفة والذين كانوا يتحكمون، إلى درجة كبيرة، بالطريق التجاري إلى تدمر ودمشق. وكان بنو كليب هم مقدمو العرب هناك. كان أحد دعاة القرامطة في السواد واسمه ذكرويّه (وقد ورد أيضا على هذه الصورة زِكرَوَيْة) قد بعث بابنه الحسين إلى هؤلاء البدو،ثم ألحقه بأخيه يحيي. وقد نجحت الدعوة وانضم إلى الأخوين عددٌ لا يستهان به من الأتباع، وقد أطمع هذا الأخوين فهاجما دمشق (٢٦٠ / ٩٠٣)، لكن قائد جيش الأخشيد المصري صدّهما، وقُتل يحيى. وعاث القرامطة فسادًا في شمال سورية بقيادة الحسين، ولقي أهل حماة وحمص ومعرة النعمان وبعلبك منهم الأمرين. وفي هذه الأثناء استولوا على سلمية (التي كان عبيد الله الفاطمي قد هجرها وانتقل إلى شمال أفريقيا حيث دولة الفاطميين ٢٩٧ / ٩٠٩).

إلا أن القرامطة لقوا عقوبة شديدة على هذا التصرف، إذ بعثت بغداد) (أيام الخليفة المكتفي ٢٨٩ ـ ٢٩٥ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨) جيشًا قويًا أوقع بهم خسارة فادحة في معركة دارت بين القوتين شرقي حماة / ٢٩١ / ٩٠٤) وقتل الحسين. لكن ذلك لم يفتّ في عَضد القرامطة فهاجموا حوران وطبرية وأوقعوا بالسكان خسائر فادحة، وجربوا حتى مهاجمة دمشق (٢٩٣ / ٩٠٦)؛ وفي السنة ذاتها خرج ذكرويه من مخبأه الواقع على مقربة من الكوفة وقاد جنوده، وقد قتل في السنة التالية (٢٩٤ / ٩٠٧) فيما كان يهاجم قافلة الحجاج. وبموته انتهى دور الحركة القرمطية الفعال في بادية الشام.

كان هدف الحركة وأتباعها الحصول على هبات أو مغانم. وقد كانت نتيجة هذا العمل القصير الأمد تعكير الأجواء الاجتماعية والاقتصادية بالنسبة لسكان المدن والريف.

لكن ضعف الحركة القرمطية في السواد وفي البادية الشامية قابله نجاحها الكبير في الأحساء. فقد أقامت لها هناك دولة أنشأها أبو سعيد الجنابي (٢٨١ / ٨٩٤)، بعد أن كسب أعدادًا كبيرة من سكان المنطقة الذين كانوا يسيطرون، بحكم موقع البلاد، على التجارة من الخليج العربي إلى العراق، وقد كان النجاح البدوي بين بني كلاب وبني عقيل. وقد دامت دولة القرامطة في تلك المنطقة، مع التوسع إلى عُمان إلى سنة ٣٦٦ / ٩٧٧)، وبعد ذلك تسلم أمر الدولة مجلس من السادة (أي كبار القوم). (ويعرف أيضًا باسم العقدانيّة). كانت حجر العاصمة ثم نقلت إلى الحسا (الأحساء).

كانت الدولة شوكة في جانب البصرة،لكن بغداد سارت أول الأمر مع الدولة

الجديدة بدبلوماسية حفظت السلم. لكن الأمر تبدل (سنة ٣١١ / ٩٢٣) لما تولى الوزارة العباسية ابن الفرات، وقد كانت هذه الحرب السجال ضارة بالبلاد والعباد بالنسبة إلى العراق عامة.

وكان للقرامطة هؤلاء حملات على بلاد العرب وسورية ومصر، وذلك بعد أن انتقل الفاطميون إلي مصر واحتلوها، إلى أن كسر الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦ / ٩٧٥ ـ ٩٦٦) القرامطة وأجبرهم على الانكفاء إلى الاحساء نهائيًا (٣٦٨ / ٩٧٨).

وحري بالذكر أن قرامطة الخليج هؤلاء استولوا على مكة المكرمة سنة ٣١٧ / ٩٣٠ وحملوا معهم الحجر الأسود واحتفظوا به نيفًا وعشرين سنة إلى أن أعادوه سنة ٣٣٩ / ٩٥١ .

(٥)

قد يكون من المناسب أن نتوقف هنا لحظة لنفكر في هذا الذي أصاب دولة الخلافة في هذه الفترة التي تحدثنا عنها (٣٢٢ ـ ٤٤٧ / ٩٣٤ ـ ١٠٥٥). وهنا تبرز أمامنا بضعة تساؤلات تتطلب أجوبة عنها. ولعل السؤال الأول هو لماذا حدث هذا الانقسام أو التقسيم أو الانشطار أو التشطر في هذه الدولة؟ والسؤال الثاني هو ما الفرق عقائديًا وعمليًا ـ بين دولة الخلافة والدويلات التي قامت في ظلالها؟ وثمة سؤال ثالث يتعلق بدور الجند في هذا الذي حدث. وأخيرًا، فما هو مركز الإسلام بالنسبة لدولة الخلافة والدويلات التي قامت في أرضها وللمجتمع الذي ظل يعيش في حدود الدولة الكبرى الأصلية.؟

يجب أن نلاحظ قبل كل شيء الأمور التالية:

أولاً: إن الدول والدويلات التي قامت كانت، من حيث عناصرها الحاكمة، متنوعة. فهناك الفرس والترك والأكراد والعرب. أما من حيث طبيعتها فهناك الدويلة المستقرة التي تعتمد على الزراعة، والدويلة البدوية ـ عربية كانت أم كردية ـ التي ظلت، وإن استقرت نظريًا في عاصمة لفترة ما، يربط أمراءها وأفرادها عادات وتقاليد بدوية.

ثانيًا: تنوعت وجهات النظر الدينية في هذه الدويلات، فهناك دويلات سنية، وثمة دويلات شيعية، وعندنا دويلات خارجية ـ إباضية، وأخيرًا قامت دولة اسماعلية (الفاطميون). لكن حتى بعض المؤسسات البدوية كانت لها نزعة اسماعيلية (القرامطة).

ثالثاً: حريٌ بنا أن نتذكر أنه في القرنين الرابع والخامس / العاشر والحادي عشر كان الاسلام قد أصبح دين الأكثرية من سكان دولة الخلافة.

رابعًا: إن السواد، وهو الجزء الخصب الغني المنتج من بلاد العراق، قد دُمرت تُرعه وموارده الزراعية. وقد أدى ذلك الى تدهور العراق اقتصاديًا، فأصبحت دولة

الخلافة فارغة المركز. وبذلك أصاب البلاد مرض هو هجرة المواطنين القادرين والنابهين إلى مناطق أخرى مثل مصر وإيران، وحل محل النخبة الأصلية جماعات من أكراد زغروس، وديلم ساحل بحر قزوين الجنوبي، وبربر أفريقيا

ولنعد الى الأسئلة. والذي نراه هو أن رقعة دولة الخلافة المتسعة والمتنوعة سطحًا وتضاريس، كانت أحد العوامل الرئيسة في هذا «التقسّم» الذي أصابها. فقد كان من الطبيعي أن يشعر أبرهيم بن الأغلب، وهو الذي يتحكم بشؤون تونس، أنه أولى بإدارة الرقعة التي يحكمها من الخليفة وأقدر. لذلك فهو يطلب حريّة التصرف، لكن في إطار دولة الخلافة. أما الثمن الذي يدفعه ابن الاغلب وخلفاؤه لقاء هذه الحرية فتقرره الظروف والأحوال. ولكن التقسم ازداد لما ضعفت السلطة المركزية واعتمدت وزراء وكتابًا وأمراء جيوش مع إطلاق أيديهم. كان من الطبيعي عندها ـ وهو الذي حدث في العصر البويهي ـ أن يطمع لا حكام الأطراف فحسب، بل حتى بعض القريبين من العراق، في أن تكون لهم سلطة ذاتية، وأعانهم على ذلك اعتمادهم على المرتزقة من الجند (إذ لم يكن جميع الجند رقيقًا) التركي والفارسي والمحلي؛ سواء في ذلك أتراك المعتصم أو غلمان الحمدانيين والبويهيين والفاطميين.

ولننتقل إلى السؤال الثاني: ما الفرق ـ عقائديًا وعمليًا ـ بين دولة الخلافة والدويلات الناشئة في ظلالها؟ شُغل الأمويون بالفتوح والإدارة وبعض الحروب الأهلية، وكانت فترتهم قصيرة، لذلك لعلهم تركوا جانبًا العلاقة العضوية التامة بين الدولة والإسلام. أما العباسيون فقد قامت دولتهم وهي تعتنق الإسلام أساسًا. لذلك فإن حكّامها كانوا يحاولون خلق بناء حكومة خلقية ضمن تعاليم الإسلام. لم يكن همهم أن تكون دولتهم إسلامية اسمًا، بل إسلامية بمعنى الكلمة الكامل. وقد كانت هذه المحاولة الجادة إلى درجة كبيرة يعلق عليها العباسيون حكامًا ـ وخصومهم العلويون ـ ثوارًا ودعاة حق أهمية كبرى. ولكن يبدو أن كل ما تم ، حتى نهاية القرن الخامس/ الحادي عشر هو التوصل إلى القواعد الأساسية الدينية (الإسلامية) التي يجب أن تسير الدولة عليها، لكن الحكم لم يسر عليها، مع أنه قبلها. ولنذكر هنا أن الدولة الفاطمية كانت تعنى بهذه الناحية عناية كبيرة.

لكنَ حكام الدويلات لم يعنوا بذلك، أي انهم لم يكونوا يهتمون بأن يؤسسوا حكمهم على مثل هذه القواعد. لعلهم أدركوا أن إقامة مثل هذه الدولة لم تنجح، ولذلك فقد قبلوا بأن يكون الإسلام ـ بشرعه وتفسيره وفقهه ـ هو الذي يقبله الناس، وتسير عليه الأحكام . فكانوا ينظرون الى «الدولة» ـ دولتهم ـ على أنها أداة لحفظ النظام بحيث تتمكن أجهزتها ـ على تنوعها ـ من جمع الضرائب والمكوس التي فرضتها على السكان ـ مباشرة أو تلزيمًا أو إقطاعًا. وكل اسلوب يحتاج إلى ما يمكنه من القيام بعمله.

أما دور الجند في هذا التقسم الذي اعترى دولة الخلافة فقد كان كبيرًا. في سنة ٣٢٥ / ٩٦٣ قُضي على الجيش العباسي المرتبط بالخلافة . وقد كان قوامه عنصر الأتراك، وهنا دخل الغلمان (وهم مرتزقة تمامًا) الذين كانوا يقاتلون فرقًا صغيرة في أعدادها (لم تكن تتجاوز الفرقة الواحدة بضع مئات) ومتعددة في أصولها، وإن كان الغالب على قادتها أن يكونوا أتراكًا. هذه الفرق كانت تدين بالولاء لزعمائها وقادتها لا للسلطان. فعندما تفقد مكانتها في دويلة، عندما يفقد السلطان حكمه ، فإنها كانت تتبع الزعيم ـ القائد حيث يذهب ، إبتغاء الرزق والعيش. ولنذكر، على سبيل المثال، أن ألبتكين، الذي كان تحت إمرته نحو ثلاثمائة غلام، لما وجد أنه لم يعد له خبزٌ في بغداد (٣٦٤ / ٩٧٥) قاد جماعته إلى مراع على مقربة من دمشق، ثم التحق بالبلاط الفاطمي في القاهرة.

ومع أن بعض فرق الجند لم تكن من الغلمان، فان موقف هذه الفرق من الدولة أو الدويلة لم يكن يختلف، فهؤلاء الجند كانوا يلتحقون (مع قائدهم وبإشرافه) بصاحب الكيس الكبير (كيس النقود).

أشرنا إلى العلاقة التي أراد حكام دولة الخلافة أن يقيموا صلتهم بالإسلام عليها، ولم يتم لهم ذلك ، والدويلة لم تعن بذلك مبدئيا. ولكن ماذا كان موقف الناس في بقاعهم المتباعدة والمتنوعة نحو الإسلام ؟ الناس قبلوا الإسلام عقيدة وعبادة ومعاملات، ولعل هذه جميعها كانت بحاجة إلى مؤسسات ومنظمات تشرف على تطبيقها. ولكن الذي دخل في تفكير المسلمين هو أن الإسلام كان هُويَّتَهم. ومن ثم فإن المسلم ،بقطع النظر عن موطنه، كان يشعر أن هذه الرقعة الواسعة هيَ وطنه وأن هؤلاء المسلمين هم أهله، وأن الدولة، جيث كانت وكيفما حكمت، إنما هي «رمز» للإسلام. وليختلف الحكام فيما بينهم، فالمهم أن يحفظوا الأمن ـ إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ـ كي يستمر المواطن في القيام بعمله فلاحًا أو صانعًا أو تاجرًا أو شيخًا أو معلمًا؛ وكي يستطيع تأمين العيش له ولأسرته؛ وكي يتمكن من السفر والتنقل إما لأداء فريضة الحج، أو طلب العلم، أو للتجارة.

وبدا واضحًا لهم عمليًا، ولنا تاريخيًا، أن الحكومة المركزية لم تكن حاجة لا بد منها، وأن الدويلة تستطيع أن تسيِّر الأمور بل وإن الدويلات (الإمارات) البدوية التي لم تكن لها حدود معروفة، كانت تحافظ على الطرق وتؤمن التنقل والسفر وتحول، في أحيان كثيرة، دون النهب والسلب.

فقدت دولة الخلافة العاصمة الكبرى التي كان يتم فيها كل شيء ويتخذ فيها كل قرار، ويصدر عنها كل أمر، ويتشوق الناس للذهاب إليها. ثم ـ إن أمكن ـ العيش فيها، لأنها المدينة الكبرى. ظلت لبغداد أهميتها وظل لها اسمها الكبير وبهاؤها. لكن الفترة التي نتحدث عنها كان فيها عشرات من المدن ـ العواصم للدويلات الكثيرة التي كانت

تنتشر (مع الزمن) من مراكش في أقصى المغرب إلى نيسابور وفرعانه وسمرقند وبخارى وهراة في أقصى الشرق، وكل منها مرَّ بها وقت كانت فيه عاصمة ومدينة علم وسوقًا كبيرة ومعرض أبنية ومتحف فنون، وهذا هو الذي جعل القرن الرابع / العشر والنصف الأول من القرن الخامس / الحادي عشر فترة نضج الحضارة العربية الإسلامية في جميع نواحيها الشرعية والنفعية والفكرية البحتة. ولسنا هنا في معرض ذكر الأسماء الكبيرة ولو على سبيل التمثيل؛ فهذا يترك لحينه (وليس في هذا البحث).

وكانت اللغة العربية قد انتشرت في ربوع دولة الخلافة لغة الإدارة والتشريع والعلم والطب والفلسفة والأدب. كانت قد أصبحت لغة البلاط والنخبة والمتعلمين، ولغة التخاطب في جزء كبير من رقعة الدولة. صحيح أن لغات أخرى ظلت تستعمل عند فئات دينية كانت منتشرة في إطار دولة الخلافة، كما ظلت لغات أخرى، مثل لغات البربر في الشمال الأفريقي، تستعمل في رقعة واسعة، لكن المهم هو أن اللغة التي اعتمدتها المؤسسات والمنظمات والإدارة ودور العلم والمستشفيات والمراصد ودور الحكمة، كانت اللغة العربية: بها كتبت نظريات العلم وآراء الفلاسفة وكتب التفسير والأحاديث، وبها نُظمت القصائد ومُدح أؤلو الأمر، وبها كتبت قصص الأبطال وروايات الصعاليك.

هكذا بانتشار الإسلام واللغة العربية، نشأت هذه الحضارة المتفتحة المبتكرة النشيطة الديناميكية العالمية النظرة. وهي التي عرفتها بلاد دولة الخلافة، مجتمعة أولاً ومقسمة فيما بعد؛ فكانت سمة سكان هذه الدولة وهُيوتهم تقوم على أساسين : الإسلام والثقافة العربية، والتفريق بينهما لم يكن متيسرًا حتى أواسط القرن الخامس / الحادي عشر.

أما بعد ذلك فقد تبدل الأمر، ولكن فترة التبدل هذه لا تدخل في نطاق بحثنا الآن.

الأسواق الإسلامية

الأسواق، بما يعرض فيها من سلع، وبمن يؤمها من متاجرين، تصف الدرجة التي وصلت اليها التجارة خاصة والحياة الاقتصادية عامة. فإذا رافق الاتجار لون من ألوان الأدب، واحتفال بالمواسم الدينية، كانت الأسواق، صورة للحياة العقلية والاجتماعية كذلك، وكلما تعددت الأسواق وإزداد ما يعرض فيها وكثر التبادل فيها، دل ذلك على وجود النشاط في حياة الجماعات. وركود الأسواق على العكس من ذلك دليل على اضطراب شؤون المعاش والأحوال المالية وغيرها في الدولة.

وإذا عرضنا الأمم والشعوب وجدنا أن البدوي منها له أسواق موسمية تقام في أماكن معينة، مرة في السنة أو الفصل أو الشهر أو الأسبوع. والسنوي أو الفصلي منها أعم وأشيع لارتباطه بالإنتاج الزراعي والحيواني . أما الجماعات الحضرية فتغلب عليها الأسواق الثابتة، لأن لكل مدينة أسواقها تباع فيها مصنوعاتها وغلاتها وتحمل اليها ما تحتاج إليه مما تنتجه البلاد الأخرى.

كان العرب في الجاهلية تغلب على تجارتهم الأسواق الموسمية، وكانت تقوم في ملتقى الطرق التجارية الكبرى فيفد إليها الناس من أطراف الجزيرة مثل عكاظ ودومة الجندل، وقد يأتيها قوم من الخارج مثل أسواق عدن وصنعاء.

لم تكن أسواق العرب في الجاهلية تقتصر على التجارة، بل كان يقصدها طالب الأمن يستجير ويؤمها طالب الفداء يحمل فداء أسيره فيفكه، وقد عقد الصلح غير من مرة بين المتخاصمين في الأسواق. لكن المزية التي اختص بها كثير من أسواق العرب الحولية الكبيرة، هي كونها سوقًا أدبية. فقد كان الشعراء يتناشدون فيها شعرهم، متنافسين متنافرين وكانت قبائل العرب تحتفل بالشاعر الفائز احتفالاً كبيرًا.

وقد وصلت إلينا أخبار كثيرة عن هذه الأسواق وأيامها، وعما كان يدور فيها في المفاخرة والمعاظمة والمنافرة، وعمن كان يقصدها من الماجنين والمتماجنين، وهذه الاخبار ثروة أدبية، في قراءتها متعة ولذة، وعكاظ أشهر الأسواق التي حفظ لنا التاريخ والأدب أخبارها، ولا ريب في أنها كانت أكبر الأسواق التي وصلت إلينا أنباؤها. وهي تربو على عشرين.

فقد كانت مع تجارتها الواسعة، مجمعًا أدبيًا له محكمون تضرب لهم القباب ويتناشد الشعراء بين أيديهم وحكمهم لا يحتمل تجريحًا. بل ثمة من كان يأتي عكاظ

بناته بقصد تزويجهن وفيها كان الرجل يستلحق آخر بنسبه، أو يتبرأ منه. ويلي عكاظ في المقام المجنة وذو المجاز. وهذه الأسواق الثلاث كانت تقام في موسم الحج.

أما بعد الإسلام، وبعد الفتوح التي مكّنت العرب من أقطار من الأرض غنية واسعة، فقد كفوا مؤونة الترحال، ومصروا الأمصار وسكنوا المدن، فصار لهم في الأسواق الثابتة غنى عن الأسواق الموسمية. لكن الذي نود أن نوجه النظر اليه هو أن بعض الأماكن القريبة من منازل البداوة بقيت لها نزعة بدوية، فكانت تقام في نواحيها الأسواق التي يؤمها أهل الترحال المستمر، يبيعون فيها ويشترون، شأن سوق المربد في البصرة ، وأسواق بزاعة إلى الشرق من حلب، وسوق زاوية ابن أدهم في جبلة والسوقان الأخيرتان خبرهما المتأخرون من الرحالين العرب، فالأول ذكره ابن جبير، والثاني حدثنا عنه ابن بطوطة.

والمربد سوق البصرة، أنشىء لما مصرت في زمن عمر بن الخطاب. والأصل فيه أنه متسع للإبل تعرض فيه للبيع. واتسعت تجارته في عهد الراشدين فشملت السلاح والتمر ، وصار مركزًا للدباغين. ثم أصبح على عهد الأمويين سوقًا عامة، تتخذ فيها المجالس، وتتعدد الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز، ويؤمها الأشراف فيتناشدون ويتهاجون ويتشاجرون. وهكذا جمع المربد إلى التجارة الأدب والسياسة، فقد نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه ، وتؤلب الناس على علي، وكان والي البصرة لعلي ينقض قولها، حتى وقعت بين الفريقين معركة بالحجارة، تضرر منها كثيرون. وفي المربد تهاجى جرير والأخطل والفرزدق. أما في العصر العباسي فكان المربد مدرسة يقصدها الشعراء كبشار وابي نواس ليأخذوا عن أعرابه الملكة الشعرية، وكان يؤمه اللغويون يأخذون عن أهله ويدوّنون ما يسمعون. لكن هذه السوق كانت فذة في الإسلام. فلسنا نعرف لها شبيهًا. ولا شك أن موقع البصرة على أول مدر من العراق وآخر حجر من الصحراء، كان له تأثير كبير في طبعها بهذا الطابع الخاص.

أما أسواق المدن الثابتة، فقد كانت تتأثر في شكلها وتنظيمها وتنسيقها، وموقعها وسلعها وأعمالها بالأقاليم والمدينة. والمكان الذي تحتله الأسواق من المدينة كان يتوقف على عوامل كثيرة؛ فدمشق وحلب، وهما من المدن القديمة، بقيت أسواقهما حيث كانت قبلاً. ولما بنى أبو جعفر المنصور بغداد صيّر الأسواق في طاقات مدينته من كل جانب. فلما قدم عليه وفد ملك الروم أمر أن يطاف بهم في المدينة، ثم دعاهم وسألهم كيف وجدوها قال رئيسهم: «رأيت أمرًا كاملاً إلا في خلة واحدة فإن عدوك يخترقها متى يشاء، وأنت لا تعلم لأن الأسواق فيها، وهذه غير ممنوع عنها أحد». فزعموا أن المنصور أمر عندها بإخراج الأسواق الى الكرخ. وكانت الدكاكين في أسواق مصر وغرب آسيا تمتد على طول الشارع من الجانبين، على كل جانب صف

منهـا، وكـانت أسـواق حمـاه أيام أن زارها ابن جبـيـر حسنة التنظيم، بديعـة الترتيب والتقسيم. أما المدن الإيرانية فكانت

الأسـواق الجـزء التجاري المنفصل عن المدينة الرسـمـيـة وعن القلعـة. ولذلك جمعت الدكاكين في مكان واحد.

وبنى عضد الدولة أسواقًا (عند مدينة جامع رام هرمز) غاية في الحسن. كانت نظيفة، مبلطة مبربقة مظللة.

والغـالب على الأسـواق أن تسـقف وتظلل. فـقـد روى إبن جـبـيـر أن أسـواق منبج فسيحة، وسككها متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعًا وكبرًا، وأعالي أسواقها مسقفة. وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر المدن في شمال سوريا. وقال عن أسواق حلب إنها مسقفة بالخشب. وروى فون سوخم الفرنسي أن عكا كانت في القرن الثالث عشر) قبل وقوعها بأيدي المماليك ذات أسواق مظللة بالحرير وغيره من ثمين القماش.

وكان يراعى في اختيار أسماء الأسواق أمور كثيرة. فهناك سوق الثلاثاء في شـرقي بغـداد، وهذا يدل على أن السوق كانت أصلاً أسبوعية. ومثل ذلك سوق القيروان التي كانت تعقد في يومي الأحد والخميس. وربما كان قوام كثير من هذه الأسواق، في بدء الأمر دكاكين لا تمتلىء وتعمر إلا في يوم السوق، ثم تغيرت طبيعتها واحتفظت باسمها. وثمة الأسواق التي كانت تسمى باسم منشئها. فقد سميت «سوق أسد» بالكوفة نسبة إلى أسد بن عبد الله القسري ، وسميت سوق وردان بالفسطاط باسم منشئتها، وهناك الأسماء التي ترجع إلى القوم النازلين فيها، كسوق البربر في الفسطاط . لكن الغالب على التسمية أن تعرف السوق باسم السلعة التي تغلب عليها أو العمل الذي يتم فيها. مثل ذلك سوق الخشب في الإسكندرية، وسوق الصّرافين بأصفهان، وكان يجلس فيها مائتان منهم، وسوق العطارين والبزازين في جامع رام هرمز، وسوق الرقيق في سامراء، وسوق الأرز في عكا، وسوق الوراقين - جميع هذه الأسواق، أسماؤها تابعة لسلعها ومتاجرها..

وكـانت الأسـواق مـراكـز للصناعة كما كانت للتجارة، ومن ثمَّ كانت أسواق للجوهريين وللدباغين والصيادلة والغزالين وللمرجان وغير ذلك . وقد بنى عضد الدولة ابن بويه بمدينة كازورن دارًا جعلها مركزًا لنسج الكتان، وكان دخلها في كل يوم عشرة الآف درهم (أي أقل من أربع مائة جنيه بقليل).

وفي رحلة كل من ابن جبير وابن بطوطة، وناصر خسرو وغيرهم، وفيما تركه جغرافيو العرب، كثير من المعلومات عن الأسواق وأوصافها. فلما وصل ابن جبير إلى الإسكندرية استوقف نظره حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى إنه ما شاهد بلدًا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى، ولا أحفل ، وأسواقه في نهاية من الإحتفال. وتأتي

أهليه الخيرات من جميع البلاد، فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم به في النهار. وكان في الإسكندرية إثنا عشر ألف دكان. ويصف ابن بطوطة رحلته من الإسكندرية إلى مصر ويذكر مروره بسمنود والمحلة الكبرى ثم يقول: «والأسواق متصلة بين الإسكندرية ومصر». وهذه الأخيرة كمركز الوارد والصادر. وكانت بغداد مشتبكة أرضها بالعمارة وأسواقها رائجة التجارة ـ فيها ما تشتهي الأنفس ويلذ الأعين، إذ إنها في نهاية الاحتفال، وقد جمعت أخلاط التجار إلا سوق الصاغة فيها فإنه منفرد بالفرس وقد بلغوا من الإجادة أنهم رصعوا الزجاج بالجواهر. وكانت سوق الجواري فيها الحبشيات والروميات والجرجيات الشركسيات. وكان الدلال ينادي بمن حوله من المشترين ويصف الجواري بما لهنَّ من الأوصاف الحسان وهم يتسابقون إلى مشتراهن.

ويرى المحدثون من الباحثين أن الإسكندرية وبغداد كانتا تعينان أسعار الحاجيات، على الأقل فيما يختص بالكماليات، وقد تركت دمشق أثرًا جميلاً في نفس ابن جبير فقال عنها: «وأسواق هذه البلدة من أجمل اسواق البلاد، وأحسنها انتظامًا، وأبدعها وصفًا، ولا سيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها ابواب القصور، وكل قيسارية منفردة بصيغتها وأعلاقها الجديدة. ولها كذلك سوق تعرف بالسوق الكبيرة، تجتاز المدينة من باب الجابية إلى باب شرقي».

وكان البيع والشراء يتمان بالمقايضة. وتغلب المناداة بأسماء البضائع قبل الاتفاق، كالذي عرفناه عن سوق الجواري ببغداد، و(المناداة بسرمين على ما رواه ابن بطوطة وياقوت). وقد روى أن المقايضة كانت أساسًا للبيع والشراء في بعض الأحوال كما أن ياقوت يذكر بلدة بالمغرب الأقصى اسمها البصرة عرفت «ببصرة الكتان» لأن البيع والشراء فيها كان أساسه قماش الكتان. لكن استعمال النقود كان القاعدة الشائعة والغالبة في الاتجار في العالم الإسلامي. بل إن التعامل المالي في العالم الإسلامي عرف نظام الصرافين. فلم يكن عن الصراف غنى في سوق البصرة. وكان العمل أن كل من معه مال بعطيه للصراف ويأخذ منه رقاعًا ثم يشتري ما يلزمه ويحول ثمنه إلى الصراف، ولا يعطون شيئًا غير الرقاع ما داموا في المدينة.

وتدلنا الأمثلة التالية على الأموال الطائلة التي كانت تروج في الأسواق:

«كان في القرن الثالث الهجري بمدينة همدان خان كبير تباع فيه الأمتعة المختارة، قدر صاحبه دخله منه بمليون ومائتي ألف من الدراهم (نحو أربعين آلفًا من الجنيهات) واشترى تاجران في عصر المأمون غلات العراق فأشرفا على ربح عشرة ملايين درهم ثم اتضع السعر فخسرا ستة ملايين درهم».

وروى ياقوت أنه كان في قيسارية البز في حلب في القرن الخامس للهجرة عشرون دكانًا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعًا قدره ألف دينار (نحو عشرة آلاف

جنيه) وأن ذلك مستمر مند عشرين سنة. وكان المتحصل من مكس القمح بدمشق في أواخر القرن الثامن الهجري يزيد على مليون من الدراهم. وكانت رسوم الذبح في طرابلس الشام في الوقت عينه ثمانين درهمًا في اليوم الواحد.

وروى ابن بطوطة لطيفة عن أسواق سرمين بين حماه وحلب، جاء فيها:

«وبها (أي سرمين) يصنع الصابون ... ويجلب إلى مصر والشام... وأهلها سبابون يبغضون العشرة... حتى انهم لا يذكرون لفظ العشرة، وينادي سماسرتهم بالأسواق على السلع فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا تسعة وواحد...».

ونقل المحدثون عن الثعالبي أن أكثر ما كان يباع من الثمار في الأسواق البطيخ. ولذلك كانت سوق بيع الفاكهة تسمى دار البطيخ. وروي أن شاعرًا مدح وزيرًا بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفاكهة فسماها عامة بغداد «دار البطيخ» تشبيهًا لها بمكان بيع الفواكه.

زار بتاحيا اليهودي الأوروبي العراق في عصره الزاهي وروى أن التاجر إذا وصل إلى بغداد أو غيرها، وضع أمتعته في بيت رجل من الناس ورجع، فيحملون هذه الأمتعة إلى جميع الأسواق للبيع. فإذا دفع فيها ثمنها المقرر ثمنها كان بها، وإلاحملوها إلى جميع السماسرة. فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بهذا الثمن القليل، وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة.

ولعل من أغرب ما روي عن طريقة الاتجار هو أنه كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وبأقاصي خراسان مما يلي الترك قوم يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب، فاذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع إذا وافقه وإلا أخذ سلعته وترك الذهب.

الساحل الشرقي للجزيرة في القرن الرابع هـ.

ملاحظات جغرافية واقتصادية

١ـ تمهيد

المقصود من هذا البحث المقتضب هو جمع المادة التي خلّفها لنا الجغرافيون العرب الذين وضعوا مؤلفاتهم في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بحيث تتكون منها صورة لما كان عليه الساحل الشرقي للجزيرة العربية في ذلك القرن. على أننا قد رجعنا إلى بعض الذين كتبوا قبل ذلك لنكون على بينة مما خلّفه الأولون ونقله الآخرون. ومن هنا كانت عودتنا إلى كتاب صورة الأرض الذي استخرجه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي من كتاب جغرفيا الذي ألفه بطليموس (طبعة مزيك، فينا، ١٩٢٦)، وإلى كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة، الذي وضعه سهراب (طبعة مزيك، فينا، ١٩٢٧). والكتابان من الأزياج، أي كتب الجداول الفلكية التي تعين خطوط الطول والعرض للأماكن. وقد عاش الخوارزمي في القرن الثالث (التاسع)، أما سهراب فقد كان من أهل النصف الأول من القرن الرابع (العاشر)[١].

وبعد الإفادة من هذين الكتابين انتقلنا إلى أربعة من الجغرافيين الذين وضعوا كتبًا هي أقرب الى أن يكون واحدها دليلاً شبه رسمي للطرق والمسالك والدروب، مع الإشارة إلى ما يرتفع في بعض البلاد من المكوس والاتاوات. وهذه الكتب هي.

١ـ **كتاب البلدان**، لليعقوبي المتوفى سنة ٣٨٤هـ (طبعة ليدن، ١٨٩٢).

٢ـ **المسالك والممالك**، لابن خرداذبه المتوفى في حدود ٣٠٠هـ (أوائل القرن العاشر) والكتاب منشور في ليدن ١٨٨٩).

٣ـ كتاب **الأعلاق النفيسة**، تصنيف ابن رسته (طبعة ليدن، ١٨٩١).

٤ـ نبذ من **كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، لقدامة بن جعفر (طبعة ليدن، ١٨٨٩). والمؤلفان الأخيران من أهل القرن الرابع (العاشر)[٢].

ويأتي بعد ذلك الجغرافيون البلدانيون الذين وصفوا العالم الإسلامي بخاصة وبعض أجزاء أخرى من العالم بعامة). والذين أفدنا منهم هم:

١ـ الأصطخري صاحب **المسالك والممالك**، وقد اعتمدنا طبعة محمد جابر عبد العال الحيني (القاهرة، ١٣٨١ / ١٩٦١).

٢ـ ابن حوقل الذي وضع كتاب **صورة الأرض**، (طبعة ليدن، ١٩٦٣ـ تصوير أوفست بيروت لاتا).

٣ـ ابن الفقيه الهمذاني مؤلف **مختصر كتاب البلدان**. (ليدن. ١٨٨٥).

٤ـ المسعودي صاحب **مروج الذهب**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٤ .

٥ـ وأخيرًا المقدسي الذي ألف **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، (ليدن، ١٩٠٦). ولا يتسع المقام للتحدث عن هؤلاء الجغرافيين، لذلك نكتفي بالإشارة إليهم هنا، ونضيف أنهم جميعهم من رجال القرن الرابع (العاشر)[٣] .

وقد رأينا من المناسب أن نلحق هذا البحث بما كتبه الشريف الادريسي عن الساحل الشرقي للجزيرة إتمامًا للفائدة. ونقلنا ذلك عن الطبعة الجديدة التي يقوم بنشرها معهد الدرسات الشرقية بجامعة نابولي (ليدن، ١٩٧١).

ومما تجدر الإشارة اليه هو أن المادة التي تجمعت لنا من هذه المصادر قليلة، ولكن الهدف كان ضمها بعضها إلى بعضها الآخر.

وثمة أمور حرية بأن يضعها الباحث نصب عينيه، منها أن المنطقة كانت فيها أجزاء فقيرة ومن ثم فلم يعن بها الرحالون أو الجغرافيون بالنسبة إلى العصر الذي نتحدث عنه. ومنها أن الإشارات إلى الأماكن لم تكن دومًا دقيقة. ومنها أن المناطق بالذات قد اختلفت تسميتها اليوم عما كانت عليه. ففي القرن الرابع (العاشر، وحتى في أزمنة لاحقة لذلك، كانت البحرين تعني المنطقة الساحلية المقابلة لدولة البحرين اليوم؛ أي المنطقة المعروفة بالاحساء اليوم. وحتى في ذلك نجد أكثر من تحديد واحد للمنطقة الواحدة أو أكثر من تسمية واحدة. ولنذكر على سبيل المثال الاحساء نفسها، فعند سهراب الاحساء هي مدينة البحرين وعند ابن خرداذبة فإن قرى البحرين تشمل الخط والقطيف والآره. وابن حوقل يجعل هجر والاحساء والقطيف والعقير وبيشة والخرج وأوال من مدن البحرين[٤] .

٢. الساحل الشرقي للجزيرة العربية

الكتب الأزياج تتحدث عن العالم المعروف أو المسكون على أنه مقسم إلى أقاليم سبعة، موازية لخط الاستواء. ومن ثم فإن الخوارزمي وسهراب، مثلاً، يذكران المدن الواقعة على الساحل الشرقي للجزيرة العربية إما على أنها في الإقليم الأول (ومدينة ظفار والبحرين وعمان) أو في الاقليم الثاني (هجر واغلة ـ ولعلها أوال) أو في الاقليم الثالث (البحرين) على البحر[٥] . ومثل هذا ينطبق على ابن خرداذابة وابن رستة[٦] .

والجغرافيون الكتاب يصفون الساحل نفسه بطريقة عامة. فيذكرون أسماء المدن والقرى الواقعة عليه من عمان إلى البصرة[٧] أو من البصرة إلى عمان[٨] . إلا

أن ابن الفقيه يعدد أماكن أكثر مما يعددها المؤلفان الآخران[٩].

ولعل خير ما يمكن أن يفعل لتوضيح هذا الأمر، لو توضيحًا محدودًا، هو أن نورد الأماكن التي يعددها الجغرافيون المختلفون، الكتّاب منهم والبلدانيون، ونقارن بينها. ومن حسن الحظ أن بعض هؤلاء المؤلفين يذكرون المسافات ـ إما مراحل أو فراسخ أو أيامًا، بين نقطة وأخرى.

فابن خرداذبة يورد الطريق على النحو التالي: من البصرة إلى عبادان ثم الى الحدوثة ثم الى عرفجا ثم إلى الزابوقة ثم إلى المقرّ ثم إلى عصى ثم إلى المعرّس ثم إلى خُليجة ثم إلى حسّان ثم الى القرى ثم إلى مسيلحة ثم إلى حمص ثم إلى ساحل هجر ثم إلى قطر ثم إلى ساحل هجر ثم إلى العقير ثم إلى السبخة ثم إلى عمان وهي صحار ودبا[١٠].

وقدامة يقول إن المنازل من عمان إلى البصرة (فهو يبدأ من الجنوب) السبخة، وهي بين عمان والبحرين، قطر العقير ساحل هجر حمض مسلحة القرنتين حسان خليجة المعرّس عصى المقر الزابوقة عرفجا الحدوثة عبادان[١١].

وينقل ابن الفقيه عن أبي عبيدة أن بين هجر مدينة البحرين وبين البصرة مسيرة خمسة عشر يومًا على الإبل وهي الخط والقطيف والآره وهجر والبينونة والزارة وجواثا والسابور ودارين والغابة وقصبة هجر الصفا والمشقر والشبعان (والمسجد الجامع في المشقر) وبين الصفا والمشقر نهر يجري يقال له العين ومن قرى البحرين الحوس والكثيب الأكبر والكثيب الأصغر وأرض نوح وذو النار والمالحة والذرائب البدّى والخرصان والسهلة والحوجر والوجير والطربال والمنسلخ والمرزي والمطلع والشط والقرحاء والرميلة والهجرة والرجراجة والعرجة[١٢].

وقد أورد ثلاثة من مؤلفينا ذكر الطريق البحري من البصرة (أو عبادان) إلى عمان. فابن خرداذبة يقول من البصرة إلى عبادان اثنا عشر فرسخًا ثم الى الخشبات فرسخان. ومن الخشبات إلى مدينة البحرين في شط العرب سبعون فرسخًا ثم ومنها إلى الدردور مائة وخمسون فرسخًا ثم إلى عمان خمسون فرسخًا ثم ثم إلى الشحر مائتا فرسخ ومن الشحر إلى عدن مائة فرسخ[١٣]. والأصطخري يقول إنه من عبادان إلى البحرين نحو خمس عشرة مرحلة ومن البحرين إلى عمان نحو شهر ومن عمان إلي أرض مهرة نحو من شهر والى حضرموت من مهرة نحو شهر[١٤]. ونلاحظ أن ابن خرداذبة استعمل الفراسخ، أما الأصطخري فقد جمع بين المراحل والأيام، ولعل الأصطخري لما أشار إلى الطريق البري بين عبادان والبحرين فاستعمل المرحلة لذلك. على أننا لا نستطيع أن نجزم بذلك، ولكن إذا تذكرنا ما قاله ابن حوقل عن الاتصال في الساحل الشرقي ملنا إلى ترجيح الاحتمال بأن الإصطخري قصد الطريق البري؛ فقد جاء عند ابن حوقل «وكذلك ما بين عمان والبحرين فطريق شاق يصعب

سلوكه لتمانع العرب وتنازعهم فيما بينهم. وأما بين البحرين وعبدان فغير مسلوك كان إلى هذا الغاية. وقد سلك وهو قفر والطريق منها الى البحر، ومن البصرة الى البحرين على الجادة إحدى عشرة مرحله». واستشهد ابن حوقل بأن سليمان بن الحسن أتى على هذا الطريق متزودًا الماء من البحرين إلى البصرة ولا ماء فيه. ويضيف ابن حوقل أن الطريق «على الساحل نحو ثماني عشرة مرحلة وفي قبائل العرب ومياههم وهو طريق عامر إلا أنه مخوف[١٥]»، فيما يجعل الأصطخري الطريق البري(؟) خمس عشرة مرحلة .

ولنلحظ، بالإضافة إلى ما ذكرنا أن الطريق الذي رسمه قدامة، من حيث محطاته ومنازله ، هو الطريق نفسه الذي نجده عند ابن خرداذبه ، والفرق الوحيد بين المؤلفين هو الاتجاه. وقد ذكر ابن الفقيه السابور بين لمنازل على طريق هجر البصرة، والذي نرجحه أن المقصود هو سابون[١٦] .

٣. الكور والنواحي على الساحل الشرقي

في الفصل الذي عقده الخوارزمي في زيجة عن المواضع التي تكتب فيها حدود البلدان يقول: بلاد العربية العامرة وهي بلاد اليمن واليمامة والبحرين وعمان[١٧] . فهو يعتبر البحرين وعُمان من البلاد العامرة في الجزيرة العربية. والواقع هو أن هذين القطرين كان لهما مشاركة في التجارة البحرية منذ أقدم أزمنة التاريخ[١٨] .

ويخص الأصطخري بلاد مهرة وعمان بشيء من العناية فيقول عن الأولى:

«وأما بلاد مهرة فان قصبتها تسمى الشحر وهي بلاد قفرة... وليس ببلادهم نخيل ولا زرع، وإنما أموالهم الإبل. وبها نجب من الإبل تفضل في السير على سائر النجب. واللبان الذي يحمل إلى الآفاق من هناك، وديارهم مفترشة، وبلادهم بواد نائية.»

أما عن عمان فيقول:

«وعمان مستقلة بأهلها وهي كثيرة النخيل والفواكه الجرمية من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك، وقصبتها صحار وهي على البحر، وبها متاجر البحر وقصد المراكب،وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا تكاد تعرف على شاطىء البحر.. مدينة أكثر عمارًا من صحار. وبها (أي عمان) مدن كثيرة وبلغني أن حدود أعمالها نحو من ثلاثمائة فرسخ... وعمان بلاد حارة جدًا، وبلغني أن بمكان منها بعيد عن البحر ربما وقع ثلج رقيق، ولم أر أحدًا شاهد ذلك إلا بالابلاغ»[١٩] .

وابن الفقيه يروي ما قاله ابن القرية للحجاج لما سأله عن الأقاليم فقال عن عمان: «حرها شديد وصيدها عتيد». وأما عن البحرين فقد قال إن جبالها كثيرة[٢٠] .

وابن خرداذبة يقول إن من يسكن البحرين يعظم طحاله. ويستشهد على ذلك ببيت من الشعر:

ويذكر أن الشحر هي بلاد الكندر وهو، على ما يبدو، من الأشجار الصمغية التي

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله ويحسد بما في بطنه وهو جائع[٢١]

تدر اللبان، ويروي أيضًا بيتًا من الشعر:

أذهب إلى الشحر ودع عمانا إلاّ تجد تمرًا تجد لبانا [٢٢]

وعندما يحاول الدارس للساحل الشرقي للجزيرة العربية أن يتعرف إلى المدن هناك تقابله صعوبة رئيسة وهي الخلاف بين المؤلفين فيما يتعلق بالمناطق بالذات أولاً ثم فيما يتعلق بمعنى كل من المدينة أو القرية ثانيًا. فالتفريق ليس دائمًا واضحًا. فابن حوقل يعدد مدن البحر فيذكر القطيف وهجر والإحساء والعقير وبيشه والخرج وأوال [٢٣]، ويأتي المقدسي فيقول عن هجر ان قصبتها الإحساء ومدنها سابون والزرقاء وأوال والعقير [٢٤]. ولا شك في أن في العبارتين تناقضًا من حيث المنطقة والمدن.

ونود هنا أن نشير إلى أن المقدسي، بين معاصريه من الجغرافيين، أكثرهم دقة في التعبير المحدد. فهو يضع بين يدي قارئه تحديدًا لما يفهمه هو من الأمر، فقد جعل المصر «كل بلد حله السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال وأضيف اليه مدن الأقاليم مثل دمشق والقيروان وشيراز». ويعود فيحدد تعابيره ثانية فيقول: «وربما كان للمصر أو للقصبة نواح لها مدن مثل طخارستان لبلخ، والبطائح لواسط، والزاب لأفريقيا».

ويخلص إلى القول بأن أقاليم مملكة الإسلام أربعة عشر، ستة عربية وثمانية عجمية، ويضيف: «ولا بد لكل إقليم من كور ثم لكل كورة من قصبة، ثم لكل قصبة من مدن [٢٥].

ثم ينتقل المقدسي إلى تعيين الكور المختلفة فيذكر بالنسبة إلى الساحل الشرقي من الجزيرة العربية، كورتين هما: «عمان وقصبتها صحار ومدنها نزوة والسر وضنك وحفيت ودبا وسلوت وجلفار وسمد ولسيا وملح، وأما هجر، وتسمى البحرين، فقصبتها الإحساء ومدنها سابون والزرقاء وأوال والفقير. وفي المنطقة ناحيتان هما اليمامة وهي تتبع هجر، والثانية مهرة مدينتها الشحر [٢٦].

٤ـ ملاحظات إقتصادية

يحدثنا ابن خردازابة عن التجار الراذانية وهم جماعة من التجار:

«يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والأندلسية والصقلبية.. وانهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف... ثم يمضون (بحرًا) إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك... وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي (البحر المتوسط) فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية

ثم يركبون في الفرات الى بغداد ثم يركبون في دجلة الى الابلة ومن الابلة إلى عُمان والسند والهند والصين. كل ذلك متصل بعضه ببعض[٢٧].

والذي يهمنا هنا هو أن عمان كانت على طريق التجار الراذانية[٢٨].

ومما يدل على ثراء منطقتي البحرين وعمان ما كان يرتفع منهما من الأموال. فارتفاع البحرين، مع اليمامة، لسنة ٢٣٧ هـ كان من العين خمس مائة وعشرة آلاف دينار، ومقاطعة عمان كان ارتفاعها من العين ثلثمائة ألف دينار[٢٩]. ولا شك أن ذلك يعود الى التجارة التي كانت تمر بهما، فضلاً عن الثروات الطبيعية،

ويقول ابن حوقل عن مهرة:

«وبلاد مهرة فقصبتها تسمى الشحر، وهي بلاد قفرة... وليس بها نخل ولا زرع، وإنما أموالهم الإبل والمعز، والإبل والدواب تعلف السمك الصغار المعروف بالورق. وهم... لا يعرفون الخبز ولا يأكلونه، وأكلهم السموك والألبان والتمور، ولهم نجب من الإبل تفضل في السير وحسن الرياضة على جميع النجب. واللبان الذي يستعمل بالآفاق من هناك وديارهم مفترشة به، وبلادهم بواد نائية... وطول مهرة أربع مائة فرسخ[٣٠]».

ويتحدث ابن حوقل عن البحرين فيقول:

«وأما البحرين ومدنها وهي هجر والاحساء والقطيف وبيشة والخرج وأوال وهي جزيرة كان لأبي سعيد الحسن ابن بهرام ولولده سليمن بها الضريبة العظيمة على المراكب المجتازة بهم، وإلى وقتنا هذا هي لمخلفيهما ونسلهما... وبها أموال وعشور ووجوه مرافق وقوانين ومراصد وضروب مرسومة من الكلف إلى ما يصل إليهم من بادية البصرة والكوفة وطريق مكة، بعد انقطاع ما بالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة والشعير والنخل[٣١]».

وهنا نرى ثروة منطقة البحرين (الاحساء اليوم) الزراعية وأهمية جزيرة أوال (البحرين اليوم) كمركز تجاري.

وثمة تجارات أو غلات خاصة بالساحل الشرقي للجزيرة العربية حرية بالاهتمام. فاليعقوبي يقول عن العنبر: «العنبر أنواع وأصناف مختلفة ومعادنه متباينة.... فأجود أنواعه وأرفعه وأفضله وأحسنه لونًا وأصفاه جوهرًا وأغلاه قيمة العنبر الشحري وهو ما قذفه بحر الهند إلى ساحل الشحر... وبعد العنبر الشحري العنبر الزنجي .. . وعنبر يؤتى به من الهند يسمى الكرك بالوس... يأتون به الى قرب عمان يشتريه منهم أصحاب المراكب[٣٢]».

ويعدد ابن الفقيه منتوجات مناطق معينة ويخص عمان بالقني[٣٣]».

والمسعودي كان، بالإضافة الى أنه مؤرخ وجغرافي، رحالة كثير السفر والتنقل. وقد زودنا بمعلومات عن الخليج العربي وخليج عمان والبلاد الواقعة حولهما والمدن

الهامة في هذه البلاد. وها نحن أولاء ننقل عنه ما يعنينا، فقد وصف بحر الهند أو الحبشي (وهو الذي نسميه اليوم المحيط الهندي) وذكر الخلجان والبحار المتفرعة منه وهي الخليج البربري، وقال إن أهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج. وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد. ويقطع هذا البحر السيرافيون. وذكر المسعودي أنه قطع هذا البحر من صحار قصبة عمان مع جماعة من نواخذة السيرافيين إلى جزيرة قنبلو سنة ٣٠٤هـ.

والخليج الآخر الذي يتفرع من بحر الهند هو البحر (الخليج) الذي تقع بلاد فارس شرقيه وساحل الجزيرة غربيه. والذي ينتهي إلى بلاد الابلة والخشبات وعبادان. ويقابل ساحل فارس ومكران على الساحل العربي بلاد البحرين وجزائر قطر وشط بني جذيمة وبلاد عمان وأرض مهرة إلى رأس الجمجمة إلى أرض الشحر. وفي هذا البحر مغاص للؤلؤ في خارك وأوال. وهذه الجزيرة فيها بنو معن وبنو مسمار وخلائق كثيرة من العرب. وفضلاً عن اللؤلو الموجود في هذا البحر فهناك النحاس في بلاد عمان[(٣٤)]».

ويضيف المسعودي أن هذا البحر يركب في سائر السنة من عمان إلى سيراف، وهو مئة وستون فرسخًا، ومن سيراف إلى البصرة، وهو مئة وأربعون فرسخًا[(٣٥)]».

والمقدسي كان دقيقًا في كتابته إلى درجة كبيرة. ولذلك فإن ما عنده من معلومات وأخبار حرية باهتمامنا. فهو يقول عن الشحر أنها مدينة على البحر، معدن السمك العظيم يحمل إلى عمان وعدن ثم إلى البصرة وأطراف اليمن، ومن ثم أشجار الكندر صمغيها[(٣٦)].

ويتحدث عن صحار فيقول: «وهي قصبة عمان ليس على البحر الصين (بحر العرب) اليوم بلد أجل منه. عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وثمار وفواكه وخيرات... أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر، دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة، والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة في آخر الأسواق. ولهم آبار عذيبية وقناة حلوة. وهم في سعة من كل شيء. دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن... المصلى وسط النخيل، ومسجد صحار على نصف فرسخ... قد بني أحسن بناء وهواؤه أطيب من القصبة ومحراب الجامع (أو مكوكب) يدور تراه مرة أصفر وكرة أخضر وحينًا أحمر[(٣٧)]».

وقد وصف المقدسي الاحساء فقال عنها: «إنها قصبة هجر وتسمى البحرين، كبيرة كثيرة النخيل عامرة آهلة معدن الحر،والقحط على مرحلة من البحر[(٣٨)].

ويقول أيضًا: «اللؤلؤ في هذا الاقليم (أي في ديار العرب) بحدود هجر يغاص عليه في البحر بازاء أوال وجزيرة خارك[(٣٩)]».

ويجمل المقدسي أمر التجارات في ديار العرب، وعن عمان يقول: «إلى عمان

يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبكم والساج والساسم والعاك واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والاسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلور الفلفل وغير ذلك[٤٠].

٥. تجارة الخليج العربي في القرن الرابع (العاشر)

في القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد) كان الخليج العربي من مناطق التجارة العالمية الهامة. وكانت الموانىء الواقعة على شواطئه تنعم بالكثير من الخيرات. والموانىء الرئيسة على الخليج العربي وخليج عمان كانت سيراف وعمان والابلة (ميناء البصرة)، وكانت سيراف الميناء الذي تمر به متاجر فارس. فهي الفرضة العظيمة لفارس، وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الأبنية شيء... وليس بها ماء يجمد ولا زرع ولا ضرع. وهي أغنى بلاد فارس... وقد أعطي ملاحوها من ذلك حظًا جزيلاً حتى ان أحدهم يبلغ ملكه أربعة آلاف ألف دينار. وكانت أبنيتها ذات الطبقات العديدة تصنع من خشب الساج الثمين والآجر وكانت تشترى الدار الواحدة بفوق المئة ألف درهم.

والابلة وعبادان والبصرة كانت نقط الانطلاق لتجارة الخليج في شماله، ويرق الماء في بعض الجهات هناك حتى يخاف على السفن الكبار أن سلكته أن تجلس على الأرض إلا في وقت المد. وبهذا الموضع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل ليهتدى به ويعلم به المدخل إلى دجلة.

وهكذا فقد كانت الرحلة إلى بحار الهند والصين أو إلى شرق إفريقيا، تبدأ من الأبلة في منطقة البصرة وتجتاز عبادان بارشاد الناطور الساكن في الخشبات، مفيدة من المد وأوقاته. وفي سيراف كانت تجتمع السفن أيضًا. وقد تحمل المتاجر في صغار السفن الى سيراف، حيث توضع في السفن الكبار. فإذا انحدرت السفن في الخليج كان عليها أن تتجنب المتلصصة. ولذلك كثيرًا ما كانت السفن تحمل النفاطين والمقاتلين. وكانت أكثر السفن تعرج إلى صحار أو مسقط لتحمل بضائع جديدة وتتزود بالماء. وبعض السفن كان يتبع الطريق الآخر محاذيًا شواطىء فارس ثم شواطىء مكران فشواطىء السند، وكانت السفن تتجه من عمان إلى شرق أفريقيا، ولعل أقصى ما وصلته في تلك الجهات جزيرة مدغشقر[٤١].

هذه خلاصة لما رسمه الجغرافيون القدامى للساحل الشرقي للجزيرة العربية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أضعها بين أيديكم، وأنا أحمل معها أسئلتي الكثيرة عن الموضوع: لأنني جئت مدينة الدوحة، عاصمة دولة قطر، إحدى دول الساحل الشرقي للجزيرة العربية متعلمًا، فأفيدوني نفعني الله بعلمكم.

الهوامش

(١) راجع أ. يو. كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صالح الدين عثمان هاشم (القاهرة ١٩٦١) الجزء الأول.، ص ٩٩ ـ ١٠٥ .

(٢) انظر المصدر نفسه، ص ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ .

(٣) انظر: المصدر نفسه. ص ١٧٧ ـ ١٨٥ و١٩٩ ـ ٢١٥ . وقد عرضنا للجغرافيين العرب بشيء من التفصيل في كتابنا، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، ط٢ (بيروت ١٩٨٢).

(٤) سهراب، **كتاب عجائب الأقاليم السبعة** (فينا، ١٩٢٧) ص ١٤؛ ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، (ليدن ١٩٣٨ تصوير بيروت)، ص ٣٣ ـ ٣٤؛ ابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان** (ليدن، ١٨٨٥) ص ٣٠ ـ ٣١ . وقد ورد اسم الآرة برسم الزارة عند الإدريسي، **نزهة المشتاق** (طبعة معهد الدرسات الشرقية بنابولي) ج ٤، ص ٣٨٦ .

(٥) الخوارزمي. ص ٦ و ١٠ و١٤ و٢٢؛ سهراب ص ٦و ١٠ و١٤ .

(٦) ابن خرداذبة، المصدر نفسه، ص ١٥٢، وابن رسته، **الأعلاق النفيسة** (ليدن، ١٨١٩) ص ٩٦ .

(٧) قدامه، نبذة من كتاب، **الخراج وصنعة الكتابة** (ليدن ١٨٨٩) ص ١٩٣ .

(٨) ابن خرداذبة المصدر نفسه، ص ٦٠ .

(٩) ابن الفقيه المصدر نفسه، ص ٣٠ .

(١٠) ابن خرداذبة، المصدر نفسه.

(١١) قدامة، المصدر نفسه، ص ١٩٣ .

(١٢) ابن الفقيه، المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٣١) ابن خرداذبة، المصدر نفسه. ص ٦٠ .

(١٤) الأصطخري، **المسالك والممالك** (القاهرة، ١٣٨١ / ١٩٦١)، ص ٢٧ .

(١٥) ابن حوقل، ص ٤٧ .

(١٦) المقدسي، **أحسن التقاسيم** (ليدن، ١٩٠٦) ص ٩٤ .

(١٧) الخوارزمي، المصدر نفسه،ص ١٠٢ .

(١٨) نقولا زيادة، «تطور الطرق التجارية بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي»: دراسات **الخليج والجزيرة العربية**، السنة الأولى، العدد الرابع، ص ٦٩ ـ ٩٤ .

(١٩) الأصطخري، ص ٢٧، وقد أورد ابن حوقل (ص ٤٤ ـ ٤٥)، المعنى نفسه بعبارة تكاد تتفق مع عبارة الإصطخري.

(٢٠) ابن الفقيه، المصدر نفسه، ص ٩٢ .

(٢١) ابن خرداذبة، المصدر نفسه ، ص ١٧١ .

(٢٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ ـ ١٤٨ . قابل : المقدسي ص ٨٧ و٩٨ .

(٢٣) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٧ .

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٦٨ و ٧٠ و ٧١ و ٩٨ . أما ابن حوقل فإنه يعتبر الشحر قصبة بلاد مهرة، ص ٤٤ .

(٢٧) ابن خرداذبة، المصدر نفسه ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٢٨) راجع عن دور التجار الراذانية: Maurice Lombard, *L'Islam dans sa première grandeur (VIIIeme XIEmE siecle)* (paris, 1971) PP. 204- 211 , 214 -5 .

(٢٩) قدامة المصدر نفسه، ص ٢٤٩ و ٢٥١ .

(٣٠) ابن حوقل، المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(٣١) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٣٣ .

(٣٢) اليعقوبي المصدر نفسه، ص ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .
(٣٣) ابن الفقيه المصدر نفسه، ص ١٦ .
(٣٤) المسعودي، **مروج الذهب**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ٤ (القاهرة) ١٩٦٤) ج ١ ، ص ١٠٧ـ ١١٢ (٣٥) المصدر نفسه، ص ١٤٧ .
(٢٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٨٧ .
(٢٧) المصدر نفسه، ص ٩٢ ـ ٩٣ .
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٩٤ .
(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٠١ .
(٤٠) المصدر نفسه، ص ٩٧ .
(٤١) نقولا زيادة، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، ط ٢، (بيروت، ١٩٨٢)، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩، راجع أيضًا الاصطخري ص ٣٢ و ٣٤ و ١٣٨ ـ ١٣٩؛ المسعودي ، ج ١ ، ص ١٠٧ـ ١١١، المقدسي، ص ٩٢ و١١٨ و٤٢٦ . وانظر: أخبار الصين والهند، تحقيق سوفاجيه(J.Sauvaget) (باريس ١٩٤٨)، ص ٧ . ومن رحلات العرب، طبعة نقولا زيادة (بيروت ١٩٧٤) ص ٢٢و ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٩ و ١٥٨ .

القسم الخامس

في دنيا التجارة

تجارة شمال الجزيرة العربية مع بلاد الشام في العصر الأموي

(١)

بلاد الشام جسر يصل البحر المتوسط غربًا بأرض الرافدين شرقًا، وهضاب آسيا الصغرى وجبالها شمالاً بالجزيرة العربية جنوبًا. ومن ثم فإن كل ذاهب أو آيب شمالاً أو جنوبًا، وكل رائح أو غاد شرقًا أو غربًا لا بد له من أن يعبر هذا الجسر: سواء في ذلك التاجر والجندي والحاج والرحالة والمغامر. ومع أننا في هذا البحث سنخص التاجر بعنايتنا، فإننا لن نترك الآخرين، والحاج بشكل خاص، وشأنهم، فالطريق للجميع، والاتجار للكل والاطمئنان الى الروح والمتاع، في الإقامة والرحيل، مطلب الجميع.

وقد حبت الطبيعة بلاد الشام أشياءَ كثيرة يسرت لها أن تقوم بدورها التجاري خير قيام. فالموانيء التي تقع على ساحل المتوسط،والتي تستقبل السفن وأحمالها، تنتهي كل منها عند ممر يصلها بالداخل: فالسويدية (سلوقية) لها منفذ إلى إنطاكية وحلب؛ واللاذقية يطل عليها ممر إلى سهل الغاب وحماة؛ وطرابلس لها معبر إلى حمص ؛بيروت منفذها إلى البقاع؛ وصيدا هي ميناء دمشق وحوران، وعكا تتحكم بمرج ابن عامر، ومن ثم بالغور الأردني وما خلفه؛ وتبعث يافا بما يصلها إلى القدس؛ وسهل غزة هو طريقها (فضلاً عن سيناء) إلى جنوب الأردن فالحجاز. كان هذا في البدء ،ولا يزال . كان يوم ركب الناس الحمار والحصان ونقلوا متاعهم عليهما؛ ويوم اعتلوا ظهر الجمل الى جانب متاجرهم، ويوم ركبوا القطار وأودعوا سلعهم بطنه، ويوم استقلوا السيارة وضمنوا ثيابهم وحاجتهم صندوقها. الطريق هو الطريق: تبدلت الوسيلة، واختصر معها الوقت اللازم لقطع المسافة.

وكما اخترقت ممرات عديدة بلاد الشام من الغرب إلى الشرق، فقد فتحت سلاسل الجبال، الممتدة من الشمال إلى الجنوب، فجوات كثير متسعة فيما بينها ،فأصبح الانتقال من حلب إلى حماة وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية واللد وغزة (ومن ثم مصر) يسيرًا. ولكل من هذه الطرق، وغيرها التي ضربنا صفحاً عن ذكرها، تفرعات تصل بينها وبين المناطق التي تحتاج إليها: إما بائعة لما يتجمع فيها من متاجر، أو مشترية لما ينتج فيها من سلع.

وبلاد الشام تكثر فيها، إلا في أطراف البادية، المناطق التي تنتج الأعلاف لدواب

النقل، وأماكن تجمع المياه اللازمة للقوافل التي تجتازها ناقلة متاجر الجهات المختلفة. واذا أخذ الواحد منا خارطة تبين أماكن الأسواق ومواقع الخانات ونقط الإراحة ، لوجد أن بلاد الشام هي من أغنى الجهات في مثل هذه الأمور.

والتبادل التجاري هو آلية العرض والطلب. ولكن هذه الآلية تتأثر، في تطبيقها، بأمور كثيرة. قد لا يكون هنا موضع بحثها، ولكن لا بد من التوقف عند أمرين وهما: إن الطلب متوقف إلى درجة كبيرة على المستوى الحضاري الذي بلغته الجماعة التي تطلب السلع وتدخل في ذلك العادات والتقاليد الاجتماعية والدينية؛ فيما نجد أن العرض - إما تلبية للطلب أو لإثارة الرغبة في الطلب - يعتمد على مقدرة المنتج - بقطع النظر عن مكان وجوده - وعلى تنبه التاجر الذي ينقل النتاج إلى سوق الطلب ومن ثم حمل ذلك النتاج إلى الذي يحتاجه.

والتجارة بين شمال الجزيرة العربية (وما وراءها) وبلاد الشام (وما يليها) قديمة، ولسنا ننوي هنا أن نتحدث عن هذه الأزمنة المتوغلة في القدم، لكننا نسمح لأنفسنا، قبل أن نستقر في رحاب بني أمية، أن نضع أمام القارىء بضع ملاحظات مقتضبة توضيحًا للأمور.

(٢)

أولاً: من المعروف أن الهياكل القديمة في بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر وغيرها كانت تستعمل البخور في الاحتفالات الدينية، ويبدو أن كميات كبيرة منه كانت تحرق سنويًا. وقد كان من المقبول لدى عدد كبير من الباحثين أن هذا البخور كان يحمل من جنوب بلاد العرب الى بلاد الشام وأرض الرافدين للاستهلاك في المعابد القديمة. لكن الأبحاث الحديثة حول هذا الموضع انتهت إلى أن ما كان يستعمل، في أول الأمر، هو نباتات صمغية محلية؛ وأن البخور العربي الأصلي أي اللبان (من حضرموت) والمر (من جنوب الجزيرة ومن القرن الإفريقي وخاصة من صوماليا) لم يصلا إلى بلاد الشام وأرض الرافدين قبل القرن الثامن ق. م.[(١)] والسبب في ذلك يعود إلى أن نقل مثل هذه السلع - أي البخور والطيوب والعطور والتوابل - من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ما كان يمكن أن يتم قبل أن يستخدم الجمل لذلك. والجمل، مع أنه دجن في الألف الثاني قبل الميلاد، فإنه لم يستعمل للنقل قبل القرن التاسع قبل الميلاد، إن لم يكن حتى بعد ذلك[(٢)].

كان الطريق المتبع يبدأ من قِنا (على شاطىء حضرموت) حيث يجمع اللبان والمر من حضرموت ومن الصومال (عن طريق جزيرة سوقطرى) ويتجه إلى شَبْوه فمأرب فنجران فطربة فالمدينة (يثرب) فالعُلا (ديدان) العلا، فمدائن صالح (الحجر) فالبتراء. كانت هذه السوق الرئيسية وكان الانباط يسيطرون على الطريق بدءاً من

العلا وحتى على نقل البضائع المتنوعة إلى دمشق أو غزة (لترسل إلى الخارج) والإسكندرية التي كانت السوق الأصلية لتوزيع هذه المتاجر، خاصة أيام اليونان (البطالمة) وقد كانت ثمة تفرعات لهذا الطريق بحيث يمكن نقل ما يطلب شرقًا لمصلحة القبائل المختلفة(٣) .

ثانيًا: في مطلع القرن الثاني للميلاد احتل الرومان البتراء (١٠٦) بقصد إحتواء هذه السوق الكبرى داخل حدود الأمبراطورية. وقد أخذت تجارة البتراء بالتردي خلال القرن الثاني للميلاد، ثم ضعفت نهائيًا خلال القرن الثالث . وأخذت تدمر مكان البتراء في جذب القوافل إليها وإقامة سوق كبيرة يقصدها التجار بسلع اليمن كما يقصدها آخرون بسلع آتية من الشرق(٤) . ولعل الحرير كان في مقدمتها. لكن تدمر لم تكتف بأن تكون السوق الأولى في المنطقة، إذ طمع حكامها، وخاصة الزّباء (زنوبيا) في الزعامة السياسية والعسكرية، فرفعت راية الحرب على روما، ونجحت، فنقمت روما وضربت، وكانت الضربة قاضية وموجعة (٢٧٣) ـ قاضية لأنها وضعت حدًا للطموح التدمري العربي، وموجعة لأن أورليانوس دمر المدينة ـ عروس الصحراء.

أيام ازدهار تجارة تدمر كانت الجوف (دومة الجندل) مرتكزًا للتجار القادمين من حنوب الجزيرة، فكانوا يتجهون إليها من المدينة (يثرب) عبر تيماء. وبسقوط تدمر تأخرت شؤون تيماء والجوف (دومة الجندل). ويبدو أن الحيرة الحديثة النشأة أخذت محل الأسواق الثلاث (تدمر والجوف وتيماء). لكن الحيرة(٥) كانت بعيدة بالنسبة لبلاد الشام، فكان لا بد من قيام مكان أقرب .

ثالثًا: لكن الأزمة الاقتصادية والعسكرية التي حلت بالأمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي، أدت إلى ضعف القدرة الشرائية الرومانية بالنسبة للبضائع الإستهلاكية (الكمالية) التي كانت تأتي من البلاد الشرقية، بقطع النظر عن مصدرها. إلا أن المهم أيضًا هو أن انتشار المسيحية في بلاد المشرق العربي (شامه ورافديه ونيله)، وخاصة بعد أن اعتنق قسطنطين (٣٠٦ ـ٣٣٧) الدين الجديد (واعتبر واحدًا من أديان الدولة الرسمية)، قلل من أهمية استعمال البخور ـ لبانًا كان مرًا ـ لأن الكنيسة لم تستعمله. ويمكن القول، بشكل عام ان تجارة البخور العربي والصومالي توقفت حوالى سنة ٤٠٠م(٦) . صحيح أنه ظل يُستعمل في بيوت الأثرياء ـ لكن هذا لم يكن كافيًا من الناحية التجارية.

رابعًا: كان الحرير الصيني الأصل قد وصل إلى بلاد المشرق العربي، وكان البلاط البزنطي قد إتخذ منه ـ بعد صبغه بالأرجوان ـ ما يمكن أن يسمى القُماش الرسمي. وقبلت الكنيسة به قماشًا خاصًا بأحبارها. ووصل إلى أمراء القبائل الجرمانية الذين أعجبوا به ثيابًا رسمية. ومن هنا كان للحرير المكانة الأولى بين متاجر الشرق القصيّ. هذا إلى العناية بالطيوب والتوابل والعطور والمواد الطبية .

هذه في مجملها كانت موضع الاهتمام في القرون الثلاثة بين الرابع والسادس للميلاد.

خامسًا: في القرن السادس نشطت تجارة المحيط الهندي بشكل واضح، وأصبحت جزيرة سيلان (سري لانكا) المركز الرئيس للتبادل التجاري بين تجار الشرق والغرب من مناطق المحيط. ويجدر بنا أن نذكر هنا أمرين كانا مهمين جدًا في تنشيط التجارة وهما: دخول النتاج الأندونيسي السوق كسلع مطلوبة وأهمها الذهب والفلفل الأندونيسي (وكان أجود من الفلفل الهندي) والكافور والبنزيون (اللبان الجاوي) ومواد طبية متنوعة. كما ظهر أن الأسواق الأندونيسية كانت ترغب فيما يحمل من الغرب من زجاج وأقمشة وبعض الطيوب.

وأما الأمر الآخر الذي أدى إلى تنشيط التجارة في المحيط الهندي، بدءًا حتى القرن الخامس، فهو استعمال الطريق البحري المباشر من سيلان إلى كانتون، في جنوب الصين، عبر مضيق ملقّا (في الجزر الأندونيسية) وبحر الصين الجنوبي.

ويبدو أن الساسانيين (٢٢٦ - ٦٤١) تمكنوا من الإشراف على التحركات التجارية في المحيط الهندي. وقد كان يهم الساسانيين بشكل خاص أن تظل تجارة الحرير حكرًا لهم، وأن يمر ببلادهم بقطع النظر عن السبيل الذي يسلكه للوصول إلى جزيرة سيلان. وكانت دولة أكسوم الحبشية، وهي الدولة التجارية الكبرى في غرب المحيط الهندي (بعد أن ضعف مركز مصر التجاري في البحر الأحمر نسبيًا) قد تنصّرت. ومن هنا فقد جرب جستنيان أن يحمل ملوكها على ابتياع الحرير من سيلان رأسًا إلى بزنطة. لكن المحاولة لم تنجح. ويبدو أن اتفاقًا كان قائمًا بين الساسانيين ودولة أكسوم(٧) على أن يظل الحرير حكرًا فارسيًا فينقل من سيلان عبر الخليج العربي إلى مدن الساسانيين، فيما سمح لتجار أكسوم أن يعنوا بنقل الطيوب والأفاويه والتوابل إلى غرب المحيط الهندي والبحر الأحمر، بقطع النظر عن مصادرها (وكانت هذه قد تعدت يومها الهند إلى أندونيسيا)(٨).

وهكذا فقد توفرت في أسواق سيلان ما كان يأتي من المناطق العربية. وأهم هذه السلع هي زيت الزيتون والكهرمان والمرجان والخمور والأقمشة والزجاج والذبل (غلاف السلاحف) والحبوب والذهب واللؤلؤ والعاج الجيد (الإفريقي) والتمور. أما المناطق الشرقية فكانت تبعث إلى أسواق سيلان بالذهب والحجارة الكريمة والفولاذ الهندي والنحاس والأخشاب والصندل والبتل والأرز والدهون الهندية والقطن والكحل، وكان الحرير يصل الجزيرة بطريق البحر، عبر أندونيسيا.

وكانت الخصومة والمنافسة التجاريتان بين بزنطة وساسان قويتين، ولم تمتنع الدولتان عن الحرب، ولو بالواسطة. فاحتل الأحباش اليمن في مطلع القرن السادس، وزاحمهم الساسانيون فزحموهم وأخرجوهم منها في سنة ٥٧٥م.

على كل، المهم أن بزنطة كانت بحاجة إلى هذه المتاجر الشرقية لأسواقها، ولكي

تبعث بها إلى الأسواق المجاورة لها في أوروبا حيث بدأت دول جرمانية بالظهور، ويبدو أنها اهتدت إلى استعمال التوابل والطيوب الشرقية. ومعنى هذا كله هو أن الطريق اليمني الشامي كان بحاجة إلى من يعيد إليه نشاطه، كي يلبي حاجة السوق البيزنطية، بما في ذلك السوق الشامية التي كانت جزءًا من الامبراطورية الواسعة، والتي كان تجارها (الشام) في مقدمة من ينقل السلع الواردة إليها إلى سواحل بلاد الغال، وفي القرن السادس على التحديد.

وهنا تدخل التجارة العربية البرية مرحلة جديدة.

(٣)

في هذه المرحلة الجديدة كانت الزعامة التجارية وما قد يمت إليها بصلة لمكة.

كانت مكة قد بلغت، في النصف الأول من القرن السادس، شأوًا في التجارة كبيرًا. وقد بدأ الأمر لما فرضت مكة نفسها، بقوة قريش وزعامة قصيّ سوقًا للقبائل المجاورة لها أو لتلك التي لا بد أن تمر بها عند تنقل تجارها. وإذ كانت مكة فيها مكان عبادة قديم محترم، هو الكعبة، فقد كان من اليسير على زعامة ذكية أن تربط الأمرين معًا؛ وبذلك تؤمن مكة لقصّاد السوق حمى وحرَمًا (يدور أصلاً حول الكعبة) فيطمئن الناس إلى متاعهم وأنفسهم. وكان في جوار مكة أماكن أيضًا للعبادة، فيها آلهة؛ وهذه جُعلت تدريجيًا مرتبطة بمكة. من حيث أن الحمى مكانًا والأشهر الحرام زمانًا، تنطبق على الأماكن الأخرى.

وكان من أدراك الزعامة القرشية للمعنى العلمي لدورها أن دبَّرت لهذه القبائل أن تضع رموزًا لآلهتها في الكعبة؛ وكان من الطبيعي ان تظل لآلهة قريش المنزلة الأعلى والمقام الأكبر، بذلك أصبحت مكة السوق الرئيسية للجوار بكامله، وان لم تُلغ بقية الأسواق، بل لعلها شجعتها لأن هذه أصبحت مع الوقت تبعث بنتاجها، مثل حبوب اليمامة وعسل الحجاز وسمن المراعي الغربية إلى مكة.

هذا الوضع، أي المدينة الناجحة تجاريًا والمحترمة دينيًا الذي بلغته مكة، هو الذي مهّد لها السبيل لنُقلة هامة جدًا، هي تزعم مكة (وقريش طبعًا) للتجارة العالمية التي كانت طريق اليمن ـ الشام قطاعًا مهمًا منها.

يرى محمد عبد الحي شعبان أن محاولة كل من بزنطية والدولة الساسانية للسيطرة التامة على هذا الطريق انتهت إلى فشل. ومن ثم فقد حدث فراغ في هذه الناحية، فأقدمت قريش على ملء هذا الفراغ. وكان الفضل في ذلك يرجع إلى هاشم بن عبد مناف وهو جد النبي الأعلى وحفيد قصي الزعيم القرشي الأول. وكان هاشم والذين حوله من قريش، وهم تجار من قبل، يتمتعون بالخبرة اللازمة لمثل هذ الأمر؛ وكانت له ولهم اتصالات واسعة في المنطقة بأسرها؛ فهم تجار يقصدون الأسواق البعيدة أحيانًا كثيرة.

وفضلاً عن ذلك فقد كان في مكة فائض اقتصادي يمكن أن يوظف في مشاريع كبيرة.

وقد اتخذت خطوات مهمة في سبيل السيطرة على التجارة العالمية/ العربية يومها. فعهدت قريش إلى القبائل التي كان لها نفوذ بحيث «تحمي» القوافل في حماها وفي مقابل خدماتها «الأمنية» كانت هذه القبائل تفيد من السوق لعرض سلعها، وتحصل على الربح الذي تستحقه. ويبدو أن هذا كان الصنف الأول من الإيلاف الذي رتبته قريش مع القبائل وقد كان الأشيع. أما القبائل التي لم تكن تملك القوة اللازمة للدفاع عن القبائل، في حماها هي، فقد كان عليها أن تدفع ضريبة خاصة مقابل اشتراكها في القافلة المكية القرشية. وقد كان هاشم يأخذ هذه الضرائب كي يؤمن الحرس اللازم للقوافل المتجهة شمالاً وجنوبًا، أو في أي اتجاه آخر.

وكان من الطبيعي أن القبائل التي كانت قد أسهمت من قبل في التجارة المكية والتي كانت قد اعترفت بالمكانة الخاصة للكعبة وكان عليها واجب أكبر في الدفاع عن مركز العبادة نفسه. ويبدو أن فئة من قبيلة تميم (الكندية) كانت في عداد القوة التي كان عليها أن تحمي الكعبة. كما أن قريش أكرمت زعماء بعض القبائل الهامة بأن عهدت إليهم بالاهتمام بأسواق مكة وحتى بالقيام ببعض واجبات الحج وطقوسه ـ وهذه كانت جميعها في يد قصي وأحفاده.

هذه الأمور جميعها تدخل في التنظيم الداخلي لشؤون التجارة العالمية. لكن المهم أن هاشم بن عبد مناف هو الذي نجح في عقد اتفاقات تجارية مع البزنطيين والأحباش واليمن، ولعله فعل ذلك حتى مع فارس الساسانية، (وقد يكون نال مساعدة إخوته وابنه. وخلاصة الاتفاقات هي أن قريش هي التي تؤمن القوافل وتنقل المتاجر من مكة إلى الشمال إلى بلاد الغساسنة وأسواقهم وإلى غزة (ومصر) ومنها. وهي التي كان لها الحصة الكبرى في نقل المتاجر من اليمن وإليها. وقد كان هذان الطريقان هما الأكبر والأهم. وكانت قريش بحكم هذه المكانة التي بلغتها، تتحكم في أكثر الطرق الفرعية التجارية التي أصبحت كلها تقريبًا تنتهي بمكة[٩]. وكانت بصرى سوقًا كبيرة.

وفيما يتعلق بالتجارة مع فارس فحريّ بالذكر أن زوال الحيرة قبيل ذلك سمح لمكة أن يكون لها نفوذ كبير. لكن الذي نود أن نقوله هو أن التجارة بين فارس وغرب الجزيرة العربية لم يكن لها دور كبير في عالم الاقتصاد العربي. ولعل السبب هو أن اتصال فارس بالعراق أيسر، وعندها تصبح تجارة العراق وفارس تتم في اتجاه بلاد الشام وأسواقها. أما الحبشة فقد كان اتصالها برًا بمصر متيسرًا وكان طريقًا مربحًا.

كانت القوافل التي تحمل المتاجر من مكة إلى ديار الشام كبيرة؛ فقد وردت أرقام تشير إلى ألف جمل أو حتى ألفين. وليس من شك في أن تنظيم مثل هذه القوافل كان أمرًا يحتاج إلى معرفة وقدرة وخبرة.

وقد قامت أحلاف مختلفة لكن أقواها وأعمها كان «أهل الحُمْس» وأعلنت مكة

«دار الحُمس»، وقد تألف هذا من قريش وسكان مكة وعشائر وقبائل أخرى متعددة كانت تقيم في أماكن مختلفة، وقد تكون حتى متباعدة [١٠].

كان مما استنته قريش، ولعله كان أيضًا من تخطيط هاشم، هو أن يكون للفقراء والمعوزين في مكة نصيب من الأرباح الوفيرة التي كان التجار يجنونها من رحلاتهم الصيفية والشتوية. إلا أنه مع الوقت قامت في مكة فئة فاحشة الثراء، ويبدو أن الكثيرين من هؤلاء كانوا يريدون أن يحصلوا على ثروات أكبر، كما أن القبائل المشاركة أخذت تتململ بسبب أن قريش كان لها الحصة الكبرى، وأرادت هي حتى أن تزيد حصتها. وإذن فالجو الذي كان هادئا ناعمًا بالخير في أواسط القرن السادس وما بعد ذلك بقليل، أخذت غيومه تتلبد في مطلع القرن التالي [١١].

لما دعا النبي (ص) جماعته إلى قبول رسالة الله تعالى قبل ذلك من أهل مكة عدد قليل. وبعد ثلاثة عشر عامًا هاجر إلى المدينة المنورة (٦٢٢م) حيث أقام دولة وأنشأ أمة. لكن حربًا اقتصادية ـ تجارية أصلاً ـ لم تلبث أن قامت بين المدينة ومكة. وما الغزوات إلا المظهر العسكري لهذه الخصومة، التي دامت حتى السنة الثامنة للهجرة لما فتح المسلمون مكة. إلا أن انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى بعد ذلك بسنتين (١٠ / ٦٣٢) وقيام حروب الردة، لم يتيحا للتجارة التي عرفناها من قبل أن تعود، ولو إلى جزء صغير من نشاطها. وجاءت الفتوح الأولى التي استمرت حتى نهاية خلافة عمر بن الخطاب، تقريبًا، وما كان من اليسير أن تعود التجارة إلى أسواقها وطرقها بعد كل هذا الذي حدث.

عوضت الفتوح عن نقص التجارة بالنسبة لكثيرين. فقد كان هناك الخروج الواسع النطاق من سكان الجزيرة الذين انضموا إلى جيوش الفتوح، وقد استقر الكثيرون منهم، إن لم يكن أكثرهم في البلاد التي فتحت. لكن أهم من ذلك، من حيث التعويض المباشر عن خسارة مورد الرزق كانت هذه الأموال من الفيء والغنيمة التي وقعت في أيدي الحكم والناس. ولما استن عمر بن الخطاب العطاء لأهل السابقة والمقاتلة رتق خرقاً قبل أن يتسع على الراتق، وأتاح للمال أن يصل إلى أيدي الناس.

وقبل أن تستقر أمور الدولة الجديدة قامت خلافات انتهت بحروب أهلية كان أثرها كبيرًا في قلقلة الوضع الاقتصادي عمومًا.

لكن قيام الدولة الأموية (٤١ـ ١٣٢ / ٦٦١ ـ ٧٥٠) جاء معه بأمرين كانا مهمين بالنسبة للتجارة العربية / الشامية خصوصًا. الأول، وجود فترتين كانت فيهما الدولة قوية نشيطة وعملها الإداري كان مشجعًا للتجارة بسبب الاستقرار، وهما أيام خلافة معاوية وابنه يزيد (٤١ ـ ٦٤ / ٦٦١ / ٦٨٣) وأيام خلافة عبد الملك بن مروان والذين تلوه (٦٥ ـ ١٢٥ / ٦٨٥ ـ ٧٣٤). ففي هذه الفترة الثانية عرِّبت الإدارة وعرِّب النقد وأصبح الإسلام واللغة العربية أمرين ملازمين للدولة الجديدة، والمجتمع الذي كان يتخذ شكله الجديد.

أما الأمر الثاني، فهو إتمام الفتوح. ومعنى هذا من الناحية التجارية البحتة، وهو أن التاجر الشامي مثلاً أصبح بإمكانه أن يتنقل بدون حاجز من حدود الصين وحوض السند إلى إيبريا. فبوابات التجارة جميعها فتحت إلى أبعد الحدود، وفي جميع الجهات، وزالت الحواجز التي كانت تقوم عائقًا في سبيل تنقل التجار.

صحيح أن الدولة الأموية ظهرت فيها شروخ عصبية واجتماعية وعقائدية ولم يرحم القوي ضعيفًا. لكن نحن معنيون بالتجارة وطرقها وأسواقها بين شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام، فلنر ما الذي تم في العصر الأموي.

(٤)

بلغت دولة الخلافة أقصى اتساع لها في أيام الأمويين (فما أضيف فيما بعد كان قليلا وهامشيًا في الغالب).

وكان الفتح أيام الراشدين والأمويين، سريعًا على نحو لم يعرف في إنشاء الامبراطوريات الواسعة من قبل. وبسبب هذين الأمرين أصبحت دولة الخلافة تتصف بشيئين هامين جدًا: أولهما أنها كانت مجموعة مناطق لكل منها زعيمها أو أميرها أو حاكمها، الذي يكاد يتصرف في أمورها تصرفًا مستقلاً، يعينه في ذلك مؤيدوه من قبيلته أو حلفائه أو الجنود الذين رأوا مصلحتهم في انتصاره ونصره. وكانت «العاصمة» تكتفي من هؤلاء القوم أن يعترفوا بسلطتها وأن يبعثوا ببعض الضرائب المحلية إليها. والواقع أنه حتى الثورات التي قامت في العصر الأموي لم تستهدف «الخلافة» من حيث أنها سلطة.. لكنها كانت تستهدف الشخص الذي يتولى السلطة. فابن الزبير مثلاً لم يثر ضد «الخلافة» ولكنه قام في وجه «عبد الملك»!

أما الأمر الثاني الذي نشأ عن هذا الاتساع في الرقعة ـ التي ضمت مناطق متباينة الموارد الاقتصادية والنشاطات الصناعية والتجارية ـ فهو أن دولة الخلافة كانت منطقة واسعة ذات إكتفاء اقتصادي وحضاري وثقافي خاص بها، بحيث يمكنها أن تطوره بحرية في المستقبل.

ومن هنا فإننا عندما نأخذ أنفسنا بدراسة العلاقات التجارية بين شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام، فإننا يجب أن ننظر إلى الأمر لا من حيث الترابط السياسي، بل من حيث العرض والطلب، الأمران اللذان أشرنا إليهما قبلاً. والتجارة كانت أمورها تجري بنجاح ـ إلا حين تقع الحروب على حدود طويلة ـ والمهم أن يتذكر واحدنا أنه إذا وجدنا ثيابًا معيّنة تباع في أسواق المدينة، وأنها جاءت المدينة عن طريق الشام، فليس معنى ذلك أنها شامية الصنع، إذ قد تكون قد حملت من تُستر في فارس.

وعلى كل، فقد تأثرت بلاد الشام نتيجة للفتوح العربية الإسلامية، ونتيجة للسلام والأمن اللذين سادا فيها أيام الأمويين (ولو أن المسألة قد تبدو نسبية)؛ ولذلك يترتب

علينا أن نضع أمام أنفسنا بضعة أمور أساسية:

أولاً: انسحب مع الجيوش البزنطية، عدد لا يستهان به من السكان الروم (عنصرًا)، لذلك خلت أماكن في البلاد استقر بها كثيرون ممن جاءوا مع الفتح وآثروا أن يظلوا في بلاد الشام. لكنّ عددًا من أهل القبائل فضلوا الاستقرار في البادية السورية، وخاصة في الجزء الجنوبي منها، الى جوار القبائل العربية التي كانت قد وصلت هناك وأقامت لنفسها كيانات سياسية أو غير ذلك[١٢]. ومن الملاحظ أن بلاد الشام لم ينلها ما نال العراق من تمصير المدن / المعسكرات، مثل البصرة والكوفة، ومستقرات أخرى، فالمدن الشامية لم يصبها أذى كبير لأن المعارك التي دارت حولها بالذات لم تكن عنيفة ولا مدمرة. والرملة هي المدينة الوحيدة التي أنشأها العرب في بلاد الشام.

ثانيًا: على أن خروج عدد من سكان بلاد الشام لم يعن أن البلد خلا من العناصر القادرة على صنع الأشياء وتشييد الأبنية. ذلك بأن عددًا لا يُستهان به من مهرة الصنّاع ظل في البلاد. ودليلنا على ذلك ما تم على أيدي هؤلاء وأضرابهم في العصر الأموي، فقد وجد معاوية عددًا كبيرًا يسر له أن يجمعهم في دور الصناعة في عكا كي يعنوا بشؤون السفن لإنشاء الأسطول. وقد كان في صور وبيروت وطرابلس دور صناعة وكان فيها صناع شاميون[١٣].

ولعل الأبنية التي قامت في بلاد الشام في العصر الأموي والزخارف الموجودة فيها أكبر دليل على أن التقاليد الفنية التي عرفتها البلاد لم تنزح جميعها عنها. ولنشر فقط إلى قبة الصخرة والمسجد الأقصى والجامع الأموي في دمشق والقصور الأموية في البادية[١٤]. وقد ورد عند المقدسي قوله: : وقد ألبست حيطان الأروقة [في مسجد مكة] من الظاهر بالفسيفساء حملها إليها صنّاع الشام ومصر[١٥]

وقد أقام الأمويون في بلاد الشام ثمانين منشأة أكثرها مدني، وفي أكثرها، فضلاً عن فن المعمارالمهم، زخرفة هي قمة في الفن، بما في ذلك الصور الجميلة[١٦].

ثالثًا: الى هذا كله يجب أن نذكر أن بلاد الشام أصبحت دار ملك وفيها عاصمة دولة تقتعد رقعة واسعة من الدنيا، وأن هذه الدولة ورثت دولتين ـ في أجزاء منها في الواحدة وفيها كلها في الأخرى ـ متحضّرتين، وان الأمويين حتى أيام كان معاوية واليًا لبلاد الشام، رأوا أن إقامة مبان شبيهة بمباني البزنطيين، والتشبّه بهم في اللباس والعيش هو أمر طبيعي، وفي مصلَحة الدولة الجديدة.

ولنذكر أن رجال هذه الدولة الجديدة كانوا في أكثر الحالات من أغنياء قريش وممن عرف بلاد الشام، وحتى مصر، معرفة دقيقة. وقد تملك بعضهم الأراضي في

بلاد الشام[١٧] . وإذن فقد ترتب على هذا كله أن تعود إلى بلاد الشام أموركثيرة مما عرفته قبلاً في الصناعة.

رابعًا: كانت بلاد الشام قد أتقنت صناعة الأقمشة من قبل، وفي القرن الخامس كانت تجيد صنع الأقمشة الحريرية. وكانت بيروت وصيدا وصور المراكز الرئيسة لهذه الصناعة وخاصة لنسيج حريري سماه التجار يومها «نيما». كما أن جبيل وصور وبيروت واللاذقية حمل تجارها الأقمشة الكتانية المصنوعة فيها إلى أنحاء العالم. وكانت قيسارية وصور وصرفند تعد الصباغ الأرجواني الصحيح، وكان البروكاد، وهو قماش الحرير الذي تدخل خيوط ذهبية في حياكته، هو الأكثر رواجًا بين حرائر ذلك الوقت[١٨] .

لكن جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) سن قوانين أدت إلى احتكار صنع الحرير الممتاز وصبغه بالأرجوان لمصلحة بزنطية أو القسطنطينية على التحديد. وحدد نقاط مرور الحرير (وغيره من السلع) بين الدولة الساسانية وبلاده. أما بعد الفتوح العربية الإسلامية وبعد أن أصبح الملك الساساني بكليته جزءاً من دولة الخلافة، فقد ألغيت هذه القيود عمليًا؛ وأصبح نقل البضائع حرًا، بحيث كان من الممكن لبلاد الشام أن تعود إلى صنع الأقمشة الحريرية بأصنافها المختلفة باستثناء الحرير الأرجواني الذي ظلت القسطنطينية تحافظ على سر صنعه وتقيّد تصديره[١٩] .

خامسًا: نعود هنا إلى الناحية الاقتصادية البحتة من حديثنا في بلاد الشام، وفي غيرها من مناطق دولة الخلافة، الأمن منتشر (ولو نسبيًا)؛ واليد العاملة موجودة سواء في ذلك اليد الصناع أو اليد العادية؛ وأحفاد العمال والمهنيين الذين استدعاهم جستنيان للعمل في بناء كنيسة أيا صوفيا في عاصمة ملكه كانوا لا يزالون موجودين في بلاد الشام؛ والأمر الذي يمكن أن يدير دولاب العمل في الصناعة (والزراعة) والبناء والزخرف .

فلما اعتزم عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦ / ٦٨٥ - ٧٠٥) بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس لبّى المهندسون والبناؤون والفنانون نداءه. ولما نوى الوليد ابنه (٨٦ - ٩٦ / ٧٠٥ - ٧١٥) أن يقيم في عاصمة الدولة صرحًا للإسلام يتسق مع عظمة دولة الخلافة، استجاب مثل هؤلاء لندائه. قد استعان بغير الشاميين. ثم إن المنشآت الأموية الكثيرة والمنوعة من قصور إلى جوامع إلى حمامات إلى مصانع للماء إلى حصون إلى قني للماء إلى طرق للبريد - جميع هذه وجد من يبنيها ويحسن صنعها.

إذن، فليس ما يمنع من قيام الصناعات الصغرى كالنسيج والحياكة والصياغة وغير ذلك، إذا وجدت السوق.

(٥)

كانت بلاد الشام في أيام الأمويين، دار الخلافة ومستقر شؤون الدولة، وكانت دمشق العاصمة، على الأقل من الناحية الرسمية؛ فضلاً عن ذلك فقد كان للخلفاء الأمويين أماكن يقيمون فيها مددًا متفاوتة في الطول، ويديرون شؤون الدولة منها. من هذه الأماكن : القدس (أيام عبد الملك بن مروان)، المفجَر شمال أريحا للشتاء (هشام ابن عبد الملك) الصنبرة (الوليد بن زيد) والرملة (سليمان بن عبد الملك) والرصافة (هشام بن عبد الملك) وحرّان (مروان بن محمد)[٢٠].

وهذا معناه أنه فضلاً عن البلاط الرئيس في دمشق قامت في بلاد الشام بلاطات أخرى؛ والبلاط له مبانيه ومغانيه، وله الرجال الذين يحيطون بالخليفة مستشارين أو مساعدين لما ينتدبون له، أو رواة أدب وشعر وقصص وتاريخ، أو ندماء في ساعات اللهو والفراغ، أو حرسًا يدفعون عنه السوء والشر. ولم يكن عدد هذه الفئات مجتمعة بالقليل. هذا إلى عواصم الولايات والمدن الكبيرة التي لم تفقد سكانها ومكانتها.

ومجالس البلاط، على تنوعها، لا بد لها من هيئة خاصة، تظهر في اللباس وتبدو في الأثاث وتبين في الآلات المختلفة للمناسبات المتعددة.

ووجود البلاطات هذه أدى إلى قيام طبقة أو فئة من الناس كان لا بد لهم أن يجاروا صاحب السلطة في لباسه وطعامه ومجلسه وهيئته.

وقد وجد المال بين أيدي الناس. فهناك الفيء والمغانم التي انتهى أمرها إلى رجال الحكم أولاً، وإلى غيرهم ممن منحوا العطاء أو عملوا في التجارة أو الزراعة أو في الخدمة. ولا يجوز أن ننسى الجند، الذين كان لهم دور كبير، والفتوحات جاءت، في أواسط عهد الدولة الأموية، على أشدها وأوسعها.

ونحسب أنه من نافلة القول ان نشير إلى أن مستوى المعيشة كان مرتفعًا؛ فالذين ألفوا الحياة الطبيعية من قبل استمروا فيها وأضافوا إليها، والذين دخلوا هذا المجال مجددًا سرعان ما جاروا الأولين.

والطرق بين بلاد الشام، من الجهة الواحدة، والعراق والجزيرة العربية وحتى بزنطية، من الجهة الأخرى، كانت مفتوحة ومتعددة. وهذا كله يتطلب إنتاجًا منوعًا كي يلبي الحاجات. ومن هنا كانت عودة الصناعة إلى نشاطها على ما مرّ بنا.

وإذا كانت ببلاد الشام قد نشطت أمورها، فقد كانت بلد الخلافة، ولكن الحجاز الذي انحسرت عنه الخلافة من أيام علي بن أبي طالب (ر) عرف في أيام الأمويين درجة من الرفاهية وسعة العيش والعناية بالأدب واللهو والمجون، واتخاذ القصور الجميلة، هذا إلى جانب نضج العقلية الدينية في مدنه.

ففي المدينة كان كل هذا يسير جنبًا إلى جنب، وفي متنزّهها العتيق، كانت

الأوقات تخصص للهو ومجالسه وأنديته.

وإذا جاءت مضايقة أموية في المدينة، رحل كثيرون من أهلها إلى مكة، ومصيفها الطائف. والمهم أن الثروة التي انصبت في الحجاز في تلك الأيام، فيئًا وعطايا وهبات وهدايا والتي كانت تصل القوم بمبالغ طائلة، مكنتهم من هذا العيش الرغد الطيب الهنيء الوديع، ويسرت لهم بناء العديد من القصور واقتناءالخدم والرقيق والجواري ؛ والاستمتاع بالرحلة والأدب وما إلى ذلك ؛ والانصراف إلى اللهو سباقًا وصيدًا وما بينهما.

هذه القصور وسكانها، مثل قصور الشام وسكانها، كانت بحاجة إلى البنّاء الماهر والنجار الحاذق ، وإلى القماش المنوع الأشكال والألوان للسجوف ولتغطية الجدر والأقمشة الناعمة تتخذ منها النساء ثيابها، والحلي الأنيق وكل هذا كان باهظ الثمن، لكن يبدو ان فئة لا يستهان بها من أهل الحجاز كانت تستطيع أن تدفع، وبشيء من اليسر، المبالغ الطائلة ثمنًا لهذه الأشياء.

وكان موسم الحج بركة ونعمة على الحجاز،مع أن الذين قد اعتنقوا الإسلام كانوا بعد قلة نسبيًا، ذلك بأن الخلفاء والأمراء والأثرياء كانت لهم من مظاهر العظمة والبهجة ما يسر، ومن الإنفاق ما ينعش الصانع وصاحب الخان ومهيىء الطعام ومطوّف الأنام. كل هذه كانت سبيلاً للإنفاق. لذلك فقد كانت «السوق» في أيام الحج تنتعش وتنتعش معها النفوس إيمانًا وإفادة[٢١].

وإلى الشمال من بلاد الشام كانت القسطنطينية،عاصمة الدولة البيزنطية ، تحتاج إلى كميات كبيرة من العطور والطيوب والتوابل والبخور والمواد الطبية والأخشاب المعطرة والحجارة الكريمة. وهذه السلع كانت تصل المنطقة ـ وعبر بلاد الشام ـ إما عن طريق الحجاز وشمال الجزيرة العربية أو عن طريق الخليج العربي وعبر البصرة وأواسط العراق إلى شماله حيث تنقل إلى بيزنطة، في الغالب، عبر الطرق التي تجتاز طوروس (الشامية/ الأناضولية). وفي طريقهم كان التجار يفيدون من الثغور الشامية والعواصم إراحة وتبادل السلع ـ من مَلطية شرقًا إلى إنطاكية غربًا.

هذه ثلاث أسواق كبيرة فيها قوم يعيشون في مستوى رفيع، ويستطيعون أن ينفقوا في سبيل ذلك. ولنكتف بهذه الأسواق، ولننتقل إلى أماكن الإنتاج لنعيّن موقعها، ثم ننقل سلعها إلى الأسواق، على أن نركز على الطرق العربية ـ الشامية بشكل خاص. ولن نتحدث عن دولة الخلافة بكليتها، ولكن نختار منها بلاد الشام ومصر وفارس ونضيف إليها بيزنطة، وهي من المناطق التي تؤثر مباشرة في الأسواق التي ذكرنا؛ وتكفينا مؤونة التفصيل.

لنبدأ بالأبعد، أي فارس، وحري بالذكر أن مصادرنا متأخرة قليلاً عن العصر الأموي، لكنها تعكس، ولا بد، ما كان في البلاد قبل أيام المؤلفين، الذين هم من أهل القرنين الثالث والرابع / التاسع والعاشر. فالأصطخري (الذي عاش في النصف الأول من القرن

الرابع / العاشر) يجمل ما يصنع في خوزستان وفارس من أصناف القماش الجيد الذي يغلب خيط الحرير على القطن في الديباج (في تُستر) والخزوز وطراز السلطان (في سوس وقرقوب) والطراز الموشى بالذهب في فِسا) والقز الموشى بالشعر (قرقوب) والثياب الكتانية (في سينيز وجنّابه وكازرون وتوج) والقطن (في بَم) والبطائن في زرند[٢٢].

وقد أورد ابن الفقيه الهمذاني (ت ٣٣٤ / ٩٤٥) أن بلاد الروم (البزنطيين) تنتج الأبقار والخيول والخراف وينمو فيها الميعة (*Styrax*) والمصطكى ويظهر المرجان الأحمر في شواطئها ويصل إليها الرقيق الصقلبي (والخصيان بشكل خاص) وتصنع البروكار الرومي الممتاز. وهذه هي السلع المطلوبة[٢٣]!

وبلاد الشام يتنوع النتاج الزراعي فيها إذ إننا نجد فيها الرز والزيتون والتين والعنب والتفاح والنخل وقصب السكر والعسل والحنطة والقطن ويصنع فيها السكر والخمور والأقمشة القطنية. ومن الصناعات المعروفة في دمشق (ومن أيام الرومان) صناعة الأسلحة، وبشكل خاص السيوف والعدة الجلدية للخيول والجمال. وعُرفت دمشق وغيرها بصناعة النحاسيات، وقد روي أن أبواب الجامع الأموي كانت من الصفر المذهّب. وصاغة دمشق ماهرون في التفنن بصنع الحلى الذهبية السادة والمرصعة. وكانت إنطاكية تصنع الأقمشة الحريرية بحيث صدّرت منها إلى بلاد الروم. كما اشتهرت عسقلان بقزها. وكانت الأصبغة الشامية موضع اهتمام أصحاب الذوق[٢٤].

وحري بالذكر أن كمية الذهب التي وصلت إلى أصقاع المشرق العربي في العصر الأموي كانت كبيرة. وتعليل ذلك هو أن الذهب الذي كان مخزونًا في قصور الأكاسرة وكنائس بلاد الشام ومصر وأديارها قد أخرج من مخابئه، ونبشت كذلك بعض قبور الفراعنه. لكن المهم أيضًا هو أن العالم العربي الإسلامي أصبح يجذب إليه ذهبًا جديدًا من مناجم جديدة؛ منها مناجم جبال الطّاي وجبال أورال والتبت والدكن وأرمينيا والنوبة. لكن التبر الذي كان يصل من السودان الغربي (من ونكرة وما إليها) كان على ما يبدو، هو العنصر الرئيس في زيادة كمية الذهب المتداول[٢٥]».

ومصر كانت معدن صناعة الأقمشة الكتانية، فضلاً عن الحبوب المختلفة الأنواع التي كانت البلاد تنتجها، والسكر الذي كان يصنع فيها. وقد أوجز المقدسي (ت ٣٩٥ / ١٠٠٠) ذكر تجارات مصر فقال إنه يرتفع منها أديم (جلد) جيد والبطائن الحمر؛ والأرز والصوف والتمور والخل والزبيب والثياب الملونة، والقفاف والحبال والحصر، ودهن الفجل، والزنبق والبلسان والخل الجيد والموز وتكثر في مصر الأبقار والحمُر[٢٧].

أما الحجاز فالطائف كان فيها زبيب جيد، والتمور كانت بدرية. ووادي القرى كان عامرًا كثير التجار والأموال والعويند كثيرة العسل. هذا إلى ما كان يحمل إليه من

اليمن، وهنا تدخل الطيوب والتوابل والأفاويه وشيء من البخور والحجارة الكريمة، أي ما كان يحمل إليه من الهند وأندونيسيا والقرن الإفريقي.

(٦)

تحدثنا فيما سبق عن الطرق الرئيسة التجارية التي كانت تصل بين بلاد العرب وبلاد الشام: المدينة ـ البتراء ـ دمشق ـ وغزة المدينة ـ تدمر عبر العلا وتيماء والجوف (دومة الجندل)؛ ثم قبيل الإسلام مكة مدائن صالح (الحجر بصرى ومنها إلى دمشق وغيرها.

ومع أن الفتوح أدت إلى اضطراب في التنقل التجاري لبعض الوقت، فإن ذلك لم يطل أمده. ذلك بأن الناس لا يمكن أن يستغنوا عن الحاجات الأساسية في الحياة، ولما اطمأن القوم إلى شيء من الأمن وامتلأت جيوبهم، أصبحت حتى السلع الاستهلاكية (أو الكمالية كما كنا نسميها قبلاً) حاجة ضرورية. والتاجر سرعان ما يلبي طلب الناس ومطاليبهم. فضلاً عن ذلك فقد نشأت الآن حاجة ماسة جدًا لطريق ممهد مأمون يصل بلاد الشام بالحجاز تيسيرًا للناس للقيام بفريضة الحج إلى بيت الله الحرام .

وقد عني أولو الأمر من الخلفاء أصلاً حتى الولاة تبعًا ، بطريق الحج، وقد أخرج صالح درادكه أن الخلفاء الأمويين عامة والوليد بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك عُنوا بالطرق من حيث حفر المياه والآبار وتسهيل الثنايا وبناء الخانات، حتى وبناء المستشفيات[(٢٨)] .

وكانت هذه الطرق، بطبيعة الحال، يسلكها رجال الإدارة والبريد والجنود وكل من تحدثه نفسه بالرحلة والتنقل بقطع النظر عن السبب.

وقد عني الجغرافيّون الكتاب والبلدانيون، بالطرق في أنحاء ديار الإسلام. ولسنا ننوي أن ندرس الطرق دراسة مقارنة، ولذلك فإننا نكتفي بذكر طريق الحج وبعض تفرعاته في بلاد الشام على نحو ما أوردها ابن خرداذبة (ت وح ٢٧٢ / ٨٨٥)[(٢٩)] مكتفين بالإشارة إلى/ الأماكن المهمة على الطريق.

١ـ الطريق من قنّسرين إلى دمشق:

قنسرين ـ حماة ـ حمص ـ جوسّية ـ دمشق

٢ـ طريق الحج من دمشق ـ ذات المنازل (إذرعات؟): عمان ـ تبوك ـ مدائن صالح (الحجر) ـ وادي القرى ـ الرُحَيبّة ـ ذي خشب ـ المدينة المنورة ـ مكة المكرمة.

٣ـ طريق من دمشق إلى مصر: دمشق الرملة ـ غزة الفَرما ـ الفسطاط.

٤ـ طريق البريد : قنسرين ـ حماة ـ حمص ـ جوسية ـ بعلبك ـ دمشق.

٥ ـ طريق الحج المصري كان يلتقي بطريق الحج الشامي في وادي القرى. وحري

بالذكر أن الطريق الرئيسي للحج كانت له طرق موازية تقع إلى الغرب منه، فبدل أن تتجه من عمان إلى تبوك رأسًا (بطريق معان) كان بعضها يتجه من عمان إلى مادبا فمعين فحُسبان فأم الرصاص. والمرجح أن هذه التبدلات في الطريق كان سببها وجود المرعى أو انعدامه في فصل من الفصول. فالحج يقع في فصول متعاقبة، وحاجة الركب والدواب إلى الغذاء والكلأ تؤثر في اختيار الطريق.

وهناك بضع ملاحظات تتعلق بالطرق واتجاهاتها ومحطاتها حرية بأن تذكر، وهذه نجملها فيما يلي.

أولا: كانت المناطق الممتدة بين دمشق وجنوب الأردن مأهولة؛ وقد استمرت إقامة الأهلين هناك من أيام الرومان إلى العصر الأموي. وكانت الأرضين مستغلة زراعيًا استغلالاً جيدًا؛ أما تجمعات السكان فقد تنوعت من القرية إلى القصر إلى الحصن إلى البلدة الكبيرة[٣٠].

ثانيًا: التجمعات السكانية التي تعود إلى العصر الأموي، سواء منها القديمة أو الحديثة، كثيرة. وقد أخذ رفش رجال الآثار ومعولهم يكشفان اللثام عنها، ومن هنا معرفتنا. ولنذكر على سبيل المثال: أم الجمال (لعلها كانت البلدة الرئيسة في شمال الأردن) وجرش وإربد (أبيلا؟) وفحل (بال) وعمان ومادبا ومعين وحُسبان وأم الرصاص.

ثالثًا: كان قصرُ المُقوَّر، على الراجح نقطة التقاء طرق تتجه شرقًا وغربًا للوصل بين الطرق الشمالية الجنوبية.

رابعًا: كان الأزرق نقطة إنطلاق وادي السَّرحان في اتجاه جنوبي شرقي إلى تيماء والجوف (دومة الجندل). وهذا الطريق كان مهمًا بالنسبة لتجارة الشام منذ أيام الكلدانيين فكان استعماله قد يقل أو يتوقف، . لكنه كان يرجع. وقصر الحلابات يشاطر الأزرق بعض واجباته[٣١].

خامسًا: من المشكلات التي شغلت الباحثين خلال العقود الأخيرة القصور الأموية في البادية. فقد كان الرأي الشائع أنها كانت أماكن ينتجع فيها الخلفاء الراحة بعيدًا عن ضوضاء المدن . على أن هذا الرأي الذي ساد مدة طويلة صرف النظر عنه أو كاد، لأن الدراسات وأعمال التنقيب الأثري أدت إلى تبديل في النظرة. والشيء المقبول نسبيًا الآن هو الرأي الذي أبداه فواز أحمد طوقان (من الجامعة الأردنية) وخلاصته أن أكثر القصور كان من نوع الحائر لتيسير الصيد على هواته[٣٢]. هذا إلى آراء أخرى ليس الحديث عنها هنا مما يفيد بحثنا.

سادسًا: قمنا بزيارات لهذه القصور سنة ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ وبعد إمعان النظر في الأمر كتبنا يومها. ولكن لماذا بنى الخلفاء الأمويون أو أمرؤهم مثل هذه القصور؟

[المشتّى والخرانة والحلابات وقصير عَمرة وحمام الصرّح (أو الصرخ) والطُّوبة، هذا إلى الحير الغربي والحير الشرقي] إذ إنه من الثابت الآن أنها أموية - إما بناء أصلاً أو إصلاحًا أو توسيعًا... يقول أكثر الدارسين لهذه الظاهرة إن سببها رغبة الأمويين في العودة إلى الصحراء... ويضيف آخرون بأن الأموين كانوا يحبون الاتصال بالقبائل عن كثب... وهناك من يرى أن الأمويين أقاموا تجمعات سكانية زراعية في طبيعتها في إقطاعاتهم، فبنوا القصور ليكونوا قريبين من مزراعهم . وقد يكون هذا كله صحيحًا منفردًا أو مجتمعًا، ولكنه لا يفسر الظاهرة ، بل لا بد من أمر آخر يربط الأفكار والآراء بعضها بالبعض الآخر. ولذلك يجب أن نفتش عن مواقع هذه القصور وارتباطها بالطرق التجارية المؤدية إلى تيماء أو إلى الجوف (دومة الجندل) أوسواهما. لعل الدولة الأموية لم تحتج إلى إقامة حصون وقلاع في كل موضع قصر، ولكن الحاكم اليقظ لا يمكنه أن يتخلى عن مورد رزقه، والتجارة كانت مورد رزق كبير للأمويين. ولعل بعض هذه القصور كانت قد بنيت لا لحماية التجار من الناس، بل لحماية الناس من التجار، ممن قد يكونون متآمرين على الدولة الأموية.

والواقع أنه لا يمكن النظر إلى القصور الأموية من دون الأخذ بعين الاعتبار، ما الذي كان الناس - حكامًا وأهلين - يفعلونه في تلك المنطقة في العصر الأموي. وعندها تبرز قضية الطرق التجارية كعنصر هام، ولو أنه ليس الأهم أو الأوحد.

(٧)

يتضح من هذا الذي بسطناه أننا نجد سوقًا تتطلب أنواعًا مختلفة من السلع، يتفق كل نوع منها مع حاجة الناس أو ذوقهم أو مستوى المجتمع الذي هم أعضاؤه؛ ونجد أماكن تنتج حاجات السوق؛ كما نرى أن الطرق كانت مأمونة بحيث يمكن نقل الحاجات والمتاجر والبضائع من المنطقة المنتجة الى المنطقة المستهلكة - إلى السوق.

وإذن فلن يكون غريبًا أن تنقل الحنطة من بلاد الشام إلى الجزيرة العربية: في حجازها أو غيره. ويكون طبيعيًا أن يحمل الزيتون والزيت والصابون من مصانعه في بلاد الشام - وقد أشرنا إليها - إلى حيث يُستعمل ولا يصنع في الجزيرة.

وكانت خيول آسيا الصغرى أو الخيول الشامية تباع في أسواق الجزيرة فتنتقل عبر بلاد الشام. ولعل الكثير من هذه الخيول كان يجد طريقه، مع خيول الجزيرة (ومنطقة عُمان بالذات) إلى الهند بأعداد كبيرة سنويًا[٣٣] .

صفحات كتاب الأغاني والكتب الشبيهة به أو القريبة منه، تحدثنا عن القيان والخصيان والرقيق الصقلبي الذي كان يصل بلاد الشام عن طريق بزنطة[٣٤] ، من جهة، وعن طريق التجار الرّاذانية الذين كانوا ينقلون هذه السلع (مع غيرها) من

فرنْجة في البحر الغربي (المتوسط فيخرجون بأنطاكية، ومع أنهم كانوا يتمّون سيرهم إلى الأبلة (في العراق) الواقعة على طريق الخليج العربي ، فإن بعض هذه السلع كانت تظل في أسواق الشام تمهيدًا للاستهلاك المحلي أو للنقل إلى الجزيرة. هذا فضلاً عن تجار البر (لعلهم تجار الروس) الذين كانوا يأتون عن طريق طنجة إلى مصر ثم إلى دمشق ثم إلى بغداد. ولا يمكن أن نفهم من هذا أنهم كانوا يمرون ببضائعهم عبر الرملة ودمشق وغيرهما من دون أن يبيعوا بعض ما عندهم [٣٥] مقابل أشياء يحملونها من المدن الشامية، مثل الأقمشة الحريرية المنوعة والجيدة الصباغ. وهذه الأشياء التي تظل في الأسواق الشامية تنتقل بطبيعة الحال إلى حيث تحتاج. وكانت الجزيرة تحتاج هذه - أي سلع التجار الرّاذانية وتجار البر، وهي على رواية ابن خرداذبه، الخدم والجواري والغلمان وجلود الخز والفراء والسمور [٣٦] .

وقد كانت بلاد الشام معروفة بانتاجها عددًا من الحاجيات التي كانت تطلب في الكثير من الأسواق وأهمها النحاسيات والسلاح والحلي والأقمشة. وقد تحدثنا عن السلع الثلاث الأولى بما فيه الكفاية، من حيث أنها كانت توجد في أسواق الجزيرة؛ لذلك سنؤثر الأقمشة هنا بكلمة إضافية. ذلك أن دقة الصانع الشامي وذوقه الفني كان لهما أثر كبير في التفنن في صنع الأقمشة، الحريرية منها بشكل خاص. وهذه هي التي كانت مطمح السيدة الأنيقة والجارية اللعوب والراقصة الطروب. ولم يكن الرجل يمنع عن اتخاذ ثوب من الحرير المطرز أو إعتمار عمة من القماش الدقيق الرقيق، فإذا كان من أهل المجون كعمر بن أبي ربيعة وصحبه، وضع لغطاء رأسه زينة من القماش المذهب، أو لف نفسه في عباءة من البروكار المقصب.

وقد كانت دمشق تنتج من الأقمشة الحريرية أصنافًا كثيرة. فمنها الساميت وهو الذي تدخل في حياكته ونسجه ستة خيوط ملونة، وإن كانت يغلب عليها اللون الأخضر. كما كانت إنطاكية قد نبغت في صنع الحرير المزخرف بأشكال الورود والزهور، فيما كان الحرير المطرز بخيوط ذهبية من إنتاج صور.

ولم يكن المهم أن تنتج البلاد الأقمشة ولكن كان مهمًا أيضًا أن يتقن الخياط عمله، فيقص القماش وكأنه يستعمل لذلك مقصًا ذهبيًا. فلم يكن غريبًا والحالة هذه أن يغري الحرير الشامي حسان الحجاز فإذا لبسنه كنّ غواية للآخرين [٣٧] !.

جاء في الأمثال التي سمعناها صغارًا، ولعل مثقفي هذه الأيام لا يعرفونها، قولهم: «أعرج الشام وصل الهند». وتجار الشام في أيام الأمويين كانوا ورثة قرون طويلة في العمل التجاري، داخلاً وخارجًا. وفي العصر الأموي كانت قد انضمت إليهم تجربة قريش مكة ومعرفتهم في أحوال السوق. فليس غريبًا والحالة هذه أن تكون التجارة في ذلك الوقت نشيطة بين بلاد الشام وشمال الجزيرة، وقد كانت لنا من قبل أخبار متفرقة في كتب الأدب والجغرافية والتاريخ، أما الآن فقد انضم رجال الآثار الذين يزودوننا بمعلومات أساسية لا يجوز تجاهلها [٣٨] .

الهوامش

(١) Nigel Grom, ***Frankincense and Myrrh*** (Longman, London and Librarie du Liban, 1981) cc 2,9 & 10.

(٢) نقولا زيادة: **شاميات**، لندن: (رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٨٩)، ص ٣٤ ـ ٣٥ ، Richard Bulliet, the *Camel and the Wheel* (Cambridge, Mass, 1975) pp 56, 78 -84.

(٣) Grom, cc. 9 & 10.

(٤) زيادة، **شاميات**، ص ٤٠ ـ ٤٢ .

(٥) M. A. Shaban, ***Islamic History*** *A.D.* 600-750 *(A. H. 132),* (Cambridge, 1971), p 2; See M. J. Kister *Al-Hira, arabica,* vol XV. 1968, 1968, 143-169.

(٦) Groom, pp 16-181.

(٧) نقولا زيادة: «تجارة الشام الخارجية وطرقها في العصر العباسي (بين سنتي ١٣٢، ٤٥١ هـ / ٧٥٠ و ٤٥١ هـ / ٧٥٠ و ١٠٥٩ م) بحث قدم إلى المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (الخامس) آذار / مارس ١٩٩٠، ص ٨٠ ٨٠ ـ ٩٢ R. S. Lopez, "Silk Industry in the Bys. Empire", ***Speculum,*** XX(1945)PP1-42

(٨) نقولا زيادة: التجارة في البحار الشرقية في العصور القديمة » معد للنشر في مجلة الجامعة (جامعة اليرموك) قسم ثان/ ص ٣-٧ .

(٩) رأي شعبان يرتكز إلى دراسات مفصلة لكستر هي M.J. Kister "Mecca and Tamim " *Journal of* ***Economic and Social History of the Orient*** *and* "The Market of the Prophet" *Ibid,* pp. 272-276 Also ***Al-Hira*** See n. 5 above.

راجع أيضًا ناصر بن سعد الراشد «تعامل العرب التجاري وكيفيته في العصر الجاهلي» في: الجزيرة العربية قبل الإسلام، الكتاب الثاني من دراسات تاريخ الجزيرة العربية (الرياض، مطابع جامعة الملك سعود ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) ص ٢٢٣ـ ٢٢٧؛ راجع إحسان عباس، **تاريخ بلاد الشام**، (عمان ١٤٠١ / ١٩٩٠) ص ١٦٣ـ ١٧٢.

(١٠) Shaban.

(١١) راجع حول العلاقات التجارية والسلع المتبادلة بين الحجاز وحوران قبل البعثة النبوية *Maurice Sarfe*, "Le. Hawran Byzantin à la Veille de la Conquête Musulmane", Proceedings of the IV International Conference on Bilad al-Sham (Amman, 987), pp 155- 167.

(١٢) نقولا زيادة، «تموين الجيوش العربية الإسلامية أثناء فتوح بلاد الشام»، في: بلاد الشام في صدر الإسلام الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت وإحسان عباس (عمان ١٩٨٧)، ص ١٦٦ـ ١٦٧ .

(١٣) نقولا زيادة، «الاسطول العربي في أيام الأمويين» بحوث في تاريخ بلاد الشام العصر الأموي، تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد يوسف العبادي (عمان ١٩٩٠) ص ٤٩و ٥١ و ٥٧ـ ٦١ و٦٦ . صحيح أن أقباط مصر وبعض رومها عملوا في الأسطول الشامي، لكن سكان البلاد الشامية كان لهم الدور الأكبر؛ راجع أيضًا قدامة بن جعفر، **كتاب الخراج وصنعة الكتابة** (ليدن ١٨٨٩)، ص ٢٥٥ عن صناعة المراكب في صور.

(١٤) أمر الأبنية الدينية والعناية بها معروف، لكن وصف المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧ لزخرف جامع بني أمية بدمشق حري بالاهتمام. راجع أيضًا: فواز أحمد طوقان. **الحائر**، بحث في القصور الأموية في البادية (عمان، ١٩٧٩) في أماكن مختلفة حيث يورد المؤلف أوصافًا للزخارف مع الصور والرسوم.

(١٥) المقدسي، محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم** (ليدن ١٩٠٦)، ص ٧٣ .

(١٦) طوقان، **الحائر**، ص ٥٧ ـ ١١٤، ٢٣٩، ٢٦١ـ ٢٦٣، ٤٠٣ ـ ٤٣٨ . وهكذا فإن أحفاد مهرة الصناع والفنانين الشاميين الذين استدعاهم جستنيان للعمل في كنيسة آيا صوفيا، والذين صنعوا الفيسفساء في الأردن وغيرها من الأقطار الشامية، كانوا لا يزالون يتقنون الأعمال الفنية المختلفة.

(١٧) زيادة، صدر الإسلام، ص ١٦٧ .

(١٨) Luce Voulnois, *Silk Road,* (New York, 1966), p 121.

(١٩) زيادة، **بحوث**، ص ٧٣ .

(٢٠) زيادة، **العصر الأموي**، ص ٣١١ ـ ٣١٤ .

(٢١) راجع جبرائيل جبور، **عمر بن أبي ربيعة**، الجزء الأول (بيروت، ١٩٣٥)، ص ٢٩ ـ ١١٦؛ الجزء الثاني (بيروت، ١٩٣٩) ص ٣٨ ـ٤٠، ٦٨، ١٠٩ ـ ١٣٦؛ فيليب حتي وأدوار جرجي وجبرائيل جبور، **تاريخ العرب**، ط ٧، جديدة ومنقحة، (بيروت، ١٩٨٦)، ص ٢٨٨ـ ٣٠٣؛ فواز أحمد طوقان، **الحائر**، ص ١٣٢ هامش ١١٦ (إلى ص ١٣٤).

(٢٢) الإصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي، **المسالك والممالك** ، تحقيق محمد جابر عبد العال العيني (القاهرة ١٣٨١ هـ ١٩٦١/م) ص ٦٤، ٩٢، ٩٩، راجع أيضًا ابن حوقل، أبوالقاسم، **كتاب صورة الأرض** (ليدن ١٩٣٩، تصوير بيروت لا. تا.)، ص ٢٣١، ٢٣٩، ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

(٢٣) الهمذاني ابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان** (ليدن) ص ١٤٨ (الترجمة الفرنسية) ص ١٧٦ .

(٢٤) زيادة، تجارة الشام الخارجية في العصر العباسي، ص ١٠١ـ١٠٢ ١١١، ١٢٠موريس شهاب **دور لبنان في تاريخ الحرير**، الإصطخري، ص ٤٤ـ ٤٦؛ ابن حوقل ص ١١٦ـ ١٦٩؛ المقدسي، ص ١٦٠ـ ١٦٢، ١٧٤، ١٨٠ـ ١٨٤؛ Boulnois, pp. 181-184.

Maurice Lombard, *l'Islam dans sa première grandeur (VIIIe-XIe Siecle)*, (Paris, 1971),p 185; ibid, *les metaux dans l'ancien monde du Ve au XI siecle* (Paris, 1974) pp 211-222.

(٢٥) زيادة، **تجارة الشام الخارجية في العصر العباسي**، ص ١٠١ـ ١٢٠ .

(٢٦) المقدسي، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٣ .

(٢٨) صالح درادكه، «طريق الحج الشامي في العهد الأموي» بلاد الشام في العهد الأموي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت (عمان، ١٩٨٩)، ص ٤٣٧ ـ٤٣٩ .

(٢٩) ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبدالله، **المسالك والممالك**، (ليدن، ١٨٨٩)، ص ٧٧ـ ٧٨ ،٩٨، ١٥٠؛ من رغب في دراسة مفصلة عن طريق الحج الشامي في العهد الأموي عليه بالفصل الذي كتبه صالح درادكه، العهد الأموي، ص ٤٢٧ـ ٤٦١ (راجع الهامش السابق).

(٣٠) Asem N. Barghouti, "Urbanization of Palestine and Jordan in Mellenistic and Roman Times" A Hadidi (ed), *Studies in the History and Archaeology of Jordan, vol. I (Amman 1982), pp 209-230;* Anthony MaNicoland Alan Walmsby, "Pella/Fahl in Jordan During the Early Islamic Period", *(Ibid),* pp 339-346 G. Bisheh, "Qaser al-Hallabat: an Umayyad Desert Retreat or Farm Land" *Studies, vol.II,* (Amman, 1985)pp 263-266; Michele Piccirillo, "Rural Settlements in Byzantine Jordan", *Studies, vol. II, pp* 257-259; Alistafi killick "Udrij and the Trade Route through Southern Jordan"*Studies, vol.II (Amman, 1987), pp 173-180; G Bisheh,* "Qasr al-Inshatta in the Light of a Reccently Found Inscription", *Studies,* Vol. III, pp 193-198, A.G. Killick "Udruh and the Early *Islamic* Conquests",Muhammad Adnan Bakhit (ed). *Proceedings of 2eme Sumposium on the History of Billad al- Sham,* English and Frensh papers) vol. I (Amman, 1987, pp. 63-72; Ghazi Bisheh,"Qasr Mshash and Qasr' Ayn al- Sil", M. Adnan" Bakhit and Robert Schick (eds.). Proceedings of the *Third Symposium of 1987,* English section vol.II (Amman, 1989), pp 81-103' G.R.d. King, "the Umayyad Qusur and Related settlements in Jordan", Ibid., pp 71-80.

(٣١) Ibid.

(٣٢) فواز أحمد طوقان ـ **الحائر**، بأجمعه يتناول هذه القصور وغيرها .

(٣٣) زيادة، تجارة الشام الخارجية في العصر العباسي، ص ١٢٤ـ ١٢٦ .

(٣٤) صلاح الدين عثمان هاشم «الصقالبة ببلاد الشام في زمن الأمويين مع إلقاء نظرة على الدراسات الإسلامية عن الدولة الأموية»، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي، تحرير محمد عدنان البخيت (عمان عدنان البخيت (عمان، ١٩٨٩)، ص ٢١٨ـ ٢٨٤ .

(٣٥) ابن خرداذبة، ص ١٥٣ـ ١٥٥ .

(٣٦) ابن خرداذبة، ١٥٣و١٥٥ .

(٣٧) Boulnois, pp 182-185

(٣٨) راجع الهامش (٣٠).

تجارة بلاد الشام الخارجية ١٣٢-٤٥١هـ

(١)

يبدو أن علاقات تجارية من نوع ما، كانت تقوم بين المناطق الواقعة على سواحل البحر المتوسط والبلاد التي تمتد إلى الشرق منها حتى المحيط الهادي (أي الصين) منذ أزمنة قديمة، واصبح هذا التواصل التجاري شيئًا قويًا وفعالاً في القرنين الأولين للميلاد. في هذه الفترة كانت أربع دول تتولى شؤون المنطقة الواسعة هي: أسرة هان المتأخرة في الصين (٢٥- ٢٢٠م). والأمبراطورية الرومانية في الغرب. وكانت دولة كوشان الهندية تحتل شمال الهند وأفغانستان (حول ٤٠ -٢٢٠م) فيما كانت دولة الفرثيين تحكم إيران والعراق وما إليها (حول ٢٥٠ ق. م. - ٢٢٦م) وهذه الدول الاربع، مع ما قد يحدث بينها من نزاع أو خلاف أو حتى قتال، فإنها كانت تشجع التجارة فيما بينها، بحيث أن التجار كانوا يشعرون بالأمن. في هذه الأحوال نشأ الطريق البري - الصيني الشامي - المعروف باسم طريق الحرير [١].

ومن الطبيعي أن طريقًا بريًا يزيد طوله على أحد عشر ألف كيلو متر، ويجتاز أنواعًا مختلفة من الأرضين، بين جبال شاهقة وصحار محرقة، ترصعه واحات قليلة ويتعرض لغزوات القبائل المختلفة - إن طريقًا من هذا النوع لا بد أن يتعرض إلى فترات تختلف أمناً وسلامة، بحيث قد يتوقف السير فيه بالمرة، ولو لعقود قليلة. إذ إن الأمر يعتمد على من يحكم الرقعة الأساسية الحساسة في قت ما.

ومن هنا فقد قام في موازاة هذا الطريق البري، وإن كان متأخرًا عنه بعض الوقت، طريق بحري يصل موانىء البحر الأحمر وجزيرة العرب الجنوبية، مثل عدن وقرنا (عش الغراب ورأس فاتك، ورأس غودفروا في القرن الإفريقي وموانىء الخليج العربي في الجهة الغربية من المحيط الهندي بالموانىء الهندية الواقعة في الساحل الغربي لبلاد الهند مثل بربريكون (باهار ديبور) وبريغازا (برواخ) وموزيريس - كرنْغامور) وبموانىء سيلان.

لسنا هنا بمعرض الحديث عن أي من الطريقين - البري أو البحري - ولو حتى باقتضاب. لكن كان لا بد من الإشارة إلى ذلك كي نذكر أنفسنا بأن الاتصال التجاري بين الجهات القصوى من آسيا في الشرق ومنطقة المشرق العربي هو قديم العهد. وعلى هذين الطريقين كانت السلع تنقل من الغرب، وفيها: زيت الزيتون والكهرمان والمرجان والخمور والأقمشة والزجاج والبخور والذَبْل (غلاف السلاحف) والحبوب

والذهب واللؤلؤ والعاج الإفريقي الجيد والتمور، فيما كانت الهند تبعث بالذهب والفولاذ الهندي والنحاس والأخشاب والبتل والأرز والدهون الهندية والسكر والعقيق والياقوت الأزرق والكحل والقطن [٢].

لكن المادة الرئيسة التي كانت موضع إهتمام المنطقة الغربية، والتي كانت تأتي من الصين ـ برًا أصلاً وبحرًا إلى درجة ما ـ هي الحرير! الحرير الصيني. ومن هنا فقد كان الاسم الغالب على الطريق البري هو طريق الحرير.

ولعل من أهم الأحداث التاريخية التي أثرت في الطريقين البري (خاصة) والبحري (إلى درجة أقل) هو قيام الدولة الساسانية (٢٢٦ ـ ٦٤١) والتي كانت تسيطر على إيران والعراق مع توسع شرقًا في أفغانستان وبعض منطقة كوشان القديمة، هذه الدولة كانت تشرف على الطريق البري ـ طريق الحرير ـ إشرافًا تامًا.

إلى الغرب من الدولة الساسانية كانت تقوم الدولة البزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) خليفة الأمبراطورية الرومانية. وكان الحرير قد عرف قماشًا في المشرق ومنطقة البحر المتوسط منذ القرن الثاني للميلاد، وأصبح القماش الحريري المصبوغ بالأرجوان في المدن الشامية، وخاصة اللبنانية منها، مما يطمع فيه كل صاحب سطوة أو جاه أو ثروة [٣]، بحيث كان توقف وصوله من الصين يؤدي إلى أزمات.

وقد كان باستطاعة الساسانيين أن يسيطروا على تجارة الحرير سيطرة تامة فدولتهم تقتعد الطريق البري الرئيس وتفرعاته، وتسيطر على طريق الهند/ الخليج العربي البحري. ومن هنا نجد الدولة الرومانية، ثم البزنطية بعدها، كانت مستعدة لعقد اتفاقات مع الساسانيين حول تجارة الحرير. ففي سنة ٢٩٧م عُقد بين ديوقليتان امبراطور روما. ونرسيس ملك فارس، اتفاق يقضي باعتماد مدينة واحدة هي نصيبين (أو نزّب) ممرًا للحرير من فارس إلى روما. ولم يكن يسمح لأي اتفاق تجاري حول الحرير أو مبادلته بأي سلعة أخرى أن يعقد أو يتم إلا في هذه المدينة. وقد حرم هذا الاتفاق مدنًا تجارية أن تفيد من تجارة الحرير، ورؤي فيما بعد بأنه من الضرورة تيسير الأمر قليلاً فعقدت معاهدة بين هونوريوس وثيودوسيوس الرومانيين ويزدجرد الاول الفارسي (٤٠٨ / ٤٠٩ م) أضيفت بموجبه مدينة الرقة على الفرات وأرتشت (أرتكساتا) إلى نصيبين كمراكز لمرور الحرير. أما الاتفاق الذي عقد بين جستنيان وكسرى الأول (٥٦٢م) فقد اتخذ من نصيبين ودارو مركزين لمرور الحرير، وكانت مدة الاتفاق خمسين سنة [٤].

في القرن السادس نشطت التجارة في المحيط الهندي أيضًا، وكانت سيلان (سري لانكا) المركز الرئيس للتجارة بين غرب المحيط الهندي وشرقه (ومن ثم إلى أندونيسيا وجنوب الصين عن طريق بحري مباشر). وقد كان للساسانيين نوع من السيطرة أو الإشراف على هذه التجارة. والذي كان يهمهم بشكل خاص هو السيطرة

على نقل الحرير. فالدولة الساسانية، التي كانت تعرف تمامًا حاجة بزنطية للحرير واهتمامها به كانت حريصة على أن تحتكره سواء أتى برًا (وهو الأهم والأكبر) أو بحرًا. ويبدو أن اتفاقًا كان قائمًا بين الساسانيين من جهة ودولة أكسوم الحبشية، وهي الدولة التجارية الكبرى في غرب المحيط الهندي (بعد أن ضعف مركز مصر التجاري في البحر الأحمر نسبيًا)، على أن يظل الحرير حكرًا ساسانيًا، أي أن ينقل من سيلان عبر الخليج العربي فقط، فيما سمح لأكسوم وتجارها أن يعنوا بنقل الطيوب والأفاويه والتوابل إلى غرب المحيط الهندي والبحر الأحمر بقطع النظر عن مصدرها (وكانت مصادرها هذه يومها قد تعدت الهند إلى أندونيسيا)[٥].

وكان من الطبيعي أن يكون لبلاد الشام دور في هذه التجارة، وإن كانت الدولة البيزنطية، في محاولتها التحايل على الاحتكار الساساني لتجارة الحرير، قد حاولت الالتفاف حول الطرق الواقعة تحت السيطرة الساسانية، وذلك في محاولة لاستيراد الحرير عبر طريق شمالي يمر ببحر قزوين والبحر الأسود ويعتمد ميناء طربزون (على البحر الأخير) مركزًا تجاريًا[٦].

وقد كان للشاميين دور في هذه التجارة وكان لليونان واليهود إلى جانبهم حصة[٧]. على أن هؤلاء التجار جميعًا كانوا يقومون بعمل تجاري آخر في البحر المتوسط، وفي اتجاه الغرب. كان لبزنطية عمل تجاري جيد ولو أنه محدود مع ما تبقى من مناطق البحر المتوسط الغربية. إذ كانت حلقة الوصل بين الغرب (الأوروبي خاصة) الزراعي الغني والمشرق الصناعي؛ على أن هذا التبادل التجاري كان يقوم به التجار الشاميون واليونان واليهود[٨].

ومما يجب أن يذكر بهذه المناسبة أن الحرير نقلت بزوره وشرانقه إلى بلاد الشام وجوارها في القرن السادس للميلاد[٩]، لكن ذلك لم يقلل أبدًا من الحاجة للحصول على الحرير الصيني الأصلي، وذلك لسببين: الأول هو أن ما نتج من الحرير لم يكن في مستوى الحرير الصيني ، والثاني أن الكمية لم تكن كافية، حتى للأقمشة ذات الدرجة الثانية.

ولعل ما جرى بين الدولة الساسانية وبزنطية بسبب الحرير في أيام جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) يستحق أن يذكر هنا. كانت حروب جستنيان، خاصة في غرب حوض المتوسط تقتضي نفقات كثيرة. هذا إلى عنايته الكبيرة بإقامة الأبنية الرائعة في القسطنطينية. وكان احتكار الدولة البزنطية لصناعة الحرير على اختلاف أنواع أقمشته وصبغها مصدرًا مهمًا للخزينة. لذلك كان وقوف الساسانيين في طريق توصيل الحرير الصيني إلى مصانع البزنطيين الرسمية يّهدد موارد الخزينة. فلا بد من الحصول على خيوط الحرير الخام. وهنا رفع الساسانيون أسعار الحرير، وطالب التجار بأسعار أعلى للحرير ، وقامت خصومات بين أصحاب النفوذ في الدولة وبين

التجار الذين كانوا مضطرين إلى شراء الحرير عن طريق الساسانيين. وبعد أخذ ورد، وإصدار قرار لجستنيان بتحديد سعر الحرير، وانتشار السوق السوداء، عاد الفريقان الرسميان إلى الاتفاق سنة ٥٦٢ (بين جستنيان وكسرى) الذي ضمن وصول الحرير إلى المصانع البزنطية لمدة خمسين سنة[١٠].

في مطلع القرن السابع وقعت حروب دامية بين البيزنطين والساسانيين؛ وقد إحتل الآخرون بلاد الشام، لكن هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) تغلب على خصومه أخيرًا واسترد ما استولوا عليه.

علي أن هرقل نفسه، الذي استعاد بلاد الشام من الساسانيين، خسرها أمام الجيوش العربية التي جاءتها من الجزيرة. وبعد معركة اليرموك (١٥ / ٦٣٦) وقعت بلاد الشام مجزأة تحت الحكم العربي ثم تبعتها مصر، وفي سنة ٢٢ / ٦٤١ كان العرب يقضون على الإمبراطورية الساسانية. وهكذا في العقود الأولى من القرن السابع أنشأ العرب أمبراطورية تمتد من حدود فارس الشرقية شرقًا إلى ليبيا غربًا. وفي مطلع القرن التالي توسعوا شرقًا إلى ما وراء النهر وحوض السند واتجهوا غربًا عبر الشمال الإفريقي إلى شبه جزيرة إيبريا.

(٢)

ماذا كانت النتيجة الفعلية لهذا الأمر من حيث علاقته بالتجارة والطرق التجارية، والبرية منها خاصة؟

قبل الفتوح العربية كان الشرق تغلب عليه الصين والساسانيون، مع إحتمال قيام القبائل التركية بهجوم على الدولة الأولى فتتعطل وحدتها إلى أن يأتي من ينقذها، وقد جاءت أسرة تانغ *Tang* التي حكمت بين سنتي ٦١٨ و ٩٠٦، فوحدت الصين بعد تمزق، وقوّتها في أيام الإمبراطورين تيئاي ـ تسونغ *T'ai-Tsung* من ٦٢٦ـ ٦٤٩ وكاو ـ تسونغ *Kao-Tsung* الذي حكم من ٦٤٩ـ ٦٨٢؛ وقد كان الأول منهما معاصرًا لعصر الفتوح العربية الأولى. وإلى الغرب من هذه كانت تقوم الدولة الساسانية (التي انتهى أمرها سنة ٦٤١). وبين هذه الاخيرة وبين الدولة البزنطية حدود سياسية وعسكرية بطبيعة الحال، فضلاً عن الحدود التجارية التي كانت تعين نقاط انتقال التجار والسلع بين الساسانيين والبيزنطينيين. وكانت بزنطية تستطيع أن تجوب سفنها، ومعها السلع المطلوبة في البحر المتوسط. وبلاد الشام التي كانت جزءًا من الأمبراطورية البزنطية كان لها مشاركة في تجارة المتوسط غربًا والتجارة البرية شرقًا. فلما فتح العرب المناطق الشرقية وخاصة بعد الفتوح الأموية، واحتلوا المناطق الغربية إلى إسبانيا؛ أصبحت ـ من الناحية العملية ـ الطرق مكشوفة لمن يريد أن يستعملها من حدود الصين إلى حدود اسبانيا؛ إنما ترتب على الدولة الأموية، كي تستغل الطريق

البحري الغربي أن يكون لها أسطول قوي يذرع البحر ويحافظ على البر. وهذا لم يتوفر للأمويين دومًا.

من هنا كانت التجارة البرية، وللشام فيها حصة، أيسر على الناس ما دام الأمن منتشرًا. أما البحر فقد كان للبزنطيين فيه دور لا يستهان به لولا أن الدولة لم تكن لها سياسة تجارية واضحة ،بل إنها كانت تخلط بين السياسة والحرب والاحتكار التجاري[١١].

من هنا، فقد كان دور بلاد الشام في تجارة البحر المتوسط في عهد الأمويين محدودًا. فالأسطول البزنطي كان باستطاعته أن يمنع التجار الشاميين من الوصول إلى فرنسا وما جاورها على ما كانت عليه الحال في القرن السادس ومطلع السابع، كما كان باستطاعته أن يمنع الشام من الاتجار مع مصر.

فضلاً عن ذلك فإن محاولات البزنطيين في تحويل التجارة إلى بحر قزوين والبحر الأسود، وهي السياسة التي بدأت في القرن السادس، قللت من كمية السلع التي أصبحت تُنقل عبر بلاد الشام. والملاحظ أن مصر أفادت بعض الشيء بسبب ازدياد التجارة البحرية في المحيط الهندي والبحر الأحمر. لكن الأمويين لم يعنوا بالخليج العربي وصلته بالمحيط الهندي. فقد كانوا، في الدرجة الأولى، دولة برية، حتى بالنسبة للشمال الإفريقي. وكان من الضروري أن تقوم الدولة العباسية، وتنتقل من بلاد الشام إلى «سُرّة العراق» وتقيم عاصمتها في بغداد، حتى تصبح العناية بالخليج العربي أمرًا طبيعيًا. فالدولة العباسية، من هذه الناحية هي الوريثة العملية/ الطبيعية للدولة الساسانية؛ هذا فضلاً عن تشجيع التجارة البرية الشرقية.

أما في البحرالأبيض المتوسط فقد كان بعد للبزنطيين دور مهم. ذلك بأنهم، خلال المدة بين ١٣٤ و ٢١١ (٧٥٢و٨٢٧)، كانوا هم المسيطرون على البحر المتوسط. ولم يتح للعرب والمسلمين السيطرة على البحر المتوسط إلا حوالى سنة ٨٢٧، وهي سيطرة استمرت حتى سنة ٩٦٠ . لكن هذه السيطرة كانت، على العموم، للدول العربية التي قامت في صقلية والأندلس وشمال إفريقية. ولذلك لم يكن للمشارقة حصة فيها[١٢]. هذا باستثناء الحملة التي قام فيها ليون الطرابلسي سنة ٢٩١ / ٩٠٤ لما هاجم سالونيك[١٣].

(٣)

ونحن، عندما نحاول التعرف إلى التحرك التجاري الذي عرفه العالم العربي الإسلامي في القرون العباسية الثلاثة الأولى، كي ننفذ منه إلى قراءة في الدور الشامي في ذلك كله، يتوجب علينا أن نتنبه إلى أمور متعددة في غاية الأهمية.

وأول هذه الأمور هو هذا النمو السكاني الذي عرفته هذه الرقعة بعد أن تم

للعرب فتحها والاستقرار فيها. ويعود هذا النمو إلى عوامل مختلفة أهمها انتشار الأمن والسلام فيها بعد فترات طويلة من الفوضى والحروب، الأمر الذي يشجع على تزايد السكان. ثم هناك الهجرات الكثيرة التي كان العالم العربي الإسلامي يتلقاها عبر القرون الثلاثة. فهناك هجرة البدو من الصحراء إلى الريف الأغنى والمدن الكثيرة. وأبرز مظاهر هذا الانتقال البدوي تلك التي عرفها الشمال الإفريقي الذي أقصي بعض أهله نحو الصحراء عند بدء الفتوح، لكن بعد ذلك عاد هؤلاء أضعافًا إلى الأرض الطيبة، ولعل القبائل التي كونت جيوش الفاطميين أوضح الأمثلة على ذلك. وفي المشرق تم من ذلك الكثير ولكنه كان، فيما يبدو، انتقالاً مستمرًا، إلا أنه لا يخلو من فورات ولم يكن تنقل بني عقيل وبني كلاب في أنحاء العراق والجزيرة وبلاد الشام إلا نموذجًا لهذا التنقل (١٤). ومثل هذا يقال في الأكراد الذين تنقلوا بعض الشيء من جبال زغروس وجنوب شرق آسيا الصغرى جنوبًا وجنوبًا في غرب (١٥). وإذا تذكرنا الجند التركي الذي دخل المنطقة أيام المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ / ٨٣٣ ـ ٨٤٣) ومن خلَفه والذين استقروا في سامراء لنحو ستة عقود قبل أن يحملوا إلى بغداد وضواحيها ؛ ثم الأتراك السلاجقة الذين دخلوا رقعة الدولة العربية الإسلامية في القرن الخامس/ الحادي عشر، تأكدنا من أثر هؤلاء الأقوام في نمو السكان عددًا واختلاف عناصر.

فضلاً عن ذلك فلنذكر الرقيق الذي حُمل إلى الدولة العباسية، الأسود منه والأبيض، أي الإفريقي والصقلبي، وقد كان عدد الزنج في سواد العراق كافيًا لأن تقوم في المنطقة ثورة كان القضاء عليها مما أنهك الدولة العباسية (٢٥٥ ـ ٢٧٠ / ٨٦٩ ـ ٨٨٣). هذا بقطع النظر عما إذا كان الزنج بالذات كلهم رقيقًا أم لم يكونوا (١٦). وقد كان الاتجار بالصقالبة مورد رزق كبير لتجار الرقيق الذين كثر عددهم في الدولة العباسية. كما كان الخدم الصقالبة والجواري الروميات يُحملن إلى الدولة (١٧).

إلا أن الأمر لم يقتصر على ازدياد السكان في رقعة الدولة العربية الإسلامية، بل إن الذي لا يقل أهمية عن ذلك هو تجمع السكان في المدن الكبيرة والبلدان الأصغر حجمًا. ذلك بأن العرب بدأوا بتمصير الأمصار وبناء المدن أيام الخلفاء الراشدين؛ وسار الأمر كذلك أيام الأمويين. لكن نمو المدن الذي عرفته رقعة الخلافة في القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى من العصر العباسي كان أكبر وأعم. فعندنا على سبيل المثال بغداد بالذات، ولدينا القاهرة التي تلت زمانًا ومكانًا الفسطاط والعسكر والقطائع. وشهد الشمال الإفريقي قيام مدن كثيرة ونمو مدن أخرى في تلك الفترة مثل سجلماسة وتاهرت وتونس، ثم فيما بعد مراكش.

وإذا تذكرنا أنه منذ أيام الرشيد(١٧٠-١٩٣ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩) أخذ بعض متنفذة الأطراف في الدولة يقيمون دويلات ظلت تحت راية الخلافة، وأن كلا من هذه الدويلات كان لها عاصمتها وبلاطها، أدركنا المعنى الذي نرمي إليه من قولنا إن الحياة

المدنية تقوت ونضجت في هذه الفترة. ومن المدن التي نمت نموًا كبيرًا في بلاد الشام في هذه الفترة دمشق وحلب والقدس، والموصل في الجزيرة وطرسوس في الثغور، وطرابلس وصور واللاذقية وجبيل على الساحل الشامي[١٨].

هذا كله كان يقتضي أن نُلبّى حاجات سكان المدن ـ القديمة والحديثة ـ إذ إن درجة الحضارة التي تمتعوا بها في تلك الفترات كانت عالية. كان السكان قد عرفوا السلع الاستهلاكية من طيوب وعطور وتوابل وأقمشة حريرية وقطنية وكتانية، فازدادت حاجاتهم، وكان على التجار أن يلبوا مطالبهم ـ والتجار لا يتقاعسون عن ذلك مهما كانت الأخطار؛ إنهم يفرضون الأسعار التي يريدون، كما حدث (من قبل) من زيادة سعر الحرير لأن الدولة الساسانية احتكرت نقله وشددت الرقابة على استيراده وتصديره[١٩].

وقد لبّى التجار رغبة السكان ، على اختلاف درجاتهم وأذواقهم، فزادوا في الاستيراد، ورفعوا الأسعار على ما سنعرض له فيما بعد.

ويلي ذلك أمر ثان وهو ازدياد عدد الجند في دولة الخلافة وما تفرع عنها من دويلات. والجند يحتاجون إلى أشياء في حياتهم وأعمالهم تختلف عن حاجات الناس العاديين. فهم يمتطون الجياد ـ على الأقل الفرسان منهم ـ ويقعقعون بالسلاح، ويحملون التروس، لحماية أنفسهم ويُرشون السهام. وهذه جميعها أمور تحتاج إلى مواد أولية كالخيول والحديد والجلود (للتروس). وكثير منها كانت تستورد من خارج الدويلات أحيانًا.

وكان للأسطول دور لا يستهان به في تلك الفترة، وفي البحر المتوسط على وجه التخصيص. والسفن بحاجة إلى الحديد والخشب لبنائها. والخشب كان قليلاً في بلاد الخلافة، والشرقية منها خاصة.

اقتضت إدارة الدولة الواسعة أن يعنى أولو الأمر بالطرق، وذلك للبريد عصب الإدارة القوي. لكن الطرق كانت موضع عناية لسبب آخر وهو الحج. فانتشار الإسلام في الجهات المختلفة أدى إلى زيادة عدد الحجاج الذين كانوا يؤمون بيت الله الحرام لأداء الفريضة. والعناية بطرق الحج الرئيسة ـ من العراق والشام ومصر (وكل منها تجمع الحجاج الواقعة بلادهم ورآءها) ـ إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة كانت موضع اهتمام كبير، وهذه العناية كانت تشمل «حراسة الطرق وتأمينها وإنشاء أماكن يستريح فيها المسافرون أو على تيسير الماء فيها لهم على الأقل»[٢٠].

وكان ثمة طريقان رئيسان تصلان بغداد بدمشق (وبعدها بغيرها من المدن) الأول الذي كان يخرج من بغداد إلى الموصل ومدينة بَلد بحذاء دجلة ثم تخترق ما بين النهرين إلى سنجار ونصيبين ورأس عين (رأس العين اليوم) والرقة ومنبج وحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق. ومن هذه يتّجه إلى طبرية والرملة والقاهرة. أما الطريق

الثاني فكان يسير من بغداد مع الضفة الغربية للفرات مارًا بالأنبار، وكان يعبر إلى الضفة الغربية للفرات عند هيت، ثم يتجه إلى دمشق عبر الصحراء (٢١). أو يتم سيره شمالاً ثم يتجه نحو حلب وأنطاكيا. وكان ثمة طريقان يخرجان من حلب فيتجه أحدهما إلى خلاط فأرمينية والآخرنحو الموصل فالجزيرة (الفراتية) (٢٢)

أما الطرق التي كانت تربط بين مدن الشام الشمالية فإن أكثرها كان يتصل بآمد (ديار بكر اليوم) ومن هذه تخرج طرق تتصل بمعظم الثغور التي بازاء بلاد الروم (٢٣). ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة إلى بلاد الروم، سلك العرب منها اثنين في غزواتهم لتلك الديار. «أولهما درب الحدث، وهو في الشمال الشرقي، وهو الذي يمر بمَرعش» ثم ينتهي َبملطَية وجوارها. والثاني «هو درب الأبواب القليقية الضارب شمالاً من طرسوس ومنه يأخذ الطريق العام إلى القسطنطينية. كان هذا الطريق هو الذي يسلكه سعاة البريد ويمر منه وفود قيصر والخليفة (٢٤).

كان المقدسي الوحيد من جغرافيي القرن الرابع/ العاشر الذي أفرد بابًا خاصًا لبادية العرب في كتابه أحسن التقاسيم، وتفحص عن طرقها . وهذه البادية تمتد «من وَيله [أيلة] إلى عبادان ثم إلى بالس مقوَّسة»، وفيها أثنا عشر طريقًا تسع منها طولاً يؤدين إلى مكة وثلاث عرضًا يؤدين إلى الشام (٢٥). وقد كانت هذه الطرق تستعمل أو تهمل أو تهجر بسبب تنقلات البدو وإغاراتهم على الحاج.

لنذكر أنفسنا دومًا بالطرق التي كانت تقطع بلاد الخلافة إلى الشرق وتصل إلى الصين، وكذلك الطرق البحرية التي كانت، في الفترة التي نحن معنيون بها، أصبحت تمتد من غرب المحيط الهندي إلى بحر الصين الجنوبي عبر مضيق ملقًا واندونيسيا. وقد أضاف الغرب إلى الطرق البرية التي كانت معروفة الطريق التجاري إلى بلاد الروس في الشمال. وصف ابن فضلان الذي زار بلاد الفلغا ٣٠٩ / ٩٢١ هذا الطريق بدءًا من بغداد (٢٦).

حري بنا أن نتوقف هنا قليلاً لنتحدث عن النقود التي شاع استعمالها في القرون العباسية الثلاثة الأولى. فالمعروف انه قبل قيام دولة الخلافة كان ثمة نقدان يستعملان في العالم المتحضر- الدينار الذهبي في دولة البزنطيين، والدرهم الفضي في دولة الساسانيين. وقد استمر ذلك بعد الفتوح العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين إلى أيام عبدالملك بن مروان الذي سك النقد العربي الإسلامي، لكن الأساس ظل ذهبًا في غرب الدولة وفضة في شرقها.

ويرى الباحثون أن كمية الذهب التي أصبحت تصل دور الضرب قد ازداد في القرنين الأول والثاني (السابع والثامن)؛ وتعليل ذلك هو أن الذهب الذي كان مخزونًا في قصور الأكاسرة وكنائس بلاد الشام ومصر وأديارها قد أخرج من مخابئه، ونُبشت كذلك بعض قبور الفراعنة. لكن المهم أيضًا هو أن العالم العربي الإسلامي أصبح

يجذب إليه ذهبًا جديدًا من مناجم جديدة منها مناجم جبال ألطاي وجبال أورال والتبت والدكن (جنوب الهند) وأرمينيا والنوبة والعلاّقي وشرق إفريقيا. لكن التبر الذي كان يصل من السودان الغربي (من ونكرة وما إليها) كان على ما يبدو، هو العنصر الرئيس في زيادة كمية الذهب المتداول. ومع أن الفضة كانت تصل دولة الخلافة من القوقاس وجبال البُرز وشمال إيران وبلاد الفرنجة، فإن كميتها لم تكن كبيرة، ولم تؤثر كثيرًا في تطور النقد.

ونحن إذا نظرنا الى خارطة تظهر توزع النقود من حيث استعمالها في السوق وفي حساب الدولة في القرنين الثاني والثالث (الثامن والتاسع) وجدنا أن الدينار الذهبي ظل هو المستعمل في غرب الجزيرة العربية والأجزاء الشرقية من دولة الخلافة (شرق إيران وما جاورها شرقًا). أما الأجزاء الوسطى أي أذربيجان وأرّان والديلم وجُرجان وطَبرستان وشمال شرق الجزيرة العربية والعراق، فقد كانت الأسواق (والدويلات) تتعامل بالنقدين على السواء.

وقد حافظت العاصمة على الحق في سك النقود أيام الأمويين، إلا فيما ندر؛ لكن الأمر تبدل فيما بعد فتعددت دور الضرب وأصبح سك النقود الذهبية لا يخضع لمركزية إدارية. وبعد سنة ٢١٢ / ٨٢٧ أصبحت عاصمة كل دويلة تسك نقودها الخاصة بها، ولو أنها تمسكت بالمحافظة على الدقة في الوزن.

وقد تنبّه المؤرخون إلى أمر في غاية الأهمية. فقد ظلت الضرائب والجبايات تحسب وتقيد بالدينار غربًا وبالدرهم شرقًا حتى أواخر القرن الثالث / التاسع؛ ولكن منذ بدء القرن الرابع / العاشر أصبحت هذه تقدر بالدينار في المنطقتين. أما فيما يتعلق بالسوق فقد سبقت هذه، في هذه القضية، الدوائر الرسمية[٢٧]، كما هو الحال دائمًا.

(٤)

هذه الأمور عرضناها ـ من حيث النمو السكاني وتجمع السكان في المدن والبلدان وقيام الدويلات وأثره في إنشاء العواصم والبلاطات وازدياد الحاجة إلى السلع الاستهلاكية (أو الكمالية كما كنا نسميها قبلاً) وضخامة الجيوش وحاجة الجند إلى الأسلحة والثياب وبناء الأساطيل والعناية بالطرق وانتشار النقد الموحد في أساسه ـ هذه الأمور جميعها كانت عوامل تنشيط للتجارة في العالم العربي الإسلامي أولاً، وبينه وبين العالم الخارج عنه ثانيًا؛ وهذا ما نلحظه في أمرين هامين: الأول هو التنوع الذي طرأ على السلع التجارية وازدياد أصنافها بسبب نقل الكثير من النباتات الجديدة إلى رقعة دولة الخلافة (وقد نقلت بعض النباتات منها إلى المناطق الخارجية عنها أيضًا) وتجمع الصناع المهرة في المدن تلبية لحاجة الناس؛ والثاني هو هذا

التنقل المستمر للناس، حتى لكأن الطرق لاتكاد تفرغ من المسافرين حجاجًا وتجارًا وطلاب علم وباحثين عن المغامرات، ولعل مما يدل على هذا التنقل ما نلمسه في الكتب الأدبية القديمة عن شعراء وأدباء وعلماء وفقهاء كانت تضيق بهم سبل العيش في مكان، أو كانوا يتعرضون لمضايقة ما، فإذا بهم ينتقلون إلى مكان آخر. وكانت الوحدة الحضارية والثقافية المبنية على الشعور بالإسلام وانتشار اللغة العربية، مما يشجع القوم على الرحلة.

ويلفتنا لومبار إلى أن كثرة الذهب الذي وصل عالمنا يومها أدى إلى نتيجتين مهمتين: الأولى تدنّي قيمة المعادن الثمينة الذي تبعه ارتفاع في أسعار الحاجيات أي إلى التضخم المالي؛ والنتيجة الثانية هي انخفاض قيمة الدينار الذهب في مقابل الدرهم الفضة، فقد كان الدينار، عند بدء قيام الخلافة، يساوي عشرين درهمًا فأصبح في النصف الثاني من القرن الثاني / الثامن يساوي ستة عشر درهمًا في الولايات المتحدة الشرقية ؛ وكان الدينار يساوي خمسة عشر درهمًا في مصر والمشرق في أواسط القرن الثالث/ التاسع؛ هذا إلى تبدل في وزن الدينار الذهبي، فقد كان عند البدء في نشره وانتشاره، يساوي ٤،٢٥ من الغرام، فأصبح الوزن في عصر الرشيد ثلاثة غرامات، وهو ما يعادل وزن الدرهم من الفضة، وهذه القضية أثارت مشكلات كبيرة في الأسواق المالية التي كانت موزعة في هذه الرقعة الواسعة والمتباعدة مكانًا وزمانًا. لكن على ما يبدو كان بيد الجهابذة وكبار الصرافين، الذين كانوا يعمرون الأسواق الكبرى في العالم العربي الإسلامي، حلول لجميع هذه القضايا على أساس استعمال السَفتجة لنقل قيمة الأموال اللازمة بعد إيداع الأصل عندهم[(٢٨)] .

ونحن عندما نستعرض التطور الذي أصاب النقد العربي الإسلامي حتى القرن السادس / الثاني عشر والدور الذي لعبه في التطور الاقتصادي والاجتماعي في دار الإسلام أولاً وخارجها ثانيًا، لا نستغرب أن يطلق موريس لومبارد على الفترة الممتدة من القرن الثاني/ الثامن إلى القرن السادس / الثاني عشر عصر الدينار[(٢٩)] .

أشرنا من قبل إلى التطور الحضاري الذي عرفته المجتمعات التي عاشت في إطار دولة الخلافة والدويلات المتفرعة عنها والذي أدى إلى النظر إلى الحياة والعناصر التي منها تتكون المعيشة اليومية في البلاط (والبلاطات) وفي قصورالأغنياء نظرة يمكن أن يقال عنها إنها بلغت مستوى رفيعًا. فالملابس والمنازل والمآدب والمجالس اتخذت لها قواعد جديدة أقل ما يقال فيها انها تقوم على تفهم لمعنى العيش الرفيه والتصرف الرفيع والاستمتاع بذلك كله. ومع ان قصور أولي الأمر كان لها السبق في هذه الأمور، فإن التاجر الغني الذي أتيح له أن يتعرف إلى الدنيا وما فيها شرقًا وغربًا «أصبح هو ممثل الحضارة الإسلامية التي صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الاستطالة في ذلك ... وكانت التجارة الإسلامية في القرن

الرابع العاشر مظهرًا من مظاهر أبهة الإسلام، وصارت هي السيدة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية. وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر، في البضائع الكمالية على الأقل[٣٠] ».

وما كان لهذه التجارة أن تتمتع بهذا النشاط لولا أن المجتمع العربي الإسلامي كان يتطلب الحصول على هذه السلع التي كانت سفنه وقوافله تنقلها من جميع الجهات لتودعها الأسواق التي تبغيها، ومع ما كان يعترض بلاد الشام وجارتيها العراق ومصر من أحداث تؤخر أو تعوق التاجر،فإن هذا الأخير كان يتغلب على الصعوبات ليحصل في النهاية، على السلع المطلوبة ويحملها من بلاد الشام مثلاً وإليها أو عبرها.

«وكان كبار التجار وأصحاب الصناعات هم المشتغلون بتجارة الترف والنعيم» ويعتبر المقدسي أن أقرب التجار إلى الترف والنعيم في عصره، أي في القرن الرابع/ العاشر، هم البزازون والعطارون. ويمكن أن نضيف إليهم، بالإذن من المقدسي، أصحاب الدهون (للتجميل) والخزازين والجوهريين[٣١] .

نحس وكأن الزمام يكاد يفلت من يدنا. فنحن معنيون أصلاً بالحديث عن تجارة بلاد الشام الخارجية مع الاهتمام بالعالم الإسلامي عامة. لكن عذرنا هو أنه لا يمكن الانكفاء إلى جزء محدود من العالم العربي الواسع من دون أن نرسم له الإطار العام، ثم ننتقل إلى «دارنا» التي اخترناها لنرى ما كان فيها مما تحتاج إليه حضارة العصر وما الذي كانت تستطيع أن تبعث به إلى الجيران الأقربين أو القوم البعيدين، ثم ما الذي كانت هي بحاجة إليه من سلع تنقل إليها استكمالاً لحاجتها. وسنقف، بين الفينة والفينة، كي نلم ،عند الحاجة، بما قد يعوق التجارة من السير في طريق معين بسبب أحداث تقع بين السكان المجاورين أو الأعداء المهاجمين، أو من أعمال شغب أو ثورة أو ما إلى ذلك بما قد يعوق التجار عن العمل أو يؤخرهم أو يحملهم على البحث عن طريق آخر آمن.

وقد كانت المعادن، على اختلاف أنواعها، عماد الحضارة في تلك الأيام: من حديد لازم للآلة على اختلافها، ونحاس ضروري للحلل وما إليها، وذهب وفضة تحتاجهما دور الضرب لسك النقود ويحتاج الجوهري أولهما كي يصوغ منه الحلى المرصّعة بما يزيد جماله جمالاً.

الواقع أن بلاد الشام كانت فقيرة في المعادن. فالحديد موجود بكميات محدودة، في لبنان وفي جبال الشراة على مقربة من البتراء وعلى مقربة من بصرى. ومن المهم أن نذكر أن هذه المعادن كانت قد استعملت من قبل،ومن ثم فلم يكن في البلاد ما يكفي للصناعة التي عرفتها دمشق وهي صناعة الأسلحة والسيوف خاصة. وإذن فلم يكن بد من استيراد الحديد الذي كان يصلها من مَرعش، وهي أقرب مناجم الحديد

إليها ثم من أرمينية وأذربيجان الغنيتين به. ولكن الأمر الأغرب هو أن دمشق كانت تستورد، عن طريق الخليج العربي والعراق، الفولاذ من الهند، وهو معد من حديد خام نقل إلى الهند من شرق إفريقيا. هذه صناعة واحدة، عرفتها دمشق قديمًا، واشتهرت بها من أيام الرومان، استطاعت أن تحافظ عليها وتنميها بسبب إمكان الحصول على المادة الأصلية اللازمة لها[٣٢]. وقد كانت مصانع دمشق تزود المناطق والقبائل المجاورة بالسيوف. يجب أن نذكر أن الذي كان يصدر ـ إلى أماكن بعيدة نسبيًا ـ كان النّصل فقط ـ أما الجفن والممسك فقد كانا يصنعان في أماكن أخرى، وغالبًا ما يكون ذلك محليًا.

ونحن إذا أخذنا المعادن النافعة من حيث علاقتها بالحاجات اليومية وجدنا أن الأواني النحاسية كانت دوماً عوناً للإنسان في تيسير أموره وقضاء حاجاته. وقد كانت دمشق مشهورة بصنع الأدوات النحاسية. وكان النحاس الموجود في لبنان هو أساس الصناعة الدمشقية. لكن معدن النحاس في لبنان كان فقيرًا وقد استهلك معظمه حتى في الأزمنة القديمة. ومن ثم فقد كانت دمشق تستورد النحاس من معدن أرجانا في أعالي بين النهرين ومعدن الخابو ومن قبرص، ثم تقوم بصنع الأبواب والأواني والدلاء وغيرها من الأدوات النحاسية[٣٣]. وقد روى المقدسي أن أبواب الجامع الأموي في دمشق كانت مصنوعة من الصُّفر المذهب[٣٤]. وقد كانت سلع دمشق النحاسية تصدر إلى مصر. فقد روى ناصري خسرو أنه يوجد في مدينة الفسطاط خمسة آلاف قدر من النحاس، يسع كل منها ثلاثين منًا [نحو خمسين لترا] من الماء، وهي من صنع دمشق. وأضاف أن هذه كانت تملأ يوميًا بالماء[٣٥]».

تعود أهمية الذهب في الفترة التي نحن معنيون بها، إلى أنه كان الأساس في سك النقد في رقعة واسعة من العالم، فضلاً عن أن هذا النقد (العربي الإسلامي) نفسه كان المقبول للتعامل الرسمي والتجاري ولحساب هذين الأمرين في هذا العالم بكليته. ويجب أن لا ننسى أن أسعار السلع التي كانت تصل هذا العالم، والذي كنت بلاد الشام جزءًا مهمًا فيه من الناحية التجارية، كانت تدفع بالذهب إما نقدًا (وهو الأقل على ما يبدو) وإما سبائك (وهو الأكثر).

ولكن الصاغة ما كانوا ليتركوا هذ المعدن الأنيق اللّماع والذي لا يفقد قيمته مع الوقت أو كما يقال ، لا يعفو عليه الزمن، دون أن يصنعوا منه الحلي ما يدور برؤوس الملكات والأميرات، وما يحيط برقاب الجميلات، وما يزين الصدور الناهدات، وما يلمع في الأيادي الناعمات،وما يخشخش في الكواحل الدقيقات، كان هذا في القديم القديم من الزمان، ولا يزال مثل هذا يتحكم في هذا العصر والأوان.

وإذا كان الرجال يكتفون من الحلي بالخواتم فإنهم كثيرًا ما رغبوا في أن يكون جفن السيف أو بيت الخنجر من الذهب، فهذه حلية الرجال. إلى هذا كان متفنّنو الصاغة

يصنعـون من الذهب مـزهريات وتمـاثيل وصغار الحراب والسـلاسل الدقيقـة ومقابض المنشآت العاجية وغيرذلك كثير، وذلك كي تزين بها المنازل على اختلاف أنواعها.

وقد ذكرنا من قبل «السيولة» في الذهب التي عرفتها بلاد دولة الخلافة بسبب تعدد المصادر للحصول على هذا المعدن من قديم وحديث. وتحدثنا عن النقد بشكل خاص. وقد كانت دمشق، أيام الأمويين، دار الضرب الرئيسة في العالم العربي الإسلامي. ولكن هذا الدور زال عنها بانتقال الخلافة إلى العباسيين، ولم يعد إليها إلا فيما بعد.

إلا أن صاغة دمشق لم يتخلوا عن صناعتهم ومهارتهم وأسواقهم، ولم ينسوا قط العناية بالسيدات الأنيقات الجميلات وحاجاتهن. وقد ظل لدمشق هذا الدور الصناعي الفنّي الدقيق في الذهب وغيره، حتى غزاها تيمور وحمل صنّاعها الى سمرقند ليقوموا بتجميل عاصمته (٨٠١ / ١٤٠٠)

على أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن الذهب كان يأتي إلى بلاد الشام ومصر والعراق، أي بلاد الشام وجارتيها، من أماكن قاصية على ما مر بنا. ويمكن القول إجمالاً إن ذهب السودان (الغربي) وتبره هما اللذان كانا قوام صناعة الذهب، نقودًا وحلى، في الفترة الممتدة من القرن الثالث/ الثامن إلى الخامس/ الحادي عشر، وكان هذا الذهب، ينقل من مواطنه إلى الشمال الإفريقي عن طريق سجلماسة إلى فاس والقيروان وتاهرت، ثم يوزع في مراكز كبيرة هي الأندلس (ومنها إلى غرب أوروبا) وصقليا ومنها إلى الشرق. أما السوقان الرئيسيتان للذهب ولتوزيعه في الشرق فهما البصرة وخوارزم. ويمكن القول إجمالاً ان هذا الأسواق الأربع المذكورة (الأندلس وصقلية والبصرة وخوارزم) كانت تتعامل بالذهب الخام. أما أماكن صنعه، فقد كان أهمها الفسطاط في مصر ودمشق في بلاد الشام وبغداد في العراق، في هذه كانت تصنع الحلي المتنوعة التي ترسل منها الى الأسواق القريبة والبعيدة[٣٦].

إلا أن انتقال قبائل بني هلال وبني سُلَيم من مصر إلى شمال إفريقيا في أواسط القرن الخامس / الحادي عشر واستقرار هذه الجماعة في تلك الجهات أدى الى قطع الطريق بين الأجزاء الغربية من الشمال الإفريقي من جهة، وتونس ومصر والمشرق من جهة اخرى. وكان معنى هذا أن انقطع الذهب السوداني (الغربي) عن الوصول الى المشرق واقتصرت تجارته، ولو إلى فترة معينة، على غرب أوروبا. أما بالنسبة للبلاد الشرقية فقد اصبحت هذه تعتمد على ذهب منطقة اورال وعلى معادن أعالي النيل الى درجة أقل، وقد يكون أحد الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية وتأخر الحياة الاقتصادية ـ نسبيًا في المشرق إلى نقص في الذهب في الأسواق[٣٧].

(٥)

يرى متز أن اللباس كان «عند أهل الشرق الأدنى أهم المطالب الثلاثة الأساسية التي يحتاج إليها جسم الإنسان وهي: الطعام واللباس والمسكن؛ وكانت صناعة [الأقمشة] والملابس أرقى الصناعات. وكانت زينة البيوت من الداخل عبارة عن ستور ملوّنة تُعلق على حيطانها. وكان أهم ما يعتبر ترفًا هو أن يكون الإنسان حسن اللباس عندهم. وكان جمال المسكن يتلخص في أن تكون حيطانه معلقًا عليها الستور الجميلة، وأن تكون أرضه مفروشة بالبسط[٣٨].

والقماشان اللذان عُرفا في المنطقة في الزمن الذي نتحدث عنه هما الكتان والقطن، من حيث أنهما الأكثر شيوعًا. وقد كان القطن يزرع في شمال سورية في المنطقة الممتدة من انحناءة الفرات حتى مدينة حلب، وهذه المنطقة هي امتداد لمنطقة الخابور. فضلا عن ذلك فإن القطن زرع في غور الأردن وفي الواحات المحيطة بدمشق وفي قيلقية. وكان القطن يصدر إلى مصر ليحاك هناك، وكانت بلاد الشام تستورد من مصر، مقابل ما تصدره لها من القطن، الأقمشة الكتانية[٣٩]»، التي كانت مصر مشهورة بها (منذ أيام الفراعنة).

ليس من اليسير أن ينسى الواحد منا الأقمشة الحريرية المصبوغة بمختلف الألوان، وإن كان الأرجوان سيدها. كانت بلاد الشام قد فقدت الكثير من أهميتها في صنع الأقمشة الحريرية وصبغها أيام جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) بسبب القيود التي فرضها على هذه الصناعة لتمكين الإحتكار الرسمي من السيطرة التامة على كل ما ينتج منها. لكن القرن الرابع / العاشر شهد عودة النشاط إلى صناعة الأقمشة الحريرية في بلاد الشام. «فتدفقت الحرائر على بلاد الروم من انطاكيا والاسكندرية».

ومما يجب تذكره عندما نتحدث عن التجارة، بالنسبة لبلاد الشام وغيرها من مناطق الخلافة، هو أن بعض الأقطار كان يختص بصنف معين من مجموعة أصناف سلعة معينة، فكان من الطبيعي أن يتبادل القطران هذين الصنفين . فبلاد الشام، ودمشق خاصة، كانت تنتج الحرير المصبوغ، فيما كانت الأبلة والبصرة تنتج، في الوقت نفسه، أي القرن / الرابع / العاشر مثلاً، الخزّ الجيد. فكان من الطبيعي أن يجد المشتري مصنوع أي من المدينتين في أسواق المدينة الأخرى. وهذا ما كان يحدث لا في تجارة الأقمشة الحريرية وحدها، ولكن في كل صناعة تختلف أساليب إنتاجها بين مكان وآخر، كما كان يحدث، على سبيل المثال، في تصدير أقمشة من دلتا مصر إلى الشام وبالعكس[٤١].

وما دمنا قد تحدثنا عن الأقمشة والثياب فلنشر هنا إلى الأصبغة النباتية وأهمها النيلة والقرمس والزعفران، وكانت هذه تستعمل للتلوين بالأزرق والأحمر والأصفر على التوالي. وكانت النيلة تزرع ـ في بلاد الشام ـ في زعر (وقد ورد اسمها صفر أيضًا)

وبيسان في فلسطين. وكان العصفر أو الزعفران (وعرف باسم الورس أيضًا) يزرع في الشام، أما القرمس (أو القرمز) فكان ينمو في أرمينية ومنها كان يحمل إلى بلاد الشام لاستعماله في تلوين الأقمشة الصوفية[٤٢].

عرفت بلاد الشام ثلاثة أنواع من الحبوب التي كان القوم يستعملونها لصنع الخبز وهي الحنطة والشعير والذرة (البيضاء)، وقد دُجِّنت هذه في أنحاء مختلفة من العالم القديم. فالحنطة يبدو أنها فلسطينية (أريحا)، والشعير آسيوي(؟)، والذرة هندية أو على الأقل وصلت المشرق من الهند عن طريق الخليج العربي. وكانت أراض كثيرة في بلاد الشام تصلح للحنطة، بحيث أن البلاد كانت تصدرها إلى العراق. وقد ازدادت حاجة العراق إلى الحنطة بعد أن تلفت أراضي السواد إذ تهدمت الترع والقني نتيجة لحرب الزنج والحروب الأهلية المتعددة في القرن الرابع / العاشر. وكانت الحنطة تنقل من شمال سوريا الى انحناء الفرات حيث تحمل من هناك نهريًا الى بغداد والمدن الأخرى. وكانت بلاد الشام تصدِّر الحنطة إلى بلاد العرب برًا. ومع أن الشعير كان يستعمل لصنع الخبز أحياناً، فقد خصَّ بالخيول والحمير فيما بعد. والذرة كانت تزرع في بلاد الشام في منطقة حلب في القرن السابع/ الثالث عشر، لكن هذا لم يكن زمن وصولها البلاد - فقد عرفت قبل ذلك[٤٣]».

ويبدو أن الأرز كان معروفًا في فلسطين في فترة تمتد من القرن الثالث إلى القرن الثامن للميلاد، ومن المرجح أنه زرع يومها في غور الأردن. وقد ذكر المقدسي (القرن الرابع / العاشر) أن الأرز كان يزرع في منطقة بيسان في الغور[٤٤]».

كانت شجرة النخيل قد وصلت إلى فلسطين قبل الفتح العربي، لكنها بعد الفتح انتشرت في شمال سوريا. ولكن تمور بلاد الشام ما كان لها أن تزاحم تمور العراق[٤٥] لا كمًا ولا نوعًا.

لكن نوعين من الفاكهة كان لبلاد الشام قصب السبق فيهما في المشرق - العنب والتفاح. فالمقدسي يتحدث عن الأعناب والكروم في الجليل (شمال فلسطين) ثم يعود فيفصل ذلك من حيث مشتقات العنب كالزبيب والخمور، فيشير إلى ذلك بالنسبة لجبل عاملة (جبل عامل) والخليل وعسقلان. وقد كانت خمور بلاد الشام تصدر من اللاذقية وتنقل بحرًا إلى الهند[٤٦]. وكان أحسن التفاح في ذلك العصر تفاح الشام حتى كان مضرب المثل في الحسن[٤٧].

عرفت بلاد الشام قصب السكر بعيد الفتوح العربية، إذ انتشرت زراعته من بلاد فارس التي وصلتها أيام الساسانيين. وقد شاعت زراعته في أنحاء كثيرة من بلاد الشام - في غور الأردن بين بيسان وأريحا وغوطة دمشق ثم في السهل الساحلي من إنطاكيا جنوبًا. وتركزت صناعة السكر في طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا. وقد ذكر المقدسي أن كابل (وهي اليوم قرية إلى الشمال من عكا) كان ينتج فيها سكر

فائق[٤٨]. وقد وصلت أول شحنة سكر إلى البندقية سنة ٩٩٦ .

وشجر الزيتون من نباتات حوض البحر المتوسط، وكانت بلاد الشام معدن الزيتون وزيته في المشرق[٤٩]. وهو أجود أنواع الزيت. وكانت المدن الشامية المختلفة تبعث إلى مصر والعراق وبلاد العرب حاجتها من زيت الزيتون أيام الأمويين والعباسيين الأوائل. وكانت صناعة الصابون التي تعتمد على الزيت، من صناعات بلاد الشام الرائجة. وكان الصابون يصدر جنوبًا وشرقًا.

روى المسعودي عن الأترج والنّارنج أنهما جلبا من أرض الهند بعد سنة ٣٠٠ فزُرعا بعُمان ثم نقلا إلى البصرة والعراق والشام حتى كثرت زراعتهما في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وإنطاكيا وساحل الشام وفلسطين ومصر؛ وما كان يُعهد ولا يعرَّق فعدمت منه الروائع الطيبة واللون الحسن. إلا أن الأمر تبدل بعض الشيء ولو في أجزاء معينة. فالمقدسي يقول عن هاتين الشجرتين إنهما تزرعان في فلسطين، ولكنه لا يشير إلى انعدام الرائحة واللون، وهو المؤلف الدقيق غالبًا[٥٠].

يقول موريس لومبار: ان الفترة الممتدة من القرن الثالث إلى القرن الخامس / من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر، شهدت نقلة كبيرة في تاريخ الغلات الغذائية [في المشرق العربي] سواء لجهة الأصناف التي وصلت حديثًا [إلى المنطقة] أو لجهة تقنية الإنتاج[٥١]». ونحن إذا تصفحنا ورقات المقدسي وابن حوقل والمسعودي (في مروج الذهب مثلاً) وجدنا أسماء نباتات من خضار وفواكه لم تكن معروفة قبل أن تتيح لها أحوال العالم العربي الإسلامي الجغرافية والتجارية أن تنقل من أقاصي شرق آسيا إلى المشرق، فتزرع في مناطق بلاد الشام ـ مثل القُلقاس والسبانخ والأثمار الحمضية[٥٢]».

كان الجمل النجدي، أي ذو السنام الواحد، هو المعروف في المشرق. وقد انتشرت تربية الإبل في شمال سوريا والجزيرة الفراتية. ولا شك في أن مراعي سوريا الشمالية كان لها أثر في جذب الجمال إلى المنطقة. لكن لم نقع على خبر تصدير الجمال من تلك البقعة إلى الخارج[٥٣]».

أما الخيل فقد كانت أنواعًا، منها الخيول السورية، التي نشأت في بلاد الشام أيام الرومان، ولعلها كانت نتيجة نوعين من الخيل، الواحد من إيران، والثاني شمالي وصل مع التجار. وهذ الحيوان (الفرس السوري) كان يعتمد مراعي بادية الشام، وكان له سوق شمال الجزيرة العربية. إلا أننا نرجح أنه كان يضاف إلى قافلة الخيول التي كانت تصدر سنويًا إلى الهند، والتي قد يبلغ عددها خمسة آلاف سنويًا. وقد أشرنا من قبل إلى أن أمراء الهنود وأثرياءهم كانوا حريصين على استعمال الخيول في مواكبهم الرسمية. لكن هذه الخيول لم تكن تصلح للتوليد هناك. وإذا وُلِّدت فان المهر منها كان صغيرًا وضعيفًا ومن ثم فقد كان على القوم أن يستوردوا الخيول سنويًا، وكانت موانىء

الجزيرة الواقعة في جهات عُمان هي المراكز لتصدير الخيول، إلى موانىء الهند [٥٤]. وقد ذكر المقدسي أن الخيول كانت تصدر أيضًا من جزيرة ابن عمر [٥٥].

ومن الحيوانات التي نقلت إلى سوريا من الهند الجاموس. وقد ارتؤي أن الجاموس وصل العراق مع الغجر (الزّط أو النور). ومما ساعد على انتشاره في سواد العراق في أيام بني أمية، ازدياد البطائح في تلك المنطقة. وقد روي أيضًا أن انتشار المستنقعات في شمال بلاد الشام أدى إلى وجود السباع بكثرة هناك. ولما كان الجاموس أكبر عدو للسباع فقد نقلت أربعة آلاف منه لمقاومة السباع، والمهم أن الجاموس تأقلم في سهل الغاب الذي كان مكسوًا بالمستنقعات [٥٦].

نشطت تجارة الرقيق في العصور العباسية المبكرة،وانفتحت أمام تجارها أسواق جديدة للحصول على الرقيق وأسواق كبيرة لامتصاصه. أما الأسواق التي كان الرقيق يجمع منها فهي السوق الصقلبية (الأوروبية) والسوق التركية (الشرقية) والسوق الإفريقية (السوداء) .وقد زاد في نشاط تجارة الرقيق اتخاذ الغلمان جنودًا في أيام ابن طولون في مصر وبني حمدان في شمال بلاد الشام (قبل أن يفلسوا فيقلعوا عن ذلك) وبني بويه، وقد جاء هذا بعد اتخاذ المعتصم الأتراك جندًا له، ويرى البعض أن مزراع قصب السكر في السواد احتاجت إلى اليد العاملة، فسد الرقيق الافريقي من منطقة الزنج (في شرق إفريقيا) الحاجة. لكن كان ثمة رقيق إفريقي ينقل من السودان الغربي إلى مصر.

كانت طريق الرقيق الصقلبي إلى سوريا من مصر. أما الرقيق التركي فكان يصل عن طريق بلاد الشام، بينما كان الرقيق الإفريقي يصل بلاد الشام من السودان الغربي ومن الحبشة عن طريق مصر. أما الرقيق الإفريقي الآتي من شرق القارة فكان نقله عن طريق جزيرة سوقطرى فعدن ثم برًا من زبيد إلى دمشق، ومن دمشق كان ينقل إلي بغداد (أو سامراء لما كانت سوقًا وبلاطًا). وقد كان ثمة مراكز لخصي الرقيق (على اختلاف أنواعه). أهم المراكز الرئيسة للخصي في قرطبة وفردان وبراغ وأرمينيا وخوارزم وأسوان [٥٧].

كانت الأخشاب دومًا قليلة في المشرق العربي صحيح. أن مصر كانت فيها غابات في الجنوب، لكن هذه اجتثت بسبب بناء السفن الحربية أيام ابن طولون وأيام الفاطميين خاصة [٥٨]. وظل المصدر الرئيس المحلي للأخشاب، في الفترة التي نتحدث عنها، منطقة جبال أمانوس في شمال غرب بلاد الشام وجبال لبنان، وجبال النصيرية (أو الإنصارية). وهذه المناطق كانت تزود بلاد الشام ومصر وبين النهرين بالأخشاب منذ القدم، واستمرت على ذلك، لكن الحاجة إلى الخشب لبناء السفن وما إليها كانت تسد بالاتجار مع الهند وأوروبا. وكانت بلاد الشام ومصر تعتمد على

المنطقة الثانية في استيراد الأخشاب اللازمة لها[٥٩].

كان البردى والرّق وسيلتي الكتابة والتدوين والمراسلة في مطلع العهود الأموية والعباسية الأُول. لكن الورق وكان يسمى الكاغد (وهو اسمه بالتركية الآن) وصل العالم العربي الإسلامي في القرن الثاني (الثامن). والرواية التي تناقلها الكتاب العرب هي أن معركة نهر طَلَس. التي وقعت بين العرب وبين جيش صيني سنة ١٥٣ / ٧٥١ على مقربة من طشقند، والتي انتهت بانتصار العرب، أدت إلى وقوع عدد من الأسرى الصينيين بأيدي العرب المنتصرين. وقد أسكن هؤلاء الأسرى مدينة سمرقند، وهم الذين علموا المنتصرين صناعة الورق (الكاغد). وهذه الرواية فيها بذرة التاريخ،لكن الشجرة تظل قصة، فيما نرى. فقد كان الورق. من حيث أنه مادة للكتابة، معروفًا بعض الشيء في سمرقند وما إليها قبل معركة طلس.

المهم أن «سر» الصنعة انتقل من الصين، التي عرفت الورق على الأقل منذ القرن الثاني للميلاد إلى العالم العربي الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثامن. وانتشرت صناعته انتشارًا سريعًا. ومن حسن حظ الكتاب والمؤلفين العرب والمسلمين جاء الورق في وقت كان هؤلاء في أشد الحاجة إلى مادة للكتابة أيسر امتلاكًا وأرخص منالاً من البردى القليل الوجود والصعب التعامل معه.

أنشئت أول مصانع للورق في بغداد حوالى سنة ١٧٩ / ٧٩٩ . وانتشرت الصناعة بعد ذلك غربًا. فالمقدسي يحدثنا عن مصانع الورق التي وجدت في طبريا ودمشق في بلاد الشام. ويروي ناصري خسرو، الذي مر ببلاد الشام في أواسط القرن الخامس / الحادي عشر أنه شاهد مصانع الورق في طرابلس. وحريّ بالذكر أن البردى المؤرخ ينتهي في عام ٣٢٣ / ٩٣٥، على أن الوثائق على الورق (الكاغد) يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ / ٩١٢[٦٠].

كان الاتجار بالمواد الطبية من الأمور البالغة الأهمية في العالم العربي الإسلامي، فهناك أولاً البلاط الخلافي ثم البلاطات الأصغر التي كان سكانها يعنون بصحتهم. وكان هناك مئات الألوف من التجار وغيرهم من أهل الثراء الذين كانوا كذلك يعنون بأجسامهم. فضلاً عن ذلك فإن المستشفيات التي بنيت في طول البلاد وعرضها كانت بحاجة إلى عقاقير وأدوية، وكانت صيدلياتها تعنى بتحضير هذه الأشياء وإجراء التجارب على مواد جديدة، وقد كان للعالم العربي الإسلامي منفذان للحصول على المواد الأصلية أو الخام لصنع العقاقير والدهون وهما الصين برًا والهند وأندونيسيا بحرًا (عن طريق الخليج العربي خاصة). ولم يقصر القوم في استيراد ما يحتاجون.

وكان لبلاد الشام دور في الاستيراد ـ مثل استيراد الكافور وخشب الصندل والزيوت النباتية العلاجية. لكن البلاد الشامية بالذات كانت تشارك في إنتاج الأهليج

الأردني والبلسم المقدسي والأصماغ المختلفة. وقد أورد لومبار شيئًا سماه ترياق القدس، كان يستعمل ضد لدغ الأفعى (ولعله كان موضعي الاستعمال). والأهليج هو تمر جاف وحب قابض الخاصية. وكان يجلب من الهند بكميات تجارية كبيرة، مع أن اسمه يوناني الأصل وكان يستعمل في طبخ العقاقير وتركيب التوابل[٦١].

(٦)

أشرنا، في غير مكان من هذا البحث، إلى الطرق البرية والبحرية، وقد آن لنا أن نشير إلى الملاحة النهرية بالنسبة لبلاد الشام وجوارها.

كان العراقيون يستفيدون من نهري دجلة والفرات في نقل السلع من جهة إلى جهة. وقد أشار المقدسي إلى أن الجزيرة (الفراتية) وهي الأقليم الذي سماه أقُور، هي «واسطة بين العراق والشام[٦٢]». وتبدو صحة هذا الحكم عندما نتذكر هذا القوس الذي يحيط ببادية الشام والذي يمتد من أيلة (العقبة) إلى البصرة، وتكون بارلس، على الفرات، نقطة نصف الدائرة (التقريبية) في الشمال. وأهمية الجزيرة في هذه الوساطة هي أن الكثير من غلات الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ومحصولاتها ومصنوعات مدنها كانت تنقل إلى الموصل برًا ومن هناك تحمل «نهريًا إلى بغداد وغيرها من المدن العراقية. من ذلك زيت الزيتون من الشام، وأخشاب البناء من أرمينيا[٦٣].

هذا فضلاً عما كان يرتفع من الجزيرة ويُرسل إلى العراق من حبوب وشحوم وعسل وجبن وقصب وسمّاق وفواكه مقددة وفواكه رطبة وسفرجل؛ ومن قطن وحديد وفحم وقير، ومن أسطال وسكاكين ونشّاب وموازين ودوّايات وصابون وثياب الصوف والكتان. وفي مقدمة ما كان يصدر من الجزيرة (ولعل الشام كان يناله بعضها) هي الخيل والجياد[٦٤]».

إلا أن الملاحة النهرية كانت تتعرض للصوص أو لقرصان النهر إذا صحت التسمية. ولأن دجلة والفرات يجتازان مناطق يقيم فيها قبائل بدوية تحتاج دومًا إلى ما يتم موارد رزقها الشحيحة نسبيًا، فإن التجار، البريين أو النهريين، كانوا معرضين لغزو في أي وقت، فضلاً عن ذلك فإن المنطقة الإيرانية العراقية الشامية كانت تعاني في القرنين الرابع والخامس / العاشر والحادي عشر، حروبًا متنوعة تقوم بين الدويلات المتمركزة في تلك الرقعة وبين الدويلات والقبائل، وفيما بين القبائل بالذات. وكل حرب، مهما كانت العناصر المشتركة فيها والقائمة بها، تؤدي، في سيرها بداية ووسطًا ونهاية، إلى فوضى ولصوصية ونهب[٦٥].

على أن بعض مدن الشام التي كانت ذات أهمية تجارية،أضر بها اللصوص الرسميون كما يسميهم متز، ويخص منهم بني حمدان. وقد وقع غضبهم على بالس

وتجارها، فالمدينة التي كانت تقوم على شط الفرات من غربية «وهي أول مدن الشام من العراق، وكان الطريق إليها عامرًا ،ومنها إلى مصر وغيرها سابل. وكانت فرصة لأهل الشام على الفرات ، فعفت آثارها ودرست قوافلها وتجارها بعد سيف الدولة [الحمداني (٣٣٣ ـ ٣٥٦ / ٩٤٥ ـ ٩٦٧)] . وهي مدينة عليها سور أزلي ولها بساتين فيما بينه وبين الفرات، وأكثر غلاتها القمح والشعير، وُيعمل بها من الصابون الكثير الغزير. ومن مشهور أخبارها أن المعروف بسيف الدولة علي بن حمدان عند انصرافه من لقاء صاحب مصر، وقد هلك جميع جنده، أنفذ إليها [بالس] المعروف بأبي الحسين القاضي فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر، ولم يطلق لهم النفوذ مع خوف نالهم، فأخرجهم عن أحمال بزّ وأطواف زيت إلى ما عدا ذلك من متاجر الشام في دفعتين، بينهما شهور قلائل وأيام يسيرة، ألف ألف دينار[(٦٦)] ».

وإلى هذه الحادثة الوحيدة يضيف متز أنه في أيام بني حمدان الذين اشتهروا بالفروسية والشهامة، فقد عرفوا «إلى جانب ذلك بالجور واتباع سياسة جنونية في الخراج، ومن أثر هذه السياسة أن مدينة بالس كانت شط الفرات وأول مدن الشام من العراق،، وكانت مدينة عامرة بتجارتها،فلما كان عهد سيف الدولة، وهو أشهر بني حمدان، ثقل عليها الخراج حتى عفت رسومها، ودرست قوافلها، وتركها تجارها بعد هذا الأمير[(٦٧)] .

وقد روى ابن حوقل أن الحسن بن عبد الله وهو سيف الدولة نفسه ، «عمد.. إلى نصيبين واكتسح أشجارها وبدّل ثمارها وعور أنهارها واستصفاها عمن كان دخل إلى بلد الروم،واشترى من يعض قوم، واغتصب آخرين فملكها إلا القليل، وجعل مكان الفواكه الغلاّت بالحبوب والسمسم والقطن والأرز، فصار ارتفاعها أضعاف ما كانت عليه وزادت ريوعها وسلّمها إلى من بقي من أهلها... على مُناصفات النصف عن غلالتها إلى أي نوع كانت على أن يقدر الدخل ويقومه عينًا إن شاء أو ورقاً، ويعطي الحراث ثمن ما وجب له بحق المقاسمة، فيكون دون الخمسين... وأهلها وقتنا هذا [في أواسط القرن الرابع / العاشر] على أقبح ما كانوا عليه[(٦٨)] »،

ولنذكر من مدن الشام التي كان لها دور خاص لا في التجارة فحسب، ولكن لأنها كانت رباطًا كبيرًا في المنطقة. وقد وصفها ابن حوقل بقوله : «فأما مدينة طرسوس فكانت المدينة المشهورة المستغنى بشهرتها عن تحديدها، كبيرة استحدثها المأمون بن الرشيد ومدّنها وجعل عليها سورين من حجارة. وكانت تشتمل من الخيل والرجال والعدة والعتاد والكراع والسلاح والعمارة والخصب والغلات والأموال، والسعة في جميع الأحوال على حال لم يتصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين.. إلى عز تام ونصر عام على من وليها من رجال الإسلام. فما غزا في بر أو بحر إلا وصحبه من الظفر والنصر والغنائم بالقسر والقهر ما ينطق الأخبار بتصديقه والآثار بتحقيقه. وكان بينها وبين

حد الروم جبال منيعة... كالحاجز بين العملين. ورأيت غير عاقل مميز، وسيد حصيف مبرر، ويشار إليه بالدراية والفهم واليقظة والعلم والفطنة والسياسة والرياسة، يذكر أنه كان بها مائة ألف فارس وبعملها، وذلك عن قريب عهد من الأيام التي أدركتها وشاهدتها [لعل المقصود حوالى سنة ٣٠٠هـ] . وكان السبب في ذلك أن ليس مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والري وأصبهان وجميع الجبال وطبرستان والجزيرة وأذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب إلا وبها لأهلها دار ورباط؛ ينزله غزاة تلك البلاد ويرابطون إذا وردوها، وترد عليهم الجرايات والصلات وتدر عليهم الإنزال والحملان العظيمة الجسيمة، إلا ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين ويتحاضون عليه متبرعين، ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس إلا وله عليها أوقاف من ضياع ذوات أكرة وزراع وغلات أو مسقف من فنادق ودور وحمامات وخانات. هذا إلى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والورق والكراع الغزير، فهلكت وهلكوا، وذهبت وذهبوا،وكأنهم لم يقطنوها ،وعفوا وكأنهم لم يسكنوها[٦٩]».

وبسبب ما أشرنا إليه من تبدل وتقلب في الأوضاع السياسية في المنطقة، كانت الطرق ومراكز التجارة، تتبدل وتتغير. فتهجر طرق وتقوم أخرى محلها.

يجدر بنا، وقد وصلنا إلى نهاية بحثنا (على اقتضابه) أن نضع أمام القارىء بضع نقاط بقصد التذكير لا التلخيص:

أولاً: كان التجار الشاميون، حتى مطلع القرن السابع للميلاد، هم سادة التجارة التي كانت تقوم بين المشرق وأوروبا المتوسطية. لم يكونوا حملة للسّلع فحسب، بل كانت لهم جوال منتشرة في شمال إيطاليا وبلاد الغال، هي التي كانت تتنبه للأسواق وحاجاتها وتزودها بما يلزمها. هذا الدور خسره التجار الشاميون، إلا قلة بسبب التغير الذي أصاب المنطقة بدءًا بالفتوح العربية وقيام دولة الخلافة، وتبدل دور الخلافة والعاصمة ، ثم قيام الدويلات والإمارات المختلفة (من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب).

ثانياً: يلاحظ فيما يتعلق بالطرق التجارية المحلية، أو ما يشبه ذلك الأشياء التالية:

أ- خسرت بغداد أهميتها كمركز تجاري كبير بعد ثورة الزنج بشكل خاص. وتحول الطريق الموصل بين الجزيرة (الفراتية) والخليج العربي شرقًا واتجه نحو سيراف بدل الأبلّة والبصرة.

ب - حافظت طرق أرمينيا على أهميتها ودورها إذ أصبحت تجارة القسطنطينية تنتقل إلى بلاد الشام (ثم إلى مصر) عليها[٧٠] .

ج - عاد التجار الشاميون إلى البحر بعض الشيء في القرن الرابع / العاشر،

وعاد لطرابلس وبيروت وصور الكثير من نشاطها التجاري. لكن أسواقها الغربية كانت محدودة.

د - يلاحظ أن بلاد الشام ،رغم ما اصابها من حروب أهلية وقبلية في القرن العاشر ظلت لها حياة اقتصادية، زراعية وصناعة أصلاً ناشطة. يدل على أن ارتفاع الشام في مطلع القرن الرابع / العاشر هو ٣٩،٠٠٠،٠٠٠ درهم وقد قدر لويس هذا المبلغ بنحو مليوني دينار (٧١).

هـ - ظلت التجارة بين القسطنطينية وبلاد الشام قائمة، إذا إن كلا من المنطقتين كانت تنقل إليها سلع من جهات مختلفة، وكانت هذه السلع تتطلبها الأسواق في البلدين. لكن نقلها كان يخضع، من حيث اتباع الطريق للأوضاع الآنية. وقد كان في القسطنطينية في القرن الرابع / العاشر تجار شاميون للاهتمام بالتجارة والتجار (٧٢).

ثالثاً: كانت التجارة العالمية في هذا الفترة بالذات تكاد تكون حكرًا على اليهود. والتجار الذين بدأوا العمل في القرن الثالث/ التاسع استمروا على ذلك بل وسعوا نطاق عملهم. صحيح أنه كان ثمة تجار روس، لكن حتى هؤلاء كان المدبرون لأمورهم من التجار اليهود. وقد قال عنهم ابن خرداذبة: «فإن الخارج منهم يخرج من الأندلس أو فرنجة [بلاد الغال أو فرنسا] فيعبر ... إلى طنجة ثم إلى إفريقيا [تونس] ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد [أو المكان البديل فيما بعد] ثم الى البصرة [أو سيراف فيما بعد]... وبعد ذلك يمر التجار... بكرمان ثم يذهبون إلى السند». وكان متاعهم التجاري فيه جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف (٧٣).

ويسمي ابن خرداذبة التجار الآخرين،وهم الأكبر نفوذاً والأوسع مدى في تنقلهم وتنوع متاجرهم، التجار اليهود الراذانية، ويقول عنهم:

«مسلك الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف. ويركبون من فرنجة في البحر الغربي [المتوسط] فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم [قرب السويس] وبينهما خمسة وعشرون فرسخًا، ثم يركبون البحر[الأحمر] من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم. ثم يحملونه إلى العزما (مركز التجارة البحرية بين مصر وبلاد الشام] ثم يركبون في البحر الغربي [المتوسط] ؛ فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينة، فباعوها للروم، وربما صاروا

بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك... وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي ، فيخرجون بإنطاكيا ويسيرون على الارض ثلاث مراحل... ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين، كل ذلك متصل بعضه ببعض(٧٤)».

وقد نحسن صنعًا ـ وعلى كل فإننا لن نسيئه ـ إذا نحن وضعنا ثبتًا بما كان يرتفع من بلاد الشام على ما أورده المقدسي إذ يقول : «والتجارات به [أي أقليم الشام] مفيدة: يرتفع من فلسطين الزيت والقطّين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط؛ ومن بيت المقدس [بالذات] الجبن و [ثياب] القطن وزبيب العينوني والدوري غاية، والتفاح والمرايا وقدور القناديل والأبر؛ ومن أريحا نيل غاية؛ ومن صُغر [زغر] وبيسان النيل والتمور ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل؛ ومن طبريا شقاق المطارح والكاغد [الورق] وبزّ؛ ومن قدس ثياب... والحبال؛ ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات [أنواع من الحلو المصنوع من الطحين والسكر] ؛ ومن مآب [مؤاب] قلوب اللوز ومن بيسان الرز؛ ومن دمشق المعصور والبلعيسي ودبياج ودهن بنفسج دون والصفريات والكاغد والجوز والقطّين والزبيب؛ ومن حلب الثياب والأشنان والمُغرة؛ ومن بعلبك الملابن؛ ولا نظير... وحواري وميازرالرملة وسبح بيت مقدس(٧٥)»، وقد أوردنا من قبل بضعة أشياء تنتجها بلدان وكور في إقليم الشام.

ولنذكر في خاتمة هذا الجزء أن بلاد الشام فيها أماكن مقدسة كثيرة، وأماكن محترمة أكثر، وهذه وتلك كانت تحمل الناس على القدوم الى الشام للزيارة والتبرك. وكثيرون من هؤلاء كانوا يحملون شيئًا من التجارة إليها أو على الأقل منها.

الهوامش

(١) هذا القسم من البحث يرسم الإطار السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام للفترة كي يمكن تناول تجارة البلاد الشامية الخارجية في غضون القرون الثلاثة المذكورة . ويمكن العودة إلى المظان التالية للتوسع في الموضوع ؛ ابن خرداذبة ،ابن حوقل، البلاذري، قدامة بن جعفر الطبري (تاريخ) ،المقدسي، متز، نقولا زيادة.
Asphor, Boulnois, Cahen, *Cambridge History of Islam*, Donner, Hill, Hiltti Gafri Kennedy, Lewis, Lonbard, Pipes Richards, Sauvaget Shaban.

(٢) Smith, pp 146-156; Boulnois, pp 60-73 and Simki, pp 28-35 38-43 85f.

(٣) نقولا زيادة، **دراسات**، ص ٨٣ ـ ٨٧ .

(٤) راجع Boulnois, pp 40-117 passim

(٥) Boulnois, pp 119,146.

(٦) Simkin, pp 54-72 Boulnois, pp 129, 136-7, and Smith, pp 92, *1*.

(٧) Lewis, pp 41- 42, Simkin, p 58.

(٨) Boulnois, pp 85- 88, 137ff.

(٩) Lewis, *45- 47, 49- 50*.

(١٠) شهاب ص ١١ ـ ١٩ .Boulnois, p 156, Lewis; 34.

(١١) .Boulnois , pp 142- 146.

(١٢) نقولا زيادة، **الأسطول العربي** ص ٧١ ـ٨٧ .

(١٣) .Lewis, pp. 132 - 162.

(١٤) Lewis, pp 142 - 146, 156.

(١٥) Kennedy pp 285- 308

(١٦) Shaban, pp 2, 100- 102; Kennedy, pp 250-266

(١٧) ابن خرداذبة، ص ٩٢؛ متز، ج ٢، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ؛٣٧٢ Lombard, *l'Islam,* pp 198-200.

(١٨) ابن حوقل. ص ١٦٨ ـ ١٦٩ Lewis, pp 213, Lombard, *l'Islam,* pp 133-134; Lombard, *Monnai, p175.*

(١٩) *Boulnois, p. 142.*

(٢٠) متز، ج ٢، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

(٢١) متز، ج ٢، ص ٤١٢ ـ٤١٣ ؛ قدامة، ص ٢١٨ ـ ٢٢٠ .

(٢٢) Lombard, *l'Islam,* pp 38-39 ولسترانجو ص ٢٥، ١١٣، ١٥٨ .

(٢٣) لسترانج، ص ٢٥ .

(٢٤) لسترانج، ص ١٦٤ـ١٦٥؛ في ابن خرداذبة ص ١٠٠ ـ ١٠٢، وصف للطريق الذي يتجه من طرطوس إلى القسطنطينية، إلا أن أكثر الأماكن الواقعة عليه لا يمكن تعيينها (لسترانج، ١٦٥).

(٢٥) المقدسي، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٢ .

(٢٦) متز ج٢، ص ٣٧٢؛ **رسالة ابن فضلان،** ص ٦٧ـ١٧٢. Lombard, *Monnai p 185.*

(٢٧) **متز، ج ٢ ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦؛** Lombard, *Monnai,* pp 33-154

(٢٨) Lonbard, *Monnai,* p 155ff.

(٢٩) Lombard, *Monnai*, pp 219-222 and Lombard, *Metaux,* pp 253-255

(٣٠) متز، ج ٢ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

(٣١) المقدسي، ص ١٠١، ٤١٣، ومتز، ج ٢، ص ٣٨٩ ، Lombard, l''Islam, 178-196;

(٣٢) متز، ج ٢، ص ٣٢٤، و Lombard, *Metaux,* 165ff.

(٣٣) Lombard, *Metaux,* p 180.

(٣٤) المقدسي، ص ١٥٨ .

(٣٥) ناصري خسرو، ص ١٠٤ .

(٣٦) Lombard, *Metaux,* pp 211-222 and Lewis, p 165.

(٣٧) Lombard, *Metaux, pp 232-234.*

(٣٨) متز، ج ٢، ص ٣٥٠ .

(٣٩) متز، ج ٢، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١، و Lombard, *l'Islam,pp 182-3* راجع أيضًا المقدسي، ص ١٨٠، ٢٠٣؛ Watsin, pp 31-41.

(٤٠) شهاب، ص ٢١، و Bounlnois, pp 181-184

(٤١) Lombard, *l'Islam, p 185.*

(٤٢) ابن حوقل، ص ١٢٤، المقدسي ص ١٧٤؛ متز ٣١٤ ج٢ ـ ٣١٧؛ ١٨٤، *Lombard, l'Islam,*

(٤٣) Lombard, *L'Islam,* pp 163-164; Wastson, pp 9-14. وساقوت، مادة حلب؛ متز ٢، ص ٢٠٢ـ٣ـ٣٠٣؛ المقدسي؛ ص ٦١ .

(٤٤) المقدسي، ص ١٨٠؛ Lombard, *:L'Islsm,* pp 15-19

(٤٥) ابن حوقل، ص ١٦٠؛ المقدسي، ص ١٨٦ .

(٤٦) المقدسي، ص ١٦٠، ١٦٦، ١٨٠؛ متز ج ٢ ص ٣٠٩؛ Lombard, *L'Islam,* p 166.

(٤٧) متز، ج ٢، ص ٩٠٣ .

(٤٨) المقدسي، ص ١٦٢، ١٨٠؛ متز ج ٢، ص ٣١١؛ ابن حوقل، ص ٢٥٠، ٢٥٤.
Lombard, *l'Islam,* p 167; Watson, pp 24-30

(٤٩) المقدسي، ص ١٦٢، ١٧٤،

(٥٠) المسعودي، ج ٢، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩؛ ص ١٦٦، ١٨١ .

(٥١) Lombard, *l'Islam, p 168*

(٥٢) يراجع لمقدسي، ص ٢٠٣، الدمشقي، ص ٢٨٢؛ ج٢، ص ٣٠٣؛ Waston, pp 9-73

(٥٣) Lombard , *L'Islam,* pp 168-9؛ متز ج ٢، ص ٣٤٧ـ, ٣٤٨

(٥٤) متز، ج ٢، ص ٣٤٨؛ Lombard, *l'Islam,* pp 169-170.

(٥٥) المقدسي، ص ١٤٥.

(٥٦) متز، ج ص ٣٤٦، و Lombard, *l'Islam,* pp 176.

(٥٧) لسترانج، ص ٤٧١، ٤٨١، ٥٠٢، ٥٣١؛ ص ٢٩٦ـ٣٠٣. Lombard, *l"Islam,* pp 172

(٥٨) نقولا زيادة ـ «الأسطول»، ص ٧٤ـ ٧٨ .

(٥٩) الإصطخري، ص ٦٣؛ متز، ج٢، ٣٣٤؛

(٦٠) المقدسي، ص ١٨٠ـ ١٨١؛ ناصري خسرو؛ ص ٤٨؛ متز، ج ٢، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٧؛ *Lombard, l'Islam, pp 190-192.*

(٦١) لسترانج، ص ٢٨٨ (هامش ١٨) Lombard, *l'Islam.* pp 193-195
Watson, 15 (nos. 5,6) 31 (n.4) 42 (n.3),155 (n.13)

(٦٢) المقدسي، ص ١٣٦.

(٦٣) متز، ج ٢، ص، ٣٩٥

(٦٤) المقدسي، ص ١٤٥؛ حكاية أبي القاسم، ص ١٠٧ (لأنواع السفن النهرية).

(٦٥) متز، ج ٢، ص ٤٠٠ـ, ٤٠١

(٦٦) ابن حوقل، ص ١٦٥ـ ١٦٦ وبالس هي بربلس الرومانية (Barbalissus).

(٦٧) متز، ج ٢، ص ٤٠٢ . راجع أيضًا ابن حوقل، ص ١٩٨.

(٦٨) ابن حوقل، ص ١٩٣؛ راجع ص ١٩٨.

(٦٩) ابن حوقل، ص ١٦٨ـ١٦٩؛ راجع أيضًا . Kennedy, 278ff

(٧٠) Lonbard, *l'Islam,* p 216.

(٧١) ابن حوقل، ص ١٧٢ـ١٧٣؛ Lewis, p 168

(٧٢) Lewis, p 174.

(٧٣) ابن خرداذابه، ص ١٥٤ـ١٥٥؛ Eickoff, pp 351 -356

(٧٤) المصدر نفسه، ص ١٥٣ـ١٥٤؛ زيادة «الأسطول»، ص ٨٠ ـ ٨٣ .

(٧٥) المقدسي، ص ١٨٠ـ ١٨١ .

النواحي الاقتصادية في الحروب الصليبية

(١)

كان دخول أحمد البويهي بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥ للميلاد توكيدًا لضعف دولة الخلافة من حيث السيطرة على البلاد الواسعة، كما كان سيحدث فيما بعد: التقسيم الذي يصيب تلك المناطق الشرقية من الخلافة والتجذر للفئات الجديدة التي كانت تزحف حينًا وتتساح حينًا آخر في اتجاه غربي.

وليس المهم أن يلقب المغتصب أمير أمراء، فالمهم أن السلطة كانت بيد الأخوة الثلاثة وخلفائهم مدة مئة وعشر من السنين. أما المنطقة التي تصرفوا في شؤونها فشملت الجزء الأكبر من العراق وفارس (إيران) وما وراء النهر وتفرعات وتشعبات هنا وهناك. صحيح أن البهويهيين لم يتخذوا من بغداد عاصمة لهم؛ ولكن لم يكن هذا بالأمر المهم، فقد كانت السلطة التامة بأيديهم.

في مطلع القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد، أخذت قبائل الغزو التركية ترحل عن مساكنها في السهوب الممتدة إلى الشمال من بحري قزوين (الخزر) وآرال غربًا في جنوب. كانت هذه القبائل قد اعتنقت الإسلام في أواخر القرن السابق، فلما عبرت حدود دولة الخلافة لتستقر في خوارزم وما وراء النهر، عملت مرتزقة في خدمة قادة الحروب، ثم استولت على خراسان.

كان بنو بويه شيعة، ولكنهم لم يمسوا منصب الخلافة، بل احترموا الخليفة دون أن يتركوا له من السلطة نصيبًا؛ أما السلاجقة فقد كانوا سنة؛ فلما تمكنوا من خراسان أخذ زعيمهم طغرل بك يظهر اهتمامًا كبيرًا بالسنة وبضرورة إنقاذ الخليفة من سيطرة بني بويه الشيعة، فدخل بغداد سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥ وحمل الخليفة على منحه لقب سلطان، وكان هذا إيذانًا بالقضاء على بني بويه بعد بضع سنوات.

في سنة ٤٦٣ / ١٠٧١ انتصر السلاجقة على البزنطيين، فأدى ذلك إلى توغلهم في آسيا الصغرى وفي بلاد الشام حيث قامت لهم دويلة بدأها تتش (بن الب أرسلان) سنة ٤٧١ / ١٠٧٨ واستمرت أربعين سنة في حلب ودمشق.

وقد أدى قيام هذه الدويلة إلى دخول التركمان بأعداد لا يستهان بها إلى بلاد

الشام، بحيث أصبح لهم شأن كبير في العقود الأخيرة من القرن الخامس /الحادي عشر.

(٢)

قامت الخلافة الفاطمية في المهدية بالديار التونسية سنة ٢٩٧ / ٩٠٩، وانتقلت إلى مصر في أواسط القرن الرابع/الربع الثالث من القرن العاشر، وأنشئت القاهرة عاصمة جديدة، التي دخلها المعز سنة ٣٦٢ / ٩٧٣ .

وكانت الدولة الفاطمية فتية، بالنسبة للخلافة العباسية التي كانت قد تجاوزت مئتين وثلاثين من السنين من عمرها، والتي كانت الدول والدويلات تتقاسمها يميناً وشمالاً فدخلت الدولة الفاطمية ميدان الخصومة ـ السياسية والدينية ، فالفاطميون شيعة ـ وانتزع حكام مصر فلسطين وسورية من خصومهم وتولوا الحفاظ على الحجاز، كما تولى «الدعاة» نشر الدعوة الفاطمية حتى قلب العراق.

وعلى كل فإن الفاطميين لم تدم سلطتهم في بلاد الشام مدة طويلة، ذلك أن نفوذهم تقلص بحيث أنه لم يبق لهم إلا عسقلان في السنوات الأخيرة من القرن الخامس/ الحادي عشر.

وبلاد الشام، وهي رقعة مهمة لكل من تحدثه نفسه بالسيطرة على ما يقع شرقها أو جنوبها أو شمالها، تقلّب عليها خلال القرنين الرابع والخامس / العاشر والحادي عشر، دويلات متعددة، كان من أولها، الحمدانيون في حلب (٣٣٣ـ٣٩٤ / ٩٤٥ـ ١٠٠٤) وتلاهم، مع بعض المعاصرة، العقيّليون في شمال بلاد الشام (ح ٣٨٠ـ ٤٨٩ / ح ٩٩٠ / ١٠٩٦). وهؤلاء قضى عليهم تتش السلجوقي، لما أقام لنفسه دويلة في حلب (٤٧١ـ ٥١١ / ١٠٧٨ ـ١١١٧).

ولنشر، إتمامًا للصورة، ولو بشكل جزئي أن الأئمة الزيديين (الزيود كما يسمون أيضًا) تفردوا بحكم أجزاء من اليمن فأنشأوا لهم هناك دولة استمرت مدة طويلة (من أوائل القرن الثالث ـ ح ٦٨٠ / من أوائل القرن التاسع ـ ح ١٢٨١).

وقد أتيح لبعض قادة السلاجقة أن ينفذوا إلى اليمن والبحرين ويقيموا إمارة استمرت حتى ٥٨٢ / ١١٨٦ . كما كان للدعاة الفاطميين جولات في اليمن وغيرها من أصقاع الجزيرة وخاصة في منطقة الخليج العربي.

على أنه حري بالذكر أن الدولة الفاطمية، التي كانت في عزها لما دخلت مصر، حملت معها العناصر التي أدت إلى إنهاكها داخليًا فيما بعد. فقدجاءت مصر محمولة على أكتاف البربر من كتامة وصنهاجة؛ مؤزرة بحراب مرتزقة لعلهم من الصقالبة أصلاً ؛ ولما استقرت في وادي النيل استكثرت من السودان. ومن هنا جاء الخلاف بين هذه العناصر ليضعف من سلطان الخليفة، ويفضي في نهاية الأمر،ولو بعد حين، الى

إنتهاء أمر هذه الخلافة (٥٦٧ / ١١٧١)، بعد سلسلة من الخصومات والمنازعات والثورات والاستنجاد بالزنكيين وحتى بالصليبيين.

(٣)

هذه الصورة التي تظهر المشرق العربي موزعًا سياسيًا مضطربًا إداريًا، مقسمًا عنصريًا، وكأنه قد فقد القدرة على التوحيد، مع أن نشاطه كان كبيرًا، لكن هذا النشاط كان يصرف في خصومات محلية، وينفق في حروب أهلية، ومن ثم فقد بدا هذا المشرق العربي للمراقبين كأنه قد هرم وتعب.

في مقابل هذه الصورة كانت ثمة خارطة جديدة ترسم لأوروبا الغربية بدءًا من العقد الرابع من القرن العاشر. ذلك بأن الأمبراطورية الرومانية المقدسة التي عقد تاجها على رأس شارلمان سنة ٨٠٠م، وكانت قد خفت صوتها وهدأت حركتها، إن لم نقل قد خِمدت هذه ، عادت إليها الحياة لما توج أوتو الأول ملك المانيا (٩٦٣-٩٧٣) إمبراطورًا على الأمبراطورية الرومانية المقدسة سنة ٩٦٢ .

في أيام هذا الملك صدّت المانيا هجمات المجريين (الهنغاريين) والصقالبة ضدها، وتوحدت بقدر الإمكان؛ ثم جاء تتويجه أمبراطوراً ليضم مجموعة من دول أواسط أوروبا ودويلاتها تحت نفوذه. وقد كان أحد المقاصد من هذا الاحياء الدفاع البابوية، التي كانت في حالة من التشرذم يومها. وقد بلغت لأمبرطورية الرومانية المقدسة ذروة قوتها في هذه الفترة أيام هنري الثالث (١٠٤٦- ١٠٥٦).

ومع أن فرنسا تأخرت عن إلمانيا في ظهورها على المسرح السياسي نحو ثلاثة أرباع القرن، فإنها أخذت تؤثر في شؤون أوروبا في أواخر القرن العاشر. لكن نفوذها ظهر بشيء من الوضوح في القرن الحادي عشر.

وفي هذين القرنين ظهر الفلمنكيون على المسرح، كما لمع نجم المدن الإيطالية الذي ازداد بريقًا في الأزمنة التالية.

ولعل أكبر مظاهر التطور التي يمكن أن ترصد في هذين القرنين (العاشر والحادي عشر) في مناطق غرب أوروبا هي: أولاً، ظهور المدن وقد كانت إلمانيا السباقة في هذا المضمار (منذ القرن العاشر). ثانيًا، عناية فرنسا بالزراعة أرضًا وغرسًا وتصنيعًا (للإنتاج الزراعي). فأصبحت البلاد ثرية وصارت بحاجة إلى سلع وبضائع استهلاكية تأتي من الخارج. ثالثاً، دخلت المنطقة عناصر بشرية جديدة مثل المجر والسلاف في الوسط والفيكنغ (النورمان) في فرنسا وانكلترا. رابعًا ازدياد عدد السكان في تلك الأزمنة في أوروبا.

هذه العوامل جميعها كانت قوى دفع للأمام لأن الأصل فيها كان الجدة والنشاط. فالغرب الذي يعنينا، في هذا الحديث، كان فتيًا قويًا آخذا في الخروج من قوقعته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

(٤)

مع ما كان عليه المشرق العربي من اهتزاز سياسي أصبح اضطرابًا فيما بعد، فإن التجارة فيه، ومنه وإليه، بلغت الذروة في القرنين العاشر والحادي عشر، قبل أن تعصف رياح الصليبية على المنطقة فتوقف هذا النشاط بعض الوقت.

ويمكن القول إجمالاً بأن سلع الشرق الأقصى وما إليه كانت تحمل إلى الغرب ـ جهة ـ متبعة واحدًا من الطرق التالية:

١ـ من الشرق القصي إلي جنوب روسيا أو إلى آسيا الصغرى برًا، حيث تنقل إلى القسطنطينية أو إلى موانىء البحر المتوسط (والغالب أن يكون البحر الأسود الطريق) أو إلى غرب روسيا إلى موانىء بحر البلطيق، أو إلى كييف ثم إلى الغرب.

٢ـ إلى العراق (إما برًا عبر إيران وما خلفها أو بحرًا عبر المحيط الهندي والخليج العربي) ومن هناك إلى الموانىءالشامية ـ من إنطاكيا (عبر مينائها السويدية) شمالاً إلى غزة وعسقلان جنوبًا.

٣ـ الطريق البحري عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر وإلى موانىء مصر (عيذاب أو القلزم) ومن هذين عبر البر المصري إلى الإسكندرية أصلاً (وقد تنقل إلى غزة برًا أيضًا).

ولعلنا إذا استثنينا أجزاء من الطريق البري الأول فإن العرب كانوا أصحاب النفوذ في السيطرة على التجارة.

يمكن أن نجمل السلع التي كانت تحمل من الشرق الى موانىء البحر المتوسط لبيعها لمن يتقدم لذلك من بزنطية أو أوروبا أو شمال إفريقيا (فضلاً عن الأسواق المحلية) في الرقيق، وكان أكثر أنواع التجارة ربحًا. وسنرى أن هذه التجارة كان لها مقابلها الأوروبي أيضًا. وهناك جميع أصناف التوابل والطيوب، من الفلفل بأنواعه والعنبر والبلسم والكافور والأكسيا وحب الهال والأصماغ والنيلة. إلى هذه يمكن أن نضيف مواد أولية تلزم للصناعة مثل العاج والقطن والحرير والتبر والفضة والنحاس والرصاص.

ثم كانت هناك الأشياء المصنوعة التي كانت تنقل إلى هذه الموانىء ومنها الخيوط الفضية والذهبية والخزف الصيني والسكر من الهند والأقمشة التي كانت تنتجها أنوال مصر ودمشق وبغداد وفارس، والبسط والسجاجيد من مناطق متعددة.

(٥)

كان للغرب تجاره الذين يحملون سلعة لبيعها في أسواق المشرق العربي إما لاستهلاكها محليًا أو لنقلها إلى البلاد القصية شرقًا. فكانت المدن الإيطالية الأسبق للإفادة من الاتجار مع الموانىء الشرقية. فقد كانت لمدينة أمالفي مواطىء أقدام تجارية وممثل تجاري مقيم في بزنطة وفي المناطق التي إنتزعها الأتراك السلاجقة من

البـزنطيـين (بعد انتـصـار الأولين على الآخـرين سنة ١٠٧١ في مـعـركـة مـلازكـرت) أو مانزيكرت.

وكان للبندقية بيوت تجارية في الإسكندرية وإنطاكية وطرابلس. وكانت البندقية تكاد تحتكر التجارة في ما خف حمله وغلا ثمنه من طيوب وتوابل وأفاويه ومواد طبية. وكانت الدولة تبني سفنًا خاصة لحمل هذه السلع، ثم كانت تؤجر هذه السفن إلى شركات نقل وإتجار، لكنها تظل تحت الاشراف الرسمي المباشر، أما المتاجر البالغة حجمًا كبيرًا فكان ينقلها تجار على مراكب تجارية خاصة. وهذه كانت تشمل الخمور والزيوت والحبوب والأخشاب والسمك والملح.

وموقع البندقية جعل منها مركزًا لغلات المانيا ومدن لومبارديا، بحيث أن البحر الإدرياتيكي أصبح بحيرة بندقية، وكانت هذه تحمل شرقًا وغربًا ما يجده تجارها على ما ذكرنا.

وقد استقر الرأي بعد التجارب الطويلة، على أن تخرج السفن من موانىء الغرب إلى الشرق في شهري نيسان/ إبريل أو حزيران /يونيو ؛ تعود من الشرق إلى الغرب في آب/ أغسطس أو في أيلول / سبتمبر وتشرين الأول / أكتوبر.

أما جنوا فكانت لها خرجة بحرية واحدة في السنة إلى الموانىء المتوسطية الشرقية.

يجدر بنا هنا أن نشير إلى فئتين من التجار الدوليين ـ إذا صح التعبير ـ ورد ذكرهما عند ابن خرداذبة المتوفى في حدود سنة ٣٠٠ / للهجرة ٩١٠ للميلاد، في كتابه المسالك والممالك». فقد تحدث عن مسلك التجار الراذانية قال: «مسلك التجار الراذانية... الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية،. وانهم يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، برًا وبحرًا. يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف. ويركبون من فرنجة في البحر الغربي [غرب البحر المتوسط] فيخرجون بالفَرما؛ ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم [على مقربة من السويس الحالية] وبينهما خمسة وعشرون فرسخًا [١٥٠ كلم] ثم يركبون البحر الشرقي [البحر الأحمر] من القلزم إلى الجاد وجدة. ثم يمضون إلى السند والهند والصين؛ فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدرا صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي، حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي [المتوسط] فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم، وربما صاروا بها إلى إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك. وإن شاءوا وحملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بإنطاكيا، ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الحبانية

[أو أبو حنانيا] ثم يركبون في الفرات إلى بغداد، ثم يركبون في دجلة إلى الأبلة، ومن الأبلة إلى عُمان والسند والهند والصين. كل ذلك متصل بعضه بعض».

«وأما مسلكهم [التجار الرازانية] في البر فإن الخارج منهم يخرج من الأندلس أو من فرنجة فيعبر إلى السويس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى إفريقيا [تونس] ثم إلى مصر ثم إلى الرملة [عن طريق الفرما] ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى الهند ثم إلى الصين. وربما أخذوا خلف أرمينيا في بلاد الصقالبة ثم إلى خليج [إبل] مدينة الخزر، ثم في بحر جرجان ثم إلى بلخ وما وراء النهر إلى ورُت [؟] تغزغز ثم إلى الصين ».

ثم انتقل إلى الحديث عن التجار الروس فقال: «أما مسلك تجار الروس، وهم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلَبة إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم. وإن ساروا في تنيس[؟] نهر الصقالبة [نهر الفولغا] مروا بخليج مدينة الخزر [إتل] فيعشرهم صاحبها. ثم يصيرون إلى بحر جرجان [بحر الخزر] فيخرجون في أنّى سواحله أحبوا، وقطر هذا البحر خمس مائة فرسخ. وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد. ويترجم عنهم الخدم الصقالبة، ويدعون انهم نصارى فيؤدون الجزية».

وهؤلاء التجار، والرازانية بوجه خاص، ظلوا يسيطرون على التجارة الدولية عبر الطرق التي ذكرناها خلال القرنين العاشر الحادي عشر. وقد كان لهم تنظيم دقيق في أعمالهم وتنقلاتهم وخاناتهم ومعاملاتهم المالية.

وقد أفاد هؤلاء التجار من التطورات التي كانت أوروبا تجتازها في هذه الفترة ـ فترة نمو المدن التي تحتاج إلى مواد خام وبضائع استهلاكية خاصة وإن سكانها كانوا يزدادون عددًا، كما أفادوا من الثروات الخام والمصنوعات الكثيرة التي كانت مدن المشرق العربي وجواره من بلاد المسلمين تنتجها في ذلك الوقت.

فالألمان ـ وكان من سكان بلادهم فئات من الرازانية ـ كانوا تجارًا والفلمنكيون كانوا صناع أقمشة والفرنسيون كانوا يعنون بالأرض استغلالاً صحيحًا وكان الإيطاليون تجارًا وبحارة.

(٦)

وإذن فأوروبا ـ بمدنها ودولها ودويلاتها وأمرائها ـ كانت حريصة على أن تؤمن الاتجار مع المشرق. وفي هذه الأثناء جاءت الدعوة إلى حملة مسيحية لاسترداد القدس بحيث تعود إلى سلطة مسيحية. وقد أعلن هذا البابا أوربانوس الثاني في كلرمونت بفرنسا في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٠٩٥ .

خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الحادي عشر تسارعت الأحداث في

بلادالشام في غير مصلحة البلاد والعباد.

بدءًا من ٤٥٦ / ١٠٦٤ كانت فئات من المقاتلة قد أخذت تقيم كيانات لها في بعض أنحاء بلاد الشام. وكانت واحدة من هذه الفئات يتزعمها أتِسز. كان بدر الجمالي يومها حاكمًا لعكا التي لا تزال تابعة للفاطميين. وقد قامت ثورة بقيادة جماعات من البدو في فلسطين فاستدعى بدرالجمالي أتسز كي يضع حدًا لهذه الثورة (٤٦٣ / ١٠٧١) فعل أتسز ما كلِّف به ثم احتل القدس وبقية فلسطين في السنة نفسها. وخطط ألب أرسلان السلجوقي (٤٥٥ـ٤٦٥ / ١٠٦٣ ـ ١٠٧١) للهجوم على سوريا وفلسطين معلنًا حربًا دينية / مذهبية ضد الفاطميين وعازمًا على التخلص من أتسز، لكن آلب ارسلان بدل خططه وقاتل البزنطيين وانتصر عليهم انتصارًا كبيراً سنة ٤٦٣ / ١٠٧١ . وتوفي في السنة التالية، فتقوى اتسز ودخل دمشق ثم حاول الهجوم على مصر. وارتأى اتسز أن يستعين بملك شاه السلطان السلجوقي (٤٦٥ ـ٤٨٥ ١٠٧٢/ ـ ١٠٩٢)، للحفاظ على سلطته. فكان جواب السلطان أن بعث بأخيه تُتش حاكم حلب (٤٧١ـ ٤٨٨ / ١٠٧٨ ـ ١٠٩٥) الذي قتل أتسز وضم أملاكه إلى حكمه (٤٧٢ / ١٠٧٩) وعين تُتش حاكمًا على القدس. إلا أن الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي، عاد فاسترجع القدس للفاطميين سنة ٤٩١ / ١٠٨٩ .

والذي يجب أن يقال إن الصليبيين لما وصلوا سوريا (١٠٩٧) وجدوا أمامهم بلدًا مقسمًا يحكمه رجال قصيرو النظر، وكانت الخلفية السياسية الأكبر يسيطر عليها السلاجقة والفاطميون الذين كانوا يمثلون دولتين متعبتين هرمتين وكان إهتمامهما ببلاد الشام ضئيلاً. ولو أن اهتمام الفاطميين كان أكبر من اهتمام السلاجقة.

واحتل القوم الغازون إنطاكيا ثم اتجهوا جنوبًا وكانوا يعقدون اتفاقًا مع المدن الساحلية تسمح لهم بالسير قدمًا، حتى وصلوا القدس وحاصروها وأخيرًا احتلوها في سنة ٤٩٢ / ١٠٩٩ .

(٧)

كان للدعوة إلى الحروب الصليبية التي أطلقها البابا أوربانوس سنة ١٠٩٥ لاحتلال القدس وبقية الأراضي المقدسة صدى بعيد وأثر كبير. وبعد أن تجمع المحاربون انتقلوا الى فلسطين برًا. وسبب ذلك هو أن أكثر رجال الحملة الأولى كانوا من سكان أواسط أوروبا أي البلاد البعيدة عن البحر وموانئه وسفنه. وكانت، فضلاً عن ذلك فكرة السفر برًا أقل نفعة، إذ إن المهاجمين سيلقون من يطعمهم.

والجيش الذي سار إلى القدس في الحملة الأولى كان يمثل المجتمع البسيط الذي قبل دعوة البابا قبولاً صحيحًا.

لكن الجماعات التي رأت في هذه المغامرة فرصة ذهبية كانت فئات التجار في

المراكز والمدن التجارية الكبرى التي أشرنا إلى بعضها. هولاء كانوا يحلمون بأن يحصلوا على إذن بالاتجار والإقامة في المدن الشرقية. فجاءت الحروب الآن تعطيهم ما يريدون وأكثر؛ إذ انهم لن يحصلوا على ما يريدون منحة من حكام البلاد، بل حقًا بسبب مساهمتهم في العمل القادم.

لسنا ننوي أن نتابع تطور الدويلات الصليبية في المشرق العربي، ولكننا نود أن نشير هنا إلى الدور الذي قامت به المدن الإيطالية الرئيسية في تثبيت أقدام الغزاة لا رغبة في إيمانهم وحماستهم الدينية، بل رغبة في الإفادة من الأوضاع الجديدة.

كانت جنوا من أول المدن الايطالية التي حتى الحملة الأولى، وقبل أن تصل فلسطين، فقد ضمت عشرًا من سفنها المقاتلة المحاصرة لانطاكيا (١٠٩٧ ـ ١٠٩٨) وبذلك مكّنت للقوة المحاصرة من احتلال المدينة (مع ما رافق ذلك، على ما يروي المؤرخون من خيانة داخلية). لكن السفن تركت البلد بعد أن حصلت على شيء من الأسلاب كثير، وبعد أن أمنت جنوا امتيازات ذات قيمة كبيرة.

وقد اشتركت بيزا في مساعدة الحملة الأولى، لكنها لم ترسل السفن حالاً بل تلكأت نحو ثلاث سنوات. إلا أن السفن وصلت يافا وغودفري على حصار القدس، ومع أن البحارة إضطروا الى التخلي عن بعض السفن، فقد نجحوا في نقل معدات ومواد غذائية إلى المحاصرين في القدس.

لكن المدينة التي كانت سيدة الموقف وزنًا وقدرة فهي البندقية. ففي حصار يافا (٤٩٧ / ١١٠١) وضعت مئتي سفينة إلى جانب المقاتلين من الصليبين. وفي سنة ٥١٧ / ١١٢٣ وقعت معركة بحرية على مقربة من عسقلان كان فيها ١٥،٠٠٠ محارب بندقي وثلاثمائة سفينة، منها مئتان وعشرون سفينة من الحجم الضخم؛ وقد قاد المعركة الدوج بنفسه، وقد انتهت المعركة بالقضاء على الأسطول المصري، وتبع هذه المعركة سقوط صور بأيدي قوة بندقية أيضًا (٥١٨ / ١١٢٤).

ولكن ما الذي حصلت عليه المدن الإيطالية في فلسطين مقابل هذه المساعدات؟

١ـ أسهم الجنود الإيطاليون مباشرة في عمليات السلب والنهب التي كانت تلي الاستيلاء على المدينة البحرية (قيسارية ٤٩٤ / ١١٠١) طرابلس (٥٩٣ / ١١٠٩). ولما نهبت قيسارية (٤٩٤ / ١١٠١) منح القباطنة والضباط الجنويون ١٥ ٪ من الغنيمة وقسم الباقي على ٨،٠٠٠ بحار وجندي فكانت حصة كل واحد منهم ٤٨ دينارًا ذهباً ورطلين (باوند= ٤٥٤ غرامًا) من الفلفل.

٢ـ لكن هذه المكافآت الآنية لم تكن المقصودة بالذات، بل كان هناك على المدى البعيد أمور أخرى أهم بكثير. منها مثلاً أن السفن المختلفة أصبحت تحمل المحاربين بحرًا وذلك لقاء أجور يدفعها هؤلاء ، وهذه صارت مع الوقت، عملية مربحة جدًا. ولكن ما هو أهم، هو أن المدن الإيطالية كانت تمنح أحياء المدن ومخازن للمتاجر وأسواقًا للاتجار وكنائس فضلاً عن امتيازات تجارية وسياسية.

ولنضرب الآن أمثلة على الامتيازات التي حصلت عليها المدن الإيطالية مقابل هذه الخدمات العسكرية. كانت جنوا كما ذكرنا أول من أعان الصليبيين؛ وقد أعطيت مقابل ذلك كنيسة وسوقًا وثلاثين بيتًا في إنطاكيا . وقد نالت كل من بيزا وأمالفي مثل ذلك في أماكن أخرى.

أما البندقية التي كانت الأغنى والأقوى بين مدن تلك الأيام فقد استخدمت قوى كبيرة في السفن والرجال، وعلى فترات متتالية. لذلك فقد كانت حصتها في المملكة حيًا في القدس وربع ميناء عكا و ثلث مدينتي صور وعسقلان (لما إحتلّت سنة ١١٥٣). وقد منح التجار البنادقة حق الاتجار بحرية في المملكة (مملكة القدس اللاتينية) وأعفوا من دفع ضريبة البيع في الموانىء والأسواق.

أصبحت هذه الأحياء التي منحها التجار مناطق خاصة داخل المدن، خاصة في القرن الثاني عشر، وصار سكانها يدير شؤونهم قناصل تبعث بهم المدينة الأم للقيام بهذه المهمات. وقد كان للبندقية محاكم خاصة تحاكم رعاياها.

ومما يلفت النظر هو أن مواطني المدن الإيطالية المختلفة كانوا يعتبرون أنفسهم تجارًا- هذا مع أن الحالة كانت حالة حرب. وكانت هناك جاليات في الإسكندرية وفي دمياط، كما أن بعض سكان بيزا استقروا في القاهرة.

وقد كانت السفن البندقية، مثل غيرها، تقوم بدور سفن النقل التجاري بين القسطنطينية وعكا وصور والإسكندرية، وقد استمر هذا خلال القرن الثاني عشر بالرغم من التوتر والانتفاضات التي كانت تعتور البلاد.

ومثل هذا كان ينطبق على ما يبدو، على الطرق البرية. فقد كتب ابن جبير في رحلته (في أواخر القرن الثاني عشر) أنه قد يقع المصاف بين المتحاربين ـ أي المسلمين والفرنجة ـ ومع ذلك فإن القوافل تنتقل بين بلاد الفريقين وليس من يعترضها. ولعل خير (أو شر) ما يمثل دور البندقية في جعل حملة صليبية كاملة تنتقل من حملة لإنقاذ الأراضي المقدسة إلى حملة مأجورة لمصلحة المدينة الإيطالية.

مر على الحروب الصليبية قرابة مئة سنة وكل من الفريقين، المحاربين الأصليين والتجار، كان ينعم بما حصل عليه وما دفع ثمنه. لكن الحركة فقدت مع الوقت صفتها الدينية في أعين المقاتلين. أما بالنسبة للمدن التجارية فلم تكن أصلاً سوى خرجة تجارية. ومن هنا فإنه لما آن موعد الحملة الرابعة، لم تتورع البندقية من أن تجعل من الحملة حربًا تجارية. فقد قبلت المدينة أن تنقل المحاربين (الصليبيين) إلى بلاد الشام أو مصر وتذودهم بحاجاتهم لمدة فصل واحد. إلا أن البندقية اشترطت أن تُدفع أجرة نقلهم مع اتاوات أخرى قبل الإقلاع، وأن تمنح المدينة نصف ما قد يحتلون. ولما تباطأوا في الدفع، عرض عليهم دوج البندقية أن يتنازل لهم عن الدّين المطلوب منهم إذا كانوا على استعداد لاحتلال زارا، الميناء الواقع على البحر الادرياتيكي والذي كان شوكة في جنب البندقية. فقبلوا؛ لكن المحاربين أقنعوا بأن يبدلوا مسيرتهم ليحتلوا

القسطنطينية. ذلك بأن التجار البنادقة كانوا قد قضت مضاجعهم المنافسة التجارية التي كان تجار جنوا وبيزا يقومون بها ضد البندقية، كما أنهم أنسوا من الامبارطور البزنطي ازورارًا عنهم. وهكذا فقد حاصرت «الحملة الرابعة» العاصمة البزنطية واحتلتها ونهبتها سنة ١٢٠٤ وخلعت الأمبرطور واقتسمت الإسلاب. فحصلت البندقية على نحو ثلاثة أثمان من المدينة، وأخرج الجنويون منها، ولما كانت البندقية قد ثبتت أقدامها في مصر وكانت سيدة الموقف في بلاد الشام، أقامت لنفسها صرحا ضخمًا وأصبحت أكبر «تاجر» في أوروبا.

(٨)

سنة ١٠٩٩ احتلت الجموع الصليبية القدس، وبعد ذلك بأقل من قرن استعادها صلاح الدين سنة ١١٨٧ . وبعد أخذ ورد هنا وهناك أخرج الصليبيون نهائيًا سنة ١٢٩١، أي قبل سبعة قرون.

هل من درس تمليه علينا هذه الأحداث البعيدة ؟ هل من رؤية يمكن أن تعكسها تلك الحوادث بانكساراتها وانتصاراتها بآلامها وآمالها، بحيث بدل أن نتلفت إلى الخلف تحملنا إلي التطلع إلى الأمام؟

فرقة شديدة، تقاتل مستمر، أطماع تسير الحكام، خوف الأخ من أخيه، دعوى الشرقي ـ في المشرق العربي ـ أنه على حق وأن الرجل القاتم في الغرب من المنطقة نفسها هو مخطىء. ومثل ذلك يقول الشخص الآخر.

اهتراء من الداخل من حيث المناعة الخلقية، هذا مع أن التجارة والثروة لم تكونا مقصرتين نحو تزويد القوم بحاجاتهم. في هذا الوضع يأتي اللص والحارس نائم. ينجح في الدخول والعبث وتأسيس قوة.

لكن لما استيقظ الحراس واتحدوا وقبلوا بزعامة ورأي موحدين، استطاعوا أن ينظفوا البيت من اللصوص. جسم صغير غريب دخل الجسم الكبير لكنه لم يقبل ولفظ.

ونحن اليوم نعاني من جسم غريب يضيق الجلد عن أنفسنا وعنه فيوسعه بأنواع السقام التي تنخر في أجسامنا وتبري عظامنا.

هذا الجسم الغريب سيخرج من الجسم، لأن الجسم لن يقبله، لكن لا بد من تقوية الجسم الأصلي من الداخل. لا بد من تحصينه ولا بد من تنطيفه من الأدران التي توجد فيه.

لا تحسبوا أن هذه الأدران هي مجموعة أفراد إذا قضينا عليها انتهى الأمر.

الحياة الاقتصادية في المشرق في العصر العثماني

(١)

تمت للدولة العثمانية السيطرة على مصر وبلاد الشام اعتبارًا من سنة ٩٢٢ / ١٥١٧، أما العراق فلم يتم احتلاله إلا في أواخر القرن السادس عشر. على أن هذه السيطرة كانت في كثير من الحالات اسمية، وخاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فالدولة العثمانية لم تلبث أن تركت لكثير من الحكام والأمراء المحليين تسيير الأمور لقاء دفع الضريبة المترتبة على بلادهم. وكانت الدول السابقة لهم في المنطقة كثيرًا ما تعجز عن دفع رواتب الجند فلجأت إلى إقطاع هؤلاء الأرضين التي لم يهتموا بها بل «لزموها» لمن يستغلها من دون أن يحسنها. يضاف إلى هذا أن الأجزاء الداخلية من بلاد الشام والأجزاء الجنوبية الغربية من العراق وقعت تحت سيطرة البدو، وذلك بسبب ضعف الحكومة المركزية. ولنضف إلى ذلك الحروب التي قامت بين الاتراك والفرس خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، والتي كان العراق مسرحها. هذه أدت إلى تعطيل أقنية الري التي لم يكن المغول قد أتلفوها من قبل. ومن ثم فقد تجمعت جميع العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى إضعاف الزراعة. أما التجارة فقد أصيبت بضربة قاصمة لما تمكن البرتغاليون من الوصول إلى الهند رأسًا عن طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨)، فتحولت تجارة التوابل وسواها من سلع الشرق عن طريق البحر الأحمر والخليج العربي إلى طريق حول إفريقيا. وإذ استولت البرتغال على بعض موانىء خليج عُمان والخليج العربي، وأقامت لها أمبرطورية تمتد من البرتغال إلى الهند، فقد أصبحت التجارة حكرًا على شعبها. وقد تضايق من ذلك تجار المدن الإيطالية وغيرهم، فحاولوا، حتى في القرن السابع عشر، العودة إلى الطرق الشرقية القديمة عن طريق عقد المعاهدات مع الدولة العثمانية.

وقد كان أبرز نواحي التأخر الاقتصادي في المشرق العربي نقص الإنتاج الزراعي بعد انخفاض مساحات الأراضي المستغلة، بسبب انعدام الأمن وسيطرة البدو، وقد وصلت الأراضي المهملة في الكثير من بلاد الشام إلى ساحل البحر المتوسط. أما في الصناعة فقد تناقص الإنتاج وساء نوعه ولم يبق من المدن التي كانت الصناعة مزدهرة فيها سوى القاهرة ودمشق. والموانىء التي كانت تعج بالتجار وتستقبل العشرات من السفن وتمتلىء أسواقها بالمتاجر - مثل الإسكندرية وبيروت وطرابلس وإنطاكيا (عبر السويدية) - أصبحت أشباحًا لما كانت عليه. وهبط عدد سكان بلاد

الشام نحو مليونين في أواخر القرن الثامن عشر (وكان يقدر بنحو خمسة ملايين في العصور الكلاسيكية). وكان سكان مصر يقدرون بنحو أربعة ملايين نسمة ونيف في القرن الرابع عشر فأصبحوا نحو مليونين ونصف المليون سنة ١٨٠٠ .

ومع أن مصر احتفظت ببعض النظام بسبب أن المماليك، ولو أنهم كُسروا أمام العثمانيين (١٥١٧) ، ظل لهم في مصر سيطرة كبيرة، على مقدرات البلاد، فالوالي العثماني كانت سلطته محدودة، وقد لا تعدو أسوار المدينة أحيانًا. لكن المماليك كانوا متنافرين متخاصمين متنافسين متحاربين ، الأمر الذي حال دونهم ودون إفادة مصر.

وقد تأثرت المدن في خسارتها الصناعية والتجارية، لكن السكان كانوا يقبعون في الأحياء السكنية، وينتظمون في أصناف حرفية، فلم يكن يصيبهم من أثر الفوضى إلا القليل، بالنسبة إلى أهل الريف الذين كانوا يتعرضون لجميع أصناف السلب والنهب!.

(٢)

وإذا نحن ألقينا نظرة على العراق وبلاد الشام وجدنا أن الأعمال الزراعية الكبيرة في العراق اقتصرت على جزء صغير من جماع الأراضي الصالحة للاستغلال. وقد انحصرت هذه في ربوع البصرة وحوض نهر ديالي، إذ ظلت هناك بعض وسائل الري من أقنية وما إلى ذلك. أما شمال العراق، في مناطق أربل وكركوك والموصل وديار بكر، فقد كان ثمة حياة زراعية جيدة نسبيًا، وكذلك كان الحال في سواحل الشام في فلسطين ولبنان وسورية، لأن هذه المناطق كانت تعتمد على مياه الأمطار لا على أساليب الري.

وتأخرت صناعة العراق كثيرًا، ولو أن بغداد احتفظت ببعض إنتاجها الصناعي، لكن الكمية نقصت والنوعية تدنت.

ونقص عدد السكان عما كان عليه قبلاً. وفي القرن الثامن عشر قدّر عدد سكان بغداد بما يتروح بين ٥٠،٠٠٠ و١٠٠،٠٠٠نسمة، فيما لم يزد سكان كل من البصرة والحلّة والموصل على ٥٠،٠٠٠ نسمة.

إلا أن عودة الأوربيين إلى استخدام الطرق الشرقية (من البحر المتوسط إلى الخليج العربي)، حفظت لبغداد أهمية تجارية كمركز رئيس للقوافل. لكن اضطراب حبل الأمن في البادية السورية (في القرنين السابع عشر والثامن عشر) أدى إلى تحول القوافل عن بغداد إلى أرضروم (أرزروم).

وكانت هذه القوافل تحمل المنتوجات الممحلية التي تجمع في الأسواق القريبة ـ مثل الحبوب والصوف والجلود والتمور (وهذه خاصة من منطقة البصرة) والأقمشة المصنوعة محليًا؛ لكن السلع الرئيسة التي كانت هذه القوافل تنقلها هي التي كانت تأتي أصلاً من الأقطار الشرقية ـ توابل الهند ونيلها وأقمشتها الأنيقة وما إلى ذلك من

حرير إيران الخام وسجادها وصوفها.

وقد كان للحروب البحرية التي عرفها البحر المتوسط خلال القرون السادس عشر السابع عشر والثامن عشر، والتي اشترك فيها الإسبان والفرنسيون والعثمانيون وحتى البريطانيون، آثار كبيرة في شل الحركة التجارية. ومع ذلك فإن حاجة أوروبا إلى متاجر الشرق، ورغبة الكثيرين من التجار في كسر طوق الاحتكار البرتغالي، حملتا الهيئات التجارية، الخاصة والحكومية، على إنشاء بيوت تجارية في بلاد الشام ومصر. ففي القرن الثامن عشر كان لفرنسا بيوت تجارية في كل من حلب والإسكندرية واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكا والرملة (بفلسطين). كما أنشأ البريطانيون بيوتًا تجارية في حلب وبغداد والبصرة، وهذه البيوت يعود إنشاؤها إلى شركة الهند (الإنكليزية) التجارية (التي تعود إلى مطلع القرن السادس عشر).

وقد بلغ ما تعامل به التجار الفرنسيون،عن طريق بيوتهم التجارية ، نحوًا من ربع مليون جنيه استرليني سنويًا (في أواخر القرن الثامن عشر).

(٣)

تأخرت الصناعة والزراعة في بلاد االعرب ومصر والسودان خلال هذه الفترة. والعوامل التي أدت إلى ذلك تشبه ما ذكرناه قبلاً وإن كانت تختلف طبيعته. ولكن إنتشار عادة شرب القهوة، أدى إلى الاهتمام بزيادة الأرض المزروعة بُنا في اليمن. وقد كان هذا البن يعرف باليمني على أساس الإنتاج، أو بالعدني أو ببُن محنا، تبعًا للميناء الذي كان يورده. وظل البن اليمني هو المعتمد في شرب القهوة في أوروبا الى اوائل القرن التاسع عشر إذ وصل البن البرازيلي الى أوروبا فانصرفت هذه عن استعماله، وأصاب البن اليمني ضربة كبيرة.

أما السلع الرئيسة التي كان مصدرها الجزيرة فهي الخيول والإبل والصوف والجلود والتمور. كما كان الناس يغوصون على اللؤلؤ في الخليج العربي، ويصطادون المرجان في البحر الأحمر، ويصدرونهما إلى الخارج. ولما كانت الجزيرة العربية بحاجة إلى جميع أنواع المواد الغذائية والآلات ومنتوجات الهند والأسلحة، فقد كانت هذه تحمل إليها. وكانت الجزيرة العربية تقع تحت عجز في الميزان التجاري لولا اللؤلؤ من جهة، وما كان الحجاج ينفقونه في موسم الحج من جهة ثانية ، وأخيرًا واردات أوقاف المدن المقدسة التي كانت خارج الجزيرة.

وكان عرب الخليج يتقنون صناعة السفن (الأخشاب كانت تحمل من الهند وشرق إفريقية). وقد قدرت تجارة الخليج العربي مع الهند (حول سنة ١٨٠٠) بما قيمته ١،٦٠٠،٠٠٠ جنيه استرليني.

ومع أن تجارة البحر المتوسط الشرقية قد تأخرت، فقد ظل لمصر مكانها

الخاص، وكانت الإسكندرية (وكان عدد سكانها في تلك الأيام نحو عشرة الآف نسمة) مركز الاتجار مع أوروبا وأميركا وشمال إفريقيا وسورية. وكانت التجارة فيها يسيطر عليها الأوروبيون المقيمون هناك، أما دمياط فكانت تتاجر مع بلاد الشام أصلاً، فيحمل الأرز، خاصة إلى مرافىء فلسطين ولبنان وسورية، وكانت السلع التي تحمل من هناك الى دمياط يدخل في عدادها الصابون والتبغ والأقمشة وكانت رشيد (وسكانها كانوا عشرة آلاف نسمة) فكانت تجارتها خاصة بتركية وسورية .

أما ما كانت تبعث به مصر إلى أوروبا فيشمل المنتوجات النباتية والحيوانية والمعادن الخام والأرز والصوف وخيوط القطن ومنتوجات إفريقيا الشرقية، وكانت مصر تستورد المصنوعات المعدنية والاقمشة والورق والبضائع الاستهلاكية وبخاصة البضائع الترفيّة.

وكانت تجارة الترانزيت (العبور) مصدرًا رئيسًا للتمويل بالنسبة إلى الحكومة المصرية، إذ كانت هذه (عبر مصر وأوروبا) تبلغ ٦٠ ٪ من قيمة التجارة المصرية (وهذه التجارة يدخل في عدادها إرسال البن والتوابل ومنتوجات إفريقية. وقد استوردت مصر من فرنسا وحدها بما قيمته خمسة الاف جنيه استرليني سنويًا (في أواخر القرن الثامن عشر).

أما تجارة مصر البرية مع بلاد الشام، عن طريق القوافل، فقد كانت تبلغ قيمة السلع المحمولة نحو ٥٠،٠٠٠ جنيه إسترليني سنويًا. أما مع شمال إفريقيا فكانت تجارة مصر تبلغ نحو ١٠٠،٠٠٠ جنيه إسترليني سنويًا. هذا عدا عن قوافل الحجاج التي قد تنتقل إلى الحجاز عبر مصر، إذا اضطرب حبل الأمن عن طريق الحج الشامي.

وكانت التجارة بين مصر والسودان برية، تعتمد على القوافل (كانت بعض السلع تنقل نهريًا مع النيل). أما تجارة السودان مع الغرب العربي فلم تكن تعتمد إلا على القوافل. أما المراكز الكبرى لهذه التجارة فهي: سنّار (سكانها يعدون بين ١٠،٠٠٠ و ١٥،٠٠٠نسمة) وهي أكبر مدن السودان، وشندي في جنوب البلاد (نحو ٦،٠٠٠ نسمة). ودار فور (نحو ٦٠٠٠ نسمة ايضًا). وكانت ثمة أسواق صغيرة تقوم على ضفاف النيل هي أصلاً محطات للقوافل المصرية السودانية أو حتى السودانية المغربية.

أما تجارة السودان في البحرالأحمر فقد كانت سواكِن مركزها الرئيس ، ولم يكن في السودان من الصناعات سوى الحرف التقليدية البسيطة. لذلك فإن الصادرات الهامة كانت المواشي والعاج وريش النعام والذرة البيضاء والدخان وبعض التبغ والقمح والصمغ العربي والذهب والرقيق. وكانت الخيول السودانية مرغوبة، خاصة في غرب الجزيرة العربية. أما الواردات السودانية فكانت تشمل المصنوعات المعدنية والأقمشة والصابون والبن والحبوب والتوابل والعطور.

عُمان: تجارتها وأسواقها القديمة - ا

تعتبر عُمان مركزا هامًا بالنسبة للطرق التجارية التي تمر بها. فالخليج العربي وشطآنه كانت عبر التاريخ تبيع وتشتري، وكذلك شواطىء المحيط الهندي بتفرعاته شرقًا وجنوبًا. يُضاف إلى ذلك أن عمان نفسها لم يكن يعوزها ما تصدّره في فترات مختلفة من تاريخها، الذي لم يكشف النقاب إلا عن القليل منه، وبخاصة التاريخ المتوغل في القدم.

ونحن إذا تعلقنا بأهداف الأسطورة التي تقول بأن حيوانًا نصفه الأعلى إنسان ونصفه الى الأسفل سمكة هو الذي حمل المدنية إلى جنوب أرض الرافدين، فلا شك في أن هذا الحيوان قد عرّج في طريقه، إما جيئة أو ذهابًا، على هذا الساحل العُماني إما ليريح أو ليتزود. وعندها يكون لعمان من الاسطورة الحضارية نصيب، أو يكون للأسطورة من عمان نصيب.

وحتى لو إنتقلنا من عالم الأسطورة إلى عالم الفرضيات لكان لنا شيء كثير قد يكشف عنه النقاب في المستقبل. فهناك من رجال البحث الأثري والتاريخي من يرى أن قيام الحضارة المصرية الفرعرنية متأثر بالحضارة التي سبقتها في أرض الرافدين، وان هذا التأثر انتقل بحرًا عن طريق الخليج العربي فخليج عمان فالبحر الأحمر. ولو صح قليل من هذا فلا بد أن يكون لعمان وشاطئها الطويل حظ من هذه التأثيرات الحضارية. ذلك أن الحضارات لا تنتقل على بساط الريح، وإنما تسير سيرًا وئيدًا وتُقيّل هنا وتشتو هناك وقد تكون المدة التي تقيلها أو تشتوها عقودًا أو أكثر من ذلك. بل ثمة من يقول بأن التأثير السومري في الحضارة المصرية القديمة قد تم في مكان قد يقع على الطريق. وعندها تكون البلاد العمانية هي المرشحة لأن تكون المكان.

ولكن لنترك عالمي الأسطورة والفرضيات، ولننتقل إلى عالم فيه تأكيد لأنه نتيجة عمل دقيق هو اكتشاف الآجرات وحل رموز الكتابات القديمة ودرس محتويات هذه الآجرات. ولنسرع الى القول بأن هذه الآجرات تعد بالمئات إن لم تكن تتجاوز الألوف في بعض الحالات. ثم هناك اعمال الحفر الأثري التي تمت في السنوات الاخيرة في نقاط كثيرة من شواطىء الخليجين العربي والعُماني وبحر العرب.

إلاّ انني قبل الانتقال الى عالم العلم والمعرفة، أود أن أضع ملاحظتين: الأولى هي أنني في بعض الأحيان قد أتخطى في إشارتي إلى عمان حدود سلطنة عمان الحالية. وسبب ذلك هو أنه عبر عصور التاريخ، والقديم منه بخاصة، لم تكن الحدود معينة ثابتة. لذلك فقد يعثر الواحد في وقت ما بالنسبة إلى وقت آخر. أما الملاحظة الثانية فتتعلق بالأسواق. ذلك أن التجارة الدولية، عندما تتسع على نحو ما كانت في بعض العصور التي سنتحدث عنها، لا تقتصر أسواق بلد معين على ما يقع في نطاق حدود البلد إنما تكون الأسواق حيث يمكن لتجاره أن يبيعوا وأن يشتروا المتاجر والبضائع.

إن الحضارات الثلاث التي عرفها العالم العربي القديم هي التي قامت في أرض الرافدين وفي وادي النيل وفي حوض السند. وقد كان بين هذه المناطق تجارات واسعة اتضح نتيجة للتنقيب الأثري والدراسات الآجرية السومرية والبابلية، أنها تلخص فيما يلي (طبعًا هذا فيما يتعلق بموضوعنا):

أولاً: إن بلاد ماغان أو فاكان كانت تصدر النحاس إلى أرض الرافدين، فالمدن هنا كانت لها حاجات صناعية، لكن المعادن كانت مفقودة، وقد حملت من أماكن أخرى منها ماغان، وماغان هذه هي عُمان! ويبدو أن بعض النحاس العماني قد حمل شرقًا إلى الهند.

ثانيًا: ثمة نقش يعود إلي سنة ١٥٢٠ق.م. من أيام أور ـ نانشي ملك لاغاش (في جنوب أرض الرافدين) مسجل فيه أن سفن دلمون حملت إليه خشبًا من بلاد نائية. والأخشاب كانت تحمل إما من الهند أو من شرق إفريقية، وهذه الأخشاب طريقها يمر بعمان.

ثالثًا: ظهرت آجرات سومرية وبابلية عليها فواتير ومراسلات تجارية فيها ذكر دلمون وماغان مع ذكر المواد التجارية المنقولة من بعيد. منها، على سبيل المثال آجرات التاجر الكبير أيا ناصر (بين سنتي ١٨١٣و١٧٩٨٠ق . م).

وكانت لمصر القديمة تجارات واسعة في مناطق يشار إليها باسم بون أو بونت، ومع أن الباحثين لم يتفقوا بعد على المكان الذي تقع فيه بونت هذه، فإن الرأي المرجح الآن هو أنها كانت تشمل المنطقة التي تحيط بباب المندب وامتداداته في جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا.

ونلاحظ أن الفينيقيين أصبحوا أصحاب التجارة في البحر الأحمر وخارجه بين تدهور المملكة المصرية من جهة وقيام الأمبراطوريتين الآشورية والكلدانية في أرض الرافدين من جهة أخرى. وهذه الأمبراطوريات كانت برية أصلاً، فانصرفت عنايتها إلى الطرق البرية.

لكن مما لا يختلف عليه الباحثون هو أن عددًا كبيرًا من التجار وأصحاب المراكب

وصناع القوارب كانوا من سكان الشواطىء العربية، الجنوبية بشكل خاص. فلما إنحسرت التجارة البابلية والمصرية والفينيقية عن المنطقة، أصبحت التجارة في المحيط الهندي الشمالي حكرًا على العرب. وقد اختفظوا بمعرفتهم سرًا مدة طويلة. ويبدو أن البخور بنوعيه اللبان والمر والطيوب والأفاويه والحجارة الكريمة كانت تنقل على أيديهم، وكانت عدن وقنا وجزيرة سوقطرى الموانىء المعروفة، ولعل صور العمانية كانت أحد المراكز التجارية في ذلك الزمن

وصف الجغرافيين القدماء

خلّف لنا المؤلفون الجغرافيون الكلاسيكيون أي المؤلفون اليونان والرومان، من هيرودتس إلى سترابو، معلومات كثيرة عن الجزيرة العربية بما في ذلك الخليج العربي وخليج عُمان، لكن هذا المعلومات كانت، في أكثرها، مما نُقل سماعًا. ومع أن فضل هؤلاء الكتّاب على المعرفة الجغرافية بعامة كان كبيرًا، فإن الأمور الدقيقة منها كانت قليلة بالنسبة إلى المنطقة التي نتحدث عنها. صحيح أنهم تحدثوا عن اللبان والمر والطيوب وتجارتها وأمكنة تجمعها، إلا أننا يجب أن نذكر أنهم بالغوا أحيانًا وضموا بعض الأساطير إلى بعضها أحيانًا أخرى.

على أننا نجد عند سترابو، الذي نقل عن أرثوسيثنس الإسكندري، انه إلى الشرق من حضرموت، وعلى بعد خمسة آلاف ستاديون، أي ما يعادل تسعمائة كيلومتر، توجد بلاد القرفة والقصيعة *(Kissia)*. هذه البلاد المشار إليها، إذا قابلها الواحد منا بما ورد فيما بعد عند جغرافيي العرب مثلاً ، وجد أنها عمان. إلا أن تسمية تلك البلاد ببلاد القرفة والقصيعة خطأ بمعنى إنتاج القرفة والقصيعة. لكن إذا فهمنا من ذلك الاتجار بهاتين المادتين صح الأمر. ويذكر سترابو ميناءين في جنوب شرق الجزيرة العربية هما ماكي *(Makae)* وتيروس *(Tyros)*، ومن المرجح أن المكانين هما رأس الخيمة وصور. فإذا صح ذلك فلعل صور العمانية كانت من مراكز الاتجار بالقرفة والقصيعة وغيرهما من الطيوب والأفاويه. وحريّ بالذكر أن اللبان الظفاري،وهو أجود أنواع البخور، كان ينقل من ظفار شرقًا وغربًا بحرًا، كما كان يحمل في طريقين برين الواحد عبر اليمن إلى الحجاز، والآخر كان يدور بالربع الخالي قليلاً حتى يصل إلى جرها،ولعلها الجرعاء في شرق المملكة العربية السعودية، حيث كان يحمل منها بحرًا إلى الرافدين.

على أن معلوماتنا الجغرافية عن الخليج العربي في العصر اليوناني جاءت من نيارخوس، وهو البحري الذي أرسله الإسكندر من حوض السند إلى جنوب أرض الرافدين ليكتشف الشواطىء المحاذية للمحيط الهندي وخليج عُمان والخليج العربي على الجهة الشرقية. ومع أن الإسكندر أرسل فيما بعد ثلاث بعثات أخرى للتعرف إلى

الشواطىء الغربية للخليج العربي وبقية شواطىء الجزيرة إلى مداخل البحر الأحمر، فإن أيًا من هذه لم تحقق ما طلب منها: فقد وصلت أولاها إلى البحرين والثانية لعلها وصلت إلى أبو ظبي، وأما الثالثة فتجاوزت رأس مسندم بعض الشيء. وقد توقفت محاولات الكشوف الجغرافية هذه بوفاة الإسكندر، ومع أن خلفاءه في بلاد الشام وأرض الرافدين، أي السلاجقة، قد اهتموا بتجارة الخليج العربي فإن المعلومات الجغرافية لم يعن بها. ولكن من المعروف أنه في القرن الأول قبل الميلاد كان ثمة تجار يونانيون من مصر يعملون بالتجارة في المحيط الهندي الغربي، وأنهم كانوا يتاجرون مع جزيرة سوقطرى ومع مكان يسمونه أسيلا، ويبدو أن أسيلا هذه هي قلهات أو على الأقل كانت تقوم هناك.

في القرن الأول ق. م. قام هيبالوس، وهو تاجر وملاّح يوناني كان يقيم في مصر، بالتأكد من هبوب الرياح الموسمية واتجاهها. فالرجل كان يعرف أخبار البحر الأحمر وبحر العرب والخليجين وشمال المحيط الهندي، ثم انه خبر البلاد وعرفها بسبب تنقله فيها متاجرًا. فأراد أن يتأكد من إمكان الاستفادة من هبوب هذه الرياح لدفع السفن عبر المحيط من دون الاضطرار الى السير في محاذاة شاطىء إيران وكرمان وما إلى ذلك. لذلك فإنه جازف في إحدى رحلاته، خرج من عدن ولما وصل مقابل رأس فرتك دفع بسفينته عبر بحر العرب مفيدًا من الرياح الموسمية الصيفية، فوصلت السفينة رأسًا إلى مصب نهر السند.

كان هذا فتحًا هامًا بالنسبة للتجارة البحرية. وكانت السفن آنذاك قد كبر حجمها واستعمل لها الشراع الكبير المربع في كثير من الحالات، ونحسب أن معنى هذا، بالنسبة إلى عمان، أن الموانىء الممتدة على شواطئها صارت نقط انطلاق للسفن، وخاصة الموانىء الواقعة في الطرف الجنوبي الشرقي من البلاد.

إن الباحث في تاريخ التجارة وطرقها ومتاجرها وأماكن تبادل السلع يسعده أن يقع على وثيقة، مهما كان نوعها، توضح له بعض ما كان يدور في مكان ما في وقت من الأوقات. لذلك فالوثيقة المعروفة باسم دليل البحر الإرتيري، حرية باهتمامنا هنا. هذا الكتيب وضعه مؤلف مجهول، لكن من الواضح أنه كان تاجرًا عارفًا بأسرار الصناعة . يذكر المؤلف الموانىء الهامة والمراكز البحرية الثانوية والمدن والأسواق الداخلية التي تغذيها ويعدد التجارات التي تقوم في كل من هذه الأسواق.

والمنطقة التي نعنى بها الساعة،، وهي التي تشرف على خليج عُمان وتجاور الخليج العربي وجنوب الجزيرة ذكر فيها صاحب هذا الدليل: البخور بنوعيه اللبان، والمر والذُبل وهو غلاف السلاحف، والخمور من التمر والعنب، والكحل والمرمر والمرجان واللؤلؤ والقوارب المحيطة. أما الموانىء التي يعنى بها ويورد أسماءها فهي قنا (حصن الغراب) وموشا (خور ريري) وظفار وسوقطرى وجزر زنوبيا (خوريا موريا) وخور جرمه وخور هجارة (الجوهري؟).

تجارة هذه الموانىء في جملتها كانت تدور حول استيراد القمح والأرز والثياب والأردنة والنحاس والقصدير والأخشاب. وكانت تصدر من المنتوجات الخاصة بها اللبان والذهب واللؤلؤ وغيرها من الحجارة الكريمة والذبل البحري. بالإضافة إلى هذه المتاجر، كانت الموانىء المذكورة تصل إليها بضائع الهند الأخرى الكثيرة وأهمها الأخشاب وزيت السيرج والدهن الهندي والماس والسكر والياقوت والأواني الفخارية والأفاويه والطيوب والقرفة، وكانت تتلقى العاج وقرن وحيد القرن من شرق إفريقيا.

ويذكر صاحب الدليل أن عُمان فيها سفن محيطة يسميها مدراقًا. ويبدو أن هذه الكلمة مأخوذة من «مدرعة» وهو الاسم الذي أطلق على هذه السفن، ويشير إلى التمر الكثير والخمر هناك. ومدينة عمان بالذات ـ وهنا يستعمل هو التعبير بمعنى المدينة الرئيسة، على نحو من جاء بعده من الجغرافيين ـ كانت متجرًا كبيرًا. إذ كان يأتيها النحاس وعود الند وخشب التيك وخشب الأبنوس وهذه من الهند، واللبان من قنا (للتصدير). وكانت هي بدورها تصدر ما عندها مثل القوارب والسفن والثياب وما يأتيها من خارجها مثل اللؤلؤ والذهب والرقيق. إن نظرة سريعة إلى هذه المتاجر ومصادرها تؤكد لنا أن أسواق عمان في تلك الفترة من تاريخها كانت تنتشر شرقًا وشمالاً وغربًا وجنوبًا.

كان اكتشاف هيبالوس لمهاب الريح الموسمية والإفادة منها قد تَم قبيل وصول وصول الرومان في فتوحهم إلى شرق البحر المتوسط. ونشوء الإمبرطورية الرومانية وحدة سياسية تمتد من أطرافها الأوروبية إلى مجاليها الآسيوي والإفريقي، كان أمرًا هامًا بالنسبة للتطور التجاري في المحيط الهندي. فالمجتمع الروماني ـ في مدنه وعواصم أقاليمه، وفي بيوت الأثرياء من أهله، وفي معابده وهياكله وفي ملاهيه ومباذله ـ كان بحاجة إلى الكثير مما تنتجه البلاد العربية وشرق إفريقيا والهند. وكانت ثروة الأمبراطورية تمكّنها من الدفع، فأفادت المدن التي كان يتبادل التجار فيها السلع. وقد دفعت روما وامبراطوريتها الكثير من الفضة والذهب ثمنا لما استوردته حتى ضج الكثيرون من ذلك في القرن الأول للميلاد. فقد استوردت الأمبراطورية في فترة قصيرة من ذلك القرن بما قيمته إثنان وعشرون مليون دولار ذهبًا!

التجارة مع الهند والصين

نحن الآن مقبلون على الفترة التي سيطر فيها الساسانيون على جنوب غرب آسيا. والتي كان فيها البزنطيون يزاحمونهم تجاريًا وسياسيًا. أي إن هذه الفترة تمتد من سنة ٢٢٥ إلى الانتصار العربي الإسلامي على الدولة الساسانية والقضاء عليها نهائيًا في أواسط القرن السابع الميلادي. أما بالنسبة للدولة البزنطية فالزمن يمتد من العقد الثالث من القرن الرابع إلى الفتح العربي الإسلامي الذي انتزع من البزنطينن بلاد الشام ومصر. على أنه يترتب علينا، ونحن نعالج التجارة الدولية في

تلك الفترة، أن نتذكر أن الصين انتهى حكم أسرة هان فيها سنة ٢٢١م، أي حول الوقت الذي قامت فيه الدولة الساسانية، وجاء في أعقابها «الدول الثلاث» ثم قيام دولة تسن ودولة سوي بين سنتي ٢٢١ و ٦١٨م.

نودّ أن نذكر أنفسنا بأن الصين، والجزء الشمالي منها بشكل خاص، كان قد تعرف إلى المتاجر التي تنتج في جنوب غرب آسيا منذ قيام الأمبراطورية الفارسية الأولى،واستمرت هذه التجارة حتى في أيام الإمبراطورية الرومانية. ومع أن الصين أصابتها نكبات سياسية كبيرة، فإن الصين الجنوبية، التي انتقلت إليها رغبات الشماليين الحضارية، كانت في القرن الثالث الميلادي كثيرة الاحتفال بالحصول على هذه الكماليات التي كانت منطقة غرب آسيا توفرها لمن يريدها.

وكانت الدولة الساسانية تسيطر على طريق الحرير البري عندما يكون الاتصال مع الصين، عبر أواسط آسيا، ممكنًا. إلا أن هذا الطريق البري لم يكن متيسرًا في القرنين الرابع والخامس،وحتى في بعض القرن السادس للميلاد. ومن هنا فإننا نجد أن الصين كانت، في القرنين الرابع والخامس، تتصل بالغرب عن طريق فونان ، عبر شبه جزيرة الملايو، لتتمكن من الحصول على منتوجات غرب آسيا. ولكن بعد سنة ٥٠٠ للميلاد كان ثمة اتصال مباشر بين الصين وأندونيسيا من جهة والهند والإمبراطورية الساسانية من جهة أخرى.

في هذه الفترة كانت جزيرة سرنديب،(سيلان / سريلانكا) أو كما كانت تسمى يومها جزيرة طبروباني، المركز الرئيس للتجارة بين الشرق والغرب.

وهنا أمر حري بالذكر، وهو أن المصادر الشرقية، والصينية منها بشكل خاص،كانت تنظر إلى المتاجر الآتية من الغرب على أنها متاجر فارسية، وهذا لا يتفق مع الواقع، لكن لأن الدولة المسيطرة، أي الدولة الساسانية، كانت فارسية، فسمي كل ما جاء من الغرب إلى الهند أو سيلان، فارسيًا. ولكن الحقيقة هي أن العرب بقي لهم دور كبير في التجارة البحرية، وإلا فكيف يمكن أن نفسر قيام أهل عُمان بحملات بحرية بعيد اعتناقهم الإسلام ضد المناطق الشرقية من الخليج لو لم يكونوا قد إحتفظوا بتمرسهم بالبحر وما يقتضيه؟ ومن هنا، كما يرى جورج حوراني، فإن عُمان، فإن مثل البحرين، كان لها مراس بحرية ومساهمة في تجارة المنطقة كبيرة.

في هذه الفترة،وخاصة في القرن السادس، كانت الصين تحصل، من بلاد الأمبراطورية الساسانية،على البخور والطيوب والصموغ والثياب الموشاة الغالية والعنبر واللؤلؤ والحجارة الثمينة ، وكان المرجان ينقل من حوض البحر المتوسط. وكانت تورد إلى مناطق تلك الأمبراطورية الحرير قماشًا واليَشَب. كما كانت الهند تصدر إلى الغرب الأخشاب والأفاويه والطيوب. والذي يجب أن يذكر أن اليمن وموانيها لم يكن لها دور كبير، وذلك بسبب الانهيار الاقتصادي الذي أصابها نتيجة للاضطراب في توزيع المياه وخاصة بسبب خراب سد مأرب.

عُمان: تجارتها وأسواقها القديمة ـ ٢

كان إنشاء الدولة العربية الإسلامية التي امتدت من أواسط آسيا إلى إسبانيا حدثًا هامًا بالنسبة للتاريخ العالمي. ولكننا نحن معنيون من الساعة في أثره بالنسبة للتطور التجاري الذي أصاب الخليج العربي، وخليج عُمان كي تتضح لنا الصورة التي كانت عليها عُمان في تلك الفترة الطويلة. ومن الضروري أن نفرّق بين الدور الأول من هذه الفترة وهو العصر الأموي والأدوار التي تلته منذ قيام الدولة العباسية. فالدولة الأموية كانت، من حيث العاصمة والاتجاه، شامية متوسطية. أما الخلافة العباسية فقد كانت، بحكم نشأتها وعاصمتها واتجاهاتها،عراقية مشرقية. والمجتمع الذي قام في ظلال الدولة العباسية بشكل خاص كان مجتمع حضارة ومدن واستمتاع بالكماليات وثروة للإنفاق على هذه كلها، يضاف إلى ذلك جيوش كان لا بد من تزويدها بحاجاتها من السلاح والثياب. كل هذا اقتضى العمل في الصناعة والتوسع في التجارة والتبادل في السلع بين جزء وآخر من العالم المعروف. وحري بالذكر أنه في الوقت نفسه تقريبًا أي في القرون الأول والثاني والثالث للهجرة، (السابع والثامن والتاسع للميلاد)، كانت تقوم في الصين دولة قوية هي دولة تانغ التي امتد سلطانها من سنة ٦١٥ إلى سنة ٩٠٧ للميلاد. وإذا تذكرنا أن سكان الصين كانوا قد اعتادوا على الكثير من منتوجات آسيا الغربية عبر القرون الماضية، أدركنا مدى ما يمكن أن يصل إليه التبادل التجاري بين هذين المجتمعين الكبيرين ـ العربي الإسلامي والصيني ـ وما ينال البلاد الواقعة بينهما، كالهند وأندونيسيا وسيلان، من فوائد. على أنه يجدر بنا أيضًا أن لا نغفل أمرًا اخر وهو أن الأسواق التي كان التجار العرب يبيعون فيها ويشترون اتسعت في أكثر من جهة، مثل سواحل إفريقيا الشرقية حتى مدغشقر والسودان الغربي وغير ذلك.

على أننا يتوجب علينا أن نعود إلى الموضوع الأصلي وهو عمان وتجارتها وأسواقها، ونحن نسمح لأنفسنا بأن نشير إلى أمر هام وهو أن المصادر التي بين أيدينا فيها الكثير مما ينفع في هذا البحث بالذات. فهناك كتب الأزياج والكتب الجغرافية الأولى التي هي أشبه بالدليل الرسمي، لكنها كثيرة الفوائد. وثمة كتب

البلدانيين الذين زاروا العالم العربي الإسلامي ودونوا أخبارهم، وأكثر هؤلاء من القرن الرابع الهجري (أي القرن العاشر الميلادي). ويلي ذلك عدد من الرحالين الذين زوّدونا بالأخبار البحرية والبرية. والذي ننوي فعله الآن هو متابعة هؤلاء الناس عبر الزمن لنرى ما الذي يعطوننا إياه عن عمان.

فكتّاب الأزياج، مثل الخوارزمي وسهراب، يضعون ظُفار وعُمان في الاقليم الأول من أقاليم العالم السبعة، ويتابعهم في ذلك ابن خرداذبة، وهؤلاء يعتبرون عمان من المواضع العامرة. فالخوارزمي يقول «بلاد العربية العامرة وهي بلاد اليمن واليمامة والبحرين وعمان».

وكانت لليعقوبي وابن خرداذبة وابن رسته وقدامة، وهم أصحاب الكتاب ـ الدليل الجغرافي، عناية بالطرق. فعُمان تبعد عن البصرة مائتان وأربعة وثمانون فرسخًا، والإصطخري يقول إن عبادان تبعد عن عمان خمس عشرة مرحلة وشهرًا. ويحذرنا ابن حوقل من صعوبة الطريق بين عمان والبحرين.

ولا بد لنا من التنبيه إلى أن عمان ترد عند عدد من الجغرافيين بمعان مختلفة. فهي بلاد، وهو ما جرى عليه الأغلبية. وهي مدينة عند القلة منهم، على أن البعض يقول مثلاً مدينة عمان. والذي فهمناه من هذه العبارة الأخيرة هو الإضافة في التسمية لا البدل. فمدينة عمان تعني المدينة الرئيسية في بلاد عمان .

والمدن التي يرد ذكرها عند البلدانيين ومن سبقهم هي عُمان ومسقط وسوقطرى عند ابن رسته؛ والإصطخري يشير إلى صحار على أنها قصبة عمان؛ وابن الفقيه يذكر مسقط وصحار وقلهات بين المدن العمانية؛ ويعتبر المقدسي صحار عاصمة كورة عمان، ويذكر بين مدن عُمان نزوة والسِّر وضنك وحفيت ودبا وسلوت وجُلفار وسمد ولَسيا وملح. هذا مع العلم بأن المقدسي هو أدق من غيره من الجغرافيين من حيث التعريف بمعنى المصر والنواحي والكورة والقصبة.

يخص الإصطخري بلاد مَهرة وعمان بشيء من العناية . فيقول عن الأولى «وأما بلاد مهرة فإن قصبتها تسمى الشحر، وهي بلاد قفرة... وليس ببلادهم نخيل ولا زرع وإنما أموالهم الإبل... واللبان الذي يحمل إلى الآفاق من هناك». أما عُمان فقد وصفها بقوله : «عمان مستقلة بأهلها وهي كثيرة النخيل والفواكه الجرمية من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك، وقصبتها صحار، وهي على البحر، وبها متاجر البحر، وقصد المراكب، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا تكاد تعرف على شواطىء البحر... مدينة أكثر عمارًا ومالاً من صحار وبها (أي عمان) مدن كثيرة، وبلغني أن حدود أعمالها نحو من ثلاثمائة فرسخ ... وعمان بلاد حارة جدًا». وقد نقل ابن حوقل عبارة الإصطخري، لكن المقدسي أتم صورة صحار إذ قال: «وصحار هي قصبة عمان وليس على بحر الصين اليوم بلد أجمل منه، عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار، وفواكه

وخيرات ... أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر. دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة ... (وهي) دهليز وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن».

محطات تجارية بحرية

يبدو أنه إلى أوائل القرن العاشر الميلادي كانت السفن تقطع المسافة من الصين إلى موانىء الهند إلى عمان والبصرة أو الأبلة ، لكن منذ أواسط ذلك القرن أصبحت السفن تلتقي في كله (بار) على شاطىء الملايو الجنوبي الغربي. وقد ترك لنا المسعودي خبر ذلك في قوله: «بلاد كله، وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، وإليها تنتمي مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من ورد من أرض الصين في مراكبهم». ويخبرنا على أن الأمر لم يكن كذلك من قبل؛ فقد كانت المراكب تصل من الطرف الواحد إلى الطرف الآخر من البحار الشرقية إلى الخليج العربي.

والواقع أن سليمان التاجر الذي جمعت أخباره حول سنة ٢٣٧ للهجرة ٨٥١ للميلاد يحدثنا على المحطات الرئيسة في الطريق من سيراف إلى الصين وهي: مسقط عمان (مرورًا بصحار) وكولم ملي في جنوب غربي الهند. وبينها وبين مسقط شهر على اعتدال الريح، ثم تقلع المراكب إلى لنجبالوس ثم إلى كله بار ثم إلى صنف ثم إلى أبواب الصين إلى خانفو.

وقد تغير الحال على نحو ما حدثنا المسعودي. ولنعد إلى هذا العالم لننقل عنه قوله: «وأرباب المراكب من العمانيين يقطعون هذا البحر (بحر الزنج) إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج... والعُمانيون... من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري (نسبة الى بربره) موجة جنون». وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد.

ولنا أن نتساءل عن التجارات والأعمال التي كانت تتم في هذه المدن الأسواق العمانية ، سواء في ذلك ما كان ينتج فيها وما كان يحمل إليها ومنها.

فإذا أخذنا المقدسي نجد أنه يقول عن عمان إجمالاً «إلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقندر والإسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل، وغير ذلك». ويضيف آخرون إلى المتاجر، وخاصة العمانية الأصل، الدر العماني والقسي العمانية والتمر والسمك. ويبدو أن الخيول كانت تصدر من عمان إلى الهند بكميات كبيرة. وهذه الخيول كانت تربى في سهل القريات. وقد ذكر وجود الخيول هناك بكثرة كل من ماركو بولو وابن بطوطة والبوكيرك. لكن، على ما يقول سكيت، ليس في المنطقة خيول الآن البتة. ويضيف بأن السهل الذي كانت تربى فيه الخيول لتصدر الى الخارج هو

الآن مصدر للملح الصخري.

وقد كان ارتفاع منطقة عُمان من العين سنة ٢٣٧ ثلثمائة الف دينار.

ومما كان يجمع في منطقة عُمان وما جاورها العنبر. ويقول اليعقوبي: «العنبر أنواع وأصناف مختلفة ومعادنه متباينة ... فأجود أنواعه وأرفعه وأفضله وأحسنه لونًا وأصفاه جوهرًا وأغلاه قيمة العنبر الشحري. وهو ما قذفه بحر الهند إلى ساحل الشِحْر... وبعد العنبر الشحري العنبر الزنجي ... (وثمة) عنبر يؤتى به من الهند يسمى الكرك بالوس ... يأتون به إلى قرب عمان يشتريه منهم أصحاب المراكب» وعبارة أصحاب المراكب هنا تسترعي الانتباه. فهي لا تعني فقط الذين يملكون المراكب للتجارة، وإنما تعني الذين يصنعون المراكب أو يصلحونها. وقد كانت صور مكانًا تصنع فيه المراكب واستمر هذا فيما بعد.

وقد ذكر المروزي في أبواب «الصين والترك والهند» أن الكواغد الحسنة كانت تتخذ في الصين. لكنه لم يذكرها في التجارات التي تحمل غربًا، أي الخليج الى العماني أو العربي.

ومع الإدريسي لم يزر عمان (ولا أي جزء من الجزيرة العربية) فقد جمع مادته ممن كتب قبله وممن عرفه من الذين زاروا تلك الأصقاع. فهو، بعد أن يذكر مهرة، وإن جملة الدواب هناك تعتلف السمك المعروف بالوزق الذي يصاد في بحر عمان،يقول عن عمان: «ويتصل بأرض مهرة بلاد عمان. وهي مجاورة لها... وبلاد عمان مستقلة بذاتها عامرة بأهلها. وهي كثيرة النخل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والتين والعنب ونحو ذلك. ومن بلاد عمان مدينتا صور وقلهات. وهما على ضفة البحر الملح... وهما مدينتان صغيرتان لكنهما عامرتان... ويصاد بهاتين المدينتين اللؤلؤ قليلاً. وبين صور وقلهات مرحلة كبيرة في البر. وفي البحر دون ذلك». ويعود الإدريسي لينقل إلينا أن صحار ومسقط هما مدينتا عمان. وإن صحار أقدم مدن عُمان. وإنها يقصدها في كل سنة التجار من بلاد بعيدة وإليها يجلب جميع بضائع اليمن وبتجهز منها بأنواع التجارات. ويقول أيضًا ان جزيرة كيش (أي جزيرة قيس) تزاحمها في التجارة.

ويشير الإدريسي إلى وادي الفلج الواقع على جانبيه مدينتا سعال والعفر. وهما مدينتان صغيرتان عامرتان. والأرض التي تقعان فيها هي أرض نزوة. ويذكر أيضًا مدنًا أخرى صغيرة منها مح وسر عمان (السر الوارد عند المقدسي) وجلفاره على البحر ونهر الفلج الذي يقصده الإدريسي هو القناة الكبرى.

وينقل الإدريسي عمن يعرف المنطقة أن طريق عمان إلى مكة أو غيرها صعبة لكرة القفار وقلة السكان، وإنما يسافر أهل عمان في المراكب على البحر إلى مدينة عدن للوصول إلى الحجاز (إما برًا أو بحرًا) ومن صحار إلى البحرين.

المصادر الصينية

بعد سقوط أسرة تانغ الصينية سنة ٩٠٧ للميلاد، وهوالسقوط الذي جاء نهاية لحروب أهلية أنقذت الصين على أيدى الأسر الخمس ثم حكمت البلاد أسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ ـ ١١٢٦) ثم اسرة سونغ الجنوبية (١١٢٦ ـ ١٢٧٩) وهي الأسرة التي قضى عليها جنكيزخان لما اجتاح الصين كما اجتاح غيرها من البلاد.

في زمن أسرة سونغ الجنوبية أفلتت التجارة الآسيوية البرية من أيدي الصين، على نحو ما كان يحدث من قبل عندما تكون في أواسط آسيا دولة قوية معادية للصين. لكن التوسع التجاري البحري عوّض الصين عن تلك الخسارة. وقد أصبح لها أسطول مكون من نحو مائة وعشرين سفينة يعمل فيها ما يزيد على خمسين ألف بحار.

وبسبب من كثرة التجار الوافدين على الصين وضع في موانئها مراقبون للتجارة والتجار. وهؤلاء المراقبون كانوا يجمعون المعلومات عن البلاد النائية من أفواه التجار. وقد دوّن البعض هذه المعلومات في مدونات وصل إلينا بعضها.

والمدونة التي تعنينا الآن هي مدونة تشاو جو ـ كوا *Chau Ju -kua* التي تعود إلى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد (وضعت بين سنتي ١٢٤٢و١٢٥٨). في هذه المدوّنة كثير من الامور التي تخص بلاد العرب، التي كان الصينيون قد أخذوا يطلقون عليهم اسم تاشي *Ta-shi*.

وإذا نحن إقتصرنا على المنطقة العُمانية وجدنا أن المدونة تذكر مرباط والشحر وظفار وقلهات وصحار وعمان وجزيرة سوقطرى. والمدونة التي وضعها جو ـ كوا نقل فيها عن مدونة ترجع إلى أواخر القرن الثاني عشر للميلاد أن مرباط فيها بيوت تتكون من خمسة أدوار وأن في مينائها تتجمع السفن الكبيرة ويلتقي التجار الأغنياء.

وجزيرة سوقطرى على ما يروي جو ـ كوا مشهورة بدم الأخوين *Dragon's blood* وقد ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي: « أنه يجلب من سوقطرى الصبر ودم الأخوين وهو صمغ شجر لا موجد الا في هذه الجزيرة ويسمونه القاطر».

ويبدو، من المدوّنة التي بين أيدينا أن المادة الرئيسة التي كانت المنطقة تزود بها الصين بخاصة، والبحار الشرقية بعامة، هي اللبان الذكر. ويقول جو ـ كوا إن اللبان الذي يحصل عليه من مرباط والشحر وظفار، والذي يجمع من المناطق الداخلية، هو أجود الأصناف. وكان هذا اللبان ينقل من الموانىء العربية المذكورة إلى بالمانغ في سومطرة، حيث يحمل إلى الصين. وكانت منطقة قلهات تنتج الذبل الجيد، والذبل ينقل من سوقطرى.

ويذكرى جو ـ كوا المتاجر التي كانت تنقل عن طريق الموانىء العربية، وأكثرها عُمانية، مثل المر (من الصومال) والعاج والعنبر والذبل. والعنبر كان يتسعمل في طلي

السفن. كما كان مرجان البحر المتوسط ينقل إلى الهند عن طريق الخليج العربي وخليج عُمان.

في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي زار ماركو بولو منطقة عُمان فمر بظفار سنة ١٢٨٥ وقد قال عنها، أو على الأصح عن «البلد» التي خلفت ظفار، ما يأتي:

«ظفار مدينة كبيرة وجميلة، وتقع على نحو خمسين ميلاً إلى الشمال الشرقي من الشحر ... تقع على البحر ولها ميناء حسن، ومن ثم ففيها حركة تجارية كبيرة بينها وبين الهند. ويحمل التجار من ظفار عددًا كبيرًا من الخيول العربية إلى الهند، ويفيدون من ذلك أرباحًا طائلة، ويتبع المدينة عدد من البلدان والقرى وينتج في هذه الجهات الكثير من اللبان».

كما أن ماركو بولو زار صحار سنة ١٢٩٣ وقال عنها إنها لا زالت، بعد النكبات التي أصابتها على أيدي المغول الذين هاجموها من شيراز في سنة ١٢٧٦، غنية. وهي سوق كبيرة للخيول العربية، إلا أن أبا الفداء قال عنها إنها كانت مدينة خربة.

... ورواية ابن بطوطة

ويأتي بعد ذلك ابن بطوطة الذي زار المنطقة العُمانية بعد أن سافر من عدن إلى زيلع ثم زار مقديشو وكلوا. ثم ركب البحر من هذه إلى ظفار ويقول بعد ذلك:

«ومنها - أي من ظفار - تحمل الخيل العتاق إلى الهند. ويُقطع البحر فيما بينها وبلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل. وقد قطعته مرة من قاليقوط، من بلاد الهند إلى ظُفار في ثمانية وعشرين يومًا بالريح الطيبة لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار... وبين ظفار وعمان عشرون يومًا. ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها. والسوق خارج المدينة بربط يعرف بالحرجاء... ويباع فيها الثمرات والسمك. وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين، وهو بها في النهاية من السمن. ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم... وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة... ولهم قمح يسمونه العلس، وهو في الحقيقة نوع من السّلب والأرز يجلب اليهم من بلاد الهند، وهو أكثر طعامهم. ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها. وهم أهل تجارة لا عيش إلا منها.. وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء. ولباسهم القطن وهو يجلب إليهم من بلاد الهند... ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدًا... ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير الجرم. وزنت بمحضري حبة منه فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية. وهو طيب الطعم شديد الحلاوة. وبها أيضًا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان إلا في بلاد الهند وبظفار هذه لشبهها بالهند».

ويتابع ابن بطوطة حديثه فيقول:

«ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عُمان... وفي اليوم الثاني لركوبنا نزلنا

بمرسى حاسك، وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك. وعندهم شجر الكندر، وهو رقيق الورق وإذا شرطت الورقة منه قطر منه ماء شبه اللبن ثم عاد صمغًا... ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة... ولم ننزل فيها لبعد مرساها عن الساحل ثم سرنا يومًا وليلة فوصلنا مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور. ورأينا منها مدينة قلهات».

ويروي ابن بطوطة قصة سيره مشيًا من صور إلى قلهات وقضائه ليلة مزعجة ووصوله إلى قلهات وقد تورمت رجلاه وأضناه التعب. واضطر إلى قضاء ستة أيام حتى استطاع الوقوف على قدميه. وبعد ذلك يقول عن قلهات:

«ومدينة قلهات على الساحل. وهي حسنة الأسواق ولها مسجد من أحسن المساجد. حيطانه بالقاشاني ... وأكلت في هذه المدينة سمكًا لن آكل مثله في إقليم من الأقاليم... وهو يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه. والأرز يجلب إليهم من أرض الهند. وهم أهل تجارة، ومعيشتهم مما يأتي إليهم في البحر الهندي.. وبمقربة من قلهات قرية طيبي... وهي من أجمل القرى وأبدعها حسنًا، ذات أنهار جارية ، وأشجار ناضرة، وبساتين كثيرة. ومنها تجلب الفواكه إلى. قلهات. وبها الموز المعروف بالمرواري... وهو كثير بها ويجلب منها إلى هرمز وسواها... والثمر يجلب إلى هذه البلاد من عمان».

ويقول بعد ذلك:

«فسرنا ستة أيام في صحراء ثم وصلنا بلاد عُمان في اليوم السابع. وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس. ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نَزوا... مدينة في سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية... ومن مدن عمان مدينة زَكي لم أدخلها وهي، على ما ذكر لي، مدينة عظيمة. ومنها القريات وشبا وخلبا وخورفكان وصحار، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار نخل».

وقد سافر ابن بطوطة من عمان إلى هرمز.

عُمان في العصور الحديثة

استمرت منطقة عُمان تقوم بالوساطة التجارية بين الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية من جهة، والهند وغيرها من البلاد الشرقية. وظهرت مسقط بشكل أوضح وقامت بدور أكبر من ذي قبل. وكان لعرب عُمان الدور الأول في حمل المتاجر على ما يظهر. ويكفي أن نذكر الربابنة الكبار الذين ظهروا من تلك الجهات وفي مقدمتهم ابن ماجد.

وأخيرًا، في أواخر العصور الوسطى وبدء العصور الحديثة، دهم عمان الخطر الأكبر على يد البرتغاليين، وقد جاء هذا على يد البوكيرك، الذي وصل المنطقة سنة

١٥٠٧م. جاء الرجل وفي نيته أن يقيم لدولته امبراطورية تجارية تمتد خطوط مواصلاتها من البرتغال إلى الهند. وكان أول ما فعله في جهات عُمان أن أحرق اسطول صيد على مقربة من رأس الحد، ثم مر بقلهات التي تركها موقتًا، لكنه عاد بعد مدة فأحرقها ونهبها. إنما قبل أن يفعل هذا بقلهات كان قد أعمل الحرق والنهب في القريات وأخيرًا وصل مسقط. وهذه أيضًا قام بنهبها وتدميرها. ومنها انتقل إلى صحار فخور فكان ثم إلى هرمز عبر رأس مسندم.

وقد وصف البوكيرك مدينة مسقط بقوله:

«مسقط مدينة كبيرة كثيرة السكان، تحيط بها، من الجهة الداخلية، جبال مرتفعة. أما من جهة البحر فهي قريبة جدًا من الماء... ميناؤها صغير يشبه نعل الفرس، وهو في مأمن من الرياح . ومسقط هي السوق الرئيسة لمنطقة هرمز، إذ يجب أن تمر بها جميع السفن لتتجنب الشاطىء الصخري المقابل لها. وهي منذ القديم ميناء الخيول والتمر. المدينة جميلة وبيوتها أنيقة ويأتيها من داخل البلاد القمح والذرة والشعير والتمر. وهذه تصدر عن طريق البحر. كما أن الهضبة التي تقع إلى شرقها كثيرة الملح».

أمل صُحار فقد جاء وصفها على لسان ابن البوكيرك على النحو التالي:

«سكان صحار كثير عديدهم والمدينة جميلة وفيها بيوت جميلة جدًا. قلعتها حصينة مربعة. لها ستة أبراج، وثمة برجان كبيران على جانبي باب المدينة ... وفي المدينة ما يزيد علي ستة آلاف من السكان، ولها جند مكوّن من خمسمائة فارس، وسلاح أكثرهم القسي، وإن كان بينهم من يستعمل الرماح».

زار بربواز عمان وبلدان الخليج العربي، وبينها قلهات والقريات ومسقط وصحار، وذلك سنة ١٥١٨ . فقال عن الشحر انها «الميناء الغني بمختلف أنواع السلع... مثل الاقمشة القطنية ... والأرز والأفاويه وغير ذلك من المتاجر... وهذه تتبادلها الشحر مع القادمين إليها بالبخور والخيول الممتازة التي قد يبلغ ثمن الواحد منها في أسواق الهند نحو ٢٥٠ استرلينية. وبلاد الشحر كثيرة القمح واللحوم والتمر والأعناب ».

أما مسقط، التي كان البرتغاليون قد دمروها ، فقد قال عنها بربوزا إنها «واسعة المتجر كثيرة الأسماك التي تملح وتجفف هناك وتنقل إلى كثير من البلدان لبيعها فيها».

نحن لم نقصد في هذا البحث المقتضب ، إن نؤرخ لعُمان، وإلا، فإن هذا كان يتسع كثيرًا. ولكننا أردنا أن نضع صورة للدور التجاري الكبيرة الذي قامت به المنطقة منذ بدء التاريخ وإلى نهاية العصور الوسطى.

البدو والمستقرون في سوريا والأردن ١٨٠٠ ـ ١٩٨٠

(١)

كان نورمان لويس يعمل في سورية بين سنتي ١٩٤٢و ١٩٤٥، حيث أخذ يهتم بسكان المناطق الداخلية من البلاد ويتنبه لما طرأ على السكان من حيث تقبل فكرة الاستقرار. وبين سنتي ١٩٤٨ـ١٩٥٥ كان مؤلف هذا الكتاب يقيم في لبنان (وهنا بدأت صلتي به، هذه الصلة التي تحولت إلى صداقة) فكان من اليسير عليه أن يقوم بزيارات متعددة للبلاد السورية والأردنية. إلى هذه الرحلات كان نورمان لويس يوثق معرفته عن طريق قراءة رحالي القرنين التاسع عشر والعشرين ، والاطلاع على التقارير التي كان قناصل الدول الأجنبية، وخاصة بريطانيا، يبعثون بها إلى دولهم.

لكن نورمان اضطر إلى الانتقال إلى لندن ليعمل في حقل لم يمكنه من متابعة دراسته إلا لماما، وأقل من ذلك كانت زياراته لسورية. وقد اجتمعت به ثلاث مرات خلال إقامته بلندن. فكان، عندما يصل الحديث بنا إلى هذا الموضوع الذي عني به ـ أي البداوة والاستقرار في داخل سورية والأردن ـ يأسف لأن ساعات عمله لم تكن تسمح له إلا بالقليل من الوقت ليمكنه من زيارة المكتبة البريطانية (مكتبة المتحف البريطاني سابقًا) لقراءة بعض النصوص والوثائق.

لما تقاعد سنة ١٩٨١ عاد إلى التصرف بوقته زيارة لسورية وقراءة عن موضوعه. وأخيرًا وضع الكتاب الذي كان يأمل في كتابته، وأصدرته مطبعة كمبردج مؤخرًا. فهذا حلم أربعين سنة أو يزيد، يتحقق أخيرًا.

يتناول الكتاب ما أصاب جزءًا من سوريا والأردن بين سنتي ١٨٠٠و ١٩٨٠، من حيث تبدل الحياة فيه، من البدواة إلى الاستقرار. والجزء الذي عني نورمان لويس به هو شريحتان من المنطقة الداخلية الواحدة هي البادية (الشرقية) والثانية (الغربية) هي التي سماها المنطقة الانتقالية. وتمتد هاتان المنطقتان المتجاورتان من شمال غرب الجزيرة الفراتية (جزيرة ابن عمر) في سوريا إلى البلقاء في أواسط الأردن.

يتألف الكتاب من مقدمة وعشرة فصول وأربعة ملاحق وثلاثة جداول إحصائية وخمس عشرة خريطة وعشر لوحات وأربعة أشكال عادية. فهو من الناحية التقنية لا يشكو نقصًا. وفيه ثبت بالمصادر والمراجع، بحيث يمكن القول ان المؤلف جرب جهده أن يصل إلى أكبر عدد منها، ولو أنه يقول إنه لم يستطع أن يضع يده على كل ما أراد وأحب من المصادر.

موضوع الكتاب ، كما ذكرنا، هو دراسة للتطور الذي تعرضت له المنطقتان المذكورتان وسكانهما من حيث الانتقال من حياة بدوية متنقلة إلى استقرار قروي فلاحي. ولا يغفل المؤلف، بطبيعة الحال، عن تقصي الأسباب التي كان لها دور في ذلك فنقطة الإنطلاق في عمل نورمان لويس هي أرضًا المنطقتان، وزمنًا ١٨٠٠ـ ١٩٨٠، ولكنه وجد أنه لن يتمكن من وضع دراسة وافية حتى لهاتين المنطقتين بالذات، فاضطر إلى قصر كتابته على أجزاء منهما، ومن المنطقة الانتقالية على التخصيص وهي: جزء من الجزيرة وحوض الفرات الأوسط والسهول الواقعة إلى الشرق من حلب وحماة وحمص وجبل العرب (جبل الدروز سابقًا) والبلقاء في أواسط الأردن.

وهناك أمران حريان بأن يشار إليهما في مطلع هذا الحديث: الأول، هو تحديد هاتين المنطقتين أو الشريحتين، والثاني رسم الفاصل بين ما سمي الصحراء وما اعتبر الأرض المزروعة في حوالى سنة ١٨٠٠ .

والمنطقتان المقصودتان في هذه الدراسة هما «البادية» والمنطقة الانتقالية .

والأولى هي التي يسقط فيها من الأمطار دون ٢٠٠و ٣٥٠ ملم. والمنطقة الانتقالية لا يمكن وصفها بأنها غنية في موارد المياه. وحيث يقترب المطر المتساقط من النهاية العليا (أي ٣٥٠ ملمترًا) فإن القمح والشعير هما النتاجان الرئيسان وعندما يقل المطر تسود زراعة الشعير. والمهم هو أنه كلما تنقصت قدرة الأرض على الإنتاج الزراعي، يزداد اعتماد السكان على الخراف. أما اذا اتجهنا شرقًا، حيث الأمطار تقل عن ٢٠٠ ملم، وقد لا تتجاوز المئة من الملمترات، فإن الأحوال الصحرواية هي التي تسود حينئذ.

أما المنطقة الانتقالية فقد كانت دومًا موضع نزاع بين الصحراء والأرض المزدرعة، أي بين سكان الأولى والثانية. ولم يكن هذا يخص القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر، بل ان هذه الأوضاع كانت تتوالى على المنطقة الانتقالية التي لم يكن عرضها واحدًا في أي زمن من الأزمان. فنحن نعرف، على سبيل المثال،أنه في القرن السابع الميلادي أي أيام الفتوح العربية لبلاد الشام، كان ثمة تفجر سكاني في الأردن، وكان الإنتاج الزراعي على أشده.

والأمر الثاني الذي يجب أن نحدده الآن هو الخط الفاصل بين الصحراء والمناطق ذات الإنتاج الحيواني والزراعي. هذا الخط يهمنا أن نعرف اتجاهه حوالى سنة ١٨٠٠م وقد بذل نورمان لويس جهدًا في سبيل رسمه. لكنه يذكرنا بأن رحالي تلك الفترة، وهم الذين يعطوننا الكثير من المعلومات، كان تعبير «الصحراء» عندهم يقصد به المناطق غير المأهولة » بقطع النظر عن إمكاناتها الطبيعية، ومن ثم فإن كلمة «صحراء» أصبح لها مدلول «شبه طبيعي واجتماعي وديموغرافي».

والخط الفاصل عندما نعمد إلى تعيينه، على الأساس الذي اعتمده نومان لويس

هو الخط الذي يعين المناطق المأهولة (إلى الغرب منه) والمناطق المهجورة (إلى الشرق منه)، ونحن إذا سرنا مع المؤلف وجدنا أن هذا الخط (الفصل) يتجه على النحو التالي: يبدأ في نقطة تقع جنوبي تل أحمر وشمالي منبج ويتجه نحو عجمي (على مقربة، من الباب) ثم إلى جبول (جنوبي شرقي حلب) ثم إلى خربة قنسرين وتل طوقان ومعرة النعمان وخان شيخون. ويقوس هذا الخط الفاصل شرقًا في المنطقة الواقعة إلى الشرق من حماة والرستن وزيدل (شرقي حمص) ثم يمر بشمسين ويتجه جنوبًا إلى الشرق من دمشق، ثم يوازي درب الحج الى الشرق منها. ويدور الخط بسهل حوران الذي هو جزء من الأرض المزدرعة ويتجه نحو درعا والرمثا وجرش و(شرقي) الصلت (السلط). ويتبع خطًا إلى البلقاء تكون مادبا غربه إلى منطقة البتراء.

(٢)

القبائل التي سكنت المنطقة كانت عربية في الدرجة الأولى من حيث العدد والرقعة. وكانت قد توزعت بين قيسية ويمنية». بقطع النظر عن الدقة في النسب. والمهم أن هؤلاء العرب كانوا يعون انهم قبائل «شريفة»، ولعل شرفها، في رأيها كان يعود إلى كونها عربية. وكان هناك في شمال، سورية الأكراد والتركمان، أما من حيث التأثر بالأحوال الجوية والجفاف السنوي أو القصير أو الطويل الأمد فقد كان موقف «البدوي» مهما كان عنصره واحدًا عندما يحل الجفاف كان لا بد من الانتقال إلى مكان يؤمن «العيش». وكان معنى هذا الانتقال إلى الغرب ـ إما من البادية إلى المنطقة الانتقالية، أو من المنطقتين كليهما إلى الأجزاء الزراعية حيث يمكن الحصول على الزاد. وهناك أمران حريان بالنظر في هذا الانتقال (أو الهجرة إذا صحت التسمية) وهما: الأول أن البحث عن مكان يصح الانتقال إليه سعيًا وراء شيء من الماء أوالكلأ لم يكن يتم عشوائيًا. إذ إن القبائل المختلفة كان لكل منها أو المجموعة منها «ديرة» (أو حرم) يمكنها أن تنتقل ضمنه للحصول على حاجتها من الماء أو الغذاء. أما الأمر الثاني فهو الانتقال، أو الهجرة، عندما تكون الأعداد كبيرة، تؤدي إلى تدمير. ومثالنا على النوع الأخير الفرعان اللذان لما انتقلا مهاجرين (قبل سنة ١٨٠٠) إلى الشمال دمّرا قرى كثيرة، وفي سنة ١٨١١ تحركت «عنزة» وكأنها أعلنت الحرب على السكان القارّين فكانت النتيجة أن دُمرت أربعون قرية. كما أن قبيلة الموالي تضررت من هذا الأمر.

وقد يكون السبب في قلقلة الأوضاع في المناطق البدوية شيئًا بعيدًا عن المطر والجفاف، فإن قيام الدولة السعودية الأولى وحملات إبراهيم باشا ضدها أدت إلى تبديل في التمركز البدوي، فشمَّر عبرت الفرات إلى شمال الجزيرة الفراتية، وعمرات اتجهت نحو العراق، وسيطرت قبيلة وُلْد على (من عنزة) على تجارة دمشق وقافلة الحاج الشامي. وجاء الرَّوَلَة بعد ذلك يزاحمون قبائل عنزة، ومع أن الرَّوَلَة هزموا في حملتهم شمالاً فإنهم

دمروا خمسًا وثلاثين قرية قبل أن ينسحبوا من المنطقة. ومثل هذا من الأحداث كثير.

والذي يمكن أن يتوصل إليه الباحث، وهذا ما توصل إليه نورمان لويس، هو أن حالة الفلاحين كانت تعسة، وأن القرى كانت خالية من السكان، ومن هنا كان يشار إليها بكلمة خربة في الخرط التي رسمت، وإن الأرض لم تكن تستغل. وقد ترك الفلاحون قراهم وأراضيهم واتجهوا غربًا (في الغالب من الأحوال) إلى المدن أو إلى القلاع الحصينة مثل السلط والكرك في الأردن، ومثل المواقع المنيعة، نسبيًا، مثل النَبْك والقريتين في أواسط سوريا. وكان لبنان ييسر الملجأ المناسب لفئات من السكان.

أما لماذا هجر الفاحون قراهم؛ فالسبب يعود أصلاً إلى انعدام الأمن. إذ لم تكن هناك سلطة قادرة على حماية الناس ونشر الأمن وفرض السلطة؛ فتعرض السكان لغلاظة الجند ومطاليبهم ونهبهم الناس أشياءهم. ونهبت القرى على أيدي الأكراد والتركمان والبدو.

وحري بنا أن نتذكر دومًا «الخط الفاصل» الذي يمكن رسمه، بناء على الأخبار والملاحظات التي زودنا به الرحالة والدارسون لتحديد المناطق «المأهولة» عن المناطق المهملة (التي لم تكن كلها سهوبية تامة أو صحراوية بالمعنى الطبيعي) التي كانت تبدو وكأنها غير صالحة للاستغلال.

وينتقل المؤلف، بعد أن يرسم لنا هذه الصورة القاتمة ليتحدث عن التنقلات إلى «المنطقة الانتقالية» والتي انتهت باستقرار أعداد كبيرة من الناس فيها، وحتى في بعض جهات «البادية» والأسباب التي تأثرت بها كل من المناطق التي عالجها في هذه التطورات.

وقبل أن ننتقل إلى عرض ما قاله المؤلف عن كل من هذه المناطق، نود أن نؤكد وجهة نظره في أن العامل الأول لعودة الحياة إلى الأماكن التي فقدتها أو كادت، هو فرض سلطة الدولة على المناطق «المهجورة»، ومن ثم اطمئنان الناس إلى السكن والعيش فيها؛ وتلا ذلك قيام المشروعات المختلفة التي تعين السكان وأهمها توصيل الماء في ترع واقية، وبناء المنازل والعودة إلى المراكز التجارية لتبادل السلع.

هذا فيما يتعلق بالاستقرار بالذات. ولكن من أين جاء أولئك الذين استقروا في المنطقة الإنتقالية - في سورية والأردن؟ ولنجب موقتًا، ملخصين آراء نورمان لويس، على أمل أن نقدم للقراء تفاصيل أوسع وأكثر تنوعًا لتوضيح ما نوجزه الآن.

والإجابة الموقتة تتلخص في المسائل التالية: أولاً، إن فئات من السكان جاءت من الغرب، في لبنان وسورية، مهاجرة نحو الشرق بسبب الاضطهاد والمضايقة، كالاسماعيليين الذين تركوا الجبال واتجهوا إلى سلمية (منطقة حماة). ثانيا، كانت ثمة جماعة من الدروز انتقلوا من لبنان وفلسطين إلى جبل الدروز لتأمين عيش يتفق

مع تقاليدهم. وكانت هناك فئة من البدو لجأت إلى حياة الاستقرار (النسبي). ومع أنها لم تنتقل تمامًا من الرعي إلى الزرع فقد أصبحت تقيم في حرم معروف إقليمه وتستغل الأرض، واحتفظت بالرعي وتربية الماشية ـ أبقارًا وأغنامًا ـ إلى جانب الزراعة. فضلاً عن ذلك فقد كانت هناك جماعات حملت إلى بلاد الشام من الخارج مثل الشراكسة والشيشان والبشانقة الذين حملهم شعورهم بالإسلام على ترك بلادهم، إذ وقعت تحت نفوذ الدول الأوروبية ـ روسيا وبلغاريا ـ وقَبِلهم عبد الحميد (الثاني) في بلاد الشام لتقوية مركزه.

(٣)

يعالج المؤلف في الكتاب (ص ٢٥-٥٧) منطقتين هما وادي الفرات وولاية حلب. ونقطة الانطلاق لهذا الجزء من سورية زمنيًا هي السنة التي كان إبراهيم باشا، ابن محمد علي المصري، قد احتل بلاد الشام . فبعد سيطرة إبراهيم باشا على البلاد أخذ ببسط نفوذه على الجهات الريفية، فأرسل سنة ١٨٣٥ فرقًا من جيشه بمحاذاة نهر الفرات لاحتلال دير الزور ، وأقام كذلك حامية في تدمر. وشجع البدو على الاستقرار في الأراضي الصالحة للرعي أو الزراعة. وقد نقل نورمان لويس أنه نتيجة لنشر الأمن على يد جيش إبراهيم باشا ردت الروح إلى عدد من القرى، كما قامت قرى جديدة، بحيث أن المنطقة أصبح فيها مئتان وأربعون قرية، نشط أهلها في استغلال الأراضي.

إلا أن إبراهيم باشا اضطر إلى الانسحاب من البلاد سنة ١٨٤٠، فترتب على ذلك تأخر في المشروعات المختلفة. لكن ولاة حلب ودمشق النشيطين الذين تولوا الحكم وقيادة الجيش بعد ١٨٤٠، وخاصة بين ١٨٤٥ و ١٨٦٦ لم يريدوا أن يفوتوا الفرصة. لذلك قامت حملات نحو الفرات (١٨٤٥- ١٨٤٦) ثم في سنة ١٨٦٦ ووضعت نتيجة الحملة الأولى حامية في دير الزور،لكن نتيجة الحملات الثانية كانت إقامة مركز إداري منظم في دير الزرو (١٨٦٨) كان حاكمه يشرف على المنطقة. والمعروف أن المناطق التابعة لولاية حلب لم تشهد حركات قبلية قتالية بعد ١٨٠٠ وكانت النتيجة الطبيعية لانتشار الأمن في وادي الفرات وأرجاء ولاية حلب أن أخذ البدو يستقرون ويقومون بالأعمال الزراعية فضلاً عن الاستمرار في الرعي.

وهنا تؤثر عوامل جديدة في تنشيط الزراعة. فقد كان ثمة طلب على الحبوب المختلفة الأنواع التي تنتج في منطقة حلب، بحيث أن المنطقة التي صدّرت عن طريق موانىء شمال سورية، ما قيمته ١٥٤،٠٠٠ جنيه استرليني سنة ١٨٤٩، صدّرت ما قيمته ٤١٠،٠٠٠ جنيه استرليني سنة 1856 .

فضلاً عن ذلك فقد كان ثمة طلب على القطن الذي كان يزرع في تلك الجهات،

فقد صدرت ولاية حلب (١٨٦٢) الف بالة من القطن بلغت قيمتها ٨،٥٠٠ جنيه استرليني، وكان الصوف مادة ثانوية للتصدير بسبب ازدياد عدد الأغنام.

وكان الشيء الذي يزعج التجار عجز الموانىء الشمالية عن الاستجابة للحاجة، إذ كانت الإسكندرونة ميناء حلب الرئيس إن لم يكن الوحيد. وهو لم يكن كافيًا. كما أن الطرق لم تكن تشجع على استعمال الكارات أو العربات. ومن ثم فقد كان الحيوان هو وسيلة النقل الاولى.

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن حربين، حرب القرم (١٨٥٣ـ ١٨٥٦) والحرب الأهلية الأميركية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥)، كان لهما أثر كبير في تنشيط التجارة في الحبوب والقطن. وقد استجاب الفلاحون والملاكون والتجار للتحدي والحاجة، فقاموا بالعمل كل في دائرة نفوذه. وقد ظلت الحاجة إلى الحبوب كبيرة، لكن انتهاء الحرب الأهلية الأميركية أعاد تصدير القطن إلى الولايات المتحدة، بحيث انخفضت المساحات المزروعة قطنًا. وقد كان تصريف الحبوب محليًا بسبب ازدياد عدد السكان.

وإذا نحن نظرنا إلى حوض الفرات وولاية حلب في مطلع القرن العشرين، وجدنا أن الطريق الواصل بين بغداد وحلب والذي كان يجاري الضفة الغربية من نهر الفرات اعتبر طريقًا رسميًا للأمبرطورية، وكان التجار المحليون والاقليميون يتنقلون عليه بكثير من النشاط والحيوية. وقد ازدهرت دير الزور بسبب ذلك، وقدر عدد سكانها بخمسة آلاف وستمئة نسمة سنة ١٩١٢ . وكانت الحامية فيها، جنودًا ودركيين، ٥٢٠ شخصًا. وكان أن نمت الرقة وتطورت أيضًا، فكانت تحتوي على مركز للحامية وجامع وبيوت لسكن الموظفين، وكان فيها نحو مئتي منزل سنة ١٨٩٨ . ولما أضيف جماعة من الشركس إلى سكانها (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦) وصل عدد الأسر فيها إلى ٣٠٠ عائلة .

وكات منطقة الفرات تنتج الشعير والقمح والذرة والأرز والخضر وبعض القطن. وكان رجال القبائل هم الذين يقومون بأعمال الزراعة. لكن مع ذلك لم يكن الأمن مستتبًا تمامًا، فكان على السكان الفلاحين أن يدفعوا «الخوة» كما كان يتوجب عليهم أن يدفعوا الضرائب الحكومية.

والمنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من حلب كانت، حوالى سنة ١٨٩٠، مستغلة استغلالاً لا بأس به. ومن الأمور التي استمرت بعد ذلك هو بيع الحكومة الأرض إلى من يستطيع شراءها من الأهلين. وفي سنة ١٩٠٣ كانت الأراضي الواقعة بين حلب ومعرة (النعمان) تتمتع بازدهار باد للعيان. وقد استغرب بعض الرحالين (سنة ١٩٠٩) كثرة القرى في منطقة منبج (إلى الشمال الشرقي من حلب).

ومما يجدر ذكره هو أن أراضي واسعة لم تكن قد استغلت بعد، وذلك بسبب نقص في الأيدي العاملة فكانت هذه الأراضي تترك لرعي الأغنام، التي كانت أعداد كبيرة منها تخص البدو الذين كانوا يقصدون القرى صيفًا. كما كان الفلاحون يملكون أعدادًا كبيرة

منها، والمعروف أن هذه الأغنام كانت ملكًا للمزارعين لا لأصحاب الأرض. لذلك فانها كانت عونًا لهم إذ كانوا يفيدون من حليبها ولحومها، كما كانوا يبيعون جلودها وصوفها.

(٤)

تبدو هذه الهجرة غريبة في بابها، إذ انتقلت جماعة من الغرب إلى الشرق في سورية، والمألوف، في بلاد الشام، أن تكون الهجرة من الشرق إلى الغرب. ومن هنا يصبح التساؤل أكثر أهمية ويبدو الجواب أحرى بالعناية. والجماعات التي هاجرت من الغرب إلى الشرق هم الإسماعيليون الذين انتقلوا من معاقلهم الجبلية في المرتفعات السورية المصاقبة للساحل السوري في جبال النصيرية إلى منطقة تقع شرقي حماة. كان الإسماعيليون يقيمون، منذ قرون طويلة في ما كان يسمى قلاع الدعوة وأهمها مدن (أو قرى كبيرة) هي مصياف والخوابي والكهف وقدموس وسواها. وكان الأمراء هناك، وهم من العنصر نفسه أصلاً ويتبعون العقيدة عينها، يجمعون الجعالات من السكان ويعنون بهم. كان ثمة منافسة شديدة بين فئتين من الإسماعيلين المعروفتين باسم الحجاوية والسويدانية.

وقد أصاب الإسماعيليين عدد من النكبات في القرن التاسع عشر هي التي أدت في النهاية إلى إضعاف مركزهم وشتتت بيوتهم. فقد هاجمهم العلويون سنة ١٨٠٨ فاحتلوا مصياف وقلعتها وقتلوا من سكانهم عددًا كبيرًا. وقد هرب الباقون ولم يعودوا إلى ديارهم إلا بعد أن أخرج والي دمشق (كنج يوسف باشا) العلويين (١٨١٠) من مصياف.

وفي سنة ١٨١٠ قاد مصطفى آغا برير، حاكم طرابلس، حملة على المناطق الجبلية بحجة جمع ضرائب متأخرة. وكان شديدًا بطاشًا فصب نقمته على الكهف فنهبها وشنق أميرها وسبعة عشرة رجلاً من جماعته. وهرب من تبقى من سكان الكهف إلي الخوابي وقدموس، وهي التي تقبّلت العدد الأكبر. ومع أن البعض عاد إلى قرى اسماعيلية أخرى فإن الكهف ظلت خاوية على عروشها.

وعندما كان إبراهيم باشا يحتل المنطقة باسم والي مصر، قامت حركات عصيان وثورات في وجهه، فأراد إخضاع الثوار وتجريدهم من السلاح وفرض الضرائب والخدمة في الجندية عليهم، فجرّد من أجل ذلك حملة على المنطقة الجبلية الممتدة بين السهل الساحلي ومنطقة حماة وحمص. وقد نال الإسماعيليين حصتهم من الضرر في المال والعيال. ونصّب إبراهيم باشا حاكمًا غير اسماعيلي على قدموس.

هذه الأحداث كانت كافية لتقض مضاجع الإسماعيليين. لكن أمرين آخرين كانا يزيدان في مضايقتهم: الأول أن الموارد الزراعية لم تكن تكفيهم لأن الأرض الجبلية الصالحة للإنتاج الزراعي كانت محدودة من الجهة الواحدة وفقيرة في تربتها من الجهة

الأخرى؛ أما الأمر الآخر فهو أن المنطقة لم تعرف الأمن والاطمئنان. ومع أن هذين الأمرين لم يكونا جديدين على الناس، فإن أثرهما ازداد في القرن التاسع عشر أولاً بسبب تزايد السكان، وثانيًا بسبب القسوة التي كان الحكام والجند يستعملانها في المنطقة.

هذه الظروف تجمعت بحيث حملت السكان الإسماعيليين على التّفكير جديًا في الهجرة إلى منطقة أخصب تربة وأوسع مدى في الزراعة وآمن. وكان أن حدثت خصومة شديدة (١٨٤٣) بين حاكم قدموس وأميرين من الإسماعيليين، كان من نتيجتها أن قتل الحاكم وأحد الأميرين. وبعد سنوات عفي عن الأمير الثاني، على أن ينتقل بجماعته ويسكنوا شرقي نهر العاصي، وعلى أن لا يعودوا إلى المنطقة الأصلية. وقد تم ذلك بموجب فرمان سلطاني وُجِّه سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥) إلى والي دمشق كي يسمح بموجبه للأمير إسماعيل وجماعته أن يستقروا في أرض تقع بين العاصي والبادية (أي شرقي حماة) على أن يسمح له بتجنيد أربعين رجلاً للدفاع عن المستوطنة الجديدة. ويشير الفرمان إلى أن إنشاء مثل هذه المستوطنة يتفق ورغبة السلطان الذي كان يريد أن يعمر السكان هذه المنطقة الانتقالية (أي شرقي البادية)، ورغبة في تشجيع هؤلاء القوم على الاستيطان فقد أعفوا من الضرائب والخدمة العسكرية

هذه الإغراءات ـ الأرض المجانية وامتيازات وإعفاءات ـ كانت تمنح لمن يرغب في الاستقرار هناك، ومن هنا جاءت فئة الأمير اسماعيل بالذات إلى سلمية، وهي واحدة من القرى المهجورة (مع أنها كانت مركزًا مهمًا للإسماعيلية في القرن الثالث /التاسع). ومع أن اسماعيل كان يريد أن يسمي المكان المجيدية تكريمًا للسلطان عبد المجيد (١٨٣٩ـ ١٨٦١) لكن الإسم الأصلي هو الذي غلب في النهاية. وقد نقل الأمير اسماعيل معه قرابة مئة شخص من الخوابي وقدموس. وقد اختار القادمون السكنى داخل مبنى واسع خرب لكنه كان محصنًا. أما الاراضي المحيطة بسلمية فقد كانت خصبة ويسقط فيها من المطر ما يزيد قليلاً على ٣٠٠، م. م. ومن ثم فقد كانت صالحة لزراعة القمح، فضلاً عن ذلك فقد نظفت الينابيع والقنوات بحيث أصبح الري ممكنًا، وأمكن إنتاج الخضَر والفواكه. وقد أعطي لكل من المستوطنين الأوائل من الأرض ما كان يحتاج ، ومع ذلك فقد كان نموّ المستوطنة بطيئًا، ذلك لأن سلمية كانت معزولة وكانت تتوسط منطقة بدوية، وكانت أقرب القرى ومراكز الجند التركي إليها تقع في أطراف حماة على بعد ثلاثين كيلومترًا منها غربًا، وكان من الطبيعي أن تغري غلاتها وأغنامها البدو المحيطين بها الذين كانوا يعدون خمسًا أو ستًا من القبائل. وقد كان بعض الفلاحين ينتقلون عشرة كيلومترات من منازلهم في سلمية إلى أراضيهم لفلاحتها وزرعها.

انتقل اسماعيليون آخرون فيما بعد إلى المنطقة،وترتب على ذلك قيام قرى على مقربة من سلمية. ومع أن بعض أصحاب الأملاك من حمص وحماة ابتاعوا أراضي هنا

فقد ظلت ملكية أكثر الأرض بيد الإسماعيليين. وكان كبار المالكين بينهم هم الأمراء وأبناؤهم وأحفادهم.

وقد تمكن الإسماعيليون من الدفاع عن أنفسهم وأرضهم وأغنامهم وغلاتهم أمام البدو، فاكتسبوا احترامهم. وقد نقل عن الرحالين أن سلمية تستطيع أن تقدم عند الحاجة، مئة فارس وثلاثمئة بارودي للدفاع عن نفسها.

وفي سنة ١٨٧٨ جاء الشركس إلى المنطقة ، وأنشأوا ثلاث قرى إلى الشمال من من سلمية، ثم جاء آخرون بعد بضع سنوات واقاموا قرية رابعة، وأصبحت العلاقات بين الجماعتين ودية للغاية.

تعرضت الجماعة في سلمية والجوار لما تعرضت له كل مستوطنة في تلك المنطقة وغيرها من وقوع الفلاحين أسرى الديون التي يقدمها أثرياء المدن من طرابلس وحمص وحماة للفلاحين ويتقاضون عليها فوائد فاحشة. فضلاً عن ذلك فإن كبار المالكين من الإسماعيليين أنفسهم استولوا على كثير من الأرضين بيعًا أو نهبًا،

وقد جاء سلمية ما يقرب من ألف شخص من جبال النصيرية سنتي ١٩٢٠و١٩٢١، وذلك بعد حوادث دامية وقعت في المنطقة الجبلية، وأصاب الإسماعيليين النصيب الأكبر منها. وقد ساعد هذا على تطور سلمية، التي أصبحت تضم سنة ١٩٤٠ ما يزيد على ١٦،٠٠٠ نسمة من الاسماعيليين.

وحرى بالذكر أن العلويين، وهم منافسو الإسماعيليين في الجبل النصيري، رحلوا أيضًا شرقًا، إلى جهات حمص وحماة. ذلك بأن العوامل التي حملت منافسيهم على الهجرة - أي ضيق الأرض وفقرها النسبي وانعدام الأمن - حملتهم هم أيضًا على ذلك. إلاّ أن العلويين هاجروا إلى المدن أيضًا شرقًا وساحلا. فقد بلغ عددهم في اللاذقية وحدها ما يزيد على ٧٠،٠٠٠ نسمة (لم يكن، بحسب القيود الرسمية، ثمة أي علويين في تلك المدينة سنة ١٩٣٠).

(٥)

هناك جماعة أخرى هاجرت أيضًا من الغرب إلى الشرق، وهم الدروز الدينا انتقلوا من مواطنهم في أواسط لبنان ووادي التيم وشرقي جبل الشيخ والجليل والكرمل (بفلسطين) وجبل العلا (في ولاية حلب) إلى جبل الدروز(جبل العرب حاليًا). والحديث عن هذه الهجرات يلقي ضوءًا على أحداث المنطقة من حيث علاقتها بالتطور الديمغرافي للبلاد أو لجزء منها على الأقل.

فنحن إذا أخذنا انتشار الجماعات الدرزية في بلاد الشام في أوائل القرن التاسع عشر لوجدناها كما يلي: في أواسط لبنان نحو مئتي قرية يقطنها٤٠،٠٠٠ نسمة،ونحو ثلاثين قرية كانت تقوم في وادي التيم. كما كان سفح جبل الشيخ الشرقي يحتضن

عددًا من القرى. ودروز لبنان كانوا الركيزة الأساسية للجماعة. أما خارج لبنان، ففضلاً عن سفح جبل الشيخ الشرقي، كان هناك ١٦ قرية في جبل الكرمل ومثلها في الجليل، وكان ثمة قرى صغيرة في جبل العلا وجبل بريشا (في ولاية حلب). والجماعات التي كانت في فلسطين كان وضعها صعبًا. فدروز الجليل كانوا موزعين بأعداد صغيرة على عدد من القرى كبير، ومثل ذلك يقال عن دروز الكرمل. والأمر كان أشد بالنسبة لدروز حلب. هذه الجماعات الصغيرة كانت تتلقى الضربات على شكل أقوى من الجماعات اللبنانية.

وجبل الدروز (جبل العرب) الذي أصبح تدريجًا معقلاً مهمًا لبني معروف، هو هضبة تقع بين سهل حوران غربًا والبادية شرقًا. ومع أن ذلك لا يبدو للمتنقل فيه فإن قممه تصل إلى ١٧٠٠ متر، ويسقط عليه من المطر نحو ٣٥٠ ملم سنويًا، وهي كمية ضئيلة. أما سهل حوران الواقع غربي الجبل فأرضه خصبة إذا قوبلت بأرض الجبل. وتقع اللجاة إلى الشمال الغربي من جبل حوران وإلى الشمال من سهل حوران،وهي منطقة وعرة صعبة المسالك تحتضن مرتفعاتها أودية وسهولاً صغيرة الرقعة، لكنها تصلح لبعض الزراعة وللرعي. واللجاة تحمل اسمها معها إذ كان يلجأ إليهاالعصاة والمجرمون والثائرون لأن قوى الدولة العثمانية لم تكن تستطيع الولوج إليها. فهي اللجاة أي الملجأ.

وإذا نحن أخذنا بما جاء في أقوال الرحالة الذين مروا بجبل حوران وحتى سهله، أمكننا القول بأنه كان فيها عشرات من البلدان والقرى وحتى المدن التي أهملت منذ القرنين السابع والثامن للميلاد،ومع ذلك فلم تكن خرائب بل كانت أجسامًا تنتظر الحياة لتُبعث مجددًا

وقد جاءتها وبعثت مجددًا وأنشئت إلى جانبها قرى جديدة.

إلا أنه يجب أن نعود فنقول إن الجبهة الغربية من جبل حوران كانت مأهولة نسبيًا وقد كان فيها دروز ومسلمون ومسيحيون. أما البدو وأهم قبائلهم بنو صخر ووُلد علي والرولة ، فقد كانوا يغيرون على المنطقة إذا آنسوا مكسبًا، كما كانوا يقودون قطعانهم للرعي إذا جفَّ الكلأ في ديارهم.

أما الدروز، في جنوب لبنان خاصة ، فقد كانت بينهم وبين جبل حوران طريق مفتوح. ويبدو أن الدروز عرفوا هذا الطريق في القرن الرابع عشر لما هاجمهم المماليك في عقر دارهم فخربوا من قراهم، ويبدو أنه في القرن السابع عشر هاجرت أسرة درزية هي أسرة حمدان وأتباعها إلى الجبل وأعطيت قرية نجران (١٦٨٥) فاستقرت فيها. ونجران تقع في السفح الغربي لجبل حوران، ومن هنا كان الدروز في وادي التيم وجبل لبنان والجليل والكرمل قد عرفوا،بل ولعلهم ألفوا، السير على طريق جبل حوران. وكان بعضهم يستقر هناك فيما كان البعض الآخر يعود إلى لبنان عند

زوال الغمة.

وحريّ بنا أن نذكر أن أحداثًا كثيرة مرت بلبنان في القرنين الثامن والتاسع عشر كان لها الأثر في خروج الناس من أماكن وجودهم إلى حوران. منها معركة عين دارة (سنة ١٧١١) التي انكسر فيها اليمنيون أمام القيسيين خصوصهم فهاجروا إلى الجبل الجديد. ومع أن الهجرة استمرت بعد ذلك فقد ظلت الجماعة هناك صغيرة.

إلا أن تلاحق الأحداث في لبنان أيام الأمير بشير الشهابي وخصومته الشديدة للدروز ما حملهم على الذهاب إلى الجبل. وفي الوقت نفسه وصلت جماعة من دروز جبل العلا (حلب) هربًا من ظلم الجند واعتداءاتهم. ثم جاء حكم إبراهيم باشا وثورة جبل لبنان وفلسطين عليه إصراره على تجنيد أبناء البلاد. فكان أن هاجر عدد كبير من الدروز، وتلا ذلك إدارة عمر باشا للبنان وظلمه السكان فهاجر الدروز إلى حوران، وهاجر المسيحيون إلى المهاجر الأميركية (كما انتقل بعضهم إلى المدن، خاصة بيروت التي كانت آخذة في النمو وكانت بحاجة إلى الأيدي العاملة ورجال التجارة وما إلى ذلك). وجاءت حوادث ١٨٦٠ في لبنان لتؤدي الى هجرات أخرى الى مختلف الجهات. وبعيد هذه الحوادث انتقلت جماعة مؤلفة من ٧٠٠ أو ٨٠٠ أسرة من وادي التيم. وكان للهجرة نصيب كبير من لبنان (لجميع الفئات) بسبب الجوع والظلم والخشية من التجنيد وذلك أيام الحرب العالمية الأولى.

وجبل الدروز ليس بالمكان الذي يُطمع فيه، فأرضه الزراعية محدودة والمطر فيه لا يتجاوز ٣٥٠ ملم سنويًا والبادية تحيده من الشرق، لكن يبدو أنه، فضلاً عن الأحداث التي ذكرنا، فإن هناك العاملين الاقتصادي والاجتماعي اللذين كانا يشجعان على الهجرة أيضًا. فلبنان كان (ولا يزال) مكتظًا بالسكان، وقد بلغت الزراعة المكثفة حدها في الاستغلال. وكان الزعماء اللبنانيون يتحكمون في أمور الناس، كما كان هؤلاء يقعون فريسة الديون الكبيرة التي كانت تكبل الفلاح اجتماعيًا واقتصاديًا. لذلك فضّل الكثيرون حياة فيها الكفاف مع ابعاد شبح الخوف، على خير يناله الواحد بالبذل ولكنه يدفع ثمنه من شخصه.

وحريّ بالذكر أن الدروز في الجبل (الجديد) استطاعوا بسبب ترابطهم وتنظيمهم وولائهم للمجتمع والتقاليد، أن يقيموا مجتمعًا فيه ثلاث ميزات: الأولى أنه لم يكن يخشى هجوم البدو فقد وقف لهم أكثر من مرة، فاعتبروا وتركوه وشأنه؛ والثاني أنه لم يك يخشى فرض سلطة الدولة، فلا عسكرها ينفعها أمام استعداد الجماعة هناك، ولا الإدارة العادية يعرفها سكان الجبل؛ ومن ثم جاءت الميزة الثالثة وهي أن المجتمع لم يكن يخشى فرض الجندية عليه،وكان الفلاح يدفع ما عليه للشيخ ، ومع ذلك فقد كان هذا الذي يقبضه الشيخ أقل مما كان يدفعه الآخرون الذين وصلتهم سلطة الدولة.

وقد كان الاستيطان في الجبل على مراحل ثلاث كان بعضها يتزامن مع البعض

فالمرحلة الأولى التي استمرت حتى سنة ١٨٦٠ شملت الجزء الشمالي والشمالي الشرقي من جبل حوران، ثم جاء دور الجزء الجنوبي من الجبل والجزء الشرقي من اللجاة. وكانت المرحلة الثالثة استيطان الأجزاء الغربية من الجبل وقد كان في أول عدد من القرى يقطنها مسيحيون مع الدروز والأول أقدم، لكن مع الوقت أخرج الأولون وظلت أكثر القرى درزية.

في الرسم البياني الذي وضعه نورمان لويس لتوضيح التطور في عدد السكان الدروز في جبلهم (ص٩٤) يبدو أن التطور كان بطيئًا حتى سنة ١٩٠٠ تقريبًا ، ثم يأخذ في التسارع. ففي تلك السنة كان عدد القرى لا يتجاوز العشرين إلا قليلاً وعدد السكان يقرب من خمسة وعشرين ألفًا. أما في سنة ١٩٨٠ (بناء على احصاء تلك السنة) فقد تجاوزت القرى ١٤٠ عددًا وكان عدد السكان ١١٤، ١٩٩ نسمة.

(٦)

الهجرات التي تحدثنا عنها حتى الآن هي داخلية. فاستقرار الجماعات في حوض الفرات وفي ولاية حلب وإلى الشرق من حماة وحمص وانتقال الدروز إلى حوران هي هجرات داخلية، انتقل فيها القوم من جزء من بلاد الشام إلى جزء آخر. لكن الآن نجازي المؤلف (نورمان لويس) في حمله جماعات من الخارج لتستقر في بلاد الشام، هؤلاء هم الشركس والشيشان الذين حملوا رسميًا إلى بلاد الشام في الثلث الأخير من القرن الماضي ومطلع القرن العشرين.

ذلك أن روسيا أخضعت القفقاس نهائيًا (١٨٦٤) بعد حملات عسكرية متعددة ومعارك ضارية واتخذت عندها سياسة التخلص من هؤلاء المحاربين الأشداد، ولما كان هؤلاء مسلمين فقد أرادت روسيا أن تلقي بهم في أحضان الدولة العثمانية، ما داموا هم أيضًا يرغبون في ذلك، فحملتهم على النزوح إلى سواحل البحر الأسود الشمالية حيث كانوا يأملون بنقلهم إلى تركيا، وقد نقل بالفعل عدد كبير، يقدر بمئات الألوف، إلى تركيا إما بحرًا عبر البحر الأسود أو برًا حول شواطئه. ولا شك في أن عددًا كبيرًا قد يبلغ نصف الجماعة قضي عليه في الطريق بسبب البرد والتعب والضيق وضنك العيش والجوع.

أما من حيث المبدأ فقد رحبت الحكومة العثمانية بالقادمين على أساس أنهم سيعمرون البلاد التي يسكنونها وسيزودون الجيش بجنود ذوي زنود قوية. وأقامت الدولة «مفوضية للمهاجرين» كي تعنى بأمور هؤلاء القادمين. لكن التنظيم كان ضعيفًا. وكان سيل المهاجرين يتدفق باستمرار وبأعداد كبيرة، لذلك فقد الكثيرون حياتهم قبل أن يؤمن لهم المسكن والموطن في تركيا وبلغاريا.

إلا أن إقامة الشركس وغيرهم من اللاجئين لم تطل في الجزء الأوروبي من أملاك الدولة العثمانية، ورؤي أن ينقلوا إلى الأجزاء الآسيوية من الدولة العثمانية. وهنا بدأت نقلة ثانية لم تكن بأيسر من الأولى لكنها انتهت هنا بالاستقرار. وفي سنة

١٨٧٨ تم نقل الشركس المقيمين في أوروبا.

حريّ بالذكر أن بعضًا من الشركس الذين نفوا اولاً هبطوا مرعش وزيتون وجوارهما في ولاية حلب. ففي سنة ١٨٦١ جاءت مئة وأربعون اسرة الى حلب. ثم جاء خمسة آلاف من الشيشان فوطنتهم الحكومة في رأس العين وحوض الخابور.

وفي السبعينات من القرن التاسع عشر وصلت جماعة الى شرقي حمص وإلى القنيطرة. أما في سنة ١٨٧٨ (وهي السنة التي أجلي فيها الشركس عن المناطق العثمانية الأوروبية ، فقد وصلت الأعداد التالية بحرًا إلى الموانىء المذكورة إلى جانبها: ٢،٢٠٠ (بيروت) ٢،٧٠٠ (عكا) ٢،٥٠٠(طرابلس) ١،٣٠٠ (اللاذقية) ١،٣٠٠ (طرابلس) ، فإذا أضفنا أولئك الذين أنزلوا في موانىء أخرى والذين جاءوا حتى إلى الموانىء المذكورة فيما بعد، تبين لنا، من الإحصاءات الموجودة عند مؤلف الكتاب (نورمان لويس) الذي نتحدث عنه، أن نحو ٢٥،٠٠٠ دخلوا البلاد بحرًا ١٠،٠٠٠ وصلوها برًا عن طريق ولاية حلب.

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد. فالهجرة من القفقاس استمرت، والحكومة الروسية كانت تشجع القوم على الهجرة ، والحكومة العثمانية كانت على استعداد لتقبلهم، وقد اهتم السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) بالأمر شخصيًا، وأصدر أوامره إلى جميع موظفي الدولة بوجوب مساعدتهم. السلطان عبد الحميد كان بحاجة إلى مثل هؤلاء القوم الأشداء الذين كان يمكن أن يفاد منهم عسكريًا. ولما كان عبد الحميد هوالمهندس الأول للجامعة الإسلامية فقد كان من الطبيعي أن يظهر الاهتمام بهؤلاء المهاجرين المسلمين ويسعى إلى توطينهم حيث يمكن الإفادة منهم. فضلاً عن ذلك فقد كانت عند عدد من هؤلاء المهاجرين الرغبة في أن يرحلوا إلى دار الإسلام تخلصًا من ظلم الروس. وتهربًا من الخدمة العسكرية في الجيش الروسي الذي لا يمكن أن يكنوا له أي ولاء.

واستمرار الهجرة كان معناه قدوم أعداد إلى بلاد الشام. ولنذكر أن القادمين بأجمعهم (ولو أن البعض منهم حمل مالاً ومجوهرات) كانوا بحاجة ماسة إلى مأكل ومسكن وعمل. ولم يكن الموظفون العثمانيون يملكون المقدرة على مواجهة مثل هذه الأمور. ومن أطرف ما روي ان والي دمشق فرض ضريبة خاصة (سنة ١٨٧٨) لإطعام المهاجرين ومساعدتهم، قيمتها أربعة قروش على كل ذكر مسجل في القيود الرسمية، ومع كل ذلك فإن الجوع والحاجة دفعًا بالبعض من هؤلاد المهاجرين الى السطو على الحوانيت وغيرها للحصول على ما يتبلغون به. وحتى لما استقر بعض هؤلاء المهاجرين في مناطق شامية مختلفة كانت أحوال الزراعة وطريقتها وفنونها غريبة عليهم فاحتاجوا إلى وقت كي يعتادوا عليها، وشر ما كان يواجهه المهاجرون الأمراض المتوطنة في بلاد الشام مثل الملاريا التي كانت تفتك بهم فتكًا ذريعًا، كما أن الجدري حصد عددًا كبيرً من الواصلين حديثًا منهم في دمشق إذ كانوا لا يزالون يقيمون في المساجد والمدارس

(١٨٧٨).

ولكن الأمر استقر أخيرًا، ووطِّن الشركس والشيشان في بلاد الشام. وقد لقوا، في أول الأمر مقاومة من البدو، إذ كانت مستوطناتهم قريبة من البدو (مثل منطقة عمان ومرتفعات الجولان)، ومن سكان المدن الذين أنكروا عليهم ما أعطوا من أرض (كانت في الغالب مهملة) لكن شجاعة الشركس وجرأتهم ومهارتهم القتالية أوقفت الأولين عن الهجوم عليهم .والحكومة العثمانية أوقفت الآخرين عند حدهم.

وقد بلغ عدد الشركس في سنة ١٩٠٦،إذ أصبح الاستقرار هوالغالب على وجودهم:

القنيطرة والجولان ١٩٤٩ عائلة

شرقي الأردن ٢٢٥٠ عائلة

جهات حمص ٦٧٠ عائلة

في ولاية بيروت (يدخل شمال فلسطين فيها) ٥٥٠ عائلة

المجموع ٣٤١٩ عائلة

فضلاً عن أفراد كانوا لا يزالون يبحثون عن مستقر وقد قدر عددهم بنحو الألف.

وتظل أكبر منطقتين نزل فيهما الشركس هما منطقة عمان ومرتفعات الجولان، ولا يجوز أن نغفل جرش بالذات فقد كانت فيها مستوطنة أثرت في البلدة والمنطقة، إذ إن الشركس هم الذين نقلوا جرش من قرية لا تكاد تكون مسكونة إلى بلدة غنية كبيرة نشيطة.

بل أنه من المهم أن نذكر أن مدينة عمان مدينة بنشوئها الأول، أو على الأصح عودتها إلى القيام بدور هام، إلى الشركس الذين استوطنوها منذ سنة ١٨٧٨ . وقد عاد الدكتور عبد الكريم غرايبة، عميد كلية الآداب في الجامعة الاردنية السابق ، سنة ١٩٧٧، إلى الاحتفال بمرور قرن على عمان الحديثة (لسنة ١٩٧٨) وكان يؤرخ ذلك باستيطان الشركس فيها.

أما فيما يتعلق بالشيشان فقد كانت أولى مستوطانتهم في الزرقاء (١٩٠٢). وقد انتقلت جماعة من الشركس من مستوطنات سابقة قريبة وبعيدة إلى الزرقاء في السنة نفسها،وكان هدفهم أن يعملوا في إنشاء سكة حديد الحجاز. ثم انضمت جماعات من العرب أكبر من ذلك بكثير إلى أهل الزرقاء فنمت القرية الصغيرة وأصبحت بلدة، وقد أنشأ الشيشان مستوطنتين. الرصافة (قرب الزرقاء) سنة ١٩٠٤، وصويلح (إلى الشمال من عمان) سنة ١٩٠٥ ثم أُنشئت مستوطنة سخنة.

وقد كان للشركس والشيشان دور كبير في تطور الأردن الحديث.

أما في سورية فقد كانت أمور الشركس عادية لكن حرب ١٩٦٧، واحتلال الجولان، هاجر جميعهم تقريبًا إلى دمشق،

ويمكن القول إجمالاً بأن أكثر الشركس الآن ،سواء في سورية أو الأردن، هم من أهل المدن (راجع لتوزيع الشركس والشيشان ص ١١٥ـ ١٢٣ حيث أورد المؤلف جداول مفصلة).

(٧)

كان بنو صخر، وهم البدو الذين يسيطرون على الجزء الشرقي من البلقاء، في أواسط الأردن الحالي، رعاة إبل في اوائل القرن التاسع عشر وكانت أسرهم تتجاوز الألف عدًا وكانوا ينتقلون في الصيف إلى جهات عجلون وإربد للرعي، كما كانوا يتجهون شرقًا أو جنوبًا في شرق إلى وادي السرحان. وقد يشتون في غور الأردن شرقي النهر أو غربه.

إلا أنهم لم يكتفوا بتربية الإبل، بل كانت لهم موارد أخرى. وأهم هذه الحج. فالحاج الشامي كان يمر بأرضهم مرتين في العام ـ ذهابًا وإيابًا . فكان شيوخ بني صخر ورجال القبائل فيهم يزودون قوافل الحاج بما يحتاجون إليه من إبل وأدلاء وقادة. وكانت الدولة تدفع لشيوخه «الصرّة»، وهي مبلغ من المال معروف قدره، لحماية القوافل فإذا لم تدفع الحكومة هاجم بنو صخر القافلة ونهبوها . وقد كانت هذه الأمور المتعلقة بالحج تدر عليهم الربح الوفير بحيث عرف عن شيوخ هذه القبيلة أنهم ألفوا نوعًا من العيش الرفيه.

وكان لبني صخر مصدر آخر للإثراء هو «الخوة» التي كانوا يحصلون عليها من الصلت (السلط) والكرك وغيرهما، وهذه الخوة كانت تدفع على أشكال مختلفة: نقدًا أو قمحًا أو زيت زيتون أو قماشًا للخيام وما إلى ذلك. وكانت مدينة السلط (الصلت) سوقهم الرئيسة وكانوا يزودون تجارها والتجارالقادمين إليها بحاجتهم من الإبل. وكان فقراء بني صخر يجمعون أعشاب الصحراء ويوقدونها ثم يجمعون رمادها (القَلْوي) إلى تجار الصلت (السلط) الذين كانوا يبعثون به بدورهم إلى مصانع الصابون في نابلس.

ظل بنو صخر يعيشون على هذا المنوال حتى أواسط القرن التاسع عشر، إلى حد أن رجال القبائل في المنطقة، منهم ومن بني عدوان، قالوا فيما بعد انهم لم يكونوا يعرفون أن الأرض التي يعيشون فيها هي من بلاد السلطان، ولا أنهم أتباع له. ولعلهم كانوا صادقين. إلا أن هذا الوضع أخذ يتبدل اعتبارًا من سنة ١٨٦٧ . فقد قاد محمد رشيد باشا، والي دمشق، بصحبة القائد العام لجيش بلاد العرب، حملة (١٨٩٧) مجهزة بالجيش الكبير والعتاد على شمال شرقي الأردن، وخلال شهرين قضاهما هناك دمرا مخيم العدوان واحتلا مدينة السلط وأقاما فيها حامية وعينا عليها «قائمقام». وبعد سنتين هاجم العدوان وبنو صخر قرية الرمثا في شمال شرقي الأردن

لأن سكانها لم يدفعوا الخوة للبدو، متبعين بذلك تعليمات رشيد باشا الذي كان قد ألغاها. فما كان من رشيد باشا إلا أنه أرسل قوة ضدهم كان فيها فرقة من الهجانة (أي الجنود الذين يستعملون الإبل) مسلحين بالبنادق القوية، وستمئة فارس و ٨٠٠ من فرسان عنزة المشهورين ومئة وستون متطوعًا درزيًا. وقد سلم العدوان، لكن بني صخر نفروا واستجاروا بقبائل أخرى.لكن رشيد تبعهم واستولى على موارد الماء،فاضطروا إلى التسليم،وطلبوا الصلح فحصلوا عليه لقاء دفع مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ قرش،وهو مبلغ كبير بالنسبة لتلك الأيام.

ومع أن القبائل لم يتقبلوا الموقف الجديد بسهولة فإنها لم تفعل شيئًا لمقاومة تثبيت الحكم التركي في المنطقة. فوضع الجنود الاتراك بشكل دائم في المنطقة. وأنشئت (كما رأينا) مستوطنات شركسية في جهات عمان (في عمان وفي خمسة مراكز أخرى). ووصلت المدن في تلك الجهات مع بقية أجزاء الأمبراطورية بالتلغراف (١٩٠٢). ولما وصلت سكة الحديد الحجازية إلى تلك المنطقة أثناء إنشائها تم للدولة نشر نفوذها هناك.

وحتى قبل بناء سكة حديد الحجاز كان وارد بني صخر من الحج قد تضاءل، لأن الكثيرين من الحجاج أصبحوا يفضلون السفر بحرًا إلى الحجاز (بعد فتح قناة السويس ١٨٦٩). وقد خفضت الدولة ما كانت تدفعه من إعانة للبدو، وقد جربت الدولة أن ترضي زعماء بني صخر فجعلت «فندي» شيخ مشايخ بني صخر. ورأى هو، كما رأى ابناه من بعده (توليا المشيخة من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٩٠٧)، أن تكون العلاقة مع الدولة ودية، فذلك أنفع للفريقين. وسجلت بعض الأراضي باسم الشيوخ ، وعين أحد ابني «فندي» فيما بعد مديرًا لناحية كانت جيزا(زيزياء).

والمهم في هذا كله هو أن بني صخر أخذوا أنفسهم بشيء من الاستقرار التدريجي، فاهتم شيوخهم بالأرض وعمل أفراد القبيلة بالزراعة. ولما قل الاهتمام بالإبل وبيعها، صرفوا هممهم إلى الأغنام. وانتقلت الخرب من أماكن مهجورة إلى أمكنة يقطنها الفلاحون الذين أخذوا يهتمون بزراعة العنب، تقليدً لأهل السلط، لأن العنب كان يجفف زبيبًا ويشحن إلى لندن (عن طريق القدس). وقد أفاد شيوخ بني صخر من وجود الشركس إلى الشمال ومن قيام مادبا (من جديد) بعد أن أعطت الدولة بعض الأراضي هناك لمسيحيين من الجنوب (برعاية بطريرك اللاتين بالقدس). وهكذا نشطت الأعمال الزراعية ـ في الحبوب والخضر والأشجار المثمرة.

أقبل الفلاحون من فلسطين، الذين ضاقت أرضهم بهم بسبب كثافة السكان، إلى البلقاء، للعمل. جاءوا ودرسوا الأمر أولاً (١٨٧٠وما بعدها) ثم عادوا فنقلوا أسرهم وقادوا حيواناتهم وحملوا العدة اللازمة واستقروا، جماعات صغيرة، في الخرب وعملوا في الأرض مقاسمة مع الشيوخ.

وإلى تلك الفترة ترجع عودة الحياة إلى أماكن كانت إلى تلك الأيام مهجورة خربة ومن الطريف أن عددًا من الأماكن التي كانت كلمة «خربة » تسبق اسمها، سقطت كلمة خربة منها مع الوقت، لأنها عمرت.

ومنذ إنشاء إمارة شرقي الأردن، ثم قيام المملكة، استتب الأمن في بقاع البلاد ، وانصرف الناس إلى استغلال الأرض وتربية الأغنام وجز الصوف الذي أصبح مصدرًا مهمًا للثروة. وتنوعت وسائل الإنتاج الزراعي، كما تنوعت المحصولات والغلات.

ويتابع المؤلف تطور الاقتصاد في تلك المنطقة حتى السنوات الماضية، لكن الذي يهمنا نحن هو قضية الاستقرار البدوي والأسباب التي أدت إليه والعوامل التي ساعدت على ذلك.

(٨)

هذا الذي تحدثنا عنه من اسقرار البدو أو هجرة داخلية أو خارجية أدت إلى استقرار جماعات معينة في مناطق بالذات، شمل الشريحة أو المنطقة الانتقالية التي تقع إلى الغرب من البادية. هذه المنطقة الانتقالية التي سميت في وقت من الأوقات «صحراء» أو «جزءًا من الصحراء» بسبب فراغ خِرابها من السكان،، ليست هي في الواقع صحراء بالمعنى التام للكلمة. لذلك لما استتب الأمن فيها وألف الناس حياة الزراعة، رغبة أو قسرًا، وتيسرت القوى العاملة اللازمة لاستغلالها، أينعت أرضها وأتت أكلها، والذين استقروا فيها، كما رأينا،كانوا إما بدوًا من أهلها رأوا، بعد تدخل الدولة لفرض سلطتها، أنه من المفيد لهم أن يستوطنوا ويستقروا ويجاروا التطور الجديد. ولعل بني صخر (أو الصخور كما يسمون) من أحسن الأمثلة على ذلك، أو أن الذين استقروا كانوا فلاحين انتقلوا من قرى مجاورة بسبب سيادة القانون والأمن في وادي الفرات وولاية حلب. وهناك الجماعات التي تركت مناطق لعلها أحب إلى النفس جمال منظر وحسن مخبر ، وانتقلت إلى المناطق الانتقالية هربًا من ظلم أو غبن أو خشية من تجنيد وما إلى ذلك (مثل الإسماعيليين شرقي حماة وحمص والدروز في جبل الدروز ـ جبل العرب). وهناك الذين جاءوا من الخارج ـ الشركس والشيشان.

ومع أن الأسباب والعوامل والأحوال التي حملت هذه الجماعات على الاستقرار في المنطقة الانتقالية تختلف من جماعة إلى أخرى، فإن النتائج متشابهة. فهي تشمل إعادة الأرض إلى الإنتاج الزراعي (أو وضعها تحت نير الفلاح من جديد) وتنويع المنتوج وقيام القرى والمدن وإنشاء الطرق وقيام الأسواق المهمة.

فالاستقرار والتوطن هما سببًا ونتيجة انتقال من حياة متنقلة إلى حياة قروية ـ مدنية، ومن ثم السير على طريق التقدم. فالتقدم والحضارة هما في نهاية المطاف ابنا المدينة، ومن مسيّرا السكان فيها.

أما الشريحة أو المنطقة الثانية التي بدأ نورمان لويس كتابه بوصفها (مع المنطقة الأخرى) فقد أصابها شيء من التغيير ويمكن تلخيصه:

أولاً: لقد تقلصت البادية مساحة عما كانت عليه حتى في منتصف القرن التاسع عشر، فقد أصبحت المنطقة الانتقالية بأجمعها تقريبًا تستغل بطريقة أو بأخرى، وحتى بعض البقاع في شمال البادية (والسهوب) وغربها، ضمت إلى الأجزاء المستغلة المجاورة لها وقد انتزعت بعض أجزاء البادية لتستعمل معسكرات ومناطق للتدريب العسكري، كما ابتلعت المدن، الجديدة أو المتطورة عن بلدان صغيرة ـ أجزاء البادية أو السهوب. ولا يمكن أن ننسى ان الطرق الدولية وأنابيب البترول والحدود الدولية تجتاز البادية ، وقد يتطلب بعضها إقامة مراكز يسكنها الذين يعنون بالمحطات اللازمة لضخ البترول أو مراقبة الطرق.

ثانيًا: زاد عدد السكان في ما كان قبل قرية صغيرة، فأصبح مكانًا شبه مدينة ، فقد ارتفع عدد سكان تدمر مثلاً نحو ٢٥،٠٠٠ نسمة"وهناك قرى صغيرة نشأت حول نبع وخاصة حيث تفتح الحكومة مدرسة .

ثالثًا: أصبح بالإمكان الوصول إلى معظم أنحاء البادية في سيارة عادية أو في شاحنة.

رابعًا: ولا تزال البادية (الذي تبقّى منها) تفصح عن نفسها بمجرد الوصول إليها. لكن سكانها البدو قل عديدهم ، وقد أصبحت التنقلات الجماعية والتجمعات الكبيرة وقطعان الإبل والماشية الضخمة أمورًا من الماضي. إلا أن القلة التي تسكن البادية لا تزال على سجيتها ولو أنها تبدلت قليلاً.

خامسًا: قبيلة عنزة لم تعد تطرأ على البادية بأعدادها الضخمة؛ فقد استقر أكثر أفرادها في المملكة العربية السعودية. ومع أن تنقلات الرّولة استمرت الى الخمسينات، فإن هذه بالذات قد تناقص عددها مؤخرًا، وأخذ أفراد القبيلة يبحثون عن الرزق في المملكة السعودية وفي دول الخليج المختلفة. وقلّ مع هذا التبدل، عدد الإبل وقطعانها، إذ وجد الكثيرون أن العمل في الزراعة، إذا تيسرت الظروف، أنفع وأوفى بالغرض.

ومع أن البدو يتناقص عددهم في البادية، فإن الأغنام يتزايد عددها، وخاصة في الربيع، وأصبحت الأغنام مما يعتمد عليه للغذاء والجلود والصوف،

ومن الطريف أن بعض أبناء البادية الذين كانوا من أسر ترعى الأغنام أو تربي الإبل أصبحوا ينتقلون الآن إلى ربوع الأردن ليعملوا رعاة هناك.

هذه هي الأمور الأساسية التي تناولها نورمان لويس في الكتاب الذي تحدثنا عنه. وهو كما يبدو من هذه الخلاصة، كتاب يتناول منطقتين في وسورية والأردن بالدرس الدقيق ويعبر عن دراسته بأسلوب علمي، لكنه لا يؤدي إلى سأم القارىء.

هذا الكتاب حري بأن يترجم إلى العربية.

القسم السادس

اللغة العربية
في قفزاتها التاريخية

عالم اللغات السامية

الساميون موطنهم الأصلي، في رأي الغالبية من الباحثين جزيرة العرب. وقد خرجوا منها شعوبًا وقبائل في هجرات متعاقبة وموجات متتالية واستقروا في الأراضي الخصبة المجاورة لها - في أرض الرافدين وبلاد الشام، وكانت هذه الهجرات والموجات قديمة العهد، ترجع أولاها، من حيث معرفتنا التاريخية إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد تكون ثمة موجات سامية أخرى تركت صدى غير واضح، فضلاً عن تلك التي تعرفنا إليها بشكل واضح.

على أن ما يجب أن لا يغرب عن البال هو أن الموجات التي أشرنا إليها كانت الهجرات الكبيرة، حيث كانت تخرج عشائر «مجتمعة»، فتحمل على المنطقة، وتحتلها وقد تمعن فيها نهبًا وتخريبًا إلى أن تستقر، وتقبس حضارة الشعب المغلوب وتقوم عندها ببناء حضارة جديدة. ولكن إلى جانب هذ النوع من الانتقال من البداوة إلى الحضارة، كان هناك الانتقال المستمر الذي تقوم به جماعات صغيرة: تدهمها أيام قحط محلي أو تستولي على حماها قبيلة عاتية فتنتقل الى أقرب مراع أو أرض تصلح للاستغلال. وقد تحتاج الى أجيال قبل أن تنتقل من البداوة الى الحضارة. وإلى تلك الهجرات الكبيرة، وهذه الأبطأ والأصغر، هناك ما يصح أن يسمى الانتقال الدائم الذي قد يتم على يد أسر أو مجموعة أسر تسوق قطعانها من أرض شبه سهوب إلى مراع خضر وأرض ذات مياه. ومع توالي الأيام تنتقل هذه المجموعة من حياة متنقلة متعلقة «بالخيمة» إلى حياة مستقرة مرتبطة بالمنزل المبني.

هذه الشعوب السامية كانت عندما تنتقل إلى أرض الرافدين وبلاد الشام (وقد تنتقل إلى مناطق أخرى مثل المنطقة الإفريقية المقابلة لليمن) كانت تختلط بشعوب أخرى بعضها كان وجودها سابقًا للوجود السامي، مثل السومريين في جنوب العراق وبعضها جاء لاحقًا للساميين، مثل الحوريين في الجزيرة الفراتية، والحثيين في شمال سورية الآتين من آسيا الصغرى، وهناك «شعوب البحر» التي وصلت السواحل الشامية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد واستقرت فيها، ومن أهمها، تاريخيًا الفلسطيون الذين أقاموا نهائيًا في جنوب السهل الساحلي الفلسطيني وأنشأوا مجموعة من المدن.

والامتزاج والاختلاط بين الساميين القادمين من الجزيرة والشعوب المقيمة أصلاً

في الأرض والقادمين إليها من جهات أخرى هما اللذان أديا الى قيام هذه الحضارات المتقدمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ولكن مما هو حري بالذكر هو أن العنصر السامي «تغلب» على غيره، وذلك بسبب قرب الجزيرة العربية من هذه الرقعة ـ رقعة الهلال الخصيب بجناحيه العراق وبلاد الشام ـ فكانت الجزيرة تمد المنطقة بسكانها. وترتب على ذلك أن اللغات السامية هي التي أصبحت ـ خلال أربعين قرنًا قبل الفتوح العربية ـ اللغة المسيطرة في المنطقة . فكتب بها الأدب والتشريع وما إلى ذلك. ولما ظهر العرب على مسرح التاريخ كان لهم شأن خاص، على ما سنرى.

ومن ثم فإنه يمكن القول بأن المنطقة بأجمعها ـ الجزيرة وامتدادها في أرض الرافدين وبلاد الشام ـ هي منطقة سامية لغة وشعبًا وحضارة .

أما الشعوب التي يشملها التعبير «سامية» فهي، كما يعرف القارىء، الأكديون والبابليون والأشوريون والكنعانيون والفينيقيون والعموريون والأراميون والعرب، على أننا عندما نفكر بهذه الجماعات لغويًا، فإننا نذكر أيضًا الأحباش، لأن لغتهم سامية ولو أنهم ليسوا كذلك عنصريًا .

وإذا نحن حاولنا أن ننظر إلى الجماعات هذه من الناحية اللغوية،وجدنا أن اللغات السامية تنتظمها المجموعات التالية: (أولاً) الأكدية ومعها البابلية والأشورية ؛ (ثانيًا) الكنعانية ومنها الفينيقية والعبرية؛ (ثالثًا المجموعة الأرامية وهذه تشمل طائفة من اللهجات وجدت أولاً في سورية ، ولكنها توغلت فيما بعد في المناطق المحيطة بها؛ (رابعًا) المجموعة العربية؛ والمجموعة الخامسة هي الأثيوبية التي كان يتكلم بها المستوطنون الساميون في الحبشة. ومع أن اللغة الحبشية كانت واحدة أصلاً، فقد آلت فيما بعد إلى مجموعة من اللهجات المتميزة واحدتها عن الأخرى تميزًا واضحًا.

وقد يصعب على المرء أن يقول بأن هناك «شعوبًا سامية»، ولكن الحديث عن لغات سامية هو أوضح. ومن ثم يمكن القول بأن هناك مجموعة من اللغات السامية تؤلف فيما بينها «أسرة متميزة متحدة». إلا أن بعض الباحثين يلفتون إلى أن النظم الاجتماعية والدينية للشعوب التي تتحدث باللغات السامية فيها «شبه عائلي». ويعود السبب في هذا إلى اشتراكها جميعًا في «أصل حضاري تاريخي عنصري لغوي» واحد تقريبًا.

وعندما ننظر إلى القضية من الزاوية العنصرية (الجنسية) ونتذكر أن الصحراء العربية هي مهد الساميين وأن هذه الصحراء كانت، نسبيًا، منعزلة كما أنها كانت تعطي السكان الذين يخرجون منها صفات جسدية مشتركة، عندها قد لا نتردد كثيرًا في القول بأن الساميين كانوا في الأصل مجموعة شعبية متماسكة، بسبب تجانس بيولوجي في نمط السكان، الذين يقعون ضمن مجموعة كانت تسمى المجموعة الشرقية إلى قبل عقود خلت.

وليس بين الباحثين اتفاق على أي من هذه اللغات هي اللغة الأم. وإن كان هناك من يعتبر اللغة العربية «الأولى» هي اللغة الأم. ولكن أين كانت هذه اللغة العربية الأولى؟ ولعله من الخير أن لا نقف عنده هذه النقطة، إذ لا فائدة ترجى من ذلك، فضلاً عن أن هذه الأمر ليس مهمًا!.

وهذه اللغات السامية لها خواص تتفق فيها معظمها، منها أنها ثلاثية الجذر أي أن الكلمات ترجع في أصولها إلى حروف ثلاثة هي الفاء والعين واللام. وهذا الأصل فعل يضاف إلى أوله أو وسطه أو آخره حرف أو أكثر فتتكون من الكلمة الواحدة صور مختلفة تتعدد معانيها بتعدد صورها. وفي اللغات السامية طائفة من الحروف الصامتة مخرجها من الحنجرة والحلقوم واللهاة، ولذلك فإن لفظها، على غير أبنائها صعب . وبين اللغات السامية شبه في أنواع الضمائر. فكل لغة فيها ضمير متكلم ومخاطب وغائب أصلاً. لكن بعض اللغات السامية فقدت مع الوقت واحدًا من هذه الضمائر، وهذه الضمائر تتصل بالكلمات، خاصة بالأفعال. ومما تتفق فيه اللغات السامية هو أنه فيها زمنان رئيسان للفعل ـ هما التام والناقص ، أو الماضي والمستقبل .

وهناك أمور تتعلق بالكلمات المفردة السامية ذكرنا ان إضافة حرف أو أكثر على الأفعال يبدل معناها، ومنها أيضًا أنها تتشابه في تغيير الكلمات في حركة الحرف الأوسط منها،، وبذلك يتنوع المعنى.

وأكثر اللغات السامية معربة أصلاً وقد إحتفظ بعضها، والعربية في مقدمتها، بالإعراب . وكما أن اللغات السامية لا تعرف الكلمات المركبة ـ أي التي يزاد إليها أجزاء من كلمات لتبديل المعنى وتنويعه، وقد تضاف هذه في أول الكلمة أو في آخرها. وهناك كلمات تتركب من ضم كلمتين الواحدة إلى الأخرى في اللغات الهندية ـ الأوروبية، وهو أمر لم تعرفه اللغات السامية. أما من حيث تركيب الجملة فهو غير مركب ؛ والجمل في هذه اللغات إما اسمية أو فعلية. لكن اللغة العربية دخلتها الجمل الفرعية مع الزمن، ومثل ذلك يقال عن السريانية بتأثير اللغة اليونانية. ولا شك أن إقبال شعب ما على الترجمة من لغة شعب آخر يؤدي بطبيعة الحال، إلى تأثر لغة المترجِم بلغة المترجَّم عنه.

وهذه الشعوب السامية بدأت منذ الألف الثالث قبل الميلاد تغذّي الثقافة العالمية بنتاجها الأدبي والعلمي. فقد ظهرت فيها أساطير تعبر عن أشواق الإنسان وآماله وأمانيه، وكتبت فيها أديان وثنية وموحدة. واختيرت «العربية» منها أداة للوحي الذي أنزل على النبي (ص) قرآنًا كريمًا. وقد دونت فيها الشرائع ولعل من أبرزها شرائع حمورابي، ووضعت فيها علوم فلكية ورياضية على ما ظهر من الآجرات البابلية التي كشف عنها البحث الأثري خلال العقود الماضية. ومع أن بعض هذه اللغات قد مات بحيث لا يعرفه اليوم إلا المتخصصون في دراسة مثل هذه الأشياء، فآثارها

معروفة وبحكم الاتصال المستمر، زمانًا ومكانًا بين هذه الشعوب انتقلت الآراء والصور الأدبية من بقعة إلى أخرى ، ومن شعب إلى آخر، ومن أدب إلى أدب.

وبقدر ما كان وضع اللغة السامية الواحدة مرتبطًا بلغة سامية أخرى ، فإن اللغات التي لا تزال منها حيّة إلى الآن قد تكون في الواقع، نتيجة لامتزاج بين لهجات متعددة حدث في عصور متطاولة في القدم. إذ قد تندمج لهجتان تدريجًا ويتكوّن من ذلك لهجة واحدة . ولعل هذا هو الذي حدث بالنسبة للغة العربية نفسها. فلهجات شمال شبه الجزيرة العربية في العصور الطويلة السابقة للإسلام كانت ذات نفوذ كبير وسلطان قوي، فكانت هذه اللهجات الشمالية تبلع اللهجات الجنوبية واحدة بعد الأخرى؛ كان هذا يتم عندما تهاجر جماعة من الجنوب شمالاً. وأخيرًا غلبت لغة واحدة على منطقة واسعة. أما اللهجات أو اللغات الجنوبية فقد ظلت لغة نقوش.

وفي الأمور التي ذكرنا من حيث تشابه اللغات السامية نجد أن العربية تبزّها أو تبزّ أكثرها على الأقل. ففي نطقها عذوبة أحلى، وفي مخارج حروفها وضوح أصفى . ولعل ذلك يعود إلى أن اللغة العربية بقيت مدة طويلة واتصالها بالخارج محدود نسبيًا. إن مثل هذا الوضع أتاح للعربية أن تنمو نموًا داخليًا فتتغلب لهجة على أخرى لا أن تتغلب هي على لغة أخرى. على أنه يجب أن لا نبالغ في قضية عزل اللغة العربية وأهلها عن العالم الخارجي. ذلك بأن الرفش والمعول أظهرا، في السنوات الأخيرة على الأقل ، أن سكان شبه الجزيرة العربية. وسكان السواحل بشكل خاص، كانت لهم علاقات قوية مع جيرانهم ومع شعوب حتى أبعد من ذلك. لكن هذه العلاقات ما كان لها أن تؤثر في نمو اللغة العربية وتطورها داخليًا وتركيبيًا، وإن كانت قد أدت إلى نقل كلمات من لغات هؤلاء القوم وضمها فأدى ذلك إلى إثراء اللغة العربية بالذات.

حافظت اللغة العربية على إعرابها،وهذا مكن مستعمليها من التلاعب بتركيب الجمل تقديمًا وتأخيرًا في كلماتها ومن ثم بتنويع الأسلوب. وهذا يكسب اللغة العربية، على أيدي القادرين من أبنائها، رونقًا خاصًا، وإن كان يضيف إلى استعمالها وتعلمها صعوبة أخرى.

ومن خصائص العربية كثرة المترادف فيها. والباحثون في هذا الموضوع متفقون على أن ذلك يرجع إلى اندماج لهجات مختلفة بعضها بالبعض الآخر؛ لكن اللهجة الواحدة أو اللغة الواحدة التي نشأت عن ذلك الإندماج احتفظت بمفردات من الأصلين لمعنى واحد أو مسمى واحد. وهذ يسر للعربية أن تتجمل وتتأنق وتتبرج، وأن يكون لأهلها حرية في اختيار الكلمات للتعبير عن ظلال من المعاني إذ إن الكلمات المترادفة لا تعني الشيء نفسه تمامًا، وهناك خطر يكمن في هذا الأمر، إذا لم يتنبه الرجل إلى الفروق التي قد توجد بين المترادفات. والكلمتان اللتان توردان دومًا للإشارة إلى الترادف هما السيف والأسد، إذ ان لكل منهما عشرات من الأسماء بالعربية. لكن الذي

يجب أن يعرفه الكاتب ـ على الأقل ـ هو أن أسماء السيف لا تعني كلها أي سيف، بل إن الكلمات تعني صفات للسيف. ومثل ذلك يقال في الأسد وغيرهما.

وللعربية ميزة أخرى وهي الاشتقاق على درجة كبيرة. فالكلمة الواحدة يمكن توسيعها داخليًا بحيث تزيد في ثروة المفردات، وهذا لا تنفرد فيه الأفعال ومزايداتها فقط، بل يدخل أيضًا في الأسماء.

واللغة العربية، كما كانت قد أصبحت لغة الأدب والتأمل في العصور المتطاولة السابقة للإسلام، كانت قد تكونت لها شخصية خاصة بها: ففي ألفاظها موسيقى، وفي أوزانها دقة، وفي النطق بها جرس، ولها في الأذن وقع جميل. وقد وصلت درجة كبيرة من البلاغة، كما أن قواعدها كانت قد اكتسبت تنسيقًا منطقيًا.

واللغة ،من حيث استعمالها، أداة يعبّر فيها الأفراد والجماعة عما يختلج في النفوس وتضطرب به القلوب وتتأمله العقول. وقد يكون التعبير شعرًا كما قد يكون نثرًا. وصلاحية اللغة، أي لغة تتوقف على الشعب الذي يستعملها. فحتى في القرن العشرين توجد لغات «بدائية»، لأن الشعوب التي تنطق بها بدائية في حياتها وتفكيرها، وليس لدينا ما يوضح الدور «البدائي» للغات السامية. فإن الذي وصل إلينا من اللغات السامية التي اندثرت جاء منقوشًا أو مكتوبًا، أي بعد اختراع الكتابة. واختراع الكتابة بحد ذاته دليل على تقدم كبير في حياة الشعوب.

وهذه المدونات التي كشف عنها التنقيب الأثري، والتي تخص اللغات السامية المندثرة ، ذات محتوى هام . وبين محتوى واحدة من اللغات وأخرى فروق كبيرة. فالمحتوى يتوقف على اختلاف التجربة الثقافية والحضارية التي عرفها الشعب صاحب اللغة. ومحتويات اللغات السامية تظهر درجة متقدمة من الثقافة والحضارة وغنى في الأدب. والفروق في المحتويات هي فروق واختلافات من حيث الدرجة والمدى. ومثل هذه الفروق تبدو واضحة لدى دراسة الآجرات البابلية والأشورية ومخلفات الحضارة الفينيقية من جهة ودراسة الأدب السرياني القديم من جهة أخرى. فالأولى تجربة أصحابها محدودة بزمان قديم ورقعة محدودة، أما الثانية فهي نتيجة اتصال واسع النطاق مع جماعات متقدمة، وعميق بالنسبة لتجربة تلك الجماعات عينها. ومثل ذلك يقال بالنسبة للعرب الأوائل الذين كانوا يقتصرون نسبيًا على أنفسهم وعلى منطقتهم في الجزيرة. والعرب بعد أن أخذوا يحتكون بالشعوب التي وقعت تحت سيطرتهم. طبعًا كان الفرق هنا أكبر. وهذا معنى قولنا إن الفروق في المحتويات هي فروق واختلافات من حيث الدرجة والمدى.

ولنشر هنا إلى أمر هام يتعلق بالمنطقة التي برز فيها الساميّون، وفي خلقهم للحضارة والمحافظة عليها. هذه المنطقة التي تقع بين البحر المتوسط غربًا، والبحرالأحمر وبحر العرب والخليج العربي جنوبًا في قوس يدور بالجزيرة، وجبال

إيران شرقًا وهضبة الأناضول شمالاً، كانت عبر العصور المتعاقبة، قبل التاريخ، وفي التاريخ منطقة تختلط فيها الشعوب اختلاطًا كبيرًا. ومن ثم فإن هذه الشعوب كانت تتبادل فيما بينها كل ما يمكن أن تنتجه سلعًا أوتبتدعه أدبًا أو تخترعه أدوات أوتصنعه آلات، وكان التبادل في أمور الأدب، ويومها الأدب الأسطوري، أيسر على نفوس الناس. فالحكاية شيء يحبه الناس أجمعين، ويحبون روايتها كما يحبون سماعها. وبين سماع الحكاية وروايتها مرات، مع تغير اللغات وتبدل الحكاة والسامعين تختلف التفاصيل. ولعل هذا الاختلاف في التفاصيل هو الذي يمكننا من التعرف إلى النواحي الخاصة لكل جماعة ولغتها، وتقصّي المميزات التي تختص بها جماعة دون جماعة، ولغة دون لغة.

حول أدب اللغات السامية

الشعوب السامية في بداوتها كانت تتعرض لتحدي الطبيعة، وكانت لها ردود فعل لهذا التحدي، ولما انتقلت هذه الشعوب إلى المناطق الزراعية حيث استقرت وأنشأت حياة حضارية، كانت ثمة تحديات وكان أيضًا رد فعل لكل تحد. والفرق الرئيس بين تحديات البداوة وتحديات الحياة الحضرية هو أن الأولى محدودة بما تفرضه الطبيعة - فهي حرٌّ لافح أو برد قارس (أما ما بينهما فلم يكن تحديًا، بل الشيء العادي) ومن ثم فإن رد الفعل كان محدودًا كذلك. فالحرالـلافح يتجنب بأن يهرب منه موقتًا، والبرد القارص يستدفأ فيه دفاعًا عن النفس. وإذا كان التحدي جفافًا، وخاصة إذا استمر، فإن رد الفعل البدوي نحوه هو المهاجرة إلى حيث المرعى والأرض الزراعية - أي الانتقال إلى مناطق الاستقرار والتحضر.

أما التحديات الحضارية فكثيرة ومتنوعة، وردود الفعل أو الاستجابات للتحديات تتوقف على مقدرة الأفراد والجماعات على الإفادة من الأشياء الموجودة. فالإمكانات، الطبيعية والبشرية، تستغل وتسخر لمصلحة الجماعة، وقضايا الكون، في الأرض وفي السماء، تفسر وتعلل. وكلا الأمرين، التفسير والتعليل، بدأ عند جميع الشعوب بالأسطورة وهي التي دوّنها الأدب، وهذه هي الوظيفة الأولى والأقدم عهدًا للأدب في جميع الحضارات الأولى.

ونحن إذا استعرضنا الآداب الشرقية القديمة من حيث الزمن الذي نضجت فيه، وجدنا أن أدب وادي الرافدين هو الأقدم عهدًا. ذلك بأنه نضج في الألف الثالث قبل الميلاد ولو أنه دوّن بعد ذلك بمدة. ونحن لا نجد - على الأقل لم يصلنا - من الأدب المصري ما يعود إلى ذلك الوقت، أي عصر الأهرام. وأدب أغاريت وهو أقدم أدب كنعاني (سوري - لبناني - فلسطيني) مدون يعود إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، ومثل ذلك يقال عن الذي عثر عليه في إبلا. أما الأدب العبري فقد دون أقدم ما دون، في القرن الثامن قبل الميلاد على وجه التقريب.

ومما يجب ذكره هو أن الادب السومري، وهو الأصل الأول للأدب السامي في أرض الرافدين، يشعر دارسه أنه يشير إلى مبدعيه بأنهم ورثاء مجد ماض مجيد، أي انهم لم يكونوا هم الذين أبدعوا الحضارة التي انتجت هذا الأدب والفكر. والأدب

السامي (العراقي) هذا عُثر عليه في ألواح متعددة النسخ للقطع الأدبية الكبيرة ذات القيمة الخاصة، وكانت هذه النسخ موزعة حتى خارج أرض الرافدين. فملحمة غلغامش (جلجامش) عثر على نسخ منها في بلاد الحثيين وفي الشام وفي عيلام. وقد وصلت حتى مصر، إذ عثر على قطع منها في «تل العمارنة» في مصر الوسطى.

وهذا الأدب القديم، الذي أنتجته أرض الرافدين أساطير، تدور مجموعاته «حول أصل الوجود والخليقة والكون والآلهة »، وعلى رأسها قصة الخليقة البابلية وما يضاهيها من أصول في النصوص السومرية، ومجموعات أخرى تدور حول أعمال الابطال وأشباه الآلهية مما يصح أن نسميه ادب الملاحم، مثل ملحمة جلجامش وقصة إيتانا الراعي وقصة أدابا وقصص كثيرة بالسومرية تتناول بطولات وقصصًا مثل قصة النزاع بين مدينتي إرك (الوركاء) وكيش. ومثل ذلك كثير أيضًا.

هذا الأدب الغني الذي ظهر في أرض الرافدين مجهول المؤلفين؛ فهو غفل. فنحن نعرف أن هوميروس هو أب الإلياذة والأوديسي، ونعرف أن سنوحي هو الذي دوّن أخبار رحلته من مصر إلى بلاد الشام (حوالى سنة ١٩٦٠ ق. م.) ،ونعرف الكثير عن الذين كتبوا فصول الأدب العبري ، لكن ليس لدينا قطعة واحدة من أدب الرافدين يمكن التعرف إلى والدها.

ونحن اذا أخذنا بعين الاعتبار نواحي أخرى من المحتوى لهذا الأدب الغني نجد،مثلا أنه يتميز بالخوف من الشياطين ، ومن ثم فصُور الشياطين متعددة الأوصاف متنوعة سبل التخويف. والأدب مرتبط بالدين والطقوس إلى درجة كبيرة، خاصة فيما يتعلق بالأعياد الدينية. فإن هذه هي أعياد الآلهة والطقوس فيها بالغة التعقيد، ومن ثم فأي أدب ـ نثرًا كان أو شعرًا ـ له علاقة بالطقوس يصبح هو معقدًا أيضًا .

والنظر إلى هذا الأدب من حيث أسلوبه يُظهر لنا أمورًا حرية بالاهتمام: منها أن الشعر هو الأسبق بالنسبة للفنون الأدبية الأخرى. ويبدو أن نشوء الشعر هناك كان مرتبطًا بالغناء، على نحو ما ذهب إليه الباحثون في الاداب السامية الأخرى إذ وجدوا أن الشعر هو السابق. ولكن بعد هذه النقطة يذكرنا طه باقر، في مقدمة الطبعة الثالثة لترجمته لملحمة جلجامش (بغداد ١٩٧٤)، بأن الشعر هذا كان يخضع لفن خاص من النظم إذ كان موزونًا لكنه غير مقفّى، وتتقسم القصيدة فيه وحدات،ويقوم عروضه على تجزئة الكلمات إلى مقاطع، فضلاً عن ذلك فإن هذه القطع الأدبية الكبيرة تتسم بالتكرار والإعادة، مما قد يبعث السأم والملل في بعض المواقف (من ملحمة غلغامش وقصة الخليقة البابلية مثلاً). وهناك أيضًا استباق الحوادث؛ ففي الملحمة المذكورة: «تبدأ الرواية بمقدمة أو ديباجة في التعريف ببطل الرواية والتغني بأمجاده، وبما به من الحكمة والمعرفة والمقدرة وتنوه أيضًا بمجمل موضوع الرواية وحتى نتيجتها أو خاتمتها».

وتتنوع الأبواب في التراث الأدبي الذي وصلنا من أرض الرافدين، ومن القطع الأدبية الطريفة يذكر طه باقر «أدب المناظرة والمفاخرة"» مثل المفاخرة: بين الصيف والشتاء وبين الراعي والفلاح وبين الفأس والمحراث، وبين النحاس والمعدن الثمين، وهذه باللغة السومرية. وفي اللغة الأكدية المفاخرة بين النخلة وشجرة الأثل،وبين الحنطة والشعير، وبين الثور والحصان. ويذكر الكاتب نفسه أيضًا أدب التشاؤم والسخرية مثل المحاورة بين السيد وعبده.

ويدخل في عداد هذه الفنون المنوعة في حقل الأدب، الأمثال والرسائل الديوانية والأغاني الدينية والصلوات. ولعل هذه هي التي كانت تتميز بشيء من التعقيد لارتباطها بالطقوس الدينية. ومن الطريف أن أدب الرثاء،وهو قليل ،يدور حول ندب المدن المدمرة ومراكز العمران المهدمة، وفي يقيني أن هذا ناشىء عن أهمية المدينة في حياة السومريين ـ فهي رحم الحياة الحضرية عندهم.

وقد نقل طه باقر عن اكتشاف على جانب كبير من الأهمية؛ فقد عثر بين الألواح المكتشفة في مدينة نِفر (القريبة من عفك) «على لوحين... وهما مدونان بعناوين لتآليف أو قطع أدبية سومرية أي إنهما فهارس لمؤلفات أدبية... [وهما] يزوِّداننا بـ ٨٧ عنوانًا للتآليف الأدبية .[وقد] أمكن تعيين ٢٨ تأليفًا مما وجد أصله ونصه الكامل في الألواح الطينية التي عثر عليها في المواضع الأثرية في العراق. ويرجع زمن هذين اللوحين إلى الألف الثاني ق. م. ».

وهذا الأدب على تنوعه وتعدد أبوابه وفنونه، يلاحظ الدارسون فيه أنه محافظ، بل لعله أن يوصف بالجامد. فقد كان من المألوف عند المتأخرين أن ينظروا إلى الأعمال الأدبية الأقدم على أنها القدوة والذروة التي لا يمكن تجاوزها. ولهذا فقد كان على كل جيل من الفنانين، قبل كل شيء، أن يحاول استيعاب خصائص القديم ثم إخراج المحتوى في شكل جديد. وكان ثمة ميل إلى المبالغة في وضع المقاييس، وإلى تكرار الأنماط والأشكال المقبولة؛ ولم يكن الفنان يريد ترك الطرق المألوفة في محاولة للتعبير عن نفسه،إنما كان يميل إلى إخفاء شخصيته وراء الصور التقليدية. فكان الفن شكليًا خاليًا من الطابع الشخصي، وكان محافظًا إلى درجة الجمود (سبتينو موسكاتي، في الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، لا. تا.).

إلى جانب هذا الأدب الثري الذي تفتّقت عنه قريحة سكان أرض الرافدين، يقوم أدب كنعاني وآخر فينيقي وثالث عبري؛ وهذه الآداب تتفاوت في كميتها ونوعها ومحتواها، فالذي وصلنا من الأدب الكنعاني (سورية ولبنان وفلسطين)، إلى الآن، هو ما عثر عليه في أوغاريت (راس الشمرا). وهذا يشمل ملحمة الإله بعل والإله عنت، وهي من أهم ما خلّفه الأدب الاغاريتي شعرًا ـ وذلك بسبب طولها وأهمية الموضوع

الذي تعالجه. والقصة، إذا جازت التسمية، تبدأ بالصراع بين الإله بعل وإله البحر «يم». وينتصر بعل، ويحتفل بهذا الانتصار ببناء قصر له والاحتفال العظيم بافتتاحه، ويُذبح بعل وينزل به الى مملكة الموتى التي كان يحكمها الإله «موت» (ولعل معنى اسمه الموت فعلاً). واختفاء بعل معناه توقف الحياة على الأرض. وإذن لا بد من العودة ببعل من حيث هو كي تعود الحياة على الأرض، وتقوم الآلهة «عنت» بذبح الإله «موت»، ويفنى جزءًا جزءًا بعد أن تشقه «عنت»، وتذروه بالمذراة وتحرقه بالنار، وتطحنه بالرحى، وتبذره في الحقل، فتأكل الطيور قطعه، وتُفني العصافير أجزاءه فيعود بعل إلى الأرض، وتعود معه الخصوبة والوفرة، وهكذا فإن القصة تدور حول دورة الفصول.

ومن أساطير الأبطال الكنعانية قصة «أقهت» و«ملحمة كرت» وهذه الأخيرة تدور حول ملك فقد أسرته كلها، فظهر له الإله «إلِ» (أيل) في الحلم وأمره بالقيام بحملة عسكرية ضد ملك ارض أدم، ليقهر ملكها ويتزوج ابنته وينشىء أسرة مجددًا، وتتم نبوءة الحلم ولكن نهاية القصة غامضة (إلى الآن).

يقول سبتينو موسكاتي، تعليقًا على هذه القصة ـ الملحمة ما يلي:

«هذه القصيدة تؤدي بنا إلى مسألة من أهم المسائل التي أثارتها الكشوف الحديثة أمام المستشرقين. ففكرة القيام بحملة حربية للظفر بعروس جميلة أو استعادتها تذكرنا ولا ريب بالإلياذة، كما أن بعض الشخوص والمواقف والتعابير في الأدب الأوغاريتي تنم عن صلات بالأساطير اليونانية القديمة، ومن الصعب أن نبتّ في مسألة العلاقة بين الأدبين بأن نجعل أحدهما معتمدًا على الآخر. والأرجح أن مجموعة من الأفكار الأسطورية انتشرت في منطقة شرق البحر المتوسط كلها، وأثرت في أدب الشرق الأدنى واليونان».

ونذهب نحن إلى أبعد من هذا، كما ذكرنا قبلاً، بأن المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط وجبال زغروس غربًا وشرقًا، وبين جبال طوروس وجنوب الجزيرة العربية شمالاً وجنوبًا، كانت، منذ الألف الخامس قبل الميلاد، بوتقة تختلط فيها الشعوب وتمتزج وتتحاك وتتبادل قصصها وآدابها وآراءها. ومن هنا نجد في الملحمة الواحدة ـ مثل ملحمة غلغامش ـ ما هو سهلي أصلاً (سومري) وجبلي فرعًا (أي بالسّفر) وهو لبناني، ونجد عودة الي النهر واتجاهًا نحو البحر (الخليج العربي، ونتسائل: ما الذي يربط بين أجزاء القصيدة ـ الملحمة وبين الأحداث التي تجري في هذه الأجزاء من المنطقة الواسعة؟ ونرى الجواب في أمرين: الواحد يُعنى به الجميع ، وهو الكون والخليقة والحياة الأبدية (لا المعاد)، والثاني محلي. فكل فريق يسعى للحصول على تفسير أو وصول لذلك بحسب ما توحي به طبيعة بيئته ويمتزج هذا كله لينتج، مع الزمن، هذه القصص.

وهذه الأساطير ـ التي تنتجها المنطقة متفرقة في أجزائها مجتمعة في نهايتها ـ تصل إلى الفينيقيين الذين لا يقصرون في القيام بدورهم.لكن المصادر التي زودتنا بالأسطورة الفينيقية، كانت متأخرة نسبيًا. ومن هنا كانت القصة أمتع فنيًا، لكنها مهجَّنة. فأسطورة تموز وعشتار فيها من كل بستان ثمرة، لكنها صيغت بالأسلوب الطلي، فكانت قراءتها متعة تفوق بعض ما وصلنا مما هو أقدم وأقل ترابطًا، ومن ثم أكثر تفكّكًا.

ونود أن نختم هذا القسم بالإشارة إلى أدبين ساميين عرفتهما المنطقة التي كنا ندور داخلها وندور حولها إلى الآن، وهما الأدب الأرامي والأدب العبري.

حريّ بالذكر أن اللغة الآرامية تطورت، من حيث استعمالها طرقًا وأساليب متنوعة، ليس هنا مجال التحدث عنها. أما من الناحية الأدبية فإننا إذا بحثنا عن نص أدبي بالمعنى الصحيح، فإننا لا نجد سوى نص واحد هو قصة أحيقار. والنص الذي وصلنا متأخر، بالنسبة لما مر من أدب أرض الرافدين وأوغاريت، اذ إنه يعود الى القرن الخامس قبل الميلاد، لكن مادته ومحتواه أقدم، إذ يعود ذلك الى القرن السابع قبل الميلاد.

والنص هو قصة أحيقار الذي كان كاتبًا في بلاط ملكين من ملوك أشور هما سنحاريب وأسرحدون (حكما من ٧٠٤ إلى ٦٨١م) لم يكن لأحيقار ولد فتبنّى ابن أخته، ونقل إليه وظيفته. لكن «نَدن» ابن الأخت، جازى خاله شرًا بإحسان. إذ أغرى الملك الأشوري بنميمة عن أحيقار قبلها الملك وحكم على كاتبه السابق الفاضل بالموت. وتواطأ الجلاد مع أحيقار فهرب هذا، واستطاع استعادة مكانته في البلاط بفضح الدسيسة ضده. وهنا يغتنم أحيقار (أو الذي انتهى اليه كتابة القصة) الفرصة ليقدم لقارئه الحكم التي إذا اتبعت فقد تنجي صاحبها. ولو كنا نعنى هنا بالحكمة والدروس من القصص لكنا نقلنا بعض حكم أحيقار لكننا نتحدث عن الأدب من حيث إنه وعاء وقد تركنا الحكمة لمن أراد ليعود إليها في مظانها،

والأدب السامي الآخر الذي نود أن نتحدث عنه باقتضاب هو الأدب العبري. وإذا نحن تركنا الأسفار التاريخية التي زُوِّر فيها التاريخ كله، ووضعت فيه على عاتق يهوه (إله العبرانيين) اختيار الشعب العبري كشعب خاص، وقد وُعد هذا الشعب أرض الميعاد (أي فلسطين)، ثم توبع التزوير فعزي هذا لا إلى يهوه إله القبيلة فحسب، بل إلى «الله » نفسه.إذا تركنا الأسفار التاريخية جانبًا الآن (فهذه القضية بحاجة إلى بحث خاص) فإننا نجد عند العبرانيين أدبًا على نوعين: واحد منهما يؤنب «اليهود» لأنهم يتخلون عن عبادة الله إذا لم يلبِّ طلباتهم «فعاد إسرائيل وصنعوا الشر في أعين الرب»؛ والثاني هو أدب جميل حكيم من نشيد الأنشاد إلى «أيوب» (الذي يرى البعض أنه كتب بالعربية أصلاً) إلى الأمثال «إلى «الجامعة» إلى بعض الأنبياء الصغار .

لكن الأمر الذي يجب أن يذكر دومًا هو المحاولة الجادة والمستمرة في العصور القديمة لتطويع الأدب للنظرة الدينية المحافظة النفعية. ومع ذلك فقد استطاع بعض الأدب العبري التفلت من قبضة رجال الدين المحافظة والنفعية.

وبعد فقد يسأل سائل أو أكثر، ما دام القصد من هذا الحديث تناول اللغة العربية في قفزاتها التاريخية، فلماذا كل هذا الدوران حول العالم السامي واللغات السامية والآداب السامية القديمة؟

والجواب يسير، وهو أن اللغة العربية غصن في شجرة اللغات السامية. والغصن الذي أقصده هو الغصن الحي لا الغصن الذي جف وأصبح صالحًا للنار. والغصن الحي في الشجرة الحية يتغذى بما تمتصه هي وما تحوله غذاء لكل غصن، واللغة العربية كانت الغصن الأكثر انتعاشًا وحياة خلال قرون طويلة. لذلك من الضروري ان نتعرف على الشجرة الأصلية تمهيدًا للتعرف على الغصن القوي أصلاً، والذي قوي أكثر فأكثر عبر التاريخ الطويل. فهناك تجربة اللغة العربية في الجاهلية شعرًا أنيقًا جميلاً يثير النفوس ولو كره مبغضوه؛ وهناك تبختر العربية وزهوها إذ أختيرت لغة الوحي الكريم؛ وهناك إنتشار هذه اللغة في رقعة لم يعرف التاريخ مثلها - لغة علم وفقه وأدب لا مثيل لاتساع رقعته.

هذه اللغة التي أتيح لها كل هذا، كان لها بالأدب السامي القديم صلة الرحم. وصلة الرحم لا تنكر. ومن هنا رأينا أن ندوّن هذه الملاحظات العامة، كي نضع اللغة في محلها بالنسبة للقارىء، والقارىء في مكانه بالنسبة للغة العربية.

تجربة العرب الشعرية في الجاهلية

قامت في الجزيرة العربية دول كان لها بالعالم الخارجي اتصال تجاري وحربي. وكانت لها بلاطات يغشاها الشعراء والأدباء. كما كانت الجزيرة تعرف عددًا كبيرًا من الأسواق التي كان يؤمها التجار لبيع سلعهم، كما كان يقصدها الشعراء للتغني بأمجادهم وللفخر بقبائلهم. فمن دول الجنوب سبأ وحمير، حتى لا نعود إلى فترات أوغل في التاريخ لنشير إلى معين وقتبان وما إليهما. وكانت في الشمال مواطن المناذرة في الحيرة ، ومنازل غسان في مشارف الشام وتدمر بين الشام والعراق، والحضر في شمال أرض الرافدين. هذا الى منازل كندة التي كانت تتوسط اليمامة. ولسنا نريد أن نتحدث هنا عن تاريخ هذه الدول أو البقاع، ولا أن نعدد مآتيها وإنجازاتها الحضارية والأدبية، ولكننا نذكر هذا لنذكِّر القراء بأن اتصال العرب بالعالم الخارجي، حتى في الأزمنة الموغلة في القدم، كان له نواح حضارية هامة. وقد كانت تقيم في الجزيرة جاليات طارئة أو جماعة أصلية قد اعتنقت اليهودية أو المسيحية، ومن ثم فقد كان هناك اتصال روحي بين الداخل والخارج.

والتراث الأدبي الذي وصلنا من العصر الجاهلي، على قلته، كان تعبيرًا عما كان يصطرع في عقول القوم وما تختلج به نفوسهم وما تضطرهم به قلوبهم، ويبدو حتى من النظر السريع في هذا التراث أن الشعر يغلب فيه على النثر - ظهورًا في الزمن وكما في المحفوظ ولعل هذا يرجع إلى أن الشعر إلى الحفظ أيسر، وعلى ألسن الناس أروج، وإيقاعه تنتشي به النفوس. وهذا التقليد الأدبي لم يكن وقفًا على العرب، بل يبدو أنه الغالب على التقاليد الأدبية في العالم.

هذا هو الوضع الذي كان معروفًا في القرنين السابقين للإسلام. ولسنا نبغي في هذا الحديث أن نوغل في الأبحاث المتعلقة بالشعر وأصله وفصله. ولكننا لا نرى بدًا من الإشارة إلى أن الشعر الجاهلي هذا كان في أصله مقطوعات قصيرة تصف الطبيعة والحياة القاسية والقتال. لكن في القرن السادس على أرجح الآراء، تطور هذا كله وظهرت القصيدة الطويلة التي كانت نقلة كبيرة من حيث فنها وتعدد الموضوعات التي تعالجها .

وأكثر الشعر الذي تحدَّر إلينا من تلك الأزمنة يكاد يكون محصورًا، من حيث

رقعته، بالمنطقة الشمالية الشرقية الواقعة بين الحجاز والخليج العربي. وقد يكون معنى هذا أن اللغة العربية الشمالية التي كانت ذات قوة وسلطان كانت تبتلع اللهجات الجنوبية المنتقلة إليها مع عرب الجنوب، أصبحت هي اللغة التي استعملت للتعبير عن حاجات النفس أكثر من أي لهجة عربية أخرى .

يقول سبتينو موسكاتي: «وكان العرب في جميع الأزمان ذواقي لغة، وكانوا دائمًا يعدون أناقة القول وقوة الكلام بين أسمى الفضائل، فلا بد أنه كان لهم منذ قديم الزمان أغان شعبية في نثر موزون بسيط يمجد الحروب ومآثر القبيلة وأبطالها، وشعر فخر وشجاعة موضوعه الإنسان وأعماله وانتصاراته ؛ والإنسان وهو يفكر ويعمل من دون عاطفة دينية محسوسة توجهه».

والشاعر في المجتمع العربي المذكور كان شخصية فذة فريدة جذابة. ويبدو أن القوم كانوا يظنون أن في الكلام قوة سحرية، وان الإلهام الشعري هو نوع من السحر، وان الشاعر كثيرًا ما يوجهه الجن في كلامه.

ومما لا ريب فيه أن البحث في نمو اللغة العربية والعوامل المحيطة به لا يزال في أوله؛ ولا بد من التعمق بدرس البيئة العربية درسًا أعمق قبل إصدار حكم قطعي أو حتى قريب من ذلك حول مثل هذه القضايا.

وإذا نحن أخذنا المعلّقات نقطة انطلاق أولى، أملاً في أن نتعرف إلى روح التجربة الشعرية العربية في تلك الأيام الخوالي، وضربنا صفحًا عن الدوران حول تسمية هذه الآثار الشعرية الرقيقة أمعلقات كانت أم مذهّبات، وعن الاهتمام بعددها ستًا كانت أم سبعًا أم عشرًا - إذا نحن أخذنا المعلقات أملاً في التعرف الى روح هذا الشعر ومدى تعبيره عن التجربة الفردية أو الجماعية، نجد أن أكثر هذه القصائد الطوال لها بناء معين يكاد يكون منسقًا فيها كلها، بدءا من مناجاة الأطلال إلى زيارة الحبيبة إلى وصف الناقة أو الفرس، هذا البناء المتشابه في هندسته الشعرية في القصائد كلها أو جلّها، كان أحد الأسباب التي حملت بعض النقاد على اعتبار هذا الشعر، أو أكثر أو بعضه على الأقل، منحولاً. ولكننا نود أن نذكر أنفسنا بأن الكثيرين ممن قالوا بذلك في العصور الحديثة لم يعرفوا البوادي والقفار التي عاش فيها أولئك الشعراء والتي نظم الشعر فوقها. فأنت تسير ساعات في السيارة (اليوم) أو أيامًا على ظهر البعير (من قبل) فلا يتغير المنظر أمامك. هذه الاستمرارية في الأرض وفي الجو هي التي أثرت في الشعر في القصيدة - فكان لها هذا الشكل من البناء .

لكن المهم أن نذكر أيضًا أن هذه القصيدة الطويلة المعلقة أو المذهبة كانت متنوعة الموضوعات وكان الموضوع الرئيس في كل منها يختلف عنه في الاخرى. فمن قال إن الموضوع الرئيس في معلقة امرىء القيس هو نفسه في قصيدة زهير بن أبي سلمى؟ ومن الذي يعتبر أن ما رمى إليه عنترة في معلقته هو ما قصده لبيد؟ صحيح أن كلا من هذه القصائد فيها فخر، ولكن حتى الفخر كانت تختلف بواعثه وتتباين نزعاته.

وإلا فهل فخر عمرو بن كلثوم مثل فخر عنتر أو لبيد؛ عنترة يفخر ليزيل عنه وصمة الرق واللون، وعمرو بن كلثوم الشاعر يهدد عمرو بن هند الملك. وامرؤ القيس يفتخر بأشياء، فيما يرى زهير الفخر في الحلم. وهكذا فإننا نجد أنه في: «ثنايا هذا المنهج العام للقصيدة يمكن إدراج شتى الأفكار فلم تكن تعوق الشاعر ضرورة ملحة بالتزام وحدة الموضوع».

كان شيطان الشاعر يتجول ويتحوّل، وكان الشاعر يتبعه مستطردًا في ما يعنّ له وصفًا وفكرًا. ويرى موسكاتي أن هذا الشعر كان قوي الصبغة الشخصية، فهو نتاج خيال الشاعر الذي كان يأخذ من الرمال حبة، ومن الرياح هبة، ومن الإبل والأنعام حركتها، ومن وحوش الصحراء أصواتها وعويلها، ويضيف هذه المواد التي تحيط به ثم يصوغ منها صوره التي يعبّر عنها بشعر سلس بسيط، تملك بساطته على الناس لبهم. وأود أن أسرع إلى القول إن هذه اللغة التي نقرأها اليوم فنجدها صعبة إلى درجة كبيرة بحيث تصرفنا عن قراءة الشعر كله، لم تكن كذلك بالنسبة للمعاصرين لهؤلاء وشعرهم.

هذا امرؤ القيس،أمير الشعر في الجاهلية، له معلّقة في حول ثمانين بيتًا. وقف فيها على الأطلال في مستهلها، وبكى على الأحبة الراحلين وذكر الأيام الخوالي. وكما يضيف الدكتور بكري (الشيخ) أمين: « ثم انتقل إلى استعراض بعض أيام شبابه التي قضاها في اللهو والمجون، وتدرج من هذا إلى وصف الفتاة التي يحبها،فإلى ليل الهموم الذي يقاسي منه اليوم [يوم نظم قصيدته أو هذه المقطوعة منها] فإلى وصف حياته مع الصعاليك الضائعين في البراري، ثم جاء إلى فرسه فراح يصفه وصفًا مسهبًا ... واختتم المعلقة بوصف المطر». أليس في هذا الشعر تجربة شعرية ذاتية أو كما نقول اليوم تعبير عن معاناة شعرية؟

يقول امرؤ القيس:

ألا ربَّ يوم لك منهنّ صالح ... ولا سيّما يوم بدارة جُلْجل
ويوم عقرت للعذارى مطيّتي ... فيا عجباً من رحلها المتحمَّلِ
فظلَّ العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهُدَّاب الدمقس المفتَلِ
فظل طهاة اللحم ما بين مُنضج ... صفيف شواءٍ أو قدير معجلِ

فهذا اليوم الذي ذبح فيه امرؤ القيس مطيّته للعذارى كان يومًا يذكره حياته، ويدونه بهذه الإشارة الرقيقة، ولكنها حبلى بكل ما كان يكنّ لهذا اليوم من عطف وذكرى.

إلى جاني هذ اليوم الأنيس في حياة امرىء القيس، هناك أيام عاشر فيها صعاليك العرب. وقد ذكر هذه الأيام في قصيدته بالأبيات التالية:

وقربة أقوام جعلت عِصامها ... على كاهل مني ذلول مرَّحل
وواد كجوف العَير قفر قطعتُه ... به الذئبُ يعوي كالخليع المُعَيَّل
فقلت له لما عوى: إنَّ شأننا ... قليل الغنى إن كنت لما تموَّلِ
كلانا إذا ما نال شيئًا أفاته ... ومن يحترث حَرثي وحَرثَك يهزلِ

ولننتقل إلى زهير بن أبي سلمى ولنورد له أبياتًا في الحكم قال:

سئمتُ تكليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يسأمِ
وأعلمُ علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمِ
رأيت المنايا خبط عشواء من تُصب ... تمته ومن تخطىء يعمَّر فيهرم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروفَ من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يُشتمِ

وعمرو بن كلثوم كان أوضح في الفخر من غيره من أصحاب المعلقات، كما كان أطول نفسًا. فهو سيد قومه وكان يفخر على ملك هو عمرو بن هند وقومه، بن هند يقول منذرًا:

أبا هندٍ فلا تعجل علينا ... وأَنظرنا نخبِّرك اليقينا

وتلى ذلك أبيات يفصل الشاعر فيها هذا اليقين الذي أراد أن يقوله، منها:

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا ما الملك سام الناس خسفًا ... أبيْنا أن نُقِرَّ الذل فينا
إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ ... تخر له الجبابر ساجدينا
ملأنا البر حتى ضاق عنّا ... وظهرَ البحر نملأُه سفينا
ألا لا يجهلنَ أحد علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا
وقد علم القبائل من معدٍّ ... إذا قببٌ بأبطحها بُنينا
بأنَّا المطعمون إذا قدرنا ... وأنّا المهلكون إذا إبتلينا
وأنّا المانعون لما أردنا ... وأنّا النازلون بحيث شَينا
وأنّا التاركون إذا سخطنا ... وأنّا الآخذون إذا رضينا
ونشرب إن وَردنا الماء صفوًا ... ويشرب غيرُنا كَدَرًا وطينا

وهذا طرفة بن العبد يفخر بأمر آخر، هو فخر شخصي لا قبلي:

إذا القوم قالوا مَن فتىً خلت أنني ... عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبَّلدِ
ولستُ بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفدِ
فإن تبغني في حلقة القوم تلقَني ... وإن تلتَمسْني في الحوانيت تصطدِ
وإن يَلتَقِ الحيُّ الجميعُ تَلاقِني ... إلى ذروة البيت الكريم المصمَّدِ

في هذه النماذج التي سقناها يظهر لنا أن الموضوع الرئيس في أربع من هذه المعلقات يختلف في كل منها باختلاف التجربة الشعرية. وهذه التجربة ليست دومًا

بنت يومها بل هي في الغالب نتيجة انفعالات وتوتر دام وقتًا قبل أن انفجر شعرًا قويًا.

ورغبة منا في أن لا نحصر الاختيار في المعلقات وأصحاب بعض المعلقات من أهل الطبقة العليا أو قريبين منهم، فإننا ننقل هنا أبياتاً لشاعر من شعراء الصعاليك في الجاهلية.

وهذه الأبيات للشَّنفري وهو من الصعاليك المشهورين وكان طريدًا مضطهدًا لجرائمه الكثيرة. والأبيات التالية هي من صنع رجل يلقى كل شيء دفاعًا عن الحرية:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى | وفيها لمن خاف القِلى متعزَّلُ
لعمرُك ما في الأرض ضيق على إمرىء | سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقلُ
ولي دونكم أهلون سيدٌ عَمَلَّسٌ | وأرقطُ زهلولٌ وعرفاْء جيالُ
هم الأهل لا مستودعُ السِّر ذائعٌ | لَدَيهمْ ولا الجاني بما جرَّ يخذلُ
وكل أبي باسلٌ غير أنني | إذا عرضت أولى الطرائد أبسَلُ
وإن مدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن | بأعجلهم إذ أجشع القومِ أعجلُ

فهذا الشنفرى يضيق بالناس فيصادق الحيوان، ويعتبر أصدقاءه الجدد أنهم يحفظون السر ويمنعون الجاني إذا طورد وطولب.

هذه نماذج من هذا الشعر الجاهلي الذي يمثل لغة تم نضجها واستوى نهجها بعد قرون طويلة؛ فلما عرفناها، عرفناها قوية معبرة. وقضية الشعر هذا بعد بحاجة إلى درس يجتاز درس الألفاظ والكلمات والأوزان والتعليق والتذهيب. إنه شعر يعكس حضارة، وهذه الحضارة لم نتعرف إليها بما فيه الكفاية بعد.

العربية لغة الوحي

أُوحي القرآن الكريم إلى الرسول (ص) عربيًا. وكان هذ أكبر تكريم يمكن للغة أن تناله. وكان هذا التكريم من حظ اللغة العربية. وقد ملأ الكتاب الكريم على المؤمنين نفوسهم لما فيه من معان دقيقة ودعوة صادقة وبلاغة سامية وأسلوب فيه الإعجاز كل الإعجاز؛ وملك على الناس لبهم ودخل شغاف قلوبهم وجاءت أحاديث الرسول (ص) بعد ذلك وفيها حكمة وبلاغة. وهنا استقرت للنثر دولة، وتخلى الناس عن الشعر إلا أقله.

وقد كان من الطبيعي أن تقوم للنثر دولة. فالوقت، في مكة المكرمة والمدينة المنورة وفي عواصم الأقاليم كان يقتضي أن يوعظ القوم وأن يخطب أهل الحكم وأن تصدر الأوامر الإدراية لتنظيم أمور الدولة الجديدة. وهذه جميعها سبيلها النثر لا الشعر. فالواعظ والخطيب والمدبِّر والأمير، إذا وقف أو جلس في المسجد، حيث كانت هذه جميعها تلقى، فلن ننتظر منه شعرًا يوقظ الضمير أو يفسر الآية الكريمة أو الأحاديث الشريفة أو يعين جبهات القتال أو يصدر تعليمات إلى الحكام.

على أن هذا لم يعن أن الشعر قضي عليه. ألم يكن حسان بن ثابت شاعر الرسول! لكن القضية يمكَن تلخيصها في أن الشعر خفت صوته وأن الشعراء انزووا، ولكن إلى حين، ذلك بأن الشعر ديوان العرب - كان ولا يزال، ولعلنا لا نخطىء كثيرًا بقولنا إنه ما دام هناك لغة عربية تُستعمل وعرب يلجأون إليها لقضاء حوائجهم، فسيظل هناك شعر، وستظل له دولة.

لكن القرآن أوحي به. وبعد سنوات من انتقال الرسول (ص) إلى الملأ الأعلى جُمِعَ في المصحف الشريف. وكان هذا عندها دليل الإيمان والمرشد الروحي للمسلم، ولعل الإعجاز الذي وصف به القرآن، والذي أدركه الناس حالاً، هو الذي أقعد الكثيرين عن نظم الشعر، على الأقل إلى أيام الأمويين، حين عادت للشعر دولة في محيطين: الأول في بلاط الخلفاء في بلاد الشام، إذ كان من الطبيعي أن يكون لأولي الأمر «دعاة ومشرفون على الشؤون الإعلامية»، وكان الشعراء هم المهيئون للقيام بهذا؛ أما الثاني فكان في مرابع الحجاز، حيث عاد الشعر إلى مكانته، وصفًا ورق على أيدي الشعراء الغَزلين.

وقد تحدث كثيرون عن إعجاز القرآن الكريم. وعلى كثرة ما قرأنا لم نجد أدق وصفًا وأرق قولاً من هذا الذي جاء به مصطفى صادق الرافعي إذا قال: « نزل القرآن

على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في خصائصها العجيبة، وما تقوم به، مما هو السبب في جزالتها ودقة أوضاعها وإحكام نظمها واجتماعها من ذلك على تأليف صوتي يكاد يكون موسيقيًا محصّنًا في التركيب والتناسب بين أجراس الحروف، والملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذي يؤديه. فكان مما لا بد بالضرورة أن يكون القرآن أملك بهذه الصفات كلها، وأن يكون ذلك التأليف أظهر الوجوه التي نزل عليها. ثم إن تعدد مناحي هذا التأليف تعدادًا يكافىء الفروع اللسانية التي سبقت بها فطرة اللغة في العرب، حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته، على لحنه الفطري ولهجة قومه، توقيعًا يطلق من نفسه الأصوات الموسيقية التي يشيع بها الطرب في هذه النفس بما يسمونه في لغة العرب بيانًا وفصحاحة، وهو في لغة الحقيقة الموسيقى اللغوية.

«وإذا تم هذا للقرآن مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به، ومع اليأس من معارضته، على ما يكون في نظمه من تقلّب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات، بحسب ما يلائم تلك الأحوال في مناطق العرب، فقد تم له التمام كله، وصار إعجازًا للفطرة اللغوية في نفسها، حيث كانت وكيف ظهرت ومهما يكن من أمرها. ومتى كان العجز فطريًا فقد ثبت بطبيعته، وإن لجَّ فيه الناس جميعًا؛ لأنه شيء في تلك الفطرة يفهم منه صريحًا، ثم لا تنكر هي موضعه منها وموقعه، وإن كابرت فيه الألفاظ وبالغت الأهواء في جحده والانتقاء منه مراء ومغالبة».

كثرت في أيام الرسول والخلفاء الراشدين الخطب السياسية، وكان معنى هذا تقوية لأساليب النثر الملفوظ، ومن ثم لما يُكتب. ولنأخذ على سبيل المثال خطب الإمام علي، التي كانت مثالاً يحتذى في رفعة الأسلوب ودقة التعبير والإحاطة بالمعنى. ونودأن نشير هنا إلى أن عبد الحميد الكاتب، صاحب ديوان الرسائل أيام ولاية مروان بن محمد وخلافته (١٢٧ـ ١٣٢ هـ / ٧٤٤ ـ ٧٥٠)، قال إن خطب الإمام علي كانت أحد المصادر المهمة في ثقافته. وكما قلنا من قبل فإن الشعر الذي ظل له ظلٌّ، والذي احتفظ بخط الرجعة، انزوى وتقدم النثر واستوى على عرش مكين.

واللغة التي أنزل بها القرآن، كما قال الرافعي، هي هذه اللغة التي كان العرب قد اهتدوا إليها قبل البعثة بقرون، من حيث قواعدها واستعمالها. وقد جاء القرآن فيها ما يمكن أن تصل إليه. والذين كتبوا أو خطبوا في صدرالإسلام استعملوا هذه اللغة نفسها، لأنها كانت قد اكتملت. أما الذي حفظ لهذ اللغة كيانها بعد الإسلام، وأدى إلى انتشارها وتوسع رقعة استعمالها فهو القرآن الكريم نفسه، لما أقبل عليه الناس حفظًا وتلاوة وترتيلاً وقراءة وتفسيرًا وبلاغة وجمع غريب ونحوًا وما إلى ذلك.

وإذا كانت اللغة أصلاً أداة للتعبير عما يدور في النفوس ويعتلج في الصدور، ولم تكن العربية لتختلف في ذلك عن غيرها من اللغات، فإن اختيارها لغة للوحي جعل

منها أداة متميزة. ذلك بأن المعاني التي حفل بها القرآن الكريم من حيث الإيمان والعقيدة ومكارم الأخلاق ، والصور التي نجدها فيه من حيث الجنة والنار وغيرهما، والقواعد الشرعية والخلقية التي استنها للمؤمنين، وقصص الأنبياء والرسل والأمثال التي ضربها توضيحًا للأهداف والغايات، والأسس التي فرضها على المسلمين في علاقتهم بالآخرين في والوصايا التي حث الناس على اتباعها في علاقاتهم فيما بينهم: كل هذه وغيرها كثير مما لا مجال لحصره هنا، كان شيئاً جديدًا على اللغة العربية. فالقرآن إذن لم يكن سببًا في تثبيت اللغة العربية أسلوبًا وبلاغة وتركيبًا فحسب، بل فعل بالنسبة للغة أكثر من ذلك بكثير. لقد حمّلها كل هذه المعاني التي ذكرنا بعضها للتمثيل فقط. ومعنى هذا أن اللغة تفتقت عن آراء جديدة وصور مستحدثة، وإنها وُسِّعت إطارًا ونطاقًا بحيث أصبح في استطاعَتها أن تسع كتاب الله لفظًا وغاية. وهذه نقله بالعربية ليس من اليسير التحدث عنها هنا بأكثر من هذه الإشارة.

ونحن إذا تذكرنا العلوم التي نشأت في اللغة العربية، بسبب نزول القران الكريم بها، أدركنا المعنى الذي نقصده. ومع أنه كان ثمة أسباب كثيرة مختلفة لنشوء أنواع من علم اللغة، فإننا نعتقد أن القرآن الكريم كان السبب الأول لنشوء هذه العلوم اللغوية يومها، والدافع المباشر لتطويرها. ولنشر مثلاً إلى القراءات والتفسير فقط؛ فقد تدارس العلماء القراءات وأفردوا لها مؤلفات كثيرة للتأكد من معناها المقصود والسبيل السوي للاتباع. ولسنا نخطىء عندما نربط بين التجويد وأحكامه والقراءات. فإن الاحتفاء بترتيل القرآن الكريم كان باعثًا على وضع أسس التجويد وقواعده.

أما التفسير فكان مداه أوسع، لأنه كان يقتضي توضيح ما في القرآن الكريم لفظًا ومعنى. والمفسرون المتميزون لم يكونوا علماء فحسب؛ إذ إن مثل هذا لم يكن كافيًا. فإن لم يعرف المفسر مختلف وجوه المعنى والمبنى ، فلا بستطيع أن ينقل ما يجب نقله عن آي الذكر الحكيم إلى قرائه أو طلابه. وكان إتقان التفسير يقتضي معرفة بالأوابد وأيام العرب والتاريخ وأخبار الأمم السابقة والمعاصرة وبالعالم وما فيه والسموات العلى وما تحتويه. هذا فضلاً عما كان في الآيات من إشارات إلى معاني العقيدة أو تفصيل لها.

وما كان من الممكن أن تُستنبط القواعد والأحكام الشرعية من القرآن الكريم قبل أن تتضح معانيه المفصّلة للمشتغلين بهذه الشؤون . وإذا تذكرنا أن السنّة النبوية كانت متممة للوحي من حيث أنها تفسير لبعض ما قد يخفى أو يُشكل أمره، فقد ارتبط الحديث وعلومه بالتفسير أيضًا. ولنستشهد بمثل من تفسير الطبري ، وهو، كما يعرف القراء واحد من كبار المفسرين (كما كان المؤرخ الكبير الأول في اللغة العربي). إنه إذ يفسر كلمة «الإلّ» الواردة في قوله تعالى: ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم

المعتدون﴾ (التوبة: ١٠) يقول «وأولى الأقوال بالصواب أن «الإلّ» يشتمل على معان ثلاثة وهي : العهد والعقد والحلف أولاً، والقرابة ثانيًا والله ثالثًا، فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى، فالصواب أن يعم ذلك معانيها الثلاثة. «فيقال لا يرقبون في مؤمن لا الله ولا قرابة ولا ميثاقًا».
ويقول مستمرًا في تفسيره: «من الدلالة على أن يكون بمعنى القرابة قول ابن مقبل «أفسد الناس خلوف خُلفوا قطعوا الإلّ وأعراق الرحم بمعنى قطعوا القرابة، وقول حسان بن ثابت:

«ولعمرُك إن «إلّك» من قريش كإلِّ الشعب من رأل النعاما

«وأما إذا كان معناه بمعنى العهد فقول القائل:

وجدناهم كاذبي إلّهم وذو الإلِّ والعهد لا يكذب

من هذا المثل البسيط يتضح لنا أن القرآن الكريم فتح أمام الناس مجالاً لعلوم كثيرة لتفسيره، وذلك لأن معانيه واسعة عميقة بعيدة المدى.

والذي نود أن نخلص إليه هو أن نزول الوحي باللغة العربية كان أعظم تجربة لتلك اللغة وأكبر دافع لها لأن تتسع آفاقًا وتتعجّر في معانيها وتتفتّق آثارًا . فضلاً عن أن انتشار الإسلام وحاجة المسلمين الى قراءة القرآن الكريم وفهمه مدَّ في الرقعة التي انتشرت العربية فيها شرقًا وغربًا.

اللغة العربية والترجمة

ليست الترجمة ولا النقل من الأمور المستحدثة في حياة الشعوب. فقد عُرفا منذ أن بدأ شعبان متجاوران، لكل لغته الخاصة به، يتصلان واحدهما بالآخر، فينقل الواحد عن الآخر ما عنده. ويبدو هذا واضحًا في الأساطير وفي الآداب القديمة وحتى في الشرائع، وإن كان في الأولى أيسر منه في غيرها. فقد تلقّف اليونان مثلاً أساطير شرقية حملها إليهم التجار، ونقل أهل بلاد الشام أساطير يونانية مقابل ذلك في الوقت المناسب، وانتقلت قصة الخليقة من البابليين إلى مؤلفي سفر التكوين من العهد القديم، وحُملت شرائع حمورابي إلى الشعوب التي كانت تسكن المناطق الواقعة غربي الفرات.

وعندما تكون ثقافة الشعبين المتحاكّين المتصلين متكافئة في المحتوى والأسلوب، يكون النقل غالبًا ذا طريق مزدوج ذهابًا وإيابًا، فينقل كل من الشعبين عن الآخر أشياء تعوزه أو تلذ له .أما إذا انعدم التكافؤ فإن الشعب الأضعف ثقافة ينقل عن الأقوى والأغزر معرفة. وهذا من طبيعة الأمور.

كان الفتح العربي الإسلامي سريعًا. وكانت المشكلة الأولى التي جابهت أولي الأمر تنظيم هذا الملك الذي امتد، بعد قرن واحد من انتقال الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى، من أواسط آسيا وحوض السند إلى إسبانيا. وقد قبل الحكام والولاة الذين عهد إليهم بإدارة الأصقاع المفتوحة أن يحتفظوا بالقيود والسجلات باللغة التي كانت مستعملة قبل الفتح - اليونانية في بلاد الشام واليونانية والقبطية في مصر والفارسية في العراق وإيران، وظل الموظفون المحليون هم الذين يقومون بذلك إلى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥م) الذي بدأ بتعريب الإدارة، وقد تم ذلك في أيام خلفائه بين سنتي ٨٦ و ١٢٥ هـ / سنتي ٣٨٥ و ٧٤٣م.

ولكن ما معنى تعريب الإدارة؟ لا شك في أن عهد الرسول (ص) في المدينة المنورة وعهد خليفتيه الأولين،أبي بكر وعمر (١١-٢٣هـ/ ٦٣٢ - ٦٤٤م) عرفا كتابة الرسائل إلى 'أصحاب الأمر في الجوار ثم إلى الولاة والحكام. لكن لا يبدو أن ديوانًا للرسائل قد أُنشىء في أيامهما؛ إذ المعروف أن عمر بن الخطاب أنشأ ديوان الجند ثم ألحقه بديوان العطاء، وأغلب الظن أن هذين الديوانين استعملت العربية فيهما من أول الأمر، وظلا على ذلك، لكن أمور الخراج والمكوس وما إلى ذلك هي التي ظلت تدّون باللغات المحلية. على أن معاوية كان حاكم بلاد الشام عشرين سنة قبل أن يتولى

الخلافة، ومعاوية كان يهتم بالإدارة، ولذلك فإنه ليس من المستبعد أن يقتبس واحدًا من دواوينهم وهو ديوان الرسائل، وهذا الرأي الذي ذهب إليه الدكتور إحسان عباس يمكن أن يقبل لأنه مبني على منطق الأمور. يقول الدكتور عباس:

«فأنا لا أستبعد أن يكون معاوية أثناء توليه الشام خلال عشرين سنة من خلافتي عمر وعثمان رضي الله عنهما قد اقتبس نظام ذلك الديوان عن البيزنطيين أو عن الذين تمرسوا في مدن الشام أثناء حكمهم، ولا أخال أن معاوية ظل عازفًا عن اقتباس ذلك التنوع من التنظيم إلى أن بويع بالخلافة».

وتولى الكتابة للخلفاء الأمويين عدد من الكتّاب لعلهم كانوا كتّابًا فحسب أي إنهم كانوا يكتبون ما يملى عليهم فقط، وكانت الغاية من الرسالة أن تنقل إلى من يعنيه الأمر رغبة صاحب السلطة أو أوامره أو نصائحه بلغة يسيرة.

ثم جاء دور تعريب الإدارة أي تعريب الداواين، في الفترة التي أشرنا إليها قبلاً، فما الذي تم في ذلك؟ ظاهرة تعريب الدواوين (ومعها تعريب النقد / الدينار الذهبي) كانت قضية هامة في حياة الدولة الأموية ومن ثم في تطور الإدارة في الدولة العربية /الإسلامية، ولسنا نحسب أن الأمر اقتصر على نقل الأسماء والأرقام من لغة أجنبية إلى اللغة العربية. يقول الدكتور عباس:

«إنما كانت حركة التعريب تحويلاً عميقًا يُبرز أهمية اللغة العربية، ويفتح باب المنافسة لتعلمها على نحو منظم راسخ الأصول ـ لدى غير العرب ـ ولهذا لا بدع أن نرى سالمًا وغيلان وعبد الحميد وابن المقفع (وكلهم كانوا من أصل غير عربي وكلهم كانوا كتابًا في العصر الأموي) لا يكتفون بتعلم اللغة لنيل الوظيفة، بل هم ـ أو بعضهم ـ يُعلِّمونها ويحاولون أن يبرعوا في مستوى الأداء بها، وأن يبذوا العرب أنفسهم. وما هؤلاء جميعًا إلا ثمرة من ثمرات التعريب، لأن التعريب كان يعني في ما يعنيه لغة القرآن».

إلى جانب حركة التعريب هذه بدأت، في أيام الخليفة الأموي هشام (١٠٥ ـ ١٢٥هـ / ٧٢٤ ـ ٧٤٣م)، حركة ترجمة علمية، كانت هي فاتحة عصر الترجمة الكبير في أيام العباسيين. ويربط الدكتور عباس بين التعريب الديواني أولاً والترجمة العلمية ثانيًا وبين التحول إلى إبداع نثر فني في تاريخ الأدب العربي، أن يكون هؤلاء الاربعة المذكورون، وهم أقرب الناس إلى حركة الترجمة الهشامية، هم الذين يتم التحول على أيديهم.

تعريب الدواوين، والترجمة التي ذكرنا، كانا مقدمة للدور الكبير الذي قام به العرب في ترجمة العِلوم والفلسفة والطب في أيام العباسيين. وقد بدأت الترجمة أيام المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥م) بداءة متواضعة نسبيًا ثم قويت وانتظمت أيام الرشيد والمأمون والمتوكل (أي بين سنتي ١٧٠و ٢٤٧ هـ / بين سنتي ٧٨٦و

٨٦١). وقد انتهت هذه العملية بنقل الكثير الكثير مما عرفته الشعوب الداخلة في نطاق الدولة العربية الإسلامية وما أثر عن شعوب لم تخضع لها.

كانت الترجمة أول الأمر عمل أفراد قد يشجعهم أولو الأمر، مثل المنصور، وكانت الترجمة تتجه اتجاهًا نفعيًا، أي العناية بالعلوم النافعة وفي مقدمتها كتب في الطب والفلك والتنجيم، وهذه ترجمت في أيام المنصور. لكن الترجمة لم تلبث أن طرأ عليها تبدلان هامان: أولهما أن العمل نظم ووضع تحت رعاية الخلفاء وحمايتهم في بيت الحكمة (الذي يعود الفضل في إنشائه إلى المأمون) والثاني أن نطاق الترجمة اتسع باستمرار فشمل الفلسفة والمنطق والرياضيات والهندسة والطبيعة.

وكان المترجمون بادىء بدء ينقلون عن السريانية إلى العربية أو بواسطتها عن اليونانية، ثم تطور الأمر فنقلوا عن اليونانية رأسًا. ويبدو، على ما أخرجه حسن حسني عبد الوهاب، أن بعض النقل عن اللاتينية تم في بيت الحكمة التونسي الذي أنشأه الأغالبة (١٨٤ ـ٢٦٩هـ / ٨٠٠ ـ ٩٠٩م). إلا أن العرب نقلوا عن الهنود وعن الفرس؛ أخذوا عن الأولين فلكًا وطبًا وحسابًا، وأخذوا عن الآخرين أدبًا وشيئًا من كتب الحكمة العملية.

ولسنا نقصد في عرضنا هذا أن نؤرخ للترجة والمترجمين، لذلك أعرضنا عن ذكر الأسماء، فإننا معنيون بما أصاب اللغة العربية نتيجة لهذه الحركة التي تم أكثرها في بغداد، لكنها لم تقتصر على عاصمة العباسيين وحدها إذ إن كل مركز ثقافي في الدولة العربية الإسلامية كان له يد، ولو خفيفة!.

كانت العربية في الجاهلية تعرف الأنواء والرياح وتسمى النجوم بأسمائها وتعيّن مواقع الشمس والقمر. ولكن بعد أقل من قرنين من انتقال الرسول (ص) إلى الملأ الأعلى، أصبحت العربية تتسع لتعابير فلكية نقلت على يد إبراهيم الغزاري عن مؤلف هندي هو الذي عُرف عند العرب باسم« السِنْدّهِنْد» ، وصارت الأزياج تدون بها، ويتحدث بها عن الأقاليم السبعة وحركات النجوم. واتسعت اللغة العربية للطب والطبيعة والهندسة.

كان للعرب حِكم منتزعة من الحياة يذكرونها في المناسبات المختلفة، وأمثال يضربونها عند الحاجة ، ولكن لم يكن عندهم فلسفة. أما في أيام المنصور والرشيد والمأمون فقد عرفوا الفلسفة في لغتهم منقولة، كما ذكرنا، عن السريانية واليونانية وكانت العربية لا تعرف المنطق علمًا قبل ظهور الإسلام، ولكن المنطق أصبح أيام العباسيين الأوائل علمًا عربيًا. ومثل ذلك يقال عن فروع المعرفة الأخرى.

فما الذي نشأ عن ذلك بالنسبة للعربية.؟

أولاً: دخل على اللغة العربية أنواع من المعرفة جديدة، وهذه الأنواع من المعرفة كان لا بد لها من أن يُعبَّر عنها بألفاظ ومصطلحات تبين معانيها وتوضح مراميها.

ثانيًا: إن هذه الأشياء التي نُقلت الى العربية أحدثت في المجتمع الإسلامي نزعات واتجاهات جديدة. وكان لا بد لهذه الأشياء من أن يعبر عنها .

ثالثًا: أدت هذ العلوم الجديدة إلى قيام تحديات في المجتمع الجديد، وكان لا بد لهذه التحديات أن يستجاب لها، إما قبولا أو رفضًا؛ وهذا كان يقتضي نموًا جديدًا للغة العربية.

رابعًا: لم يتوقف العرب عند الترجمة والنقل، بل انهم بدأوا الكتابة في الموضوعات الجديدة وهم بعد في دور الترجمة. وإذًا فاللغة احتاجت إلى ألفاظ وتراكيب جديدة للعمل الجديد.

وقد استجابت اللغة العربية لهذه التحديات جميعها. فالوعاء اللغوي الذي كان من قبل لا يعرف شيئًا من هذا، اتسع بحيث أصبح بإمكانه أن يحتوي كل أصناف المعرفة والعلوم. والأداة التي شرحت العقيدة والإيمان والواجبات لما أصبحت لغة القرآن والحديث، أخذت نفسها الآن بالمحاجّة والمقارعة دفاعًا عن العقيدة وتوضيحًا لمن يرغب في الجدل فيها.

وقد تم هذا للعربية لأن أهلها لم يكونوا يخشون هذ الجديد الذي جاءهم. فكانت العربية، إذا لم تجد في مفرداتها ما يؤدي المعنى الجديد المنقول إليها أخذته من اللغة الأصلية وعرّبته أي جعلت له صورة عربية. ولكنها لم ترفض الفكر الجديد لأن مفرداتها لم يكن فيها ما يقابله. ولأن الحياة الفكرية الجديدة كانت تقتضي إتباع أسلوب جديد في الكتابة، سارت العربية مع هذا وطوّرت أساليبها، وأدخلت فيها صورًا وعبارات منتزعة من الأشياء الجديدة التي قبلتها. إذ إن الأسلوب الذي كان يصلح للتعبير عن ظاهرة أدبية ، بما تتطلبه هذه الظاهرة من استعمال الألفاظ البراقة أو الطريقة الأخاذة، عدل عنه عند التحدث عن أمور منطقية وقضايا فلسفية وشؤون رياضية وقواعد فلكية ومجادلات كلامية.

إن الفكر الذي أصبح الآن عميقًا في معالجته للأمور، وواسعًا في نظرته للمشكلات، ومتحركًا في متابعته للقضايا، وديناميكيًا في تنقله بين مسألة وأخرى، ومنطقيًا في جدله ومحاجته، أصبح بحاجة إلى أسلوب في الكتابة فيه عمق واتساع وحركة وديناميكية ومنطق كي يعبر عن هذه الحاجات. كذلك اقتضى الأمر أن تزوَّد اللغة بالمفردات اللازمة من حيث جاءت. فعندما يكتب الكندي في شؤون الفلسفة، ويتحدث الرازي في قضايا الطب، وعندما يدون الطبري التاريخ العام ـ عندما يفعل كل من أولئك ما فعل، لا يسعه إلا أن يلجأ الى ما يحقق له ما يريد ويوصله إلى ما يقصد.

والأمر المهم الذي يجب أن نعرفه ونذكره هو أن اللغة العربية استطاعت أن تقوم بهذا كله وأن تيسّر لكل كاتب ومؤلف وباحث ما احتاج إليه من مفردات ومصطلحات وأساليب. وهذا يقوم دليلاً على أن اللغة العربية، في أي من عصورها، إنما هي نتاج

قرائح أبنائها،عندما تُقدح هذه لتلبية حاجاتهم. فإذا كان القوم أصحاب فكر وعلم وحركة صلحت لغتهم للفكر والعلم والحركة. فإذا انطووا على أنفسهم انطوت على نفسها معهم.

انتشار اللغة العربية جغرافيًا

أتيح للعرب، بعد أن فتحوا الأقطار ومصّروا المدن وأنشأوا الدولة، أن يحتكوا بشعوب وأقوام متباينة الثقافة مختلفة العناصر. فقد احتكوا بالفرس والسريان والنبط واليونان والقبط والبربر والأسبان. وهذه الشعوب كانت حياتها تختلف بين خفض العيش ودعته من جهة، وشظفه وخشونتة من جهة أخرى. كما كانت تتباين من حيث استقرار بعضها في مدن ودساكر وأراض زراعية، فيما كان البعض الآخر يعيش حياة فيها الكثير من البداوة والتنقل؛ وكانت ثمة جماعات تتّبع واحدًا من الأديان الوحدانية، فيما كان آخرون لا يزالون على الوثنية.

على أن العرب، في هذه الحقبة من تاريخهم، لم يقتصر إتصالهم على الشعوب التي ملكوا أرضها وبلادها، بل انهم اتصلوا بشعوب أخرى عن طريق الجوار والتجارة والرحلة. فكانت لهم علاقات بأهل الهند والصين، وكانت لهم صلات بالترك والروس، وكانت لهم إرتباطات بسكان الجزء الاوروبي من حوض البحر المتوسط، وقد تصل أسبابهم بغير هؤلاء من سكان أوروبا.

يسّر الاحتكاك والاتصال للعرب أن يتعرفوا إلى ما عند تلك الأقوام من عادات وآراء وآداب وأديان. ومع أن الجماعة العربية ظلت إلى مدة قصيرة تعتزل تلك الشعوب، فإن هذا أمر لم يطل أمده. فليس من طبيعة الأمور أن يظل العرب في عزلة. ومن ثم فقد وقع اختلاط وتمازج في جميع نواحي الحياة ومجالاتها - في الجامع والسوق والطريق وعن طريق الزواج وبسبب نقل السكان من جهة إلى أخرى، كالذي نعرفه من إنزال أربعة آلاف جندي فارسي في الكوفة، ومجيء ألفين من بخارى إلى البصرة، وسوق جماعة من الفرس إلى السواحل الشامية بأمر معاوية، وحمل جماعة من البربر في جيوش الفتح إلى الأندلس، ويمكن تقديم أمثلة أخرى كثيرة، وبأعداد أكبر.

وتعرّف العرب، عن طريق هذه الجماعات كلها، فرادى أو ثُنى أو جمعًا، لا إلى ما كان عندهم من آثار العلم والأدب والدين والفلسفة والفكر فحسب، بل إلى ما كان عند القدامى من علم ومعرفة في مدارس الاسكندرية وانطاكية وحران وجنديسابور.

ونحن عندما نتفحص نواحي الاحتكاك والاتصال والتمازج والتعايش وحتى التباعد والتنابذ، بين هذه الجماعات، فإننا ندرك أن هذا الذي حدث في إطار الدولة

(أو الدويلات فيما بعد) العربية الإسلامية، لم يكن له مثيل في التاريخ، من حيث سعة الرقعة وتعدد الشعوب واختلاف الوسائل وتنوع الأساليب والمناحي . فقد كان التمازج اجتماعيًا بين أولئك الذين جاءوا من الجزيرة العربية من مجتمع شبه بدوي، وبين المجتمعات المتحضرة التي أقامت في الأمبرطورية. وكان التمازج روحيًا فاتصل الإسلام بالأديان المختلفة، التوحيدي منها والوثني، وترتب على ذلك تأثير وتأثر، روحي وعقلاني، خاصة بعد أن انتشر الإسلام وأصبح دين الأكثرية من سكان الدولة؛ وكان التمازج فكريًا، فأقبل العرب على ينابيع المعرفة، المعاصرة لهم والقديمة، فعبّوا منها ريهّم ثم خرجوا بعد ذلك بالآثار الفكرية الخاصة بهم التي نقلوها إلى الآخرين.

انتشرت اللغة العربية في الدولة (أو الدول) الجديدة، بحيث أصبحت لغة الدواوين أولاً ثم لغة العلماء، والمفركين ثانيًا؛ ولكن أهم من ذلك أنها أصبحت لغة الحياة اليومية. ومع أن بعض شعوب الأمبراطورية حافظ على لغته يعبر بها عن حاجاته اليومية، ويضيف حصته بهذه اللغة إلى المجتمع وقصصه وأدبه الشعبي، فإن التعبير عن نواحي الفكر الأصلية كان يستعمل العربية. ولا شك أن هذه التجربة كانت ذات أهمية كبرى بالنسبة للغة التي اتسع نطاقها الجغرافي الآن بالنسبة للسكان عمومًا.

ولا بد من أن نسأل: ماذ كان أثر هذا التمازج الاجتماعي في حياة اللغة العربية؟

أول ما يجب أن يذكر، في سبيل الإجابة عن هذا السؤال، هو دخول ألفاظ أعجمية في اللغة العربية، وهذا أمر لم يكن ينتظر الفتوح كي يحدث. فالجيران يقبسون كلمات جيرانهم إن لم يكن عندهم منها. ولكن المهم هو توسع مناطق استعمال هذه الكلمات الأعجمية، وتكاثر الكلمات المستعملة، وهي إدارية خراجية نقدية أول الأمر ثم تسير قدمًا ـ وهي من أصول يونانية وفارسية وقبطية وبربرية. وللجاحظ ملاحظة ذات قيمة حول هذا الموضوع إذ يقول إن الألفاظ الفارسية لم ترد على ألسنة العراقيين وحدهم، بل دخلت شبه الجزيرة وظهرت آثارها على ألسنة أهل الحجاز.

والأمر الثاني الذي يجب أن نذكر هو نشوء لغات ولهجات جديدة. وهذه نشأت من اتصال العرب بغيرهم، وهذه هي التي أصبحت سبيل التخاطب بين الفريقين. فما كان من المنتظر أن يُتقن أجنبي عادي اللغة العربية السليمة التي قد يتقنها المتعلم. ومع ذلك فكان لا بد من التخاطب بين العرب وغير العرب. يرى الدكتور حسن نصار أن «هذه اللغة (أو اللهجة) استعانت بأبسط وسائل التعبير اللغوي، فبسّطت المحصول الصوتي وصوغ القوالب اللغوية ونظام تركيب الجملة ومحيط المفردات وتنازلت عن الإعراب».

وثالث ما يترتب علينا أن نُعنى به هو شيوع اللحن في مختلف رقاع الدولة، وبين جميع المجتمعات. ولم يقتصر ذلك على الأجانب عن العربية، بل إنه أخذ سبيله إلى الطبقات

العليا من العرب أنفسهم فتسرب إلى ألسنتهم. وقد أدرك القوم هذا الخطر، فاتجهوا إلى المحافظة على اللغة نقية. وقد كان لبعض الموالي من طبقة الكتاب يد طولى في هذا الأمر.

وترتب على هذا أخذ المشتغلين باللغة بالفكرة القائلة بأن اللغة العربية النقية والمضبوطة صرفيًا، هي لغة البدو، فهرعوا الى البوادي يتسقّطون الألفاظ والمفردات والعبارات الصحيحة والأشعار وما إلى ذلك. وهذا الأمر، على قيمتة وأهميتة، اقتصر على جميع ما سماه العاملون فيها اللغة العربية الأصلية ولم يتناول الجمع اللغة العربية العلمية التي كانت سيدة الموقف في مراكز الفكر الكبرى في المجتمع العربي الإسلامي.

على أن الدراسات اللغوية، فضلاً عن المجالات المتنوعة، كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالقرآن الكريم والحديث الشريف. ففي القرنين الأول والثاني للهجرة (أي القرنين السابع والثامن للميلاد) ظهرت محاولات جدية في جمع غريب القرآن الكريم وغريب الحديث الشريف. وهنا تجدر بنا الإشارة إلى الاهتمام الجدي بوضع قواعد للغة العربية بحيث تمكن الأغراب عنها من تعلمها وضبطها . فكان أن وضع أبو الأسود الدؤلي النحو. وكانت الحاجة إلى تعلم قواعد اللغة العربية تزداد كلما بعد الرّكب عن مراكز الخلافة (الأموية دمشق، والعباسية بغداد). ومن هنا نجد أن من أول مؤلفي اللغة العربية سيبويه الفارسي في المشرق، كما نجد أكبرهم في المغرب هو آجروم البربري الأصل؛ إن هؤلاء الأغراب كانوا بحاجة إلى تعلم العربية أكثر من أبنائها الأصليين.

فضلاً عن علم النحو الذي كان يقصد منه أن يوضح «الربط» بين المفردات العربية من حيث تراكيبها، كان ثمة اهتمام كبير بتدوين اللغة عن طريق شرح الشعر وتفسيره. أما فيما يتعلق بضبط اللغة فقد كان العالِم يرحل الى البادية ليسمع الكلمات ويدونها حسب السماع، وانتقل الأمر إلى جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد مثل كتاب أبي زيد في المطر وكتب الأصمعي. ثم تلا ذلك دور وضع المعاجم.

وحركة وضع المعاجم لها في العربية تاريخ طويل. فقد بدأت الحركة لما وضع الخليل بن أحمد «كتاب العين» في القرن الثاني للهجرة (القرن الثامن للميلاد). وجاء بعده ابن دريد فألف «جمهرة اللغة»، وكان ذلك في أوائل القرن الثالث للهجرة (القرن الثامن للميلاد). ثم وضع الجوهري «الصحاح» في القرن الرابع (القرن العاشر).

والمعاجم الأولى التي وضعت كانت تجمعها رابطة مشتركة وهي ترتيب حروف الهجاء حسب مخارجها، وجعل هذا أساس تقسيم المعاجم إلى كتب،ثم تقسيم هذه الكتب إلى أبواب تبعًا للأبنية... والتزم الكثير منها كتاب «العين للمخارج.

وهو أسلوب فيه صعوبة، لكن القوم كانوا يجربون لأول مرة أن يضعوا المعاجم.

والذي نود أن نختم به هذا الحديث المختصر عن الأثر الذي تركه في اللغة هذا الانتشار الواسع وفي فترة قصيرة نسبيًا، هو الناحية الأخرى أو الوجه الآخر من هذا الأثر، وهو ما الذي تركته اللغة العربية في لغات الأقوام الذين إتصلوا بها. ولن نطيل الكلام في ذلك الآن، إذ لنا إلى الموضوع عودة، فاللغة الفارسية التي كانت من قبل لغة أدب والتي إختفت عن الميدان بعض الوقت، عاد اليها دورها الهام منذ القرن الرابع / العاشر. لكنها لما عادت هذه المرة كانت قد أضافت مِئات الكلمات العربية إلى قاموسها. ومثل ذلك يقال في لغات أخرى كما سنرى. وأفادت اللغة العربية بعد اتصال الأتراك بها فيما بعد بأن حَفِلت بالتعابير الإدارية، خاصة أيام المماليك.

النثر العلمي يتم نضجه

رأينا أن تاريخ اللغة العربية في القرون الأربعة التي تلت قيام الدولة العربية الإسلامية من حيث أنها أداة «للتعبير» يتألف من سلسلة تحديات واستجابات لهذه التحديات. قد كانت نتيجة كل تحد واستجابة «تفجرًا داخليًا» في اللغة يعطيها طاقة جديدة ومدى جديدًا تستطيع بهما أن تنطلق نحو آفاق واسعة للتعبير عما يطلب منها. ويجب أن نذكر بأن ما وضع من تفسير للقرآن الكريم أول العهد بهذه المحاولة، قبل أن يصبح التفسير علمًا بالمعنى المتعارف عليه، كان بحد ذاته استجابة لتحد. فما جاء في محكم الكتاب من تبيان للعقائد ومن إشارات مقتضبة إلى أمور كثيرة اقتضى من الذين تصدوا لتفسيره أن يُكسبوا الكلمات معاني جديدة لتؤدي الغاية من العمل. ولما نقلت إلى العربية مآثر لُغى الآقوام الأخرى في العلم والفلسفة، استجابت اللغة العربية لتحدٍ جديد مفجّرة طاقاتها مجددًا كي تتقبل دلالات جديدة عليها، نُقلت اليها من عالم آخر. على أن هذا التفجر الداخلي في الطاقات في اللغة العربية الذي نجم عن الترجمة تبعه تفجر ثالث لما أخذ العرب والمسلمون يكتبون في العلم والفلسفة، فضلاً عن الطب والفلك وما إلى ذلك. فللترجمة والنقل دور ، لكن للتأليف والوضع دور آخر. وكان هذا يتطلب شيئًا جديدًا: فإن الذي لا يجب أن يغرب عن البال هو أن استعمال الطاقات الجديدة كان فيه قيد. ذلك أن التأليف في الفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية والرياضيات يقتضي دقة في التعبير، وهذا يعني تخيرًا في الألفاظ وعناية بانتقاء المصطلحات واهتمامًا بتركيب الجمل. فإذا لم يقيد الكاتب نفسه وسار شططًا شأن الشاعر أو القاص القديم، غابت الحقيقة بين تضاعيف المفردات الخاطئة والتراكيب اللغوية الفضفاضة.

وهذا الأمر على غاية الأهمية. وقد سار العمل هنا على خطين متوازيين متكاملين. ففيما اقتضت التحديات الجديدة خلق ألفاظ ومفردات ومصطلحات تؤدي المعاني الجزئية ، اقتضت الاستجابة للتأليف في العلم والفلسفة اللجوء إلى الأسلوب الدقيق المحدد. وقد استجابت العربية إلى هذا، استجابة تدعو إلى الإعجاب. وقد تم ذلك للعربية لأن أهلها كانوا يومها يملكون الأمور والأشياء التي يُحتاج إلى توضيحها وتفسيرها والإبانة عنها. فاللغة بأهلها.

ونحن نريد أن ندلل على هذا الذي أجملناه في قضية التحدي والاستجابة في

ميادين الفلسفة والعلوم. ولنبدأ بالكندي (حول ١٨٥ ـ ٢٥٢ / ٨٠١ ـ ٨٦٧ م) الذي قال فيه عبد الهادي أبو ريدة: «إن إقبال هذا العربي الصميم على دراسة العلوم الفلسفية التي كان نقلها للمسلمين والعناية بها شأن غير العرب وغير المسلمين، هذا إلى استقلاله في ألرأي الشيء الذي يتجلى في نقده لآراء الفلاسفة، كان مثالاً مشجعًا للعرب والمسلمين لأن ينتقلوا إلى معالجة هذه الأمور، وبذل الجهد الكبير في فهم نظرياتها، وإدخال الاصطلاحات الدالة عليها... ولا شك في أن الكندي كان ممهدًا ومؤسسًا انتفع بجهوده من جاء بعده في الشرق والغرب أيضًا».

والتأسيس الذي ذكر هنا يقصد به أن الرجل وضع رسالة خاصة، ولو أنها صغيرة، باسم **في حدود الأشياء ورسومها**. ويعتبر دارسو تاريخ الفكر العربي الفلسفي هذه الرسالة إنها «أول كتاب في التعريفات الفلسفية عند العرب، وأول قاموس للمصطلحات عندهم وصل إلينا»، على حد ما قاله الدكتور أبو ريدة نفسه. وأنا أود أن أنقل نماذج من هذه المصطلحات لتوضيح المعنى المقصود مما قيل. يقول الكندي: «العلة الأولى ـ مبدعة فاعلة متممة الكل وغير متحركة». والذي يقصده الكندي بذلك هو الله تعالى اي انه هو العلة الاولى، وكلمتا «علة وأولى» لم تكونا من اختراع الكندي أو معاصريه من الفلاسفة، فهما كلمتان معروفتان قبل أيامه. ولكن استعمال الكلمتين معًا «العلة الأولى» للدلالة على الله جاء نتيجة للبحث في الوجود والموجد بشكل جديد على العربية. ويعرّف الكندي «الجرم» بأنه ما له ثلاثة أبعاد. والفكرة التي تحملها هذه الكلمات مجتمعة هي المستحدثة في اللغة العربية على يد الكندي. ويقول عن الجوهر «إنه هو القائم بنفسه، وهو حامل للأعراض لم تتغير ذاتيته، موصوف لا واصف، ويقال هو غير قابل للتكوين والفساد». ويعرّف التوهم بأنه «قوة نفسانية مدركة للصور الحسية مع غيبة طينتها» والتوهم عند الكندي ومعاصريه ولا حقيه ترجمة لكلمة يونانية هي «فنطاسيا». ويقبل الكندي أحيانًا الكلمة اليونانية بعد أن يعربها، أي بعد أن يعطيها شكلاً عربيًا" مثل الأسطُقّس، وهي مساوية للأصل أو العنصر أو الجزء الذي يتكون منه الشيء ويرجع إليه منحلاً، وفيه الكائن بالقوة. وهو عنصر الجسم وأصغر الأجزاء من جملة الجسم».

ونجده أيضًا يعمد إلى كلمات عربية قديمة فيستعملها، مثل كلمة «الأيس» للدلالة على الموجود بالإجمال، ثم يجمعها على أيسات للدلالة على الموجودات ثم يشتق منها لفظة «الأيسية» للدلالة على حالة الوجود. ويعمد أحيانًا إلى صياغة كلمات جديدة مثل «الهوية» فقد أخذ الضمير «هُو» فأضاف إليه «أل» التعريف واستعمله بمعنى «الهوَ»، ثم صنع منه مصدرًا فصار «الهو»، ومن الكلمات التي تكلم عليها في الرسالة بالذات الفلسفة» ومعانيها.

والفارابي (حول ٢٥٩ ـ ٣٣٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٩٥٠م) وهو فيلسوف آخر وضع رسائل

فلسفيّة كانت ذات أثر كبير في تطوير الحياة الفكرية ونموها، وكتب في العلوم الرياضية وأتقن المنطق وعلوم الحكمة (أي الفلسفة) والموسيقا. ولكن الذي يهمنا هنا كتابة **إحصاء العلوم** وهو كتاب صغير يشغل سبعًا وسبعين صفحة من القطع الصغير.

وقد قال في توطئته لهذا الكتاب: «قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علمًا علمًا، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها، وأجزاء كل ما له أجزاء وجمل في كل واحد من أجزائه... وينتفع بما في هذا الكتاب الإنسان إذا أراد أن يتعلم علمًا من العلوم ، وينظر فيه، علم على ماذا يقدم، وفي ما ينظر، وأي شيء سيفيد نظره، وما غناء ذلك، وأي فضيلة تنال به، ليكون إقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة، لا على عمى وغرور».

وفي رأي الفارابي أن الإنسان بحاجة إلي جملة من القوانين التي من شأنها أن تقوّم العقل وتسدد خطى الإنسان في طريق الصواب، جاء المنطق ليقدِّم للدارس هذه القوانين التي يحتاجها. ويقول: «إن القوانين المنطقية التي هي آلات يمتحن بها من المعقولات ما لا يؤمن أن يكون العقل قد غلط فيه أوقصّر في إدراك حقيقته تشبه الموازين والمكاييل التي يمتحن بها كثير من الأجسام... وكالمساطر التي يُمتحن بها في الخطوط».

وكما عرّفنا الكندي بالمصطلحات الفلسفية والفارابي بمحتويات العلوم، وضع لنا الرازي (من أهل القرنين الثالث والرابع للهجرة/ أي القرنين التاسع والعاشر للميلاد) تعابير ومصطلحات طبية وفسّرها لمعاصريه. «فجرم العرق» هو حالة جدار الشرايين، والانبساط والقبض» في النبض خلوه وامتلاؤه. ولنقابل بين معنيين لكلمة واحدة هي «المماسة». فالكندي الفيلسوف يعرفها بقوله «وتوالي جسمين ليس بينهما من طبيعتهما ولا من طبيعة غيرهما إلا ما لا يدركه الحس».. أما الرازي الطبيب فيقول: المماسة هي اختلاط الحديد والطباشير». ويقارنها الرازي بالممازجة التي هي اختلاط السكر والماء.

ولننتقل الآن إلى اقتباس نموذج للكتابة العلمية كي يتضح المقصود من قولنا بأن النثر العلمي له أسلوبه الخاص، كما أنه له مفرداته الخاصة به. فابن الهيثم إذ يتحدث عن الارتباط بين الضوء والأجسام يقول:

«وطبيعة صغار الأجزاء وكبارها واحدة ما دامت حافظة لصورتها. فالخاصة التي تخص طبيعتها تكون في كل جزء صغُر أم كبر، ما دام على طبيعته وحافظًا لصورته... إن الأجزاء الصغار من الجرم المضيء يلزم فيها أيضًا هذه الحال. وإن تعذر اعتبارها على انفرادها، وخفي ضؤوها منفردًا عن الحس، فإنما لقصور الحس عن إدراك ما هو غاية الضعف... وأيضًا فإنه يلزم في الأضواء العرضية التي تظهر في الجسام الكثيفة

أن يكون كل جزء فيها وإن صغر الضوء يشرق منه في جميع الجهات، وإن تعذر اعتبار الأجزاء الصغار على انفراد وخفيت أضواؤها عن الحس لأن كل واحد من هذه الأضواء هو طبيعة واحدة، ولا فرق بين الأجزاء الكبار منها وبين الأجزاء الصغار في الكيفية، وإنما الفرق بينهما في الكمية. فالذي يعرض عن الأجزاء الكبار من جهة كيفيتها يلزم في كيفية صغار الأجزاء ما دامت حافظة لصورة نوعها. فإذا لم يظهر ضوء الأجزاء الصغار للحس منفردًا، أو لم يقدر على تمييزه منفردًا، فلقصور الحس عن إدراك ما تناهى في الضعف والصغر».

والبيروني (٣٦٢ ـ٤٤٠هـ / ٩٧٣ ـ ١٠٤٨) يعتبر اللغة العربية اللغة الوحيدة، ، بين لغات عصره ومنها الفارسية والتركية،التي يمكن أن تتسع لعلم أو فلسفة. وكان الرجل من أسياد القلم حقًا. وأسلوبه نموذج لما يمكن للعربية ان تتسع له إذا كان عند أهلها ما ويحتاج فيه إلى توسيع اللغة. وفي كتابه المسمى، **القانون المسعودي** ، وهو كتاب في الفلك والتنجيم، يبدأ المؤلف بمناقشة ما ورد عن هيئة السماء وشكل الأرض ومكانها في الكون وحجمها بالنسبة إليه وأنواع حركات الاجرام السماوية. والفقرة التالية يناقش البيروني فيها بعض آراء لبطليموس تتعلق بكروية السماء. يقول البيروني:

«ثم استدل بطليموس على كريّة السماء بقياسات طبيعية، ومن الطرق الأولى مأخوذ؛ لكل صناعة منهج وقانون لا يستحكم فيه ما هو خارج عنها. ولذلك كان ما أورده مما هو خارج عن هذه الصناعة اقتناعياً غير ضروري، ما وجدنا إلى الصناعة سلمًا ثابتًا على مناهجه لم ينحرف عنه إلى ما هو خارج من طرقة ومدارجه. فمما ذكر وجود السلاسة في حركة الكرة أكثر. وهي لعمري كذلك في كل متحرك على محوره، والكرة مع سائر الأشكال المجسمة في ذلك شرع واحد . لأن هذه الحالة تلزم من جهة المحور دون الشكل. ومنها فضل الكرة على سائر الأشكال المضلعة في العظم والسعة، ثم إحاطة السماء بما في ضمنها. فهي لذلك كرة. وهذا مطرد في الأشكال التي تساوي محيطاتها محيطات الكرة بالمساحة، وليس بمانع من احاطة شكل مستقيم السطوح بالكرة إذا فضلت مساحة إحاطته، وتكون حركتهما معًا على محور واحد».

والبيروني زار الهند وقضى بعض الوقت هناك، وقد تعلم اللغة السنسكريتية، وهذا مكنه من التعرف إلى مآتي الهند الفكرية.وكتابه يسمى اختصارًا **كتاب الهند** قدم له بعبارات كان يريد منها أن يبين أنه يكتب عن معرفة. قال في المقدمة." «إنما صدق القائل ليس الخبر كالعيان، لأن العيان إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله. ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر، لقصورهما على الوجود الذي لا تتعداه آفات الزمان... فمن مخبر عن أمر كذب يقصد

فيه نفسه، فيعظم بني جنسه ويزري بخالف جنسه، وإن كلا هذين من دواعي الشهرة والغضب المذمومين . ومن مخبر عن شيء متقربًا إلى خير بدناءة الطبع أو متقيًا لشر من فشل أو فزع. ومن مخبر عن شيء طباعًا كأنه محمول عليه، غير متمكن من غيره وذلك من دواعي الشرارة وخبث مخابىء الطبيعة. ومن مخبر عن شيء جهلاً، وهو المقلّد للمخبرين... وليس الكتاب هذا حِجاجًا وجدلاً حتى أستعمل فيه بإبراز الخصوم ومناقشة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورد كلام الهنود على وجهه وأضيف إليه ما لليونان من مثله لتعريف المقارنة بينهم. فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق، فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز نحلتهم، ومواصفات ناموسهم. ولا أذكر من كلامهم كلام غيرهم إلا أن يكون للصوفية أو أحد أصناف النصارى، لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد».

في هذه الفقرة يوضح البيروني رأيه في قضية الخبر والعيان. فيبين المشكلات التي تجعل الخبر موضعًا للشك: كذب المخبر، أو التقرب بسبب دناءة الطبع، أو جهل المخبر لأنه يقلد الآخرين. ثم يصف كتابه. وقد اخترنا هذه الفقرة لأنها نموذج للكتابة العلمية من حيث توضيح أهداف الكتاب.

هذه النماذج تعطينا فكرة عن استجابة العربية للتحديات بأن تفجّرت داخليًا لاحتواء الأفكار الجديدة ثم طورت أساليبها لتعبّر عن مادة جديدة.

الشعر العربي يتجمّل ويتعمّق

انتقل الشعر العربي القديم من البادية إلى المدن الجديدة وإلى المجتمعات الجديدة التي نشأت مع قيام الدولة العربية الإسلامية وتمصير الأمصار وبناء المدن. وهذه الحضارة الجديدة كانت لها نواحيها المختلفة ومجالاتها المتعددة - فالحياة فيها ذات زخم وتنوع، وهذان يتأثران بالفكر العلمي والفلسفة والتصوف، كما أنهما يؤثران في تنقل الناس ورحيلهم وهجرتهم في أجزاء الدولة الواسعة. ومن ثم فقد خُلقت صور جديدة. وهذه الصور الجديدة كان لا بد من التعبير عنها بجميع الوسائل والأساليب التي يملكها العربي للتعبير عن نفسه. ومع أن الشعر انسحب من الميدان التعبيري بعض الوقت أيام الرسول (ص) وخلفائه الأولين، فإنه لم يترك الميدان نهائيًا. ولذلك لما عادت للشعر دولته وجد نفسه يتربع في عروش أقيمت له في المدن، ولكنه لم يهجر البادية نهائيًا.

وقد يكون التحدي الذي قابلته اللغة العربية فى المجال الشعري أخف وطأة مما لقيت في النثر العلمي خاصة. ذلك لأن الشعر لما استجاب لهذا التحدي وجد الأداة والآلة متقنة الصنع ، وهي التي أجاد الشاعر نظم الشعر بها أيام الجاهلية. إلا أن عمل الشاعر في الجو الجديد، كان يدور حول المعاني الجديدة التي دخلت على بعض الألفاظ الأصلية. ولعل المجال الذي يبدو فيه هذا الأمر أوضح من غيره، هو المجال الصوفي. «فإن عناصر المثالية التي ظهرت في صور ذلك الحب الروحي العلوي إنما كانت تستخدم في التعبير المجازي عن هذا الحب الروحي اللانهائي للمحبوب. وقد كان يسيطر على شعر المتصوفة تصور حسي جريء». ومع أن شعر ابن الفارض (القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد) معروف للقراء، فإننا ننقل هنا بضعة أبيات من قصيدة له للتذكير بالمعنى الذي تحمله في ضوء الملاحظة السابقة قال:

زدني بفرط الحب فيك تحيرا ... وارحم حشى بلظي هواك تسعّرًا
وإذا سألتك أن أراك حقيقةً ... فاسمح،ولا تجعل جوابي لن ترى
إن الغرام هو الحياة فمت به ... صبًّا فحقك أن نموت وتُعذرا
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سر أدقٌّ من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرةً أمّلتها ... فغدوت معروفا وكنت منكَّرا
فدهشتُ بين جماله وجلاله ... وغدا لسان الحال عني مُخبرا

واكتسب الشعر العربي رقة وعذوبة. وقد يقال إن ذلك كان تطورًا في أسلوب الشعر فقط، ونحن إن كنا لا نفرّق كثيرًا بين المفردات وتركيبها وأسلوب استعمالها لغويًا، فإننا نود أن نلفت إلى المعاني التي أصبحت الكلمات تحملها بسبب هذه الحياة الجديدة. وها أنا أنقل مقطوعة قصيرة فيها الرقة والعذوبة واللفظ الجميل والأسلوب الحي.

ربَّ ورقاءَ هتوفٌ في الضُّحى ... ذاتِ شجو صدحت في فَنَنِ
ذكرتْ إلفاً ودهرًا سالفاً ... فبكت حزنًا فهاجتْ حَزَني
فبكائي ربما أرّقها ... وبُكاها ربما أرّقني
ولقد تَشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها ... وهي أيضًا بالجوى تعرفني

والقراء يعرفون الكثير عن الشعر الغزلي الذي خلّفه لنا شعراء الحجاز الغزلون الذين عاصروا الأمويين، ولكننا نكتفي بأن نذكر أنفسنا بالبون الشاسع، في المحتوى والطريقة بين الشعر الجاهلي وهذا الشعر الإسلامي المبكر، مع أنهما صنعا في المكان نفسه. لكن الفرق كان فرق الزمان وما تم في هذه الفترة التي كانت نحو القرن الواحد.

وسجلُّ الشعراء الفحول عند العرب في هذه الفترة الزمنية الحضارية حافل. وهناك من افتخر ومن تغزل ومن تفلسف إلى غير ذلك، وهناك من نبغ في أكثر من فن أو صنّف في أكثر من فن من فنون الشعر وأصنافه، ونحن لا ننوي هنا أن نتحدث عن الشعر حديثاً طويلا ولا حتى حديثًا قصيرًا. كل ما نرمي إليه هو أن نضع بضع مقطوعات لعدد ضئيل جدًا من الشعراء لنبين بعض ما طرأ على الشعر من تجمّل وتعمق. ولا بد، في ما أرى، من أن ننقل شيئا للمتنبي. له من قصيدة في وصف شِعب (وادي) بُوان ، قال:

مغاني الشِّعب طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمّان
طبَتْ فرسانَنا والخيلَ حتى ... خشيتُ، وإن كرُمنَ، من الحرانَ
غدونا تنفضُ الأغصانُ فيه ... على أعرافِها مثلَ الجُمانِ
فسرتُ وقد حجبنَ الشمسَ عني ... وجئن من الضِّياءِ بما كفاني
وألقى الشرقَ منها في ثيابي ... دنانيرًا تفرُّ من البنانِ
لها ثمرٌ تشير إليك منها ... بأشربةٍ وقفنَ بلا أوانِ
وأمواهٍ يصلُّ بها حَصاها ... صليلَ الحَلْي في أيدي الغواني

والشعر الغنائي الذي ملك على الناس قلوبهم بأشكاله المتنوعة، قد يجنح نحو التقليد، فيكون محتواه الفخر والمديح ولكنه يُصاغ بلغة فيها جدة وأسلوب فيه تفتّح. ولنعد إلى المتنبي ثانية ،ولنختر له أبياتاً من قصيدة طويلة.

تغرّبَ لا مُستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حُكما
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة ولا واجدًا إلا لمكرمة طعما
وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا ،إذا شئتِ فاذهبي ويا نفسُ زيدي في كرائهها قُدْما
فلا عبرت بي ساعةٌ لا تعزّني ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلما

وأود أن أعتذر للقراء إن أنا قدمت لهم مقطوعة ثالثة للمتنبي ولكن، فضلاً عن إعجابي به، فإن هذه القطعة ، التي حفظتها تلميذًا سنة ١٩٢٢، لها في نفسي مكانة خاصة، فضلاً عن أنها في منتهى الرقة شعورًا وغاية الدقة وصفًا. فقد مرض المتنبى وهو في مصر ، ولعله أصيب بالملاريا، فوصف حاله في قصيدة هذه بعض أبياتها:

أقمتُ بأرض مصر، فلا ورائي تخبُّ بي الركاب، ولا أمامي
وملّنيّ الفراشُ وكان جنبي يملُّ لقاءه في كل عام
قليلٌ عائدي سقِمٌ فؤادي، كثير حاسدي، صعبٌ مرامي
عليل الجسم، ممتنع القيام شديد السُّكر، من غير المُدام
يقول لي الطبيب أكلت شيئا وداؤك في شرابك والطعامِ
وما في طبه أني جوادٌ أضرَّ بجسمه طول الجمامِ
فأمسك لا يُطالُ له فيرعى ولا هو بالعليق ولا اللّجامِ
وزائرتي كأنَّ بها حياءً فليس تزور إلا في الظلامِ
بذلتُ لها المطارفَ والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلدُ عن نفَسي وعنها فتوسعه بأنواع السِّقام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعةٍ سجام

وثمة شعراء فحول من عصرالمتنبي. منهم أبو تمام الذي رأينا أن ننقل له مقطوعة عن أسس الكرامة والكرم:

قد علمنا أن ليس إلا بشقٍّ الـ نفس صار الكريم يدعي كريما
طلبُ المجد يورث المرءَ خبْلاً وهموما تقضقضُ الحَيْزوما
فتراه وهو الخليُّ شجيًّا وتراه، وهو الصحيحُ، سقيما
تيَّمته العلى فليس يعدُّ الـ وُس بؤسًا ولا النعيم نعيما

وقد كان للثقافة العربية في العالم الإسلامي وشائج قربى على بعد الدار، فكان للأندلس في الشعر نصيب لا يستهان به . والباحثون مجمعون على أن الفنون الشعرية ازدهرت هناك، على نحو ما ازدهرت في المشرق ، لكنها أنتجت شعرًا فيه استقلال وفيه نفحة من الرقة خاصة. فلعل التآلف بين العناصر العربية والإسبانية في السكان

كان له في ذلك أثر. فالمحتوى الشعري الأندلسي وأسلوب التعبير لهما طرق خاصة. وقد أنتجت العبقرية الشعرية هناك الموشحات. ومن ألطف الموشحات الأندلسية واشيعها موشح لسان الدين ابن الخطيب من أهل القرن الثامن التاسع للهجرة / الرابع عشر- الخامس عشر للميلاد الذي يقول فيه:

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما ... في الكرى، أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات المنى ... ينقل الخطو على ما ترسم
زمرًا بين فرادى وثُنى ... مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروضَ ثنا ... فشعور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعْلما ... يزدهي منه بأبهى ملبسَ

• • •

في ليالٍ كتمت سرَّ الهوى ... بالدجى، لولا شموس الغرر
مال نجمُ الكأس فيها وهوى ... مستقيمَ السيرِ سعدَ الأثرِ
وطرٌ ما فيه من عيب سوى ... أنه مَرَّ كلمح البَصرِ

وليسمح لي القراء بأن أنقل مقطوعتين في وصف الشيخوخة والشيب: الأولى من المشرق والثانية من الأندلس (وهذه لابن زهر) وقد جاء في الأولى قول الشاعر:

ذهب الشباب فلا شبابَ، جُمانا ... وكأن ما قد كان لم يكُ كانا
وطويت كفى، يا جمان، على العصا ... وكفى جُمانَ بطيِّها حَدَثانا
يا من لشيخ قد تخدّد لحمُه ... أفنى ثلاثَ عمائم الوانا
سوداءَ حالكةً، وسحقَ مفوّف ... وأجَدَّ لونًا بعد ذاك هجانا
صحب الزَّمان على إختلاف فتونه ... فأراه منه كراهةً وهوانا
قصر الليالي خَطْوَهُ فتدانى، ... وحَنَوَن قائمَ صلبه فتحانى
والموت يأتي بعد ذلك كله ... وكأنما يعنى بذاك سوانا

أما المقطوعة الثانية فهي:

إني نظرت إلى المرآة إذ جُلِيَتْ ... فأنكرتْ مقلتاي كلَّ ما رأتا
رأيت فيها شُيخاً لست أعرفه ... وكنت أعهده من قبل ذاك فتى
فقلت: أين الذي بالأمس كان هنا؟ ... متى ترَّحل عن هذا المكان متى؟
فاستضحَكتْ ثم قالت وهي معجبةٌ ... إن الذي أنكرَتْهُ مقلتاكَ أتى
كانت سليمى تنادي يا أُخَيَّ وقد ... صارت سليمى تنادي يا أبتا

ولعل ثمة مدعاة للتساؤل عن مدى انتشار الروح الشعرية بين طبقات الشعب استمتاعًا بالشعر ونظمًا له؛ وهل كان هناك إستعداد عقلي وقلبي للتأثر بهذا الشعر الذي كان يسير على ألسنة الشعراء؟ أم هل ظل الشعر محصورًا في البلاط أصلا، وقد يتسرب منه فتات الى الخارج؟

لعل أكثر الشعراء كانوا بلاطيين من حيث تكسبهم. فالبلاطات كانت الأماكن الوحيدة التي تتيح لهم سبيلاً للعيش، لكن الشعر في هذه العصور الصاخبة لم يكن كله قصائد طوالاً، ولم يكن كله بعيد المنال، ومن ثم فإن المقطّعات القصيرة العاطفية كانت ولا شك تصل إلى الناس، ولعلها كانت تغنّى أيضًا. ولا شك في أن اتصال الشعراء بالعامة كان يختلف من مكان إلى آخر.

وإذا أراد الواحد منا أن يقرأ شعرًا فيه عمق الفلسفة وتردد التشكك؛ والغوص على المعاني البعيدة، فعليه أن يرجع إلى المعري، وليتغن - موسيقيًا - وليفكر عمقاً عندما يقرأ مرثيته المشهورة:

غير مجد في ملتي واعتقادي	نوح باكٍ ولا ترنم شادي
وشبيهٌ صوت النَّعيِّ إذا	قيس بصوت البشير في كل نادي
صاح هذي قبورنا تملأ	الرَّحب من عهد عادِ
ودفينٍ على بقايا دفينٍ	من سالف الأيام والآبادِ

ألا يمكنك أن تلحن هذه الأبيات فيكون لديك صلاةٌ للموتى!

النثر العربي ينتهي بالمقامات

حول سنة ٦٠٠ للهجرة (أي حول سنة ١٢٠٠ للميلاد) توفي ابن رشد في المغرب. ولعله كان آخر من كتب في الفلسفة بالعربية في ديار العرب والإسلام. وقبل ذلك بقرن أو يزيد كان الشرق العربي فقد اهتمامه بالفلسفة. وكان العرب ـ في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد، قد أنتجوا خير ما كان عندهم في مجال العلوم الطبيعية والرياضية؛ والذي كتب بعد ذلك لم يكن فيه جديد من حيث المحتوى. ومعنى هذا هو أن التفتق العقلي والفكري توقف في هذه الدنيا الواسعة، هذا إذا استثنينا التصوف؛ لكن حتى هذا نجده بعد القرن السابع/ الثالث عشر يتجه إلى اللغة الفارسية.

وإذا كان العقل العربي توقف عند هذا الحد من النتاج، فقد وقف التعبير عند هذا الحد أيضًا. ولم تعد اللغة العربية تتعرض للتحديات كي تستجيب لها. وحتى في مجال الفقه بالذات كان التقليد قد قبل من حيث المبدأ العملي، وأصبح الاجتهاد يدور في دائرة السلفية منذ أيام ابن تيمية على الأخص. ومن هنا فإن نمو اللغة العربية قد توقف عند هذا الحد أيضًا.

ونحن نحاول أن نبحث حتى في القرن السابع / الثالث عشر نفسه عن أدب نثري، تاركين الأدب الفلسفي والعلمي جانبًا، لعلنا نتعرف من خلاله الى تطور لغوي حقيقي، فلا نقع على ما يثير. فالنثر المرسل الذي يمثله كتاب كليلة ودمنة وكتب ابن المقفع الاخرى وما وضعه معاصروه؛ والنثر الذي كتب به الجاحظ في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) والنثر الجغرافي الذي دون فيه البلدانيون أخبارهم ورحلاتهم في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد)؛ هذا النثر المرسل انتهى إلى السجع. صحيح أنه لم يكتب كل شيء سجعًا؛ ولكن السجع كان الدليل على المقدرة اللغوية. وأول ما يمثل السجع الأدبي في مظاهره «المقامات».

والمقامات، بقطع النظر عن أصلها ونشأتها، وبقطع النظر عما يدور حولها من نقاش من حيث اعتبارها محاولة لوضع القصة في اللغة العربية، هي أصلاً ثروة لغوية. ونحن نستطيع أن نضعها مع المحاولات التي قام بها كثيرون لجمع المفردات اللغوية بحيث يمكن للمتعلم الوصول إليها بيسر. وتختلف هذه المحاولة عن المحاولات المعجمية في أنها لم تكن قاموسية الترتيب، كما أنها لم تدر حول موضوع واحد، بل إنها كانت قصصًا تروي أخبار أشخاص. ففيها شيء من المتعة واللذة من النوع الذي

تحصل عليه دون إرهاق، إذ لا عمق فكريًا فيها. وقد يزوَرُّ الكثيرون الآن عند قراءتها، ولكنها كانت لمعاصري كتّابها متعة على ما يبدو. ومن الطريف أنه لما أراد بعض الكتاب في ديار العرب من أهل القرن الماضي أن يضعوا بين أيدي المتعلمين كتباً تجمع مفردات اللغة حول شيء شائق، اعمدوا إلى المقامات بالذات فقلدوها. من خير الأمثلة على ذلك «**مجمع البحرين**» للشيخ ناصيف اليازجي اللبناني و«**حديث عيسى بن هشام**» لمحمد المويلحي المصري.

وعلى كثرة من كتب في المقامات فإن النقاد، على توالي الزمان، اعتبروا اثنين منهما على أنهما طليعة هؤلاء الكتاب، وهما بديع الزمان الهمذاني من أهل القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) والقاسم بن علي الحريري المتوفي سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م. وقد جاء في كتاب «المختار من النثر العربي في العصر العباسي» الذي صنّفه الدكتوران جبرائيل جبور ومحمد نجم، قولهما عن الهمذاني:

«وتعتمد شهرة البديع في الأدب على رسائله ومقاماته، وهذه الثانية تعد نوعًا جديدًا من الكتابة ابتكره البديع، وتدور القصة التي تشملها المقامة على شخصين: أحدهما عيسى بن هشام، وهو شخصية تاريخية، وكان رجلاً إخباريًا روى عنه البديع. والثاني أبو الفتح الإسكندري، وهو يمثل شخصية المكدّي الذي يذكرنا بشخصية خالد ابن يزيد عند الجاحظ، لأنه يجمع بين الكذبة والقصص، أي الكذبة بأسلوب بليغ. وأكبر الظن أن البديع لم يخترع هذه الشخصية اختراعًا، بل ان أبا الفتح كان مكديًا من مكدّيي القرن الرابع، نحله البديع الكلام البليغ مشاكلاً في ذلك طريقة الفصحاء من قصّاص المكدّين».

ويقول المصنفان نفسهما عن الحريري:

«يعتبر [الحريري] آخر كاتب ظهر في الشرق بعد أبي العلاء. وبه ختمت تلك السلسلة من الكتاب الذين برعوا في صناعة الكلام، وعنوا بتوشية عباراتهم بأنواع السجع والبديع، وأسرفوا في ذلك على أنفسهم وعلى القراء».

ونحن نود أن ندلي هنا برأي حول هذا الذي قاله الصديقان الكريمان. فليس من الإنصاف أن يقرن المعري بالحريري لمجرد أن الرجلين كانا يحسنان انتقاء الألفاظ وتركيبها بشكل مشرق، ويسجعان، دون الإشارة إلى أن المعري لم تكن كتابته مجرد لفظ وتركيب وسجع، فهو من كبار المفكرين العرب على مر التاريخ. أما الحريري فاذا عُصرت مقاماته لم تحصل منها على ما ينفع الناس.

ولحمد عطية الأبراشي مقارنة بين الهمذاني والحريري حرية بالنقل هنا قال: «كانت مقامات البديع هي المثال الذي احتذاه الحريري في إنشاء مقاماته، ولكن مقامات البديع قصيرة في الغالب. وعلى الرغم من سبقها، لم تشتهر اشتهار مقامات الحريري ولم تنل مثل منزلتها في تقدير الأدب والأدباء، وإن كانت تفضلها في عدم

التكلف. أما الأفكار في مقامات البديع فضيّقه محدودة، ليس فيها أثر كبير لخيال الروائيين الذي يظهر واضحًا في مقامات الحريري. فقد كانت عناية البديع باللفظ فوق عنايته بالمعنى، ولكنها على كل لا تخلو من فكاهة أو عبرة... ولا يجد فيها الطالب من الغريب ما يجده في مقامات الحريري، التي قصد بها تعليم اللغة وجمع شواردها وإحياء غريبها. ولذلك كثر فيها التعمق اللغوي... فجمال هذه المقامات في ألفاظها، وإيجازها أما الأفكار فيها فليست كثيرة».

وها نحن أولاً ننقل هنا واحدة من مقامات الحريري وهي «المقامة الكرجية ». يقول الحريري:

حكى الحارث بن همام قال: شتوت بالكرج لدين أقتضيه وأرب أقضيه، فبلوت من شتائها الكالح، وصرِّها النافح؛ ما عرّفني جهدَ البلاء وعكف بي على الإصطلاء. فلم أكن أزايل وجاري، ولا مستوقد ناري، إلا لضرورة أُدفَعُ إليها، أو اقامة جماعة أحافظ عليها، فاضطررت في يوم جوه مزمهرٌ ودجنه مكفهر، إلى أن برزت من كناني لمهم عناني. فإذا شيخ عاري الجلدة، بادي الجردة، وقد اعتم بريطة، واستثفر بفويطة وحواليه جمع كثيف الحواشي، وهو ينشد ولا يحاشي:

يا قوم لا ينبئكم عن فقري ... أصدق من عُريي أوانَ القُرِّ
فاعتبروا يما بدا من ضُرّي ... باطن حالي وخَفي أمري
وحاذروا انقلاب سَلمَ الدهر ... فإنني كنت نبيه القدر
أوى إلى وفر وحدٍّ يفري ... تفيد صُفري وتُبيد سُمري
وتشتكي كومي غداة أُقري ... فجرَّد الدهر سيوف الغدر
وشن غارات الرزايا الغُبر ... ولم يزل يسحُتني ويَبري
حتى عفت داري وغاض دَرّي ... وبار سعري في الورى وشِعري
وصرت نضْوَ فاقة وعسر ... عاري المطا مجردا من قشري
كأنني المِغزل في التعري ... لا دفءَ لي في الصِّن والصِّنَّبر
غيرُ التضحي واصطلاءِ الجمرِ ... فهل خِضمٌّ ذو رداء غَمر
يستُرُني بمُطرَفٍ أو طِمْرِ ... طِلابَ وجهِ الله لا لشكري

ثم قال: يا أرباب الثراء، الرافلين في الفِراء، من أوتي خيرًا فلينفق، ومن استطاع أن يرفق فليرفق. فإن الدنيا غرور، والدهر عثور، والمُكنة زورة طيف، والفرصة مزنة صيف، وإني والله لطالما تلقيت الشتاء بكافاته، وأعددّت الأهَبَ له قبل موافاته. وها أنا اليوم ياسادتي، ساعدي وِسادتي ،وجلدتي، بُردتي، وحفتني جَفْنتي. فليعتبر العاقل بحالي. وليبادر صرف الليالي. فإن السعيد من اتَّعظ بسواه. واستعد لمسراه. فقيل له: قد جلوت علينا أدبك، فاجلُ لنا نسبك. فقال: تبًا لمفتخر، بعظمٍ نخر، إنما الفخر

بالتقي، والأدب المنتقي، ثم أنشد:

لعمرك ما الإنسان إلا ابنُ يومه على ما تجلّى يومُه لا ابنُ أمسِه
وما الفخر بالعظم الرَّميم وإنما فَخار الذي يبغي الفخار بنفسه

ثم انه جلس محوقفًا واجرنثم مقفقفًا وقال: اللهم يا من غمر بنواله، وأمر بسؤاله، أعني على البرد وأهواله، وأتح لي حرًا يؤثر من خصاصة، ويؤاسي ولو بقصاصة. قال الرواي: فلما جلّى عن النفس العصامية، والملح الأصمعية، جعلت ملامح عيني تعجمه، ومرامي لحظي ترجمه، حتى استثبت أنه أبو زيد. وإن تعريه أحبولة صيد، ولمح هو أن عرفاني قد أدركه، ولم يأمن أن يهتكه. فقال: أقسم بالسمر والقمر، والزُّهر والزَّهر، إنه لن يسترني إلا من طاب خيمُهُ وأشرب ماء المروءة أديمه. فعقلت ما عناه، وإن لم يدر القوم معناه، وساءني ما يعانيه من الرعدة واقشعرار الجلدة، فعمدت لفروة هي بالنهار رياشي وفي الليل فراشي، فنضوتها عني؛ وقلت له: إقبلها مني. فما كذَّب ان افتراها. وعيني تراها. ثم أنشد:

للهِ مَن ألبسني فروة أضحت من الرعدة لي جُنه
ألبسنيها واقيًا مهجتي وُقّي شرَّ الإنس والجنّه
سيكتسي اليوم ثنائي وفي غد سيُكتسى الجنّه

قال: فلما فتن قلوب الجماعة بافتتانه في البراعة، ألقوا عليه من الفراء المغشاة والجباب الموشاة، ما آده ثقله، ولم يكد يقلّه. فانطلق مستبشرًا بالفرج مُستقياً للكرج، وتبعته إلى حيث ارتفعت التقية، وبدت السماء نقية فقلت له: لشدة ما قرّسك البرد، فلا تتعر من بعد. فقال: ويك ليس من العدل،سرعة العدل. فلا تعجل بلوم هو ظلم، ولا تخف ما ليس لك به علم فوالدي نورالشيبة وطيب تربة طيبة، لو لم أتعر لرحت بالخيبة وصفر العيبة. ثم نزع إلى الفرار وتبرقع بالإكفهرار. وقال أما تعلم أن شنشنتي الانتقال من صيد إلى صيد، والانعطاف من عمرو إلى زيد، وأراك قد عُقتني وعققتني. وأفتّني أضعاف ما أفدتني. فاعفني عافاك اللّه من لغوك واسدد دوني باب جدك ولهوك. فجبذته جبذا التلعابة، وجعجعت به للدعابة. وقلت له: واللّه لو لم أوارك وأغط على عوارك، لما وصلت إلى صلة. ولانقلبت أكسى من بصلة. فجازني عن إحساني إليك وستري لك وعليك، بأن تسمح لي برد الفروة؛ أو تعرّفني كافات الشتوة. فنظر إليَ نظر المتعجب وازمهر إزمهرار المتغضب. ثم قال: أما رد الفروة فأبعد من رد أمس الدابر والميت الغابر، وأما كافات الشتوة فسبحان من طبع على ذهنك، وأوهى وعاء خزنك. حتى أنسيَت ما أنشدتك بالدسكرة، لابن سُكرَة:

جاء الشتاء وعندي من حوائجه سبعٌ إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كِنٌ وكيس وكانون وكاس طلاً بعد الكباب وكفٌ ناعم وكِسا

ثم قال: لَجوابٌ يشفي، خير من جلباب يدفي، فاكتفِ بما وعيت وانكفي. ففارقته وقد ذهبت فروتي لشقوتي وحصلت على الرعدة طول شتوتي.

ولعل هذا المثل الواحد يكفي للدلالة على ما ذهبنا إليه من أن بضاعة المقامات وما جرى مجراها من الكتابة النثرية، قليلة الأفكار ضيقة المجال . ولأن التحدي الفكري قد انقطع في مجتمع اللغة العربية، فإن اللغة نفسها توقفت عن النمو أي التفتق والتفجر والانطلاق. والأقلام التي كان لا بد لها من شيء تفعله، انصرفت إلى التدوين بهذا الأسلوب المسجوع، ومع الوقت ثقل ظل السجع لأنه كان تقليدًا يقوم به ضعفة الكتّاب.

لم تكسب المقامات اللغة العربية شيئًا يساعد على النمو، لكن قضية جمع الألفاظ فقد تعهد بها الهمذاني والحريري وأضرابهما ، أما السجاعون الآخرون المتأخرون فقد كانوا عالة على هؤلاء.

ونود أن نختم هذا الجزء من حديثنا بملاحظة مهمة. إن الطب والصيدلة وبعض الموضوعات الرياضية ظل من يعنى بها ويكتب فيها. لكن هذه كانت ألفاظها وأساليبها قد اتخذت شكلها الفني العلمي الدقيق، فلم يكن باستطاعة العلماء المتأخرين أن يضيفوا شيئًا جديدًا للغة.

ونحن إذا التفتنا إلى الشعر وجدنا أن النظم لم يتوقف العمل به. فقد ظل الشاعر، الناطق باسم السلطان أو الناقد للسلطان، أي الناطق باسم الجمهور (إذا تمكن من ذلك). والمهم أن الشعر ظل يُنظم ويُروى ويُنقل من مجتمع إلى مجتمع. وفي هذه الفترة التي عرضنا فيها للنثر المسجوع وما إليه، أصاب الشعر ما أصاب النثر. بل ثمة أمر مهم جدًا تنبه له الدكتور بكري (شيخ) أمين في كتابه **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني** فقال:

«إنهم [الشعراء] في العصور الأولى من الجاهلية إلى الحقبة الثالثة من العصر العباسي كانوا محدودي العدد، يمكن أن يحصوا ويعرفوا، أما شعراء الحقبة الرابعة من الحكم العباسي ـ ونعني بها زمن حكم السلاجقة والفاطميين والأيوبيين ـ كذلك العصر المملوكي والعثماني، فإنهم من الكثرة بحيث يعز على باحث أن يحصيهم عدًّا».

ويعلل الدكتور أمين هذه الظاهرة بقوله ان بواعث الشعر ظلت متوافرة في تلك الأزمنة وأصبح نظم الشعر سهلاً كما أنه صار سطحيًا ركيكًا. وأصبح الشعراء يقولون الشعر على أنه نوع من الكلام. والواقع أن بعض هذا الذي أوجزناه مما قاله الدكتور أمين يحتاج إلى توضيح، لذلك فإننا ننقل هنا عبارته كاملة . قال إن من بواعث كثرة الشعراء سهولة نظم الشعر وتدني مفهومه آنذاك. فنظم القصيدة غدا ظُرفًا... بل إنه أصبح «زيا» أو«موضة»، يتوجب على الرجل الأنيق أن يتبعها... ليكون له مكانته في السلم الاجتماعي المحترم... ومنها السطحية والسهولة بل الركاكة التي

انحدر إليها الشعر. فنحن لا نجد بين تلك الأسماء اللامتناهية شاعرًا مثل قمة من القمم، كما نجد في العصور السالفة...

«صار يكفي الشاعر أن يستقيم بين يديه الوزن ليصب فيه فكرة عابرة، أو عاطفة باهتة ، أو بارقة من بارقات الخيال، أو نكتة طريفة فيخرج ببيت أو بيتين أو عدة أبيات».

والذي نود أن نخلصّ إليه من تقبلنا لهذه الملاحظات، هو أن «عامل التحدي» الذي كان يفرض نفسه على الشعراء الأوائل، من الجاهلية إلى أوائل حكم السلاجقة ومن تلاهم، فيحملهم على الإستجابة نوعًا وأسلوبًا وفكرة، غاب عن الجو الذي وصل إليه المجتمع. لذلك أنتج من الشعر الكثير، لكن القليل منه الذي يهز النفس.

ونرى أن نمثل بعض هذا الشعر أملاً أن يقابل القارىء هذا بالذي مر معنا قبلاً كي يرى مهارة الصناعة عند واحد مثل صفي الدين الحلي من القرن السابع / الثالث عشر (وهو من خير الشعراء) مع قلة البضاعة.

والقصيدة التي اخترناها هي «زهرية» صفي الدين نظمها مرحبًا بالربيع:

ورَد الربيع فمرحباً بوروده	وبنور بهجته ونَوْرِ وروده
وبحسن منظره وطيب نسيمه	وأنيق ملبسه ووشي بروده
فصل إذا افتخر الزمان فإنه	إنسان مقلته وبيت قصيده
يغني المزاج عن العلاج نسيمُهُ	باللطف عند هبوبه وركوده
يا حبّذا أزهاره وثمارُه	ونبات ناجمه وحبّ حصيده
وتجاوب الأطيار في أشجاره	كبناتِ معبد في مواجب عوده
والغصن قد كُسيَ الغلائل بعدما	أخذت يدا كانون في تجريده
نال الصبا بعد المشيب وقد جرى	ماءُ الشبيبة في منابت عوده
والورد في أعلى الغصون كأنه	ملكٌ تحف به سراة جنوده
وانظر لنرجسه الجني كأنه	طرف تنبه بعد طول هجوده
واعجب لآذريونه وبهاره	كالتبر يزهو باختلاف نقوده
وانظر إلى المنظوم من منثوره	متنوعًا بفضوله وعقوده
أو ما ترى الغيم الرقيق وما بدا	للعين من أشكاله وطروده
والسحب تعقد في السماء مآتماً	والأرض في عرس الزمان وعيده
والغيم يحكي الماء في جريانه	والماء يحكي الغيم في تجعيده
فابكر إلى روض الصَّراة وظلها	فالعيش بين بسيطه ومديده

العربية في المعجم والموسوعة

كان بين الأمور التي اهتم به المشتغلون بشؤون اللغة من العرب جمع الألفاظ اللغوية في معاجم. وقد بدأ هذا الأمر في القرن الثاني للهجرة (أي الثامن للميلاد) بعمل الخليل بن أحمد في كتاب **العين**، واستمر العمل في هذا المجال. فوضع ابن دريد **جمهرة اللغة** في القرن اللاحق، وألف الجوهري معجمه **الصحاح** في القرن الرابع للهجرة (العاشرة للميلاد). وتوالى العمل في المعاجم على أيدي الزمخشري في **أساس البلاغة**، والفخر الرازي صاحب **مختار الصحاح**، وابن منظور الذي وضع **لسان العرب**. ثم جاء الفيروز ابادي مؤلف **القاموس المحيط** والزبيدي واضع **تاج العروس**، وهذه المعاجم تختلف حجمًا كما تختلف محتوى ففيما يعنى البعض منها وهي الأوائل بالألفاظ فقط، نجد أن **التاج** مثلاً يجمع بين الموسوعة والمعجم . و«القاموس» تغلب عليه الصبغة الطبية ويكثر من ذكر الأعلام والمصطلحات والأماكن .

وقد أورد الدكتور حسين نصار في كتابه «**المعجم العربي - نشأته وتطوره**» نواحي ما سماه عيوب المعاجم القديمة. وها نحن أولاً نلخص هنا هذا الذي ذهب إليه - ونحن نعنى بالموضوع لأن العمل المعجمي القديم هو مظهر خاص من مظاهر الاهتمام باللغة.

والواقع أن المشكلة التي جابهت المشتغلين بالمعاجم عبر المحاولات، هوالتصحيف الذي يُمكن أن يدخل على الكلمات العربية بسبب تشابه الحروف شكلاً في أحيان كثيرة، واختلافها في عدد النقط أو مواضعها. وقد ضبط أبو علي القالي ألفاظه في البارع بالعبارة. وفعل مثله الفيروز آبادي، وقد نقل الدكتور نصار عن بعض القدامى ان خطر التصحيف لم يسلم منه لغوي. «وفي الجملة فما أحد سلم من التصحيف والتحريف حتى الإئمة الأعلام. منهم من أئمة البصرة أعيان كالخليل بن أحمد وأبي عمرو العلاء.. وأبي عبيدة معمر بن المثنى وغيرهم، ومن أئمة الكوفة أكابر كالكسائي والفراء والمفضل الضبي وغيرهم... وقد تبع التصحيف وجود عدد من الكلمات لا تعرف حركاته ولا حروفه على وجه اليقين.

ويبدو أن واضعي المعاجم إنما رموا من وضعها إلى جمع اللغة بواضحها وغريبها ونادرها. وأراد بعضهم أن يجمع إلى ذلك معارف العرب أو النواحي المختلفة من الثقافة العربية، حتى أصبحت هذه المعاجم تحوي من كل صنف، وتختلط فيها الأصناف اختلاطًا عجيبًا. وهناك من أطال في المعاجم وهؤلاء «حشوا كتبهم

بالأعلام العربية والأعجمية وأسماء الأماكن والقصص والخرافات والمفردات الطبية والاصطلاحات الغريبة». وهذه ولا شك يمكن أن نفيد منها في درس نواح كثيرة من المجتمع العربي المعاصر لمؤلفيها. ولكن ذلك أمر آخر، ليس هنا موضعه.

ويذكرنا الدكتور نصار بأن هذه المعاجم في أكثرها، لم تجمع مفردات اللغة العربية وألفاظها جمعًا كاملاً أو قريبًا من الكامل، ذلك بأن المؤلفين لم يستقصوا «الألفاظ الواردة في الرسائل اللغوية الصغيرة وفي دواوين الشعر حتى إننا كثيرًا ما نجد فيها ألفاظًا لا نعرف لها معنى أو صيغًا لم يشر إليها أصحاب المعاجم ». ويقدم لنا مثلاً على ذلك أن المفضَّليات وكل من شعرائها حجة في اللغة، لم يتقرَّ المعجميون ألفاظها، حتى ان محققيها وضعا فهرسًا للألفاظ الواردة فيه والتي لم ترد بالمعاجم.

والذي يمكن أن يلاحظ هو أن أصحاب المعاجم لم يهتموا بجمع اللغة بكل ألفاظها ومفرداتها، بل اكتفوا بالفصيح منها، وهذا الذي يشير إليه الدكتور نصار بقوله «إن نظرة أصحاب المعاجم كانت نظرة ناقدة لاجامعة ... فقد حاول كل منهم أن يقتصر على الفصيح الصحيح ؛ وقسموا القبائل العربية إلى قبائل فصيحة يعتدُّ بلغتها، وأخرى غير فصيحة، والذي حدث نتيجة لهذا الوضع ،هو أن المعجم العربي خسر عنصرين هامين في اللغة: الأول «أنه لم يؤخذ فيه عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم. فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط؛ ولا من قضاعة وغسان وأياد لمجاورتهم أهل الشام...، ولا من تغلب فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان؛ ولا من بكر لمجاورتهم الفرس؛ ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس؛ ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة؛ ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف واهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم؛ ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم، حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب، وقد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم». والثاني هو أن المعاجم العربية لم تحو المولَّد من الكلام، ذلك بأنه لم يعتبر من اللغة. وبذلك ضاع علينا كثير من الألفاظ والمعاني التي ابتكرها العباسيون مثل مظاهر الحضارة الجديدة التي عاشوها.

وهكذا فمن سوء الحظ أن المعاجم اللغوية لم تدون المفردات التي خلقها زمن التفتح والتفجر ولم تجمع الألفاظ الحضارية كلها، وإن كان **المحيط والتاج** فيهما الكثير مما يوضح الحضارة كما عاصرت واضعيهما .

وإلى جانب المعاجم فقد عرفت الفترة المتأخرة من العصور الوسطى - أي القرنين السابع والثامن للهجرة (القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) العمل الموسوعي الضخم الذي يبدو **في نهاية الأرب ومسالك الأبصار وصبح الأعشي**. ولسنا

نعنى ، في هذه الموسوعات ، بما فيها من مادة تاريخية أو سياسية أو جغرافية أو أدبية، فهي في ذلك لم تتجاوز ما عرف من مفردات اللغة. ولكن هذه الموسوعات فيها ألفاظ جديدة مجموعة وهي الألفاظ الإدارية التي عرفتها تلك العصور .

ذلك بأن الإدارة العربية الإسلامية بلغت غاية تعقيدها وتنظيمها في عصر المماليك، بعد أن مرت بالتجربة الفارسية والسلجوقية والأيوبية. وكان من الطبيعي أن يكون لكل منصب إداري كائناً ما كان اسمه. ولأن الكثير من هذه الألفاظ والمصطلحات جاءت مع الفرس والأتراك، فقد ظهرت فيها الصيغة الأعجمية. وعلى كل فقد كان هذا هو فضل هذه الحقبة على تطوير مفردات اللغة وألفاظها؛ فكل منصب من نائب السلطنة الى صاحب الشراب إلى المسؤول عن السلاح، كان له لفظ يقابله. وبسبب تعقيد الإدارة في ذلك الوقت فقد كثرت الوظائف والمسميات، وكثرت الأسماء الحديثة تبعًا لذلك.

وهكذا ففي الوقت الذي وضع فيه **القاموس المحيط** للفيروز آبادي **وتاج العروس** للزبيدي ومؤلفات النويري وابن فضل الله العمري والقلقشندي قبلهما، كان المؤلفون في حيرة من أمرهم. فهم لم يكونوا قد إكتشفوا بعد الموسوعة المرتبة على حروف الهجاء، والكتاب الضخم الذي شمل كل شيء كان كتابًا مقسمًا إلى أبواب وفصول حسب الموضوع أولاً والمكان ثانيًا . فلا المعجم كان موسوعة ولا التأليف الموسوعي كان معجمي الترتيب، وظل كل بحاجة الى فهرس دقيق كي يمكن استعماله في الوقت الحاضر.

وثمة أمر آخر حريٌّ بالنظر، ولو أنه لا يتعلق باللغة من حيث أنها لغة، ولكنه كان ذا خطر من الناحية الفكرية. فالموسوعات لم تكن من نوع التفكير التركيبي الذي يمكن أن يصف معنى خاصًا أو أن يؤدي إلى نظام فكري معين. فإن تلك المؤلفات الضخمة كانت، في واقع الأمر، مجموعات من المعرفة المتأخرة من حيث ارتباطاتها وأن تكن مرتبة من حيث تبويبها.

والذي يستثنى من هذا كله هو عمل موسوعي تركيبي كان يحتوي على نظرة جديدة هو: **مقدمة ابن خلدون وتاريخه.**

فابن خلدون لم يكتب تاريخًا على نحو ما كتب ابن تغري بردي أو السيوطي أو المقريزي الذين أرخوا، بل ان الرجل وضع أساسًا لعمل جديد هو علم العمران، والعوامل الموثرة في تطور الأمم وانقراضهم. وهذا العلم اقتضى استعمال الكلمات استعمالاً جديدًا بعد تحديد المعاني التي يتطلبها العمل الجديد. ومع أن ابن خلدون لم يضع معجمًا خاصًا بمقدمته (وتاريخه) فإن الألفاظ تتضح دلالاتها الجديدة من موقعها في الجمل.

ولعل ابن خلدون وضع آخر عمل خلاق في اللغة العربية في نهاية العصور المتوسطة، لا من حيث موضوعه فحسب، ولكن من حيث أنه كان استجابة لتحدٍّ.

ولكي نوضح ما أشرنا إليه، فإننا ننقل هنا - ولو بشيء من التطويل قوله عن العصبية والبناء.

يرى ابن خلدون أن العصبية هي الرباط الأقوى في حياة المجتمع. وفي ذلك يقول:

«اعلم أن كل حي أو بطن من القبائل، وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضًا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحامًا من النسب العام لهم؛ مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو إخوة بني أب، واحد، لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين. فهولاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام. والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة. والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم، ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها، وتتم الرياسة لأهلها. فإذا وجل ذلك تعيّن أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب، لما تمت لهم الرياسة. فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم الى فرع ولا تنتقل إلا إلى الاقوى من فروعه ، لما قلناه من سر الغلب. لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر، فلا بد من غلبة أحدها وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية. ومنه تعيّن استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه.

«وذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه، فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة ، لأن كل عصبية منهم،إذا أحست بغلبة عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع . والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب ، إنما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف. وذلك لا يوجد له غلبًا عليهم البتة. وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتُنوسي عهده الأول من الالتصاق، ولبس جلدتهم ودُعي بنسبهم فكيف له الرياسة قبل الالتحام أو لأحد من سلفه. والرياسة على القوم انما تكون متناقلة في منبت واحد تعيّن له الغلب العصبية. حينئذ فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عُرف فيها التصاقه من غير شك، ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ، فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالتصاق؟ والرياسة لا بد وأن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية، وقد يتشرف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلحّون بها إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم ، أو ذكر كيف اتفق فينزعون إلى ذلك النسب، ويتورطون بالدعوى في شعوبه، ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في ريساتهم

والطعن في شرفهم، وهذا كثير في الناس لهذا العهد».

«فإذا قام المجتمع والدولة التي تلزمه نشأ العمران بكل ما فيه من عوامل النمو». فابن خلدون يرى أن الدول أقدم من المدن والأمصار، وأنها انما توجد ثانية عن الملك. وفي ذلك يقول:

«وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البدواة ومنازعها. وأيضًا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير. وهي موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون. وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً بل لا بد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك، أو مرغَّبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة ، فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك».

«ثم إذا بنيت المدينة وكمُل تشيدها بحسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاء، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح ، إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها».

«وأما بعد إنقراض الدولة المشيدة للمدينة، فإما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائمًا، فيكون ذلك حافظًا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة، كما تراه بفاس وبجاية من المغرب،وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال، لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب، تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر، فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون. وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها، فيكون انقراض الدولة خرقًا لسياجها، فيزول حفظها، ويتناقص عمرانها شيئًا فشيئًا، إلى أن يبذعرَّ ساكنها وتخرب ، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهّمه، وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطّيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية، يتخذها قرارًا وكرسيًا يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها. فتحتفظ تلك الدولة سياجها، وتتزايد مبانيها ومصانعها، بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها، وتستجد بعمرانها عمر آخر، كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد، والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق».

وليس من شك لديّ في أن ابن خلدون حفظ للغة العربية كرامتها ونشاطها وحركتها، لكن ابن خلدون نسيْ في العالم العربي بعد وفاته بما يتجاوز نصف القرن قليلاً ، ولم يعرفه العرب ثانية إلا في القرن العشرين؛ عندها أخذ البعض يتأثر بآرائه وأسلوبه ولغته.

شجرة الآداب الإسلامية

إن الأرض التي لا تحرث تجف تربتها وتيبس وتتشقق، والشجرة التي لا يعنى بها قد تموت أو قد تنمو أغصانها على غير هدى فتتدلى إلى الأسفل وتختلط بالجذور فتصبح خليطًا من كل شيء. وهذا ما أصاب الحياة الفكرية العربية الإسلامية منذ القرن السابع للهجرة (أي منذ القرن الثالث عشر للميلاد). فالفكر جفت ينابيعه الأصلية، وما عولج من الموضوعات المختلفة، في حقول الفقه والأدب والشعر كان فيه الكثير من الإجترار. ولعل الناحية الوحيدة التي كان فيها نتاج يستحق الذكر هي التاريخ؛ فقد ظهر مؤرخون كبار لكنهم عملوا شيئًا واحدًا: إنهم دونوا الأحداث دون أن يفلسفوها وعادوا، في أغلب الحالات، إلى أسلوب الحوليات ونظامه.

واللغة العربية، الأداة التي كانت تعبر عن نواحي النشاط الفكري ،أصبحت الآن آلة لماعة براقة يعنى الذين يستعملونها بصيغتها، ويهتمون بالسجع. وكثيرًا ما كان السجع أنيقًا فيه الكثير من الطبيعية، على نحو ما تقرأ في نفح الطيب للمقرِّي. إلا أن أغلبه كان سجعًا متكلفًا. والشعر الذي نظم في هذه الفترة التي استمرت الى القرن الثامن عشر، كان فيه الكثير من البديع والجناس الذي يحلو جرسه، لكنه كان، مثل النثر، ضعيفًا في المحتوى والمادة، بل لعله كان حتى أضعف من النثر في هذه النواحي.

فاللغة العربية انكفأت على نفسها لأن أهلها لم يقوموا بأعمال كبيرة تستحق أن تطور اللغة نفسها من أجل السير قدمًا كما حدث لها في القرون الأولى من قيام الدولة العربية الإسلامية وأيام ازدهار الحياة الفكرية وتفاعل المجتمع في هذه الأمور.

صحيح أن ما كتب كان يعكس صورة المجتمع نفسه، ذلك أمر لاشك فيه، والمجتمع كان فيه حياة نشيطة سياسيًا وعسكريًا، لكن المهم النشاط الفكري، فهو الذي يحفز اللغة إلى التطور، ونحن حتى عندما نتناول الأبحاث والكتب التي تتعلق بأمور الدين نجد أنها كانت تعلم الدين لكن لم يكن ثمة فكر ديني بالمعنى الذي عرفناه أيام نشاط الفقه والاجتهاد وعلم الكلام الأصيل على الفلاسفة وأهل العلوم الفلسفية والمتفلسفين وإذًا فالذي قلناه قبلاً عن الاجترار الفكري، إن جاز التعبير، يصح أيضًا على الأمور الأخرى.

وكم كنا نحب لو أن المجال يتسع لأمثال من هذا النثر والشعر الذي عرفه العالم العربي الإسلامي، والذي استعمل العربية للتعبير عنه. ولكنه من الجهة الواحدة فإن

المجال لا يتسع، ومن جهة أخرى فإن القراء يعرفون الكثير من هذا الذي يسميه المؤلفون أدب عصر الانحطاط، أو أدب الدول المتتابعة.

على أننا يجب أن نذكر شيئًا آخر يتعلق بالأدب وما إليه في هذا العصر، وهو أن ما تخلت العربية عن التعبير عنه أصبحت اللغة الفارسية تعبر عنه. فالفارسية كانت لغة حضارة منذ القرن السادس قبل الميلاد. وقد عبرت عن ذلك أدبًا وفكرًا. وفي القرن الثالث للميلاد قامت الدولة الساسانية ورافق قيامها، أو على الأصح ان قيامها،كان مرتبطًا بإحياء ديني للزرداشتية. ولمدة تتروح بين الثلاثة والأربعة قرون كانت اللغة البلهوية سبيلاً للتعبير عن الذي قام في تلك البلاد تحت إشراف هذه الدولة. ويبدو أنه كان ثمة شيء من الإحياء الروحي كما كان ثمة ترجمة عن الهندية وتبادل فكري مع الهنود، ولذلك كانت الدولة الفارسية الساسانية تحمي الحياة الفكرية. كما أن النساطرة المسيحيين، الذي اعتبرتهم الكنيسة البزنطية الرسمية خارجين عليها، انتقلوا إلى الأمبراطورية الساسانية وحملوا معهم التقليد الطبي والفلسفي والأفلاطوني المستحدث من انطاكية وحرّان الى جند يسابور وما اليها. ومن ثم فقد كان البلاط الساساني يرعى هذه النواحي العلمية وإن لم ينقل نتاجها العلمي إلى اللغة الفارسية.

وقضي على الدولة الساسانية نتيجة للفتوح العربية الإسلامية الأولى، وضعف مركز اللغة الفارسية أمام العربية التي كانت تمثل الانتصار والنجاح والغلبة دينيًا وعسكريًا، ولم تلبث أن أصبحت تمثل الانتصار والغلبة ثقافيًا أيضًا، وكان من الطبيعي بعد أن انتشر الإسلام في فارس، وإن لم يعتنقه الفرس أجمعين يومها، أن تصبح اللغة العربية لغة العلم والثقافة والأدب والدين. وقد كتب الفرس بالعربية، وكتبوا عن العربية نفسها، وصنّفوا في جميع مجالات الفكر. فالرازي وابن سينا مثلاً لم يكونا عربيًا،و لكنهما كتبا بلسان عربي مبين، لكن العربية لم تصبح لغة القوم اليومية، على نحو ما صار إليه الأمر في ديار الشام ومصر مثلاً، ولذلك فقد ظل للغة الوطنية في فارس موضع في حياة القوم.

ولعلنا نجد في أواخر القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر لليملاد) من يحاول أن يكتب بالفارسية، ولا شك في أن هذا الأمر تم فيما بعد ذلك. ويمثل الفردوسي هذا الإتجاه خير تمثيل، وإن كان الفردوسي يمثل ابتداء الاتجاه نحو استعمال الفارسية لغة أدب فإن الفترة التي تلت ذلك يتضح فيها الاتجاه بشكل لا يدعو إلى الشك. فاللغة الفارسية تعود إلى ميدان الأدب، نثرًا وشعرًا، بقوة وتنتج أمثال سعدي وحافظ. وقد يقال إن هذا هو اتجاه صوفي. هذا صحيح، ولكن المهم أن اللغة الفارسية عاد إليها الكثير مما كانت عليه من قبل، كما أن اللغة العربية انحسرت عن تلك المناطق. وإذا كان قد ظل للغة العربية من مكانة هناك فإنها ترجع إلى أن المسلمين يقرأون القرآن

ويحفظونه ويهتمون بما يتعلق بالتفسير والحديث والفقه من حيث أنها أداة لفهم ذلك كله.

و ثمة خلاف بين مؤرخي الفكر الإسلامي، فالبعض يرى أن ما قامت به بلاد الفرس وأهلها منذ القرن السابع (الثالث عشر) إنما كان اتجاهًا صوفيًا يمتاز بالعمق بالشعور وكثير من الحلول والاتحاد. فيما يرى آخرون أن ما تم في تلك البلاد إنما هو استمرار للفكر الفلسفي العربي الإسلامي، الذي لما فقد مكانه ومنزلته في العالم العربي الاسلامي، تلقفته البيئة الفارسية. وليس من اليسير الاتفاق على هذه القضية، ولكن الذي يظل موضع اهتمام هو أن الفارسية استعادت منزلتها كأداة للتعبير. ولعلها واجهت وضعًا شبيهًا بالوضع الذي جابهته العربية قبل ذلك بأربعة قرون أو خمسة لما بدأ انتشارها شرقًا.

وإذا نحن نظرنا إلى الخارطة الثقافية للجزء الشرقي من العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) لوجدنا أنه كانت تتقسمه أربع لغات أو ثقافات : الأولى وهي العربية التي نعرف مدى انتشارها ودائرة انحسارها. والثانية المنطقة التي سادت فيها الفارسية وهي إيران على وجه العموم. وقد انتشرت هذه اللغة فيما بعد شرقًا كلغة للتعبير عن النشاط الديني والصوفي وما إليهما. والثالثة التركية. ومع أن شعوبًا تركية كانت قد انساحت في المنطقة حتى في عهد العباسيين الأول، فإن لغة هؤلاء الأتراك لم تنتشر في ربوع المشرق العربي؛ لذلك فإن اللغة التركية التي نقصدها هي التي قامت بقيام دولة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى، ثم في أوروبا ثم في الشرق الاوسط بعد فتح الأتراك لهذه البلاد. ومنطقة اللغة التركية لم تكن منطقة ثقافية حضارية بالمعنى العربي القديم، أو حتى الفارسي المعاصر لها، ولكنها كانت منطقة انتشرت فيها التركية لغة تخاطب ولغة شعر ولغة إدارة، أما من الناحية الفكرية فقد قبلت الثقافة التركية ما كان في العالم العربي من تفسير وحديث وفقه وشريعة وما إليها واستمر التعبير عن غالب هذه بالعربية. فالتركية لم تزاحم العربية، كما زاحمتها الفارسية، من حيث تصديها للتعبير الصوفي (الفلسفي) الأدبي، ومع ذلك فإن اللغة التركية الغربية وهي لغة الأتراك العثمانيين، وضع فيها نثر وشعر يمجد الطورانيين تمجيدًا كبيرًا.

وإذا اعتبرنا اللغة الفارسية واللغة التركية لغتين إسلاميتين نشأ محتواهما في إطار الثقافة العربية الإسلامية أصلاً، وأنهما فرعان من شجرة الاداب الإسلامية، فإنه يترتب علينا أن نضم إليهما اللغة الأوردية أيضًا. وثمة قضية حرية بالاهتمام وهي ان اللغة الفارسية كانت لغة أصلية ذات ماض قديم في الميادين الأدبية والثقافية. واللغة التركية لغة أصلية وإن لم يكن لها، إلى الفترة التي نتحدث عنها، ماض ثقافي معروف. أما اللغة الأوردية فحديثة النشأة، ولم تكن حتى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع

عشر الميلادي قد أصبحت لغة ذات أدب مستقل تعبيريًا. لكن اللغات الإسلامية الثلاث اكتسبت أسس محتواها الثقافي من الحضارة العربية الإسلامية.

ولعله مما يفيد القراء هنا أن نشير، ولو باختصار كلي، إلى نشأة اللغة الأوردية، والتي تعود إلى أيام الأمبراطورية المغلية (المغولية) التي قامت في الهند سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥٢٦ واستمرت إلى سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٨م. وقد أنشأ هذه الأمبرطورية بابور، الملقب بظهير الدين وهو من الأتراك الشرقيين، ومتحدر من نسل تيمور السلطان المغولي المشهور، وأمه من نسل جنكيز خان. وقد بدأ هذا الأمير باحتلال كابول (٩١٠ هـ ـ ١٥٠٤م) ومنها أغار على الهند، إذ وجد أنه لن يستطيع إقامة دولة له في موطنه في أواسط آسيا. وانتصر على الأمراء الهنود في دلهي وأغرا. ولكن الذي أقام الدولة في دلهي كان ابنه (٩٦٢ هـ / ١٥٥٥م). وبعد هذا جاء الأمبرطور «أكبر» (٩٦٣ ـ ١٠١٤ هـ / ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥م) الذي وطد دعائم ملكه في رقعة واسعة من الهند، وأصبح مصدر إزعاج للجوار.

كان «أكبر» محبًا للثقافة معنيًا بالشؤون الدينية. وفي عاصمة الدولة المغوليه (دلهي) كانت العربية لغة الأدب والفن، وكانت الفارسية تقوم إلى جانبها. وفي فترة هذه الدولة المغولية، التي استمرت حتى أواسط القرن التاسع عشر، نشأت اللغة الاوردية. والظاهر أن الجيوش المغولية كانت تتكون من المرتزقة، الذين كانوا من عناصر متنوعة: منها السكان الأصليون ومنها الاتراك (وهم عصب الدولة فهي تركية أصلاً) ومنها الفرس ومنها العرب، ومن التخاطب المستمر بين هذه العناصر نشأت الأوردية، أي إنها قامت في المعسكرات، وقد تقبل قوّاد الفرق العسكرية والحكام والأمراء، وهم من نبلاء الأتراك هذه اللغة «الأوردو») (أي لغة الجند) فأصبحت لغتهم، فضلاً عن كونها لغة الجيش. وهذه اللغة استعارت ألفاظها من اللغة المحلية المعروفة بالهندي ومن العربية والفارسية والتركية. ولما دوّنت كانت قواعد اللغة منتزعة من «الهندي»، أما الخط الهندي الذي اتخذته فهو الخط الفارسي وهو عربي الأصل.

انتشرت اللغة الاوردية بسرعة وأصبحت لغة الدواوين والبلاطات الرئيسة والصغرى، ونظم بها الشعر، وكان صوفيًا في مبدأ الأمر، متأثرًا بالفارسية والعربية، ثم نقلت إليها عناصر رئيسة كثيرة من الحضارة العربية الإسلامية، وأصبح أدبها الأصيل موضع الاهتمام خاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر. واللغة الأوردية هي لغة الباكستان الرسيمة اليوم.

نحن في مطلع القرن التاسع عشر. محمد علي باشا يتولى الأمر في مصر، ويريد أن يجعل من مصر دولة قوية. ولذلك فهو بحاجة إلى خبراء،وكان الخبراء. الأول أجانب ـ في الطب والإدارة والري والتعليم وما إلى ذلك، احتاجهم محمد علي للتنظيم

والتخطيط والتنفيذ لأنه لم يجد في مصر حاجته، وكان محمد علي أدرك أن استيراد الخبرة والمعرفة والعلم لن يكفي مصر، وسيظل هؤلاء الخبراء أجانب عن البلد، كما أن العلم والمعرفة والخبرة نفسها ستظل غريبة عن مصر. لذلك اتخذ خطوة جريئة جدًا بالنسبة إلى عصره، في سبيل «تمصير» العلم والمعرفة والخبرة، فاختار في فترة حكمه (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩) نحو أربعمئة مصري أرسلهم إلي أوروبا ليجمعوا ما استطاعوا من علم ومعرفة وخبرة ولينقلوا ذلك إلى مصر، وبذلك فقد مصر محمد علي المعرفة بقدر ما كانت الأحوال تسمح له. وهؤلاء المصريون حملوا معهم الكثير مما كان عند الغرب من طب وطبيعة ورياضيات وجغرافية وعلوم عسكرية لما عادو إلى بلادهم وتولوا العمل في سبيل مصر.

فتح محمد علي المدارس لييسِّر للمصريين، ولو أن ذلك لم يتح لجميعهم التعلم. بدأ بالمدارس الابتدائية والثانوية. لكنه لم يلبث أن فتح مدرسة الطب في القصر العيني (سنة ١٨٢٨)، وهي الآن كلية الطب في جامعة القاهرة، وبذلك أتاح لمن كان له استعداد أن يدرس الطب في مصر، على أيدي أساتذة أجانب ومصريين كي يتولى مهمة التطبيب فيما بعد. ومع أن محمد علي لم يفتح مدرسة للهندسة فقد أفاد من الذين درسو هذا الفن في أوروبا. وهكذا دواليك.

أنشأ محمد علي باشا مطبعة بولاق التي أخذت على عاتقها أول الأمر نشر الأشياء الرسمية، لكنها لم تلبث أن نشرت أمهات الكتب العربية القديمة في الأدب والتاريخ والفقه، مما كان له فيما بعد أثر أي أثر، إذ قد سد حاجة كبيرة.

وفي الوقت الذي كان محمد علي باشا يفتح فيه المدارس ويبعث البعوث العلمية إلى الخارج، كان قطر عربي آخر يختبر الشيء الكثير من العلم الغربي والمعرفة الغربية، ففي لبنان كان خريجو المدرسة المارونية في روما، وهي التي فتحها البابا غريغوريوس الثالث عشر في أواخر القرن السادس عشر لتدريب رجال الدين الموارنة من لبنان وحلب، ينشئون المدارس المختلفة والتي انتهت سنة ١٧٨٩ بتأسيس مدرسة عين ورقة في كسروان التي عملت فيها اللغات العربية واليونانية والعبرية كما درّس فيها اللاهوت والفلسفة. صحيح أن هذه المدرسة لم يدرس فيها العلم أو الطب، ولكنها كانت معهدًا أتاح لطلابه الإتصال بالغرب في بعض نواحي المعرفة، على أنه في القرن التاسع عشر بدأت البعثات التبشيرية عملها بإنشاء المدارس المختلفة، بعضها للانجيليين وبعضها للكاثوليك. واستمر هذا العمل مدة طويلة وانتهى، بالنسبة إلى العمل الإنجيلي، بإنشاء الكلية السورية الإنجيلية (وهي الجامعة الأميركية الآن) وبالنسبة إلى العمل الكاثوليكي بإنشاء كليه القديس يوسف (جامعة القديس يوسف الآن وهي مؤسسة يسوعية).

ومع أهمية هذا العمل من الناحية التعليمية، فلعل أثره هو حمل الطوائف

المختلفة في لبنان على إنشاء مدارسها الخاصة. فأسست الطائفة المارونية مدرسة الحكمة، وفتح الروم الكاثوليك الكلية البطريركية، وكان للروم الأرثوذكس زهرة الإحسان والأقمار الثلاثة، كما أن جمعية المقاصد الإسلامية أنشأت مدارسها، وأسست الكلية الداودية ثم الكلية العاملية فيما بعد.

وكثر التنقل بين أقطار الشرق العربي وأوروبا، كما كثر تبادل السفراء، بين الدول العثمانية وأوروبا. وكان من نتيجة ذلك أن اطّلع كثيرون من رجال الحل والعقد على شؤون الغرب وحضارته وأخذوا يتساءلون عن سر هذا التقدم.

وأنشئت الصحف رسمية أولاً مثل الوقائع المصرية في القاهرة، ثم خاصة مثل الأهرام والمقطم والمؤيد وما إليها في مصر، كما عرف لبنان حديقة الأخبار وغيرها، وجاءت الخطوة التالية طبيعية وهي إنشاء المجلات كالمقتطف والهلال والجنان والضياء وما إليها.

ولم يقتصر الأمر على المشارقة، فإن بعض مناطق الغرب العربي كان لها مساهمة في هذه القضية، فالمكتب العسكري في باردو (بتونس)، والرائد التونسي ـ أول صحيفة تونسية ـ والمدرسة الصادقية، كانت خطوات مشابهة لما تم في مصر ولو أنها تأخرت عنها قليلاً، فالمكتب العسكري أنشىء سنة ١٨٤٠ والرائد أسست سنة ١٨٦١ والمدرسة الصادقية تم إنشاؤها سنة ١٨٧٦ . ومع أن الفرنسيين الذين احتلوا الجزائر بدءًا من سنة ١٨٣٠ فتحوا فيها المدارس ونشروا صحفًا فإنها كانت لمصلحة المعمِّرين الفرنسيين لا لمصلحة أهل البلاد. ومن هنا فلن نتحدث عنها الآن.

إن إنشاء المدارس وإرسال البعثات وكثرة الأسفار وتأسيس الصحف والمجلات اقتضت أن يكون ثمة شيء يعلم ويُتعلَّم ويكتب عنه. وما كانت هذه المؤسسات المختلفة لتكتفي بما كان العرب قد أنتجوه في القرن الثامن عشر وما قبله بقليل. ذلك بأن كل هذه المؤسسات إنما قامت لأنه كان هناك حاجة لشيء جديد. فلو لم تكن ثمة حاجة للطب لما أنشأ محمد علي القصر العيني، ولما فتحت كلية الطب في الجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف ببيروت؛ ولو لم تكن ثمة حاجة لما أنشئت في مصر فيما بعد كلية للهندسة؛ ولو أن المعلمين كانواموجودين لما احتاجت مصر إلى فتح دار العلوم في أواخر القرن الماضي، لتخريج المدرسين؛ ولو أن المعاهد التي كانت موجودة كانت تزود المحاكم بحاجتها لما فتحت مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة.

وهذه الحاجات المتنوعة التي اقتضت صورة جديدة للمعرفة والعلم، تطلّبت، بطبيعة الحال، أن يؤتى بهذه المعرفة وهذا العلم من مصادر لم تكن معروفة للعرب في ذلك الوقت، ومن هنا كان لا بد من أن تترجم الكتب والمقالات والبحوث عن اللغات الأوروبية قبل أن تصل إلى الطلاب والقراء.

وهنا يبرز الدور الذي قام به أولئك النقلة والمترجمون واضحًا. فرفاعة

الطهطاوي، وهو في رأي العارفين في طليعة المترجمين في القرن التاسع عشر، ينقل إلى العربية كتبًا في الجغرافيا والأساطير والتاريخ والدستور الفرنسي. وأساتذة الطب في القصر العيني ينقلون معرفتهم إلى طلابهم باللغة العربية، وفي الجامعة الأميركية ببيروت، التي كانت يومها تسمى الكلية السورية الإنجيلية، تُتخذ العربية لغة التعليم في الطب والعلوم الأخرى والإنسانيات. ولا بد من كتب لذلك. وهذا فانديك، أحد أساتذة الطب فيها. يضع كتابًا في الباثالوجيا باللغة العربية.

ما الذي نفيده من هذه النظرة السريعة المقتضبة جدًا؟ عاد الى العالم العربي نشاط في جوانب حياته الفكرية ـ علمًا وطبًا وأدبًا وفلسفة ـ ودخل عنصر التحدي في هذا كله . التحدي كان موجهًا إلى اللغة العربية، فماذا كان موقفها؟

تحَّدي العصر أهل اللغة فاستجابوا إلى ما فيه من علم ومعرفة ـ وكانت الاستجابة في اللغة العربية بناءة. فلم تقصّر اللغة. أخرجت كنوزها لأن أهلها احتاجوا إلى هذه الكنوز. وكأن اللغة كانت تتمثل ببيت الشعر المشهور لحافظ إبراهيم الذي يقول فيه:

أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ ... فهل سألوا الغواص عن صدَفاتي

نعم غاص الناس يومها فاستخرجوا من بطون العربية ما فيها من جواهر.

نعم، إن المترجمين والمؤلفين والكتّاب العرب جاءتهم في القرن التاسع عشر،وهو المعروف بعصر النهضة، أشياء جديدة من الغرب أرادوا أن يعبروا عنها باللغة العربية، فاستنجدوا بها فأنجدتهم. لقد نشط أهلها فنشطت هي تبعًا لذلك. كان العرب يومها في موقف التحدي بالنسبة للآراء والمعرفة الحديثة، وكانت اللغة معرَّضة للتحدي، فاستجابت لهذا التحدي، كما استجابت في القرون الأولى التي تبعت ظهور الإسلام . فمن حيث النوع لم يكن فرق «بين ما احتاجت العربية إلى التعبير عنه هناك وهنا. فقد استجابت من قبل لتحدي العلوم والفلسفة والمنطق. واستجابت في القرن التاسع عشر لتحدي العلوم والفلسفة. يضاف الى ذلك أن القرن التاسع عشر عني بالأدب الغربي وهو الأمر الذي لم يعنَ به من قبل إلا في القليل النادر. لكن مع أن النوع لم يختلف فقد كان ثمة شيء جديد في المحتوى. ففي القرن التاسع عشر كان الغرب قد قطع شوطًا بعيدًا في الأمور التي تهم المجتمع أي في شؤون الاجتماع والسياسة. وهي أمور لم يعرفها لا العرب ولا أولئك الذين نقلوا عنهم.

ولعلنا نحسن صنعًا إن نحن ذكّرنا أنفسنا بأمور تساعدنا على تفهم موقف اللغة العربية في العصر الحديث مما كان عليها أن تُعبر عنه ترجمة أوتأليفًا. وأول هذه الأمور هو أن العربية كان عليها أن تعود إلى نفسها لتعبر عن العلم الحديث الذي كان يختلف عن العلم القديم بجزئياته وقواعده. وكان لا بد من التفتيش والتنقيب في

بطون الكتب القديمة للحصول على ما عرف من قبل، ووضع مصطلحات للأشياء الجديدة في العلوم المختلفة. لنضرب على ذلك مثلاً عن علوم الأحياء؛ فالقرن التاسع عشر كان يتحدث عن التطور أو كما سمي في بادىء الأمر «النشوء والإرتقاء» أو «تاريخ الإنسان الطبيعي». فهذا شيء كان قد ظهر على أيدي داروين، ولم يكن قد عرف من قبل بجزئياته..

وثاني هذه الأمور أن القرن التاسع عشر كان قد توصل إلى نظريات سياسية واجتماعية لم تكن قد درست من قبل، أو لعلها لم تنتظم طريقة معينة. فالنظم السياسية الديمقراطية كانت شيئًا جديدًا بالنسبة إلى عالم العرب، والمذاهب الاجتماعية كانت أيضًا فتحًا جديدًا، وهي في الواقع كانت فتحًا جديدًا حتى بالنسبة إلى الغرب نفسه.

والأمر الثالث هو أن أهل بعض الدول الغربية كانوا حريصين على المواطنة باعتبار أنها أمر ألفوه وأدركوه عمليًا. أما بالنسبة الى العرب فقد كان التحدث فيه وعنه يقتضي النظر والإمعان.

وأخيرًا فقد كان من الضروري أن يحدد الباحثون معنى القومية ـ إذا كان ذلك ممكنًا. وعلى كل فالقومية كانت واحدًا من الأفكار التي كانت تشغل بال الغرب، وكانت تزحف نحو العالم العربي والأقطار المجاورة له زحفًا منتظمًا.

وهذا الذي قصدناه من قولنا إن نظرات وتجارب سياسية ومذاهب اجتماعية كانت قد عرفت في الغرب بسبب تطوره الاقتصادي، وكان لا بد للعرب من معالجتها. ومعنى هذا كان وضع كلمات ذات معنى جديد، ولو كان أن الكلمات كانت قديمة، وقد ندب قوم أنفسهم لذلك وقاموا بالعمل قيامًا يُحسدون عليه. ولسنا بحاجة إلى الدخول بالتفاصيل، ولكن رجلاً مثل رفاعة الطهطاوي وحده كان مسؤولاً عن نحو خمسين كلمة وضع لها معاني جديدة محددة في ترجماته وتآليفه، والمقتطف نقل مئات من المصطلحات العلمية عن اللغة الإنكليزية. وهناك فئة كثيرة من أصحاب العمل نفسه مثل الذين وضعوا كتبًا في تاريخ الإنسان الطبيعي أو كتبوا مقالات فيه مثل شبلي شميل، أو ترجموا داروين مثل اسماعيل مظهر، ونحن نعرف أن بعض هذه الأسماء التي ذكرناها عاش أصحابها في القرن العشرين، لكنهم كانوا في أعمالهم تتمة للعمل الذي بدأ في عصر النهضة.

ومع ذلك كله يجب أن نذكر أمرًا يتعلق باللغة العربية نفسها وبالمترجمين الذين عملوا على النقل. ففي القرون الأولى من العصرالإسلامي كان أولئك الذين عملوا في شؤون الفلسفة والطب والفلك والرياضيات يطوّعون اللغة لقبول شيء جديد بالمرة. واللغة التي كان عليها أن يقوموا بتطويعها كانت من قبل لغة أدب وشعر محدودة في آفاقها وإن لم تكن محدودة في إمكاناتها. لكن هذه الإمكانات كان لا بد من أن تُكتشف

من الأصل وأن تفجر من نقطة الابتداء. ولذلك فالعمل كان ولا شك صعبا. أما في القرن التاسع عشر فقد كان العمل نسبيًا أيسر. فاللغة كانت قد مرنت على التحدي والاستجابة له، وكانت قد ألفت التفجير الداخلي، وكانت قد عرفت التوليد اللفظي. ولكن مشكلة اللغة في القرن التاسع عشر، وهي مشكلتها اليوم أيضًا، تكمن في أبنائها.

ففي القرون الأولى كان أبناء اللغة يتحلّون بالشجاعة التي تمكنهم من القيام بعملية التطويع؛ أما في القرن التاسع عشر فقد كان كثيرون من الناطقين بالعربية يخشون من الآراء ومن نقلها.

ولنمثل على ذلك بالإشارة إلى بعض الألفاظ التي كان لا بد لها من أن تكتسب محتوى جديدًا قبل أن تصبح صالحة للاستعمال. منها كلمة «الحرية». فهذه ليست جديدة على العربية. لكنها كانت ترد من قبل في نقاش المتكلمين وجدلهم حول حرية الإنسان بالنسبة إلى القدر والجبر، أما معناها الحديث من حيث علاقة الفرد بالمجتمع والدولة من الناحية المدنية العلمانية، فأمر كان جديدًا على المجتمع العربي. وكان لا بد من تحدي معنى الكلمة قبل استعمالها في الترجمة أو التأليف. ومنها كلمة «المواطنة» التي يرجع الفضل في صوغها واستعمالها إلى الطهطاوي.

وهناك كلمات كانت جديدة على العرب من الناحية السياسية لأنه لم تكن قد قامت حاجة لها من قبل، مثل الاستقلال؛ فالأجزاء من العالم العربي التي كانت تخضع لحكم أجنبي هي التي كانت أكثر عناية واهتمامًا بالاستقلال وبمدلول الكلمة.

ولعل الكلمة التي دخلت العربية من الباب الواسع في القرن التاسع عشر، وخاصة في نصفه الثاني، كانت «الدستور» بمعناها السياسي القانوني الذي يقصد به تحديد صلاحيات صاحب السلطة والحكم. كما أن «القومية» على أنها مشتقة من كلمة «قوم» القديمة كان لا بد لها من توضيح وهي كلمة تكتسب في كل جيل معنى جديدًا.

وكانت تجارب العالم وخبراته قد اتسعت عما كانت عليه في أيام اليونان، لذلك كانت مجالات التفكير التي كان على اللغة العربية أن تقتحمها واسعة كثيرة، وكان الطريق الذي ستسلكه وعرًا، كما كان المترجمون والمؤلفون أكبر عددًا من ذي قبل وأكثر انتشاراً وتوزعًا عما كانوا عليه في الأزمان الغابرة. ومع ذلك فقد تصدوا للعمل ونجحوا فيه نجاحًا كبيرًا وترجموا وألفوا الكثير من الكتب والأكثر من المقالات. ولعل من أكبر ما تم على أيدي مترجمي القرن التاسع عشر في لبنان نقل الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، إلى اللغة العربية.

والذي نخلص إليه من هذا الذي عرضناه هو أن اللغة بأهلها. فكل مرة كان العرب مستعدين للعمل، وكان ثمة تحدٍّ لهم يتصدون له، كانت اللغة العربية تستجيب لهذا التحدي.

الخاتمة

في أنحاء العالم العربي بأجمعه، من المحيط الى الخليج، تصعد الشكوى بأن اللغة العربية عاجزة عن التعبير عن حاجات العصر الحاضر؛ هذه الشكوى ليست بنت اليوم. سمعتها لما كنت طالبًا في دار المعلمين بين سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٤، وسمعتها، منذ ذلك الوقت عشرات المرات ومن مئات الأشخاص.

هذه الشكوى يجأر بها المشتغلون بعلم الاجتماع وعلم النفس والتربية والسياسة والاقتصاد. وقد تسمع هذه الشكوى حتى من الأدباء. ولكن الصوت الذي يدوي بالشكوى هو الذي يأتي من ميادين العلوم البحتة، من حقول العلوم التطبيقية والتكنولوجيا. وقد يهدأ الصراخ بعض الوقت ثم يعود الغاضبون على اللغة العربية الى الصراخ، إلى الجأر بالشكوى.

فهل ثمة مبرر لمثل هذه الاقوال؟

إذا نحن ألقينا نظرة على الجامعات العربية ، القديم منها والجديد، وجدنا أن أكثرها إن لم يكن جميعها، يستعمل اللغة العربية للتدريس في مختلف فروع العلوم الإجتماعية والإنسانية من دون صعوبة، مما يدل على أن شكوى الفئة التي تختص بهذه الفروع لا أصل لها البتة. وإخال أن القضية هنا ليست قضية عجز اللغة العربية بقدر ما هي قضية جهل الكتّاب ـ المدرسين في هذه الموضوعات بالأدوات اللازمة للاستعمال في هذه المجالات. وهنا يجب أن يتجه اللوم إلى الأشخاص ، لعله يجوز للغة العربية أن تشكوهم ، ولكن إلى من؟

وعندما ننتقل إلى العلوم في ميادينها المختلفة، نجد أن آفاق المعرفة العلمية والتكنولوجية قد اتسعت في العقود الأخيرة على شكل لم يعرفه العالم في تاريخه الطويل. كما أننا نرى أن هذه المعرفة تشعبت بشكل يكاد يسبق العقل البشري في جريانه وركضه. فهل هذا هو السبب في شكوى الشاكين وتذمر المتذمرين؟

لنحاول إلقاء نظرة سريعة على بعض المحاولات التي تمت في ديار العرب لسد هذ النقص بالذات.

لقد تصدى لوضع مصطلحات علمية، أول الأمر على الأقل، فئات من العرب يجيدون اللغة لكنهم لا يعرفون العلم ولا يمكن أن يفقهوه. كان هذا شأن بعض المجامع

العربية بين ظهرانينا. ولذلك عجزت هذه المؤسسات حتى عن السير العادي مع العلم، بله اللحاق بركبه، وسبقها العلم والطب والهندسة والحيسوب.

فضلاً عن ذلك فإن الكثيرين من القيمين على هذه القضايا هم من المتزمتين لغويًا، المتقعدين في استعمال الألفاظ العلمية، لأنهم يصرون على وجوب الحصول على كلمات عربية النجار لكل مصطلح علمي. وكم صرف هؤلاء من الوقت للحصول على كلمة عربية تقابل التلفون وهو أمر بسيط جدًا، لأنهم لم يرضوا بالكلمة الأجنبية، كأن هذه الكلمة على يسرها وسهولتها واستعدادها لأن يشتق منها فعل «تلفن»، تدنس العربية فيما لو أضيفت إليها. وكم صرفوا من الوقت والجهد وهم يأرززون ويهتفون، وهم في الواقع يتلفنون كل يوم! فإذا كان هذا شأنهم مع الكلمة البسيطة فما هو موقفهم من الكلمات المتعلقة بالالكترونيات؟

ولعل مما آذى استعمال اللغة العربية في المجال العلمي هو انفراد الأشخاص لوضع معاجم أو لترجمة المصطلحات العلمية المنقولة من لغة أوروبية إلى اللغة العربية. ولأن لكل من هؤلاء الأفراد رأيًا مستقلاً تصبح المرادفات/ المترجمة للكلمة الواحدة كثيرة بحيث لا يعرف القارىء اين يقف من هذه البلبلة.

ونحن نقلب الطرف في رفوف الكتب فلا نجد معجمًا (قاموسًا) يمكن الاعتماد عليه في فهم المصطلحات العلمية المترجمة. بل إن الأمر. أدهى وأمر، هل هناك معجم عربي - عربي يضع بين يدي المحتاج لذلك» معنى دقيقًا واضحًا؟ الشكوى قد تكون دليل عافية إذا كانت تؤدي إلى إزالة العلة، لكن الذي أراه أن الشكوى لا تزال على ما كانت عليه قبل عقدين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة من السنين ولاخطوات «جدية» حثيثة نحو التغلب على الصعوبات.

ولأضم صوتي إلى أصوات كثيرة نادت ببعض الاصلاحات واقترحت بعض السبل. لكن صوتي يختلف عن كثير من تلك الأصوات. أكثر هؤلاء المصلحين نادى بإصلاح اللغة العربية أو نادى بتيسير اللغة العربية أو بتبديل أسماء الأجزاء التي تتكون منها الجملة. ولكن كل هذا كان كلامًا بكلام. أما صوتي أنا فهو صوت المرء الذي لا يقبل بعجز اللغة العربية أو تقصيرها أو جمودها. ولذلك أنا أوجه كلمتي لا إلى اللغة العربية - ألفاظاً ونحوًا وحرفًا ولغة وما إلى ذلك. أوجه كلامي إلى أهل اللغة العربية وأطلب منهم:

أولاً: أن يضعوا بين يدي معجمًا عربيًا - عربيًا. يمكّنني من الوصول إلى معنى الكلمة (ولست أقصد الكلمة الحوشية بل الكلمة التي يستعملها من يعرف اللغة).

ثانيًا: أرجو من القادرين أن يجمعوا أمرهم ويضعوا بين أيدي الشباب (والصبايا طبعًا) معجمًا «أجنبيًا - عربيًا» معقول الحجم، صحيح المعنى، دقيق الدلالة، هذا يلزم لأولئك الذين يقرأون بلغة أجنبية ثم يريدون أن يثبتوا ما قرأوا في نفوسهم بلغتهم.

ثالثًا: هناك جماعة عيّنوا أنفسهم «سدنة للغة العربية». إلى هؤلاء أتوجه بحرارة طالبًا منهم أن يوسعوا آفاقهم وصدورهم بحيث يسمحون للغة العربية بالانطلاق بحرية في ميادين افتراس الكلمات الأجنبية (التي لا مقابل لها عندنا) وتعريبها أي إعطائها صيغة عربية (كما أعطى أجدادنا صيغة عربية لكلمة «الأسطُقس» اليونانية الأصل واستعملوها بمعنى عنصر الجسم أو أصغر الأجزاء من جملة الجسم).

رابعًا: نحن بحاجة إلى إصلاح طرق تعليم اللغة العربية» في مدارسنا الابتدائية والثانوية، علموا اللغة على أنها كائن حي «يعيش» بين أيديكم ومع تلاميذكم، واعتبروها «كلاً» في نفسها وجزءًا من برنامج العمل اليومي. إنني أهيب بالمعلمين أن يحببوا اللغة إلى تلاميذهم بدل أن يكون تعلميهم أياها مدعاة لكرهها.

ارجوكم يا معلمي اللغة العربية، أن تتحدثوا إلى زملائكم الذين يعلمون لغة أجنبية إلى جانبكم، لعلكم تقعون عندهم على شيء قد يساعد.

وقد ينظر البعض إلى هذا الذي كتبت شزرًا ويتهمني بأنني أطلب شيئًا مستحيلاً. لا. وآمل أن أكتب قريبًا شيئًا مطولاً عن الذي أقصده في إصلاح تعليم اللغة العربية - اسلوبًا وروحًا.

لم أقصد أن أكتب تاريخًا للغة العربية. أردت أن أبين أن اللغة العربية ليست عاجزة أو قاصرة كما يدعي المغرضون أوالعاجزون. وقد استجابت هذه اللغة للتحديات.

ونحن - في ديار العرب - نتحدث عن العروبة ونقول كثيرًا عن القومية العربية. ومع ذلك فنحن نهمل واحدًا من أهم عناصر حديثنا ودعوتنا!

إذا تهاونا في شأن اللغة العربية وحجزناها في وعاء من الزجاج لتبدو براقة لماعة لا حياة فيها، فإننا نقضي على العنصر الأساسي في حياتنا العاطفية والروحية والفكرية.

العربية لغتك ولغتي يا ابني
عليك وعليَّ أن نُعنى بها
عليك وعليّ أن ننقذها من الذين يضيقون عليها من حيث لا يدرون.

ببلوغرافية البحث

أ- المصادر

١- ابن جعفر، **نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة** بريل: ليدن ١٨٨٩ .

١ أ - ابن حوقل، **كتاب صورة الأصل** (مصورة عن طبعة ليدن، بريل ١٩٣٦)

٢- ابن خرداذبة. **المسالك والممالك**، بريل: ليدن ١٨٨٩ .

٣- ابن فضلان رسالة **ابن فضلان**، دمشق، ١٣٧٩ / ١٩٥٩ . (تحقيق سامي الدهان).

٤- البلاذري، **فتوح البلدان**،القسم الأول، القاهرة ، ١٩٥٦ . (تحقيق صلاح الدين المنجد).

٥- الطبري. **تاريخ الرسل والملوك**.

٦- لسترانج غ. كي. **بلدان الخلافة الشرقية**، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، الطبعة الثانية . بيروت ١٤٠٥ / ١٩٨٥ (مصورة عن الطبعة الأولى) بغداد، ١٩٥٣ .

٦ أ- محمد الأزدي **حكاية أبي القاسم البغدادي**، مصورة عن طبعة هيدلبرغ، ١٩٠٢ .

٧- المقدسي. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، ليدن: بريل ١٩٠٦ .

٨ - ناصري خسرو **سفرنامة**، رحلة ناصري خسرو ترجمة يحيى الخشاب، ط٢ بيروت ١٩٧٠ .

ب- المراجع العربية (والترجمة)

٩- آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ج، بيروت والقاهرة ١٣٨٧ / ١٩٦٧ (ط٤).

١٠ موريس شهاب، **دور لبنان في تاريخ الحرير** بيروت، ١٩٦٨ .

١١- نقولا زيادة «**الأسطول العربي في أيام الأمويين** : بحث مقدم إلى ندوة (ملحق) تاريخ بلاد الشام »

١٢- «تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والمحيط الهندي» في **دراسات الخليج والجزيرة العربية**، السنة الأولى،العدد الرابع ص ٧١ -٩٧ .

المراجع الأجنبية

Ashtor, *E Social and Economic History of the New East London, 1970.*

Bonlnois, Lucy, *The Silk Road (tr* from French; By Dennis Chamberlain), New York 1966.

Cahen, C. "Point de vue sur la " Révolution Abbaside" *Revue Historique,* 1963, 295-335.

Donner, *F. M. The Early Islamic Conquests,* Princeton, 1981.

Hill D. R., The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests, London, 1971

Hilli, *History of the Arabs, (6th ed.)* London 1956.

Jafri , S.H. M. *Origins and Early Devlopment of Shi'a Islam,* London, 1979.

Kennedy, *H. the Prophet and the Age of the Caliphate, London,* 1986.

Lewis Anchibald, *Naval Power and Trade in the Mediterranean,* A.D. 500-1100, Prusition 1951.

Lombard Maurice, *l'Islam dans sa première grandeur (VIIIe-XIe Siecle),* paris, 1971.

- les Metaux dans l'ancien monde du Ve aux XIe Siec;e, Paris and La Haye, 1974.
- Monnai *et Histoire d'Alexandre à* Mahomet, Paris and La Haye, 1971, Pipes, D. Slave *Soldiers and Islam* New Haven, 1981.

Richards, D.X. (ed) *Islam and the trade of Asia,* Oxford, 1970.

Islamic Civilization, 950-1150 Oxford 1973 Sarwaget.

Shaban, M. A. *Islamic History; a New Interpretaion* 2, A.D. 750-1055 (A. h. 132-448), Cambridge, 1976

Simkin, *The Traditional Trade of Asia.*

Smith, V. E. *Oxfird History of India,* (ed P. Spears) Oxford, 1958.

Watson, *Agricultural. invocation in the Early Islamic World,* (the affusion of crops and farming techiques, 700-1100), Cambridge, 1983.

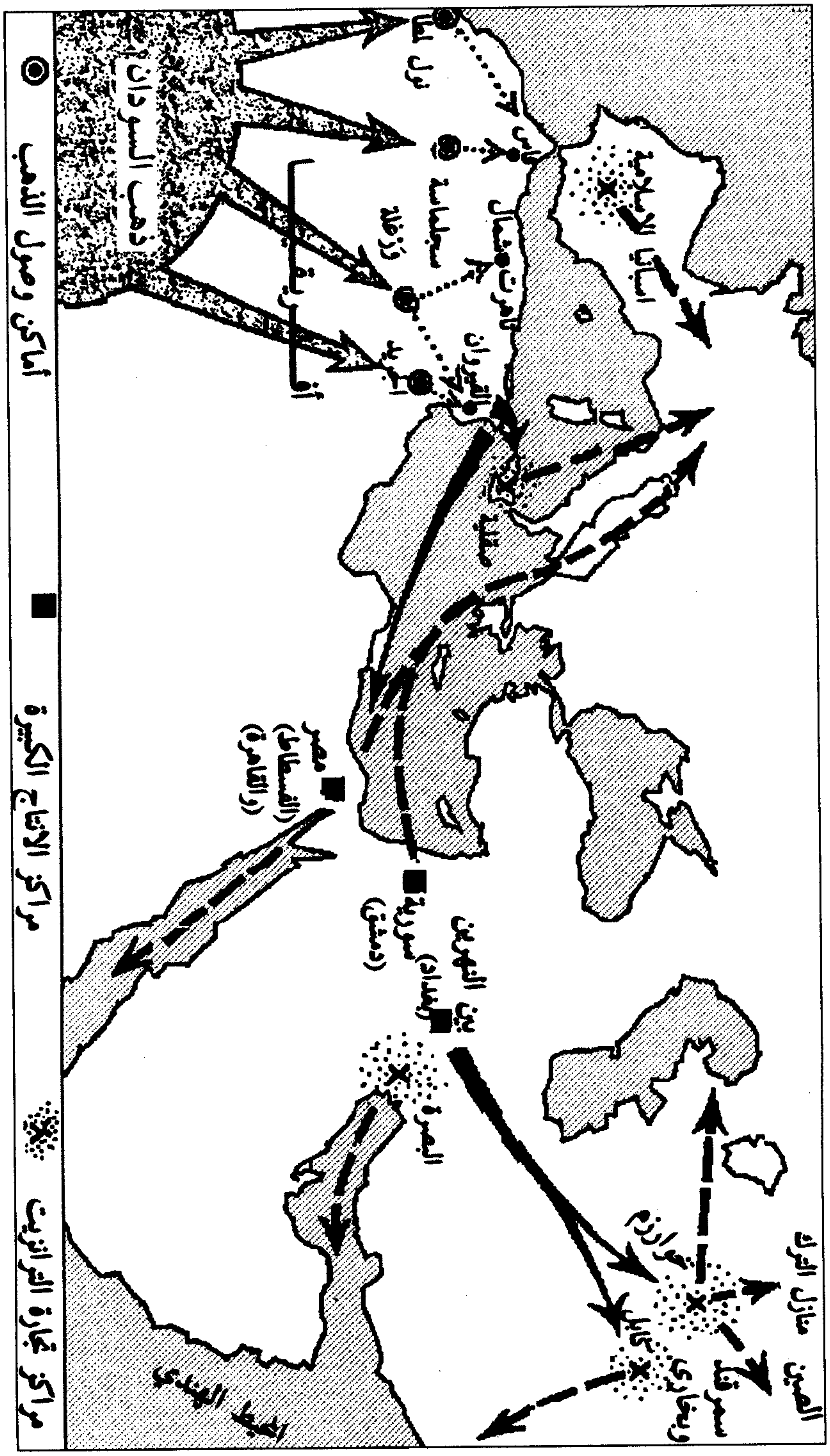

المناطق الإسلامية التي كانت تتغذى بذهب السودان

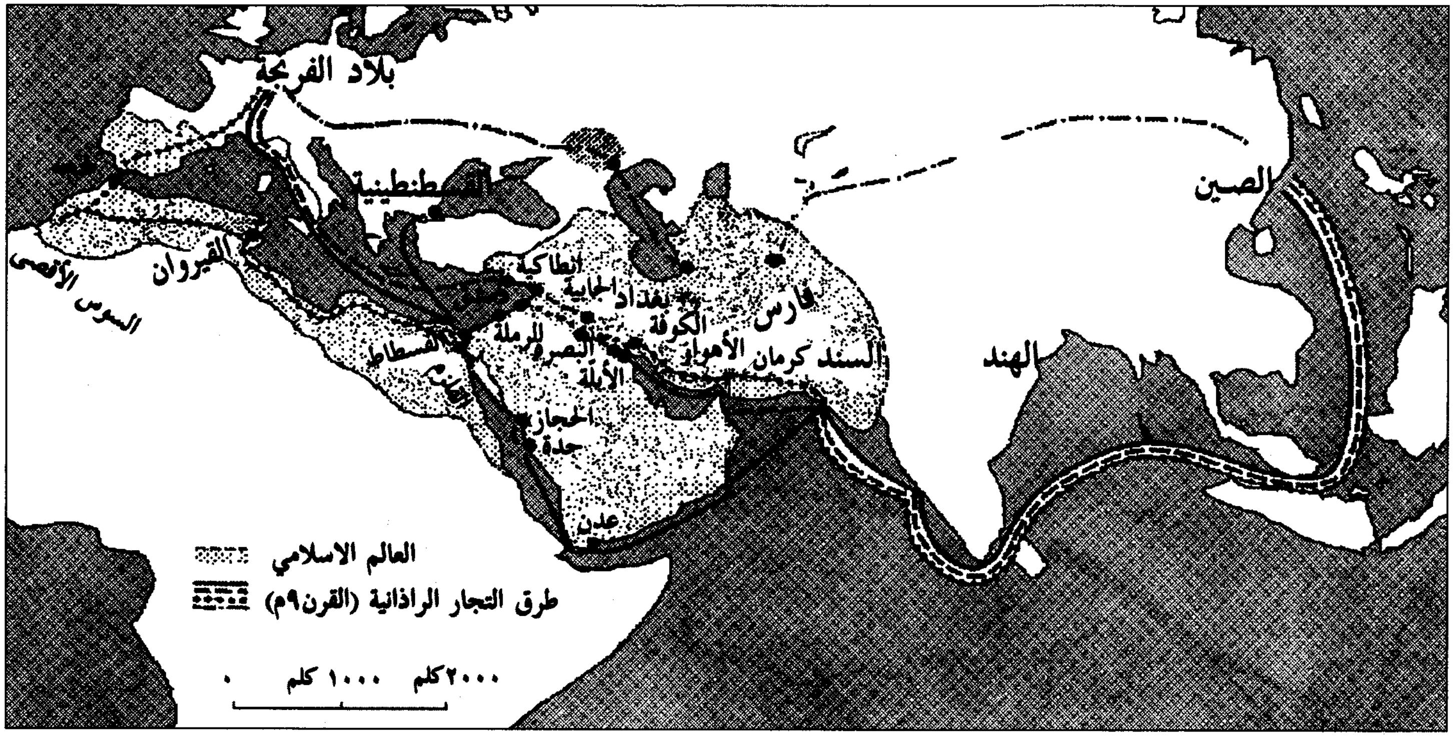

طرق التجار الراذانية
(القرن الثالث هـ ـ التاسع م)

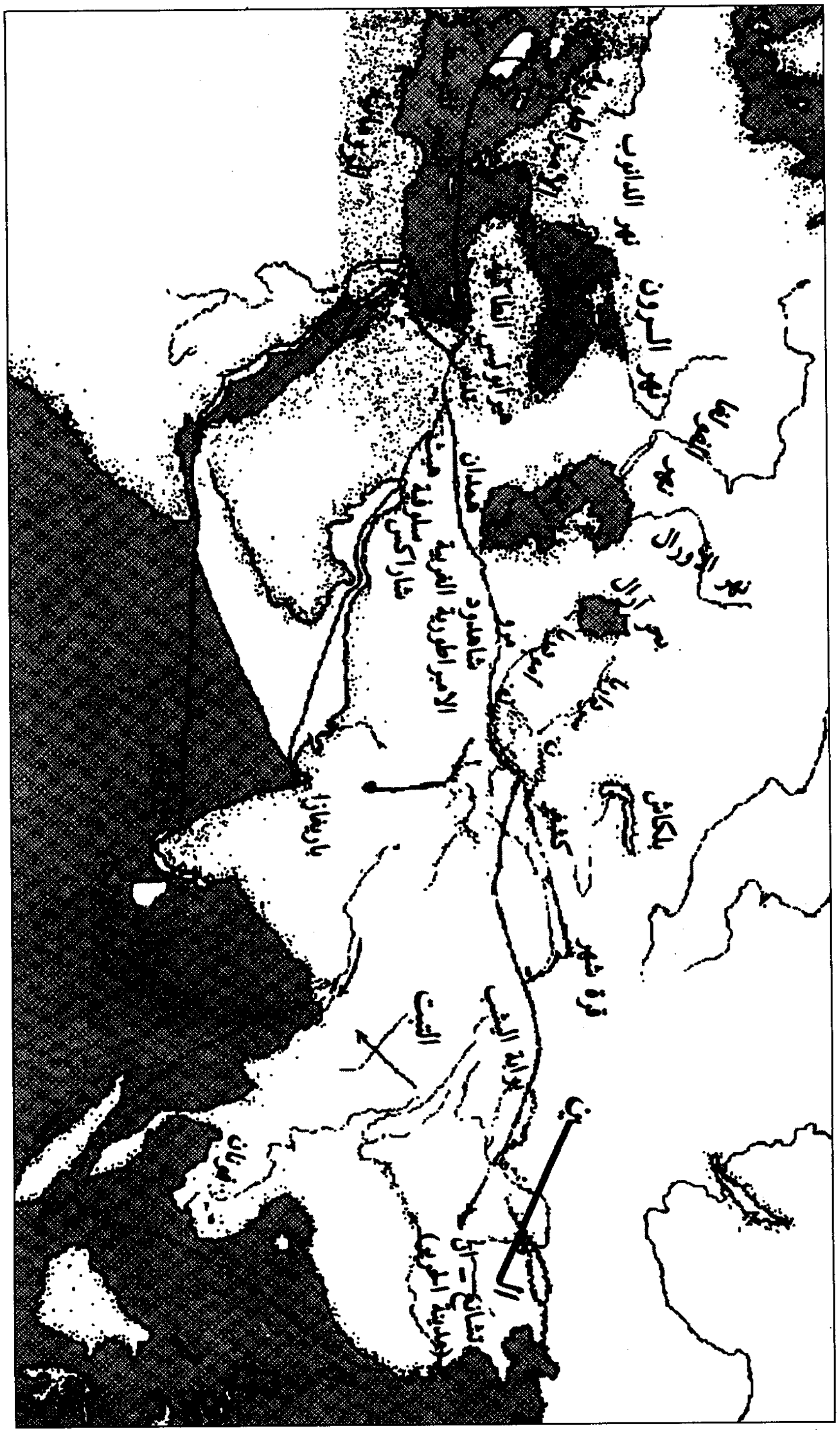

طريق الحرير (حوالي ١٥٠م)

الأهلية للنشر والتوزيع